أسود آل سعود

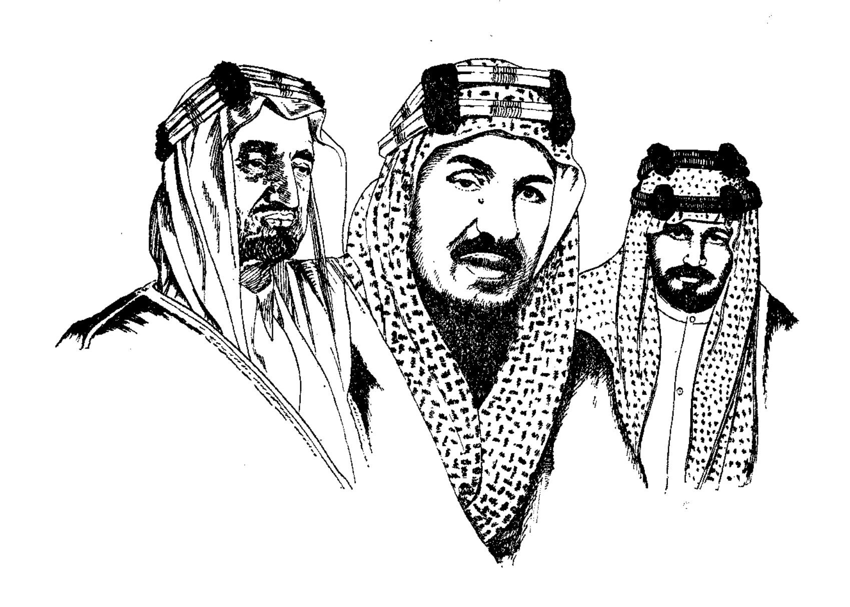
وتجربتي في الحياة

تأليف
ابراهيم عبد الرحمن آل خميس

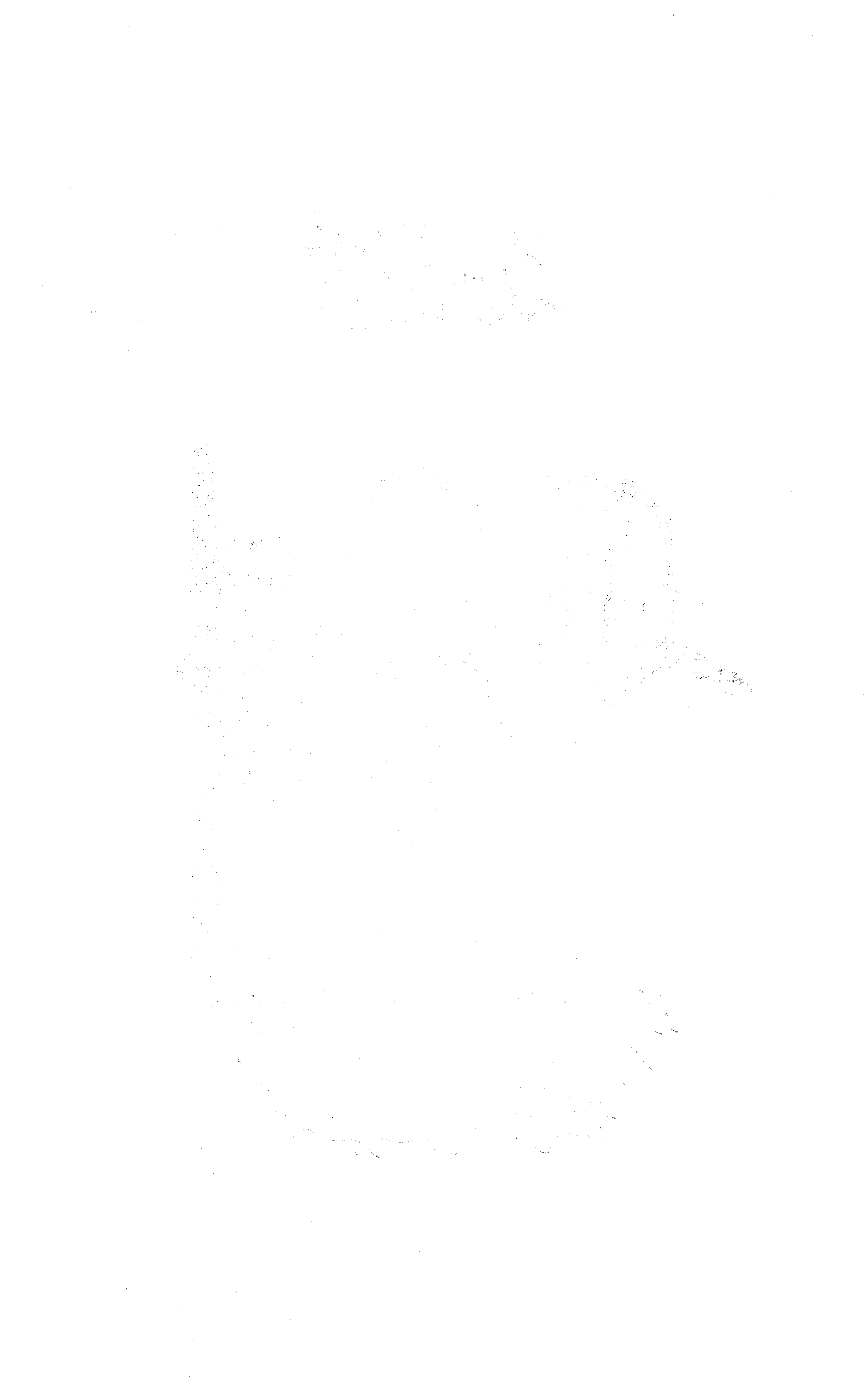
الناشر
دار النجاح
بيروت

دار النجاح - بيروت شارع سوريا - بناية صمدي وصالحه
الطابق الثالث - ٣٦ - تليفون : ٢٤٥٨١٢

أسود آل سعود



المغفور له الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود
الملك المعظم فيصل بن عبد العزيز حفظه الله
الأمير محمد بن عبد الرحمن رحمه الله



مقدمة الناشر

إنه لمن دواعي الاعتزاز أن تضيف دار النجاح ، إلى ما قدمته من كتب متنوعة الموضوعات والأسلوب ، هـــذا الكتاب الفريد في مادته وموضوعه وأهميته ..

إن الكتب التي تحدثت عن التاريخ المجيد للأسرة السعودية ، كثيرة ، وقيمة ، وكذلك الكتب التي قدم فيها مؤلفوها مذكرات عن حيـاتهم وما قاموا به من أعمال ..

ولكن الكتب التي تربط بين التاريخ والذكريات وتجارب الحيـــاة العملية ؛ نادرة .. وأندر منها تلك التي تقدم ذلك كله في اطار العلاقات الانسانية والقيم الاخلاقية . . ومن هذا النادر ، كتابنا هـــذا الذي يمكن أن يكون مرجعاً صادقاً لتاريخ سنوات حاسمة من جهاد آل سعود بقيادة الملك عبد العزيز رحمه الله . ومرجعاً كذلك لدروس عن طبائع البشر وأخلاقهم وطرق تعاملهم وتفكيرهم ..

دروس عن الايمان العميق بالله والثقة الكاملة بقدرته سبحانه وتعالى ، وعن الرجولة الحقة ، والشجاعة الفائقة ، وبعد النظر ، وسلامة التفكير ، والمروءة ، والعدل ، وحسن الجزاء ، تطالعنا في صفحات الحديث عن الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله ، وعن الملك فيصل ابن عبد العزيز ، حفظه الله ..

ودروس في التضامن والتكاتف والتعاون في سبيل بناء أمة يتمتع شعبها بالاستقرار والأمن والازدهار ، تطالعنا عند الحديث عن هذا الشعب العربي الاصيل ، بجميع أفراده ، وهذه الاسرة الكريمة بجميع أعضائها ، في المملكة العربية السعودية .

ثم دروس عن الوفاء ، والصدق ، وحسن المعاملة ، والطموح . . عند الحديث عن تجارب الكفاح الطويل الذي مارسه المؤلف في سبيل العيش الأفضل . وما أكثر ما يتعرض له كل مكافح في هذه الحياة من تجارب .. خاصة إذا مارس عمله في عدة مجالات وفي أقطار مختلفة .

إنها قصة طموح ونجاح .. والناجحون في هذه الحياة قسمان .. قسم ، لا يحب أن يعرف الناس شيئاً عن نشأته .. إنهم وقد نجحوا ، ونالوا ما نالوا من خير ، وتمتعوا بما يرجون من نعيم الحياة ، يفضلون أن لا يذكروا أيام طفولتهم وشبابهم ، وكيف وصلوا الى ما وصلوا اليه .. إنهم يعتقدون ، واهمين ، ان الحديث عن الماضي لا يتناسب مع الهالة التي تحيط بهم ..

وقسم ، يحب أن يعرف الناس عن نشأته الكثير . بل ويفتخر بالحديث عن كفاحه الشاق وهو يشق طريقه في الحياة ، وعن الآلام التي عاناها ، والعقبات التي صادفته وكيف تغلب عليها .. إنه يرى – محقاً – أن ذلك لن يقلل من قيمته بل سيزيده احتراماً وتقديراً .. وقد يرى ان حصيلة كفاحه وتجاربه في الحياة جديرة بأن تعرف ويستفيد منها الغير ، فيجمعها في كتاب .. مثل كتابنا هذا ..

إن المؤلف كما سيدرك القارىء مكافح قديم ومحارب قديم ..

وانه ليعتز بكفاحه .. كما يعتز باشتراكه في معارك الجهاد تحت راية الملك عبد العزيز رحمه الله .. وإنه ليقدّر ، تقديراً عظيماً ، معاني البطولة والفداء الحقيقي .. وينفعل للأحداث التي تمر بها الامة العربية

أيما انفعال ، وله فيها آراء ونظرات ، من وحي خبرته وتجاربه .. ويكفي في هذا المجال أن نشير إلى قصيدته « صرخة ضمير » التي أوردها في فصل خاص عن الشعر ، والتي جادت بها قريحته معبرة عن مشاعره وانفعالاتــه بعد نكبة العرب في يونيو سنة ١٩٦٧ ، والتي يوجهها إلى السادة قادة الامة العربية .. تكفي تلك القصيدة ، لندرك عظيم تتبعه ووعيه للأحداث العربية .

نود أن نوضح في هــــذا التقديم الموجز ، أننا لو وافقنا المؤلف ، وسجّلنا كل ما تفيض به ذاكرته من وقائع وأحداث ، وكل ما يجيش في صدره من مشاعر ، وكل ما يدور في نفسه من أفكار .. لو فعلنا ذلك ، لتحوّل كل فصل من فصول هذا الكتاب إلى مجلد قائم بذاته .. ولتحول هذا الكتاب إلى موسوعة كاملة وغنية ، تاريخية واجتماعيـــة وأخلاقية .. ولكنا وقد كنا بين أمرين ، إما أن ننجز قسماً في شهور ، أو ننجز الكل في سنوات .. تمكنا من إقناعه بالاكتفاء بهذا القدر في هذا الكتاب ، على أن يقدم الباقي في كتاب ثان وثالث .. وعاشر .. بإذن الله ..

وفضلاً عن عامل الوقت اللازم للإعداد والطباعة ، فقد رأى المؤلف ، أن يؤجل نشر أحاديث طويلة وشيقة عن وقائع وأحداث وتجارب .. لبعض الوقت ..

.. كتاب ، لا غنى لراغبٍ في الاطلاع على تفاصيل جديدة عن تاريخ الأسرة السعودية المجيد .. وللحريص على الاستفادة من تجارب حيـــاة الكفاح والعمل والطموح .. لا غنى لهم عن قراءته .. وإليهم جميعـــاً نقدمه . والله الموفق .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أبنائي .. وأبناء وطني ..

إلى شباب الجيل .. أمل الأمة العربية الباسم .

إلى كل من أسعدتني الظروف بمعرفتهم ، أياً كانت نتيجة أو حصيلة التعارف !

أهدي هذه الصفحات

.. صفحات مشرقة عن التاريخ المجيد لأسُود آل سعود .

.. وصفحات مليئة بتجارب حياة عملية طويلة حافلة .

ابراهيم آل خميس

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة المؤلف

قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه : « وجعلنا لكل شيء سبباً ».. بهذه الآية الكريمة أبدأ كلمتي هذه عن جهدي المتواضع الذي أضعه بين يدي القارىء في هذا الكتاب .. موضحاً سبب تفكيري في تأليفه وهدفي من اخراجه بهذه الصورة . وفي الحقيقة إنها أسباب وأهداف عديدة وليست سبباً واحداً ، اجتمعت كلها تحثني وتلح عليّ أن أكتبه وأنشره..

أول الأهداف اني كنت دائماً أرجو من الله عز وجل أن يتيح لي فرصة أردّ بها جميلاً طوّق عنقي ، وأن يوفقني إلى عمل أعبّر به عن فضل عمّي .. وتقدير عظيم أكرمتني به الأسرة السعودية الكريمة كلها بدون استثناء .

إن لجميع أعضاء هذه الأسرة الكريمة من الفضل عليّ ما أعجز عن التعبير عنه ، وقد نشأت وعشت في ظلهم ، ووصلت إلى ما وصلت اليه بعونهم وتشجيعهم .. بل وإن لهذه الاسرة من الفضل على الجميع في بلادي وخارجها ما يجعل الحديث عنها واجباً لا بد لكل منصف حيّ الضمير أن يؤديه ..

وكيف يمكن ألا نذكر بالفضل ، وبكل اجلال وتقدير واعتزاز ، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله ، محرر شبه الجزيرة العربية ، رجل التاريخ الذي جسّد كل ما في العروبة والاسلام من سجايا الشهامة والمروءة والنبل ، رجل النضال الذي صقلته تجارب الحياة الشاقة فجعلت منه نموذجاً لقوة الاحتمال وصلابة الارادة وعمق التفكير وبسالة القلب وعلو الهمة وشدة الصبر وسداد الرأي ..؟

وكيف يمكن ألا نذكر بالفضل ، وبكل اعتزاز ومحبة ، مليك البلاد ، فيصل بن عبد العزيز ، حفظه الله ، مؤسس الدولة الحديثة ، وباني النهضة الشاملة التي تعم البلاد .. كان اليد اليمنى لوالده وممثله في المهمات الدقيقة الخطيرة .. خاض معارك الجهاد والنضال من أجل تحرير البلاد وتوحيدها ، ثم خاض ويخوض حتى اليوم معارك الجهاد الأكبر ، في البناء والاصلاح والتعمير وارساء قواعد الازدهار والرخاء والاستقرار والعدالة في البلاد .. يعمل في إصرار وحزم ، لا شيء يثنيه عن تنفيذ ما يراه في صالح البلاد .. بل ما يراه في صالح العرب والمسلمين جميعاً .

وكيف يمكن ألا نذكر بالفضل والكرم ، المرحوم الأمير محمد بن عبد الرحمن، وقد كان سند أخيه الملك عبد العزيز، رحمه الله، ورفيق جهاده الطويل.

كيف يمكن ألا نذكر بالفضل ، الأسرة ، التي شكلت وتشكل حتى اليوم نموذجاً للشعب في التضامن والتكاتف والتعاون على ما فيه خير البلاد وعزها ..

.. لن أسترسل في الحديث ، فالوقائع الثابتة ، التي أوردتها في فصول هذا الكتاب تكفي .. مؤكداً أني حرصت على عدم سوق المديح والاطراء ، بل وعاهدت نفسي على ذلك .. ولكن ما حيلتي إذا كان ذكر ما يتمتع به امرىء من خصال كريمة وسجايا نبيلة هو المديح بذاته ؟!..

. . . . .

هدف ثان ، لنشر هذا الكتاب .. هو ايماني بأن الحياة مدرسة ، تمتد فيها الدراسة على مدى العمر كله .. فكل يوم من حياة الانسان منذ ادراكه لواقع الحياة وحتى انتهاء أجله في هذه الدنيا ، هو يوم من أيام الدراسة في مدرسة الحياة ..

وإنها لمدرسة تختلف الدروس فيها عن دروس معاهد العلم . دروس لا يمحوها الزمن مهما طال . قائمة على التجربة والممارسة العملية .. دروس قد لا تكلف المرء الا أن يتابع تصرفات الغير وأحوالهم ، وقد تكلفه الكثير من المال والجهد !.. دروس قد تحقق له ألواناً من الراحة والسعادة والنعيم ، وقد تصيبه بالآلام التي لا تمحو السنون آثارها من نفسه .. ولكنها ، وأياً كانت آثارها ، منقوشة في ذاكرته ، باقية على مر الأيام ، تعود إليها ذاكرته بين الحين والحين ..

.. عندما يستعرض المرء شريط تجاربه وذكرياته ، قد يكتفي من ذكرياته ببسمة هنا وعبسة هناك .. وقد يجد فيها من الوفرة والتعدد والأهمية ما يجعله يحرص على تسجيلها ونشرها ، لعلّ من يقرأها يجد فيها

فائدة تنفعه في حياته ، أو تغنيه دروسها عن التعرض لتجارب فاشلة أو مريرة ..

ولعل في ذكرياتي عن تجاربي في الحياة .. الحافلة بالعبر والعظات ، والتي قد يقصر الخيال أحياناً عن الاحاطة ببعضها لغرابتها وطرافتها .. لعل فيها ما يحقق ما أرجوه لقارئها من فائدة ..

. . . . . .

التوجيه والنصيحة للأبناء ، أمانة في عنق الآباء .. وواجب بديهي وحتمي .. ولكن الابناء ، غالباً ما يتقبلون النصيحة والتوجيه على مضض ، وكثيراً ما يرفضونها ويعتبرونها تدخلاً في شؤون حياتهم لا مبرر له ، أو أفكاراً عتيقة لم تعد تتناسب مع حيـــاتهم الحديثة .. ولكن الحياة هي الحياة ؛ في كل عصر وبالنسبة لكل جيـل ..

ولعلي أؤدي الامانة ، وأقوم بالواجب ، تجاه أبنائي ، وأبنـــاء هذا الجيل كله ، عندمـــا أقدم لهم جميعاً ، بدلاً من النصيحة والتوجيهات ، هذه المجموعة من تجارب الحياة ..

لقد أديت واجبي نحو وطني ، عندما خضت المعارك في ميادين القتال تحت راية الحق والجهاد في سبيل الله .. وأديت واجبي نحو أبنـــائي وأُسرتي بسعيي الدائب لتحقيق مستوى لائق ومستقبل أفضل لهـــم .. وأؤدي اليوم واجبي نحو كل من ساهموا ويساهمون حتى اليوم في نجاحي..

. . . . . .

قد يجد القارىء الكريم تشابكاً بـين بعض الفصول ، وعذري في ذلك ، أن الوقائع التي أوردتها ، كانت كثيراً ما تبدأ في السعودية لتنتهي في الكويت ، أو تبدأ في سوريا لتنتهي في لبنان أو العراق أو مصر ، على سبيل المثال ..

وقد يجد القارىء تفصيلاً وافياً في فصل ما ، أو لواقعة ما، ثم يجد اختصاراً شديداً في أخرى .. وتعليل ذلك ، أني أورد التفاصيل الكاملة لما أعتقد بأهميته ، حسب اجتهادي – وجلّ من لا يخطىء . وقد تختلف النظرة في ذلك .. أمـا الاختصار فله أسبابه .. فهناك من الوقائع والتجارب ما لا يمكن ذكر تفاصيله تفادياً لاحراج أو إساءة قـد يسببها النشر . وقد لا يرى قارئي فائدة ما لواقعة أو تجربة معينة ، وقد يتساءل عن أهمية تقديمها .. وعلى ذلك أجيب بأن ما يراه البعض عديم الاهمية يراه غيره بالغها .. وأضيف ، إنه قد ينطبق ذلك بالفعل ، على تجارب قليلة ، قاسيت منها كثيراً ، وأصابتني بما لا قِبل لأحد باحتماله من الآلام النفسية والخسائر المادية والمعنوية .. آلام كتمتها في صدري ، وناء كاهلي بحملهـا سنوات .. وضاق بها صدري .. فلم أجد بـداً من الخلاص من آثارها وآثار كتمانها واحتمال عبئها ، باستبدال الافكار والمشاعر الحبيسة بكلمات طليقة حرّة ..

. . . . . .

هدف ثانوي قد أكون قصدت تحقيقه ، هو اثبـات أن الاعتماد على الله عز وجلّ ثم على النفس ، كفيل بتحقيق كل ما يريد المرء تحقيقه .. لقد أردت أن أردّ جميلاً واني أردّه بالفعل لا أكتفي بالقول .. ولقـد أردت أن أروي تجاربي في الحياة ، واني لأرويهـا بصراحة وبالفعل لا بالقول ، أقدمها كا حدثت ، وانها بدون « رتوش » ولا « دبلجة » تقدّم نفسها لتعبر عن الحقيقة المجردة .. وفي أسلوب ، وصورة ، وإخراج ، قد لا يقل كثيراً ، عما يمكن أن يقدمه مَن أتيحت لهم ظروف حيـاة أفضل منحتهم فرصاً لاستكمال تعليمهم .. معتمداً على الله .. ثم عـلى جهدي .. ثم على ما تعلمته من دروس في مدرسة الحياة ..

. . . . . .

لا بد لي قبل أن أختم كلمتي هذه ، أن أتوجه بالشكر والعرفان ، إلى كل من تكرّم وساهم بجهد مشكور في هذا الكتاب ، وتجلت مساهمته في تذكيري بتفاصيل لم أكن أعرفها عن واقعة معينة أو حادث معين ، ولقد أفادني بمعلوماتهم القيمة كثـــيرون ، أخص بالذكر والشكر منهم السادة الامراء سلمان بن محمد آل سعود ، عبد العزيز بن مساعد بن جلوي ، محمد بن سعود الكبير ، فهد بن سعد بن عبد الرحمن ، فهد بن محمد بن عبد الرحمن ، عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ، عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ، خالد بن فهد بن خالد بن محمد بن عبد الرحمن .. منهم من ساعدني في استكمال تفاصيل المعارك ، ومنهم من أمدّني بالصور النادرة ، وبالوقائع الحقيقية الثابتة .. لهم جميعاً ، وللشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير المعارف ، الذي كان له فضل تشجيعي على إتمام تأليف هذا الكتاب بما أبداه من ترحيب وتقدير .. لهم جميعاً أصدق الشكر والعرفان على ما ساهموا به ..

. . . . . .

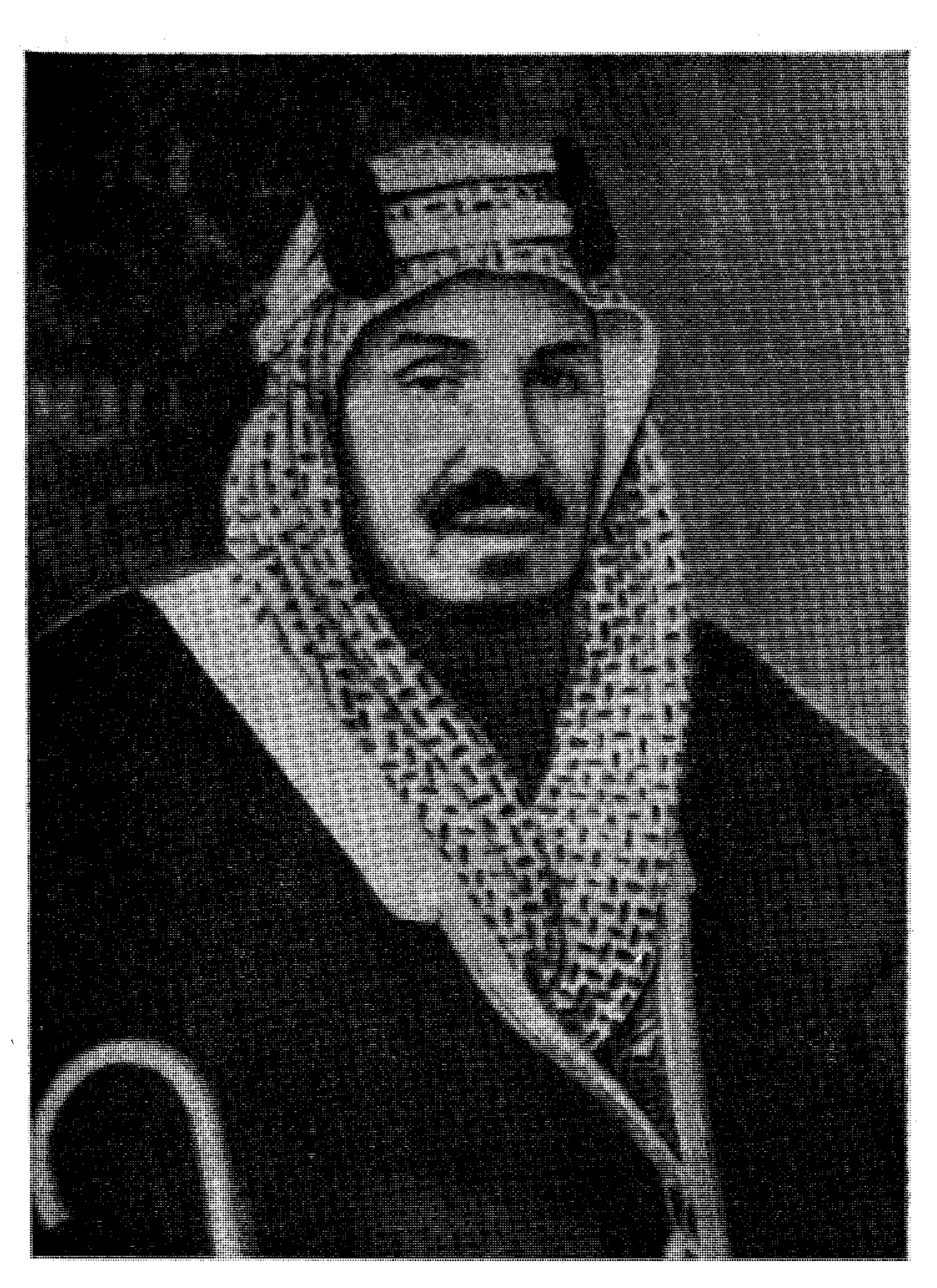
خلاصة تاريخ مجيد .. وخلاصة تجارب حياة حافلة بدأت من الصفر – أو ما دونه – واستقرت بفضل الله إلى ما تمنيته من نجاح ، أقدمها بكل تواضع .. والله الموفق .

« وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » صدق الله العظيم .

إبراهيم آل خميس

الفصل الأول

عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود



الملك الراحل
عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

خصال ومواقف

إن المرء ليعتز بالحديث عن خصال ومواقف الملك عبـــد العزيز رحمه الله ، وإن شأني في ذلك شأن كل من عاصره وعرفه .. ولقد أفاض الشعراء في مدحــه ، والكتاب في ذكر أفضاله ومآثره ، والمؤرخون في تسجيل مواقفه على أنصع صفحات التاريخ ، ولكني لا أعتقد أن أحـداً منهم قد أمكنه أن يعـبّر التعبير الوافي والشامل عمـــا يرغب في التعبير عنه ، رحمه الله ..

كان عبد العزيز عظيماً في كل شيء.. رجلاً بكل ما تعني الرجولة من معان، عربياً بكل ما تجمع العروبة من قِيَـم ، مسلماً بكل مـــا يعني الإسلام من إيمان وتعاليم سامية وشريعة سمحة كاملة ..

كانت شخصيته القوية الآسرة تفرض نفسها ، وتفرض احترامها ، بل وتفرض الاعجاب بها ، على كل من يلتقي به ..

وكان حديثه البسيط الصافي ، والقوي الحـــازم في مواقف الحزم والقوة، يوحي لكل من يتحدث إليه بالثقة الكاملة في كل كلمة .

وكانت له مهابة .. يتأثر بها كل من يقابله أو يجالسه . وإذا كان

لأحد أن يعتقد بشيء من المبالغة في حديثي ، قد تنتج عن فرط إعجابي به وبأخلاقه وشخصيته، فإن ما سأقدمه في الصفحات التالية من نبذ عن بعض مواقفه رحمه‌الله كفيل بإثبات أن ما أقوله وما قاله غيري لا يشكّل إلا قسماً بسيطاً من الحقائق المعروفة والثابتة عن هذه الشخصية الفذة .

إحدى الحقائق الثابتة المؤكدة عن الملك عبد العزيز ، أنه كان يتصف بالحكمة في كل تصرف ، وببعد النظر وحسن تقدير الأمور .. ولو شئنا أن نقدّم للقارىء تفاصيل مواقفه المختلفة كاملة ، التي تتضح فيها هذه الصفات والخصال الأصيلة ، لاحتجنا إلى عشرات الكتب ولعلها تكفي. ولكننا نكتفي بتقديم بعضها ، ليتبين منها القارىء أبعاد هذه الشخصية العظيمة ، وليرى فيها صورة مشرقة من صور العزة العربية ، والاعتزاز بالكرامة والتقاليد العربية ، وتأثير ذلك كله على علاقات العرب جميعاً، لا المملكة العربية السعودية فحسب ، بدول العالم المختلفة .

*

في أواخر الحرب العالمية الثانية ، في مطلع عام ١٩٤٥ م (١٣٦٥هـ) ، أراد كل من روزفلت رئيس أمريكا وتشرشل رئيس وزراء بريطانيا ، أن يجتمع بالملك عبد العزيز ، واتفقا أن يتم اجتماع كل منهما به على حدة ، معتقدين أن في ذلك فرصة لهم ليهيبوه بقوتهم وعظمة شخصياتهم .. وتم لهم ذلك ، واجتمع رزوفلت بالملك ، واجتمع به تشرشل في الفيوم بمصر .. ولكنهم لم يهيبوه ! ولم يتأثر بمظاهر قوتهم وشخصيتهم ! .. بل لقد صرّح كل منهما عقب الاجتماع بأن الملك قد أثر فيهم تأثيراً بالغاً بقوة

شخصيته ، وسعة تفكيره ، وذكائه وحسن تقديره للأمور ، وعميق فهمه للأحداث العالمية ومجريات السياسة الدولية ..

.. لقد أدرك روزفلت رئيس أميركا أهمية إقامة علاقات وثيقة مع هذه الشخصية الفذة المؤثرة ، وتأكد من مقدرة الملك عبد العزيز الديبلوماسية الحاسمة بكل معانيها ، ومن بعد نظره وصدق تقديراته للأمور فرغب في مقابلته ، والتعرف إليه ، وأبرق إليه من يالطه ، بعد المؤتمر التاريخي مع تشرشل وستالين ؛ ووافق عبد العزيز على الاجتماع ..

أرسلوا له مدمرة خاصة إلى جدة ، لتكون تحت تصرفه في هذه الرحلة . وتمت المقابلة في ١٤ فبراير (شباط) ١٩٤٥ ، على ظهر الطراد (كوينسي) ، وأحيط الملك بكل مظاهر الاحترام والتقدير والاجلال ، وفي خلال المقابلة قال روزفلت الملك . ما معناه .. « أطلب ما تشاء يا جلالة الملك وما عليّ إلا أن ألبي » ..

وأجابه عبد العزيز ، بالجواب الذي أصبح معروفاً لدى الجميع : « ليس لي سوى مطلب واحد ، وهو أن تتركوا فلسطين للفلسطينيين ، عرباً ويهوداً ، يعيشون على أرضها بسلام آمنين .. وإنكم إذا لم تتركوهم وشأنهم ، فلن يدفع أحد غيركم الثمن غالياً طال الزمن أم قَصُر .. »

.. ونسأل القارىء : ألم يحدث نتيجة تدخل أمريكا في فلسطين ، ما حذّر منه الملك عبد العزيز منذ عشرات السنين ..؟

★

.. ولقد عاد عبد العزيز إلى تأكيد موقفه ذاك فيما بعد، وكرّر قوله هذا لجميع وفود الدول العربية في قصره في الرياض ، قبل إعلان الحرب على اليهود الصهاينة عندما قرروا إقامة دولتهم الصهيونية على أرض فلسطين العربية عام ١٩٤٨ . لقد قال للجميع ومراراً ما معناه « اتركوا الفلسطينيين وشأنهم ، يدافعون عن أرضهم وحدهم ، ونساعدهم نحن بالمال والسلاح والمتطوعين والتأييد السياسي والمعنوي المطلق في المجالات الدولية ، والنصر بيد الله .. » ..

كان ذلك هو رأيه الثابت يصر عليه ويؤكده .. وكان للآخرين آراء واجتهادات أخرى ، بوجوب تدخل الجيوش العربية النظامية لقتال اليهود. ولسنا هنا في مجال المقارنة بين رأيه واجتهادات الآخرين، ولكننا نكتفي بأن نطلب من القارىء أن يستعرض في خاطره ، تطورات قضية فلسطين منذ أن تدخلت الجيوش العربية النظامية عام ١٩٤٨، وما آلت إليه الأمور اليوم ـ ونترك له أن يحكم بنفسه وأن يقرر ، مدى التفكير السليم وبعد النظر ، وحسن تقدير العواقب ، من قِبَل الملك عبد العزيز رحمه الله ..



عندما قامت الحرب العالمية الثانية، وأعلنت الأردن ، وبعض الدول العربية ، وبعض إمارات الخليج العربي الحرب على ألمانيا ، حضر المستر « ديغوري » المعتمد البريطاني في الكويت آنذاك إلى الرياض لمقابلة الملك عبد العزيز ..

وكان الملك عبد العزيز يعرف أن قدومه ، يتعلق بمحاولة إقناعه باعلان الحرب على ألمانيا . وكان للملك رأي آخر في الأمر ، يخالف تماماً رأي البريطانيين .

وأمر الملك باستضافة المستر ديغوري في « قصر البديعة » بالرياض .. ومضت أيام ، ثم أسابيع ، والمستر ديغوري وبصحبته « عبد الله فيلبي » يترددان على مجلس الملك يومياً ، دون أن يتيح لهم الملك فرصة مناسبة للبدء في الحديث عما قدما من أجله .

وفي آخر الأمر ، وفي إحدى الجلسات ، فاجأهما الملك بقوله موجهاً حديثه إلى المعتمد البريطاني في الكويت « يا ديجوري !. إن العرب عادة يتركون الضيف ثلاثة أيام ثم يسالونه بعدها عن حاجته .. ولقد مضت أيام وأسابيع وأنت في ضيافتنا ، ولم أسالك عن حاجتك ، لأنني أعرف ماذا تقصد وماذا تقصد حكومتك ، وأنا أقول لك رأيي في مسالة إعلان الحرب على ألمانيا ، قبل أن تسالني ، وهو الرفض التام . لأننا ، من جهة ، ليس لدينا من السلاح ما أعلن به الحرب على ألمانيا وأنتم تعرفون ما عندنا ، كم بندقية وكم طلقة رصاص ، فقد استوردناها منكم . ومن جهة ثانية ، إننا أصدقاء الجميع . أنتم أصدقاء لنا ، والألمان أصدقاء لنا ، وكذلك الأمريكان والفرنسيون والروس والايطاليون.. كلكم أصدقاؤنا وما عليكم إلا أن تتقاتلوا أنتم مع بعضكم ، والذي يصفي الآخر وينتصر ويبقى ، سيظل صديقاً لنا .. إذن ، فلا مجال لبحثك معي أكثر من ذلك » ..

ولقد فوجىء ديغوري بهذا الموقف الحاسم في كلمات محددة واضحة صريحة ، لم تترك له مجالاً لأي حديث آخر. وانصرف عائداً إلى الكويت.

★

موقف آخر تتضح فيه خصال العروبة الحقّة ، والقِيَم الاسلامية الشريفة الأصيلة ، وقد كان لي شرف معاصرته .

.. عندما شفي فيصل الدويش من جراحه التي أصيب بها في معركة السبلة التي سنتحدث عنها بالتفصيل في مكان آخر من هذا الكتاب ، أعاد الكرّة مرة أخرى ، وعاد يتمرد ويشجع التمرد على آل سعود ويسعى لمحاربتهم ، بتشجيع ودعم من خارج البلاد ، بل وظل هذا دأبه حتى بعد أن قتل ابنه عُزيِّز الدويش في معركة « أم ارضمة » المشهورة ، وكانت قوات عبد العزيز فيها ، بقيادة عبد العزيز بن مساعد بن جلوي أمير حائل آنذاك ..

ولم يجد الملك عبد العزيز بداً من أن يجهز جيوشه، وجميع رجال آل سعود ، وفي مقدمتهم أخيه الأمير محمد بن عبد الرحمن ، استعداداً لمعركة فاصلة مع هذا المتمرد الذي يصرّ على إثارة الشغب وسفك الدماء. واستعد الملك للغزوة الكبيرة المشهورة بـ « غزوة الدبدبة » .. وكان ابن عشوان شيخ قبيلة مطير موالياً للدويش آنذاك . وتقدمت القوات بالسيارات بقيادة الأمير محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ، الذي تمكن من دحر ابن عشوان وقبيلته وسحق مقاومتهم في مدة قصيرة ، وقبل وصول بقية

القوات من الخيالة والمشاة.. مما اضطر الدويش وأعوانه إلى الهرب خارج حدود البلاد .. إلى العراق ..

بعد ذلك خيّم الملك بقواته في « الدبدبة » قرب الكويت ، مطالباً بتسليم الدويش وأعوانه ، حتى يضع حداً لهذه الاضطرابات المتكررة التي تتم بتشجيع من الخارج .

وكانت وساطة المستر دكسن الوكيل البريطاني في الكويت آنذاك ، الذي كان يجيد اللغة العربية ، في الأمر ، وظل دكسون يتنقل بطائرته بين الدبدبة والبصرة ، ناقلاً الآراء المختلفة للطرفين، ولم يكن لعبد العزيز سوى رأي واحـد ثابت ، هو وجوب تسليمهم للدويش وأعوانه .

وأدرك الملك ببعد نظره ، أن دكسن يهدف إلى تمييع الموقف ، بعد أن لمس مماطلته يوماً بعد يوم .. وقرر أن يحسم الأمر .. وعندما قـدم دكسن في إحدى غدواته ، قال له الملك بلهجة حاسمة : « يا دكسن . إن الأيام تمر ونحن بالانتظار ، ولقد مللنا كثرة الأخذ والرد ، فما عليكم الآن إلا أن تثبتوا لنا أحد أمرين ، إما أنكم أصدقاءفنقابلكم بواجب الصداقة . وإما أن تكونوا أعداء لنا،فنتخذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن أنفسنا . والآن ، أمامكم مهلة ٢٤ ساعة ، فإما أن تسلموا الدويش وأعوانه خلالها دون قيد أو شرط ، وإلا ستكون جميع اتفاقياتنا مع الحكومة البريطانية لاغية . وثقتنا بالله وبأنفسنا كفيلة بانتزاع الدويش ورفاقه بأيدينـا من حكومة العراق، و« ما يطيح من السماء لا يتلقاه إلا الأرض » ..

وأسرع دكسن يعود إلى البصرة بهذا الانذار الحاسم يبلغه لحكومته . وفي اليوم الثاني .. مباشرة ، عاد دكسن إلى الدبدبة مصطحباً معـه

الدويش وأعوانه .. ويقابل الملك ليبلغه أن الحكومة البريطانية وافقت على التسليم ، مع رجاء واحد ، هو أن يعد الملك بعدم إعدامهم !..

ويجيبه الملك العربي في هدوء: «ليس من شيمتي أن أعدم مستسلماً..»

وتم تسليم الدويش وأعوانـه .. ونقلتهم سيارة إلى الرياض حيث أودعوا سجن (المصمك) .

وانتهت سلسلة الاضطرابات الـتي كان يثيرها الدويش وأعوانه في الخارج والداخل .. وإن ينصركم الله فلا غالب لكم .



عندما انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة ألمانيا ومصرع هتلر ، تمكن رشيد علي الكيلاني ، بعد فشل ثورته على البريطانيين في العراق ، تمكن من الوصول إلى المملكة العربية السعودية عن طريق « قريات الملح » وكان أميرها عبد العزيز السديري ..

كان مع الكيلاني ، سوريان ، همـا جميل الجابي ، وآخر ، والكيلاني متنكر ، ويتحدث بلهجة تقارب لهجة أهالي دير الزور ، موطن رفيقيه الآخرين . وكان الجميع ينتحلون شخصية تجار ، قادمين إلى المملكة . وأبرق السديري إلى الملك عبد العزيز مستأذناً في السماح لهم بالدخـــول كتجار ، فأذن لهم ، ودخـلوا البـلاد ، وكان وصولهم إلى الرياض في يوم كان فيه عبدالعزيز على وشك السفر إلى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج. واستقبلهم الملك في مجلسه ، وبعد أن سلموا عليه وتناولوا القهوة ، دار حديث حول التجارة ، ثم استأذن الجـابي من الملك . قائلاً : « الآن

انتهت مهمتنا ، وبقي الأمر بينك وبين هـذا الرجل » .. وانصرف هو ورفيقه السوري، تاركين عبد العزيز والكيلاني وحدهما .

قال الكيلاني .. هل عرفتني يا عبد العزيز ؟.. وأجابـــهُ الملك .. « يقولون أنك تاجر من تجار سوريا ، وأهلاً بك ».

قال الكيلاني .. « يا عبد العزيز ، أنا رشيد عالي الكيلاني ، ورقبتي دخيلة رقبتك » ..

وأجابه عبد العزيز بكلمته المعروفة: « حسبي‌الله وحسبك يا رشيد » ثم أضاف : «إذاً ، لتبقَ التاجر السوري، ولاتفلت كلمة واحـــدة منك خلاف ذلك..»

واستدعى الملك ابنه الامير سعود، وأوصاه أن ينزلهم‌في‌قصر الرياض ثم أن يقوم بتعريف تجار الرياض عليهم كتجار سوريين ..

وحذره من أن يتسرب الخبر باي شكل من الأشكال ..

وأبرق الملك إلى ابنه الأمير فيصل (نائبه في مكةالمكرمة آنذاك) ، بأن يحضر وبصحبته السفير البريطاني ، للقائه في « عفيف ».. وهي‌محطة في‌منتصف الطريق بين مكة المكرمة والرياض .

وعندما اجتمعوا في « عفيف » ، قال الملك عبـــد العزيز للسفير البريطاني : « بصفتك ممثل الحكومة البريطانية عندنا ، وقـد رضينا بك أن تكون وسيط خير في شؤوننا وشؤونكم ، أقول لك الآن أن رشيد عالي الكيلاني في الرياض، في ضيافتي وحماي، وعليك أن‌تتصل بحكومتك

باللاسلكي ، وتطلب منهـا ألا تسلك مسلكاً لا يجب سلوكه .. وفيك البركة » .

وقام السفير بالاتصال بحكومته . لإبلاغها النبأ ، وبعد فترة وجيزة ، عاد بالجواب : إن الحكومة البريطانية تحذّر من التدخل في أمر الكيلاني وأنها تطلب تسليمه في الحال كمجرم حرب ، وبدون قيد أو شرط ، ولا تقبل بغير ذلك !..

وانتفض الملك غضباً . وتملكته ثورة جارفة لهـذا الموقف من البريطانيين، وتناول سيفه من جواره، وصاح وهو يلوّح به أمام السفير : « الكيلاني في بيتي ، وبين أسرتي ، وكلّ من يطلب الكيلاني يكون كمن يطالب برأسي .. وأنا دون رأسي ورأس الكيلاني هذا السيف .. ارجع من حيث أتيت » .

وانهارت أعصاب السفير البريطاني أمام هذا الموقف البالغ الصلابة.. فأخذه الأمير فيصل إلى صيوانه الخاص ملاطفاً ومهدئـاً ، ومبسّـطاً له الأمر ، وواعداً بحل المشكلة بنفسه .. ثم طلب الفيصل من السفير أن يخابر حكومته وأن يقول لها : إن الكيلاني شخص واحـد بمفرده ، لا حول له ولا قوة ، ولا أنصار ولا مال ولا رجال .. وأن المملكة مستعدة لأن تسلم الحكومة العراقية خمسة أشخاص ، ذوي مال ورجال ومراكز مرموقة ، كبديل عن الكيلاني ، بل وأن المملكة مستعدة لقبول كل ما تحكم به الحكومة العراقية، بل وإن لكم الخيار التام في كل ما تتصرفون به حيال هؤلاء الخمسة ..

وتساءل السفير : ومن هم هؤلاء الرجال ؟ وأجابه الفيصل: اختاروا أنتم أربعة من إخوتي وأكون أنا الخامس .

وبينما السفير في ذهول لموقف الفيصل بعد موقف عبد العزيز،أضاف فيصل : أما غير ذلك ، فوالله لن يسلّم الكيلاني وفي الأسرة السعودية امرأة واحدة بقيت على قيد الحياة ..!

وأسرع السفير يتصل بحكومته ، مبلغاً هذا الموقف المذهل ، ورأيه في الموقف .. وبعد ساعات ، كانت إذاعة لندن تذيع على الملأ : ان رشيد عالي الكيلاني ، لا تعتبره الحكومة البريطانية مجرم حرب ، وأن الأمر يتعلق بالحكومة العراقية التي حكمت إحدى محاكمها عليه،وأن بريطانيا لا دخل لها بالأمر . وقد قامت الحكومة العراقية بالمطالبة بتسليم رشيد عالي الكيلاني ولكن مطالبتها فشلت كما فشلت مطالبة الحكومة البريطانية .

وانتهى الأمر . وعاش الكيلاني معززاً مكرماً،بين الأسرةالسعودية، كواحد منهم .... ولا يفلّ الحديد إلا الحديد .



.. كان عبد العزيز رحمه الله ، يستطيع بفكره الثاقب أن ينفذ الى سرائر الرجال ، حتى يقرأ أفكارهم ، ويتابع ما يجول بخواطرهم وإن أجادوا ستره بتصرفات أو أقوال ظاهرة تخالف ما يعتمل في نفوسهم ..

ولم يكن رحمه الله ليجامل أحداً في الحق ، بل كان يجابه الرجل مهما

علا مركزه ، أو ارتفع منصبه ، بالحقيقة السافرة وبرأيه الصريح فيه وفي تصرفاته وأقواله دون تردد أو مسايرة .

.. كان رحمه الله ذات يوم ، وكعادته كل عـــام ، مخيّماً للقنص في « روضة التّـنهات » شمالي شرقي الرياض .. ووفد إلى المملكة عن طريق الكويت ، أحـد رجالات العرب البارزين آنذاك .. ووصل إلى المخيم لمقابلة الملك .

واستقبله عبد العزيز أحسن استقبال ، مرحباً مكرّماً ، كعادته مع كل الوافدين إليه .

وبدأ الرجل حديثه .. وبعد أن استمع إليه الملك فـــترة قصيرة ، قاطعه بعدها قائلاً في هدوء وحزم :

« يا أخي ، اترك هـذا القول .. والله اني لأعرفك وأعرف حقيقة مقاصدك كلها ، وماذا تريد مما تقوله مداورة .. ووالله لولا أنك طلبت مقابلتي باسم العرب والعروبة ، وبشأن قضية تخص العرب وتهمهم جميعاً ، لما استقبلتك . أما الآن وقد استقبلتك ، فاسمع ما أقوله لك : والله انك خاسر في طريقك . وانك لن تموت الا أبشع ميتة وبثياب امرأة » .

وأنهى الملك عبد العزيز الاجتماع على الفور . وغادر الرجل المملكة معززاً مكرّماً عائداً الى بلاده .

ودارت الأيـام .. ومضت سنوات وسنوات .. وتحققت كلمـات الملك .. ومات الرجل أبشع ميتة ، مقتولاً وهو يهرب من مطارديه وقد تخفّـى بثياب امرأة ! ..

*

جمع شمل العرب

كان الملك عبد العزيز رحمه الله ، حريصاً كل الحرص على كل ما من شانه جمع شمل العرب ، شديد الاهتمام بكل ما يؤدي إلى توحيد كلمتهم .

ولم يكن في حرصه أو اهتمامه بذلك ، بساع وراء سيطرة على هـذا القطر أو ذاك ، أو براغب في زعامة للأمة العربية ، بـــل كان موقفه مستمداً من إيمان عميق بأن لا كيان للعرب إلا إذا اتفقت كلمتهم وآراؤهم ، ذلك الايمان المبني على ما ذكرناه من صفاته ، بُعد النظر ، وحُسن تقدير الأمور .

كان مؤمناً بأن في توحيد صفوف العرب قوة لهم كأمة عربية ، بل وقوة لكل دولة عربية بذاتها . وأن في تفرّق الأمة العربية ضعفاً لها كلها وضعفاً لكل قطر من أقطارها حتى ولو كان قوياً بذاته .. فقوة كل قطر لا تكتمل إلا بالقوة العربية الموحّـدة المجتمعة المساندة في كل المجالات ..

من فرط اهتمامه بجمع الشمل ، كان رحمه الله دائم العمل على الاطلاع أولاً بأول على آراء وأفكار واتجاهات جميع الأشقاء العرب ، مهما تعددت وفي مختلف الظروف والأحوال .. فأسس مـا يسمى بالشعبة السياسية ، في الديوان الملكي ، حيث أوجد فيها مجموعة من المستشارين الأكفاء مـن

رجال الفكر والسياسة من مختلف الأقطار العربية .

كان هؤلاء المستشارون برئاسة أخيه الأمير عبدالله بن عبد الرحمن، وكانت الشعبة تضم فيمن تضم ، السادة عبـــد الله الدملوجي ، وموفق الألوسي – من العراق . وحافظ وهبه – من مصر . ويوسف ياسين – من سوريا . ورشدي ملحس – مـن فلسطين . وفؤادحمزة – من لبنان . وخالد أبو الوليد القرقني – من ليبيا . وبشير السعداوي – من ليبيا . وآخرين .

وكانت مهمة هؤلاء المستشارين تحضير الأبحاث والدراسات حول كل ما يهم الملك معرفته عن كل قطر عربي ، وتقديمها إليـه . وكانت اللجنة تشكل أسرة واحدة ، يعمل أعضاؤها جميعاً بالمناقشة والتحليل للوصول إلى رأي واحد تجاه أي مشكلة قد تتعرض لهـا أي دولة عربية ، لتقديمه إلى الملك ، الذي كان كثيراً ما يفاجىء أعضاء اللجنة برأي يكاد أن يكون الحل المطلوب للمشكلة.. يطابق رأيهم الذي وصلوا إليه بعـــد أبحاثهم ودراساتهم الطويلة ، وذلك من سعة اطلاعه ومتابعته المستمرة للاحداث والاتجاهات .

ولا بد أن نوضح هنا ، أن هؤلاء المستشارين الأكفاء ، لم يكن منهم لاجئون سياسيون ، بل كانوا جميعاً يتمتعون بكل احترام وتقدير لدى حكومات بلادهم ، التي كثيراً ما كانت تتعاون معهـــم وتبادلهم الرأي والمشورة . لقـد كان للاجئين السياسيين الذين دفعتهم ظروف معينة في بلادهم ، أو اضطهاد السلطات الأجنبيـــة المستعمرة لبلادهم ، دفعتهم إلى اللجوء للملكة .. كان لهم وضعهم الخاص كضيوف الملك عبد العزيز،

يرعاهم كما لو كانوا من أقرب أعضاء الأسرة السعودية . ولقد استضافت المملكة كثيراً منهم مدداً مختلفة ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين السابق ، والرئيس شكري القوتلي ، وسعد الله الجابري رحمهما الله ، والسيد رشيد عالي الكيلاني ، (وقد ذكرنا تفاصيل قدومه إلى المملكة في مكان آخر) ، والسيد فوزي القاوقجي ، والرئيس الحبيب بو رقيبة رئيس الجمهورية التونسية ، عندما كانت المعركة مستعرة وهو يناضل الفرنسيين المستعمرين لبلاده .

. . . . . .

نعود إلى حديثنا عن اهتمام عبد العزيز رحمه الله بجمع الشمل ، فبالاضافة إلى هذه اللجنة ـ كان حريصاً على الصلات الأخوية الوطيدة والدائمة مع آل صباح وآل خليفة وآل ثاني ، حكام الكويت والبحرين وقطر ، وغيرهم من شيوخ إمارات الخليج العربي ، الذين كانوا جميعاً ، وما يزالون ، يشكلون مع الأسرة السعودية ، عائلة واحدة تتعاون وتتضامن لما فيه خير المجموع ..

الثقة بالله

من الشواهد البارزة على قوة إيمان عبد العزيز رحمه الله ، ما سمعته يتردد على ألسن الجميع – ومنهم من عاصر ما حدث ، وهو يدل أوضح دلالة على عظيم إيمانه وثقته بالله .

حدث ذلك عندما كان الصراع على أشدّه حول مقاطعة القصيم ، فيما بين عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من جهة وبين سعود بن رشيد من جهة أخرى .

وكانت المسافة بين قوات الفريقين المتصارعين تقارب المئة كيلومتر. وإذا بعبد العزيز بن عبد الرحمن رغبة منه في تسلية قواته وإخوانه ، وقضاء للوقت فيما يفيد من التدريب المثمر .. ينصب ميداناً للرماية يتدرب فيه من يريد التدريب ويتبارى فيه من يجيدون الرماية .

ووضع عبد العزيز هدفاً للمباراة ، وتصادف أن أطلق كل من عبد العزيز وشقيقه سعد بن عبد الرحمن الذي كان قريباً منه رصاصة على الهدف في آن واحد .

وأصابت الرصاصتان الهدف في مكان واحد منه ، حتى تعذر معرفة الاصابة وهل نتجت من رصاصتين أو رصاصة واحدة، مما جعل كلاً منهما



الأمير سعد بن عبد الرحمن

يعتقد أنه هو الذي أصاب الهدف وأن طلقة أخيه قد طاشت .

وارتفع صوت سعد مهللاً أنه هو الذي أصاب الهدف ، وأجابه عبد العزيز بصوت مرتفع بعزوته المشهورة.. « أنا أخو نورة، أنا الذي أصبته يا سعد » .

وكان المعروف عن سعد إلى جانب شجاعته أنه عاطفي سريع الرضا سريع الغضب.. ويرد سعد غاضباً على عبد العزيز «وأنا لست أخو جارية أنا أخو نورة بعد يا عبد العزيز » .

وتملك الغضب سعداً.. وسارع بالانصراف نحو رفاقه..ليعتلي جواده المسمى الجنيدية رافضاً أن يرافقه أي من رفاقه مصمماً وهو في سورة الغضب أن ينطلق نحو معسكر الأعداء.. وبلغ الخبر عبد العزيز وأدرك ما يعنيه تصرّف أخيه وهو في أوج غضبه وما سيترتب عليه من مخاطر.. فأسرع يعتلي جواده لينطلق وبصحبته بعض الخيالة ممن يعتمد عليهم ، لينطلقوا جميعاً في أثر جواد سعد .

بعد فترة من المسير أوقف عبد العزيز جواده وترجل وسلّم مقود فرسه إلى أحد الرجال المرافقين .. وابتعد عن مرافقيه كمن يريد قضاء حاجة في الخلاء .

وفوجىء مرافقوه به يضرب الأرض بيديه معفّراً لهما بالتراب ثم قائماً يصلي رافعاً يديه إلى السماء داعياً الله بما يدعوه به آناء الليل وأطراف النهار ، مبتهلاً إليه سبحانه وتعالى أن لا يمكّن سعد من الاقتراب من معسكر الأعداء .. وكان مما قاله وهو يناجي ربه (كما سمعته من شهود الواقعة) :

« يا الله . إن أخي سعد على الجنيدية متوجه إلى حيث تعلم ، وما من قوة تعيده يا الله إلا قوّتك يا ربي وربه . »

واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء عبده المؤمن بـه الواثق مـن قدرته ، عبدالعزيز . وإذا بهم يرون سعد عـن بُعد ، وقد عثر جواده ، إذ انكسر قدمه الأمامي بعد وقوعه على مأوى ضب في رمال الصحراء . وسعد يدور حائراً حول جواده،والغضب والانفعال ما زالا باديين عليه. بل وقد ازداد غضباً لعجزه عـــن مواصلة السير ، ولكسر ساق جواده الغالي الذي كان يعتز به .

وهنا ظهرت للجميع حكمة عبـد العزيز .. وثقتـه بالله ثم بنفسه واخوته وأسرته .. عندما أمر مرافقيه أن يبقوا في أماكنهم معلناً أنـه سيذهب إلى مكان أخيه وحده ..

وعندما أبدى مرافقوه خوفهم عليه ، مـن ذهابه منفرداً ، وأخوه غاضب ، وثائر ، ومسلح ، رد عليهم بعبارته النجدية الصحيحة : « إنه أخي الذي حملت به أمي من ظهر أبي ، ووالله لن يصيبني بسوء ..وإذا كان خلاف ذلك لا قدّر الله ، فلا خير في حياتي أو حياته » .

وصمم عبد العزيز على التوجه إلى سعد بمفرده .. متجرداً من جميع سلاحه .. وانطلق نحو أخيه ، رافعاً طرف ثوبه على وجهه دليلاً على أنه ما جاء إلا للسلام والخير .. إلى أن وصل عنـد سعد .. وكان مـا توقعه عبد العزبز من شقيقه ..

ألقى سعد بسلاحه إلى الأرض وأسرع يحتضن أخاه عبد العزيز بين ذراعيه وهو يجهش بالبكاء ..

والمرافقون ينظرون عن بُعد والدمع يكاد يطفر من عيونهم متأثرين بهذا المشهد الانساني الأخوي الرائع الذي يدل على عمق الشعور بالاخوة، وصفاء الدم الواحد الذي يجري في عروق شقيقين لا يمكن أن يرفع أحدهما سلاحاً في وجه الآخر.

وعاد الأخوان إلى المرافقين، تاركين (الجنيدية) تتخبط في دمها، واعتليا سوياً ظهر جواد عبد العزيز، وعادوا إلى المعسكر. وبقي سعد مرافقاً لأخيه معيناً له ونصيراً، مجاهداً تحت رايته إلى أن قتل رحمه الله في معركة (كنزان) التي سنتحدث عنها في فصل لاحق..

الوفاء

من شيمة العربي الأصيل، الوفاء وحفظ الجميل وردّه بما هو أجمل.. ومن أحق بالتمسك بشيم العرب الأصلاء من عبد العزيز ؟..

إني لأذكر موقفاً هنا لعبد العزيز ، يغني عن كل شرح أو تعليق ..

ففي عام ١٩٣٩ م ، قام في الكويت تمرد داخلي على آل صباح ، كان مدعوماً من حكومة العراق الواقعة آنذاك تحت السيطرة البريطانية ، بهدف أن تتمكن حكومة العراق بدعمها للمتمردين من ضم الكويت إلى العراق وفقاً لمخططات المستعمرين .

كان ملك العراق آنذاك ـ الملك غازي ، فصرّح في بيان أذيع من إذاعة بغداد بما معناه « إن الكويت من العراق ، والعراق من الكويت». وكان في هذا البيان تشجيع للمتمردين واضح وصريح .. في دعوتهم إلى الاستمرار في التمرد بعونٍ مؤكد من خارج الحدود .

وأدرك الملك عبد العزيز أبعاد الخطة، ومدى خطورة هذه العبارات المقصودة في بيان الملك غازي .. وكان لا بد أن يتصرف كعادته بسرعة وحزم ..

اتصل عبد العزيز فوراً ، بلندن مباشرة .. اتصل محذراً « بأنه إذا لم يعد غازي ، ويعلن من إذاعة بغداد ، هذه الليلة ، أن الكويت ليست من العراق ، وأن العراق ليس من الكويت ، فستكون قواتنا صباح الغد في الكويت ، وإننا نحمل لندن المسؤولية الكاملة لكل النتائج » ..

وكانت بريطانيا تعرف الملك عبد العزيز جيداً .. تعرف أنه عندما يتحدث فإنما يعني ما يقول ، وأنه عندما يحذر فإنما لينفذ ما اعتزم دون تردد أو تأخير . ومن جهة أخرى ، فقد فهمت بريطانيا معنى اتصال عبد العزيز بلندن مباشرة ، فأدركت أن لعبتها مكشوفة ، وأن تسترها وراء حكومة العراق في تنفيذ مخططها لم يعد بمستور .. وكان لا بد أن تستجيب ..

وفي نفس الليلة ، ومن اذاعة بغداد ، أسرع الملك غازي يذيع بياناً جديداً كما طلب عبدالعزيز، يؤكد فيه « أن الكويت ليست من العراق»!

وفي نفس الوقت اتصل عبد العزيز بالشيخ أحمد آل جابر الصباح ، قائلاً في تأكيد : « من الخارج لا تخف .. وانا وراءك .. أما من داخل الكويت فإذا لم يكن في استطاعتكم القضاء على الفتنة في مهدها ، فانا أعلم أن الاكثرية من سكان الكويت من أهل نجد ، وأهل نجد أبناؤنا ، نحن وأنتم مسؤولون أمام الله ثم أمامهم عن ارشادهم لما هو صالح لهم في حاضرهم ومستقبلهم » ..

وأجابه الشيخ احمد برسالة ، لعلها من أبدع وأروع الرسائل التي عرفها تاريخ العرب ، جاء فيها « شكراً لك يا أخي عبد العزيز ، لقد

أثبتّ لنا ولجيلنا وللاجيال من بعدنا أن زرع الجميـل كزرع القمح ، إذا بذر في أرض خصبة تنتج الحبة مائة حبة ، وطالما لم يكن هناك شيء من الخارج لا نستطيـع مقاومته فنحن وأنتم وأهل نجـد ، سواء منهم من في نجد ومن في الكويت ، أسرة واحـــدة يسند بعضها البعض ، ولا خوف علينا من الداخل باذن الله » .

واستطاع الشيخ أحمد إخماد الفتنة ، ولقد أظهر الشيخ فهـــد السالم رحمه الله ضروباً من الشجاعة تثير الاعجاب، وأظهر العديد من رجالات الكويت من الحكمة وبعد النظر والتقدير السليم لمصلحة بلدهم مـا حقق للبلاد السلامة والاستقرار .

. . . . . .

وبهذه المناسبة، نذكر أن تلك المحاولة التي قامت بها بريطانيا متسترة بحكومة العراق ، لم تكن الوحيدة.. فقد تكررت حكايـــة محاولة ضم الكويت مرة أخرى ، على يـــد عبد الكريم قاسم ، باعلانه المعروف أن الكويت جزء لا يتجزأ من العراق ـ مع اختلاف الظروف والملابسات بين المحاولتين، ففيعهد غازي كانالبريطانيون مسيطرين سيطرة شبه تامة على المنطقة ، وفي عهـد قاسم كان الكويت بلداً مستقلاً ذا سيادة كاملة ، معترفاً به في الأممالمتحدة وكافة المنظمات الدولة، وعضواً في جامعة الدول العربية ، والأمة العربية باكملها تؤيد استقلاله وسيادته . فكانت وقفة العرب ـ كل العرب ـ وفي مقدمتهم المملكة العربيةالسعودية التيناصرت الكويت قولاً وفعلاً ، وكان لهذه الوقفة أثرها في الحـد من أطماع قاسم

وفشل مخططاته ، التي لم يكن أحد غير الله يعلم أبعادها وأهدافها الحقيقية ونتائجها غير المنظورة .

. . . . . .

لقد أشار الشيخ أحمد الجابر في رسالته إلى الملك عبد العزيز التي أشرنا إليها من قبل إلى « الجميل » .. يقصد موقف الكويت من عبد العزيز والأسرة السعودية في بداية النضال من أجل تحرير البلاد من سيطرة آل الرشيد ، وذلك الدعم القوي والتأييد الشامل اللذين قدمتهما الكويت ، وبالذات قبيل وخلال المعركة التاريخية الشهيرة « سطوة الرياض ـ ذبحة عجلان » ـ التي سنتحدث عنها تفصيلاً في فصل لاحق عن معارك الجهاد والبطولة التي خاضها عبد العزيز ـ هذه المعركة التي قال فيها الشاعر محمد العوني قصيدته المعروفة « بالخلوج »، قالها ليثير بمضمونها حمية ابناء نجد المقيمين في بلاد الشام آنذاك ، خاصة أبناء منطقة القصيم المسمين « عقيل ».. لنصرة عبد العزيز على ابن رشيد ، وبالفعل ، تم له ما أراد ، وعاد أبناء نجـد واشتركوا في المعارك الفاصلة في منطقة القصيم.. ويكفي أن نذكر خاتمتها ليدرك القارىء أهمية دعم آل الصباح لنضال عبد العزيز في بدايته ، قال الشاعر :

ما طول أبو جابر على العزّ والبقاء
عنّا ثقيلات الحمول ارتكى لها

★

الخلق الكريم

كان الملك عبد العزيز رحمه الله، يحرص دائماً على حسن معاملة أعدائه وخصومه ، خاصة بعد أن يمنّ الله عليه بالنصر عليهم ، وكان دائماً ما يأسرهم بكرمه ويكتسب مودتهم وثقتهم حتى لقد أصبح معظمهم أنصار مخلصين بعد طول العداء والقتال .. وما أكثر الأمثلة على ذلك .. ولكني أكتفي بذكر ما فعله رحمه الله مع أسرة آل الرشيد ، عندما انتصر على قادتهم وبدّد شمل جموعهم واستولى على عاصمتهم حائل . فقد خيّرهم بين البقاء فيها أو انتقالهم إلى عاصمته الرياض ، فطلبوا جميعهم أن تكون إقامتهم بالرياض ، فهيأ لهم وسائل النقل ، وعيّن لهم مساكن خاصة لكل عائلة منهم في الحي الجنوبي الشرقي من الرياض المسمى (الحلة) .. ثم خصص لهم مخصصات شهرية من مواد تموينية ونقود ، في الوقت الذي لم يكن لأي من أسرة آل سعود ومن ينتسب إليهم مخصصات شهرية ثابتة..

ومضت الأيام والسنين ، وأسرة الرشيد تعيش في الرياض معزّزة مكرّمة .

وظلت هكذا وصار رجالها من الأعوان المخلصين للملك .. وللاسرة السعودية حتى يومنا هذا .. ويكفي أن نذكر هنا أن معظم رجالهم كانوا

من أعوان الملك فيصل في معركة اليمن الشهيرة التي سنتحدث عنها تفصيلاً في فصل آخر من هذا الكتاب ..

ولعل في النادرة التالية ما يؤكد ما ذكرناه ..

تصادف خسوف القمر في منتصف إحدى الليالي ، وإذا بجيران عبد الرحمن بن مطرف ـ (حامل بيرق الملك عبدالعزيز في المعارك المتتالية مع آل الرشيد، وكان هو الذي تعرف على عبد العزيز بن رشيد في المعركة الحاسمة التي قتل فيها ابن رشيد ، فصاح عندما تعرّف عليه ودلّ عليه المقاتلين فحاصروه وقتلوه).. إذا بجيرانه يقولون له عندما خسف القمر: « الصلاة الحاضرة يا عبد الرحمن، القمر مكسوف ».. وكان عبد الرحمن هذا سريع النكتة حاضر البديهة ..

فقال لهم : « إن كان من جهتي ، فإن شاء الله ما يطلع إلى يوم القيامة. يصلّون له أهل الحلة .. (يقصد آل الرشيد) .. هم الذين ينتظرون طلوعه ، وليقبضون عليه .. أما أنا ، فاعرف طريقي إلى المسجد ، ويكفيني هذا الفانوس العبداني » .

وضحك الجيران ..

وتناقل الناس هذه الطرفة ، حتى وصلت إلى عبد العزيز رحمه الله.. فما كان منه إلا أن بدأ بتخصيص راتب شهري لعبد الرحمن ولأسرته ، ثم للاسرة السعودية والمستحقين .

قوة الفراسة

هبة من الله يمنحها لمن يشاء من عباده ، هي قوة الفراسة ، التي يتمتع بها قلائل الرجال .. الذين يكادون يقرأون أفكار المتحدث إليهم قبل أن يعبّر عنها بالحديث المسموع . وإذا رافق قوة الفراسة هــــذه ، الذكاء ، وسعة الاطلاع ، كوّنت كلها مجتمعة موهبة فذة ، يشتهر بها القلائل الذين يتصفون بها ، ومن هــــؤلاء القلائل كان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ..

لقد كان من الصعب ، بل وأكاد أقول من المستحيل ، أن يستطيع كائن من كان ، أن يحدّث عبد العزيز ، بحديث يختلف معناه عما يخفيه في نفسه وفي قلبه ، فلقد كان يعرف الحديث الصادق من غيره ، وكان يفاجىء المتحدث بمعرفته لما لم يبح به وأضمره في نفسه ..

إنني في هذا الحديث عن الرجل الكبير ، الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله ، لا أتحدث عن طبيعته ونفسيته ، فقد سبقني الكثيرون من المحللين والمؤرخين ، الذين كتبوا عنها في سياق حديثهم عن تاريخ حياته الحافلة .. كل ما أستطيع أن أقوله في إيجاز هو ما لمسته بنفسي من تشابه عظيم بين سيرتين صافيتين نقيتين ، لعبد العزيز بن عبد الرحمن ، وأخيه

محمد بن عبد الرحمن ، ولا سيا في حرصهما البالغ على مرضاة الله في كل أعمالهما ، وحرصهما البالغ أيضاً على المساواة بـــين أفراد الأسرة الكريمة وغيرهم . وصفات وطباع محمد بن عبد الرحمن ساعود للحديث عنها في الفصل القادم تفصيلاً .. ومع هـذا التوافق الكبير بين صفات الأخوين الكريمين ، كانت هناك ميزة ، لعبد العزيز ، انفرد بها ، هي هذه الموهبة التي يهبها الله من يشاء من عباده ، والتي ذكرتها في مطلع هذا الحديث .. قوة الفراسة .. مع الذكاء الفطري ..

. . . . . .

دعيتُ ذات يوم إلى غـداء عند الصديقين سليمان وحمد الذكير في بيتهم العامر في « عشار البصرة » بالعراق .. وجمعتني المادبة باحد زعماء اخواننا الشيعة ، السيد عبـــد المحسن أبو طبيخ ، وكان عضواً بمجلس الأعيان في العراق حينئذ . وكان لقاؤنا صدفة ، وكم مـن صدفة خير من ميعاد .

تعرفت إلى الرجل ، وتعرّف إلي، وتجاذبنا وسليمان الذكير أطراف الحديث ، وفهمت أنه يعتزم زيارة المدينة المنورة ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأداء العمرة ، وطلب مني أن أساعده في تسهيل سفره، واستئجار سيارتين ، لوري وأخرى صغيرة،لنقله ومرافقيه إلى الكويت ثم إلى الرياض ، ثم إلى مكة المكرمة ، وبعدها إلى المدينـة المنورة ، ثم للعودة بهم ثانياً إلى الكويت ..

ورحبت بطلبه ، ووافقت عـــلى تأجير سيارتيّ له ، بمبلغ ألف

وخمسمائة دينار عراقي ، مراعياً في تقدير ذلك المبلغ شخصيته البارزة ..
وكنت أعلم أن شخصيته معروفة في المملكة ، وللملك عبد العزيز ، وأن
تأشيرة الدخول مؤمّنة بطبيعة الحال ، خاصة أنه حتى ذلك الوقت كان
معروفاً أنه يقصد المملكة لقضاء العمرة ولا شيء غير ذلك ..

ولقد علمنا أن حكومة العراق آنئذ كانت تمانع في سفره إلى المدينة
المنورة عن طريق الرياض ، وتطلب منه أن يؤجـل سفره إلى شهور
الشتاء أو الربيع ـ بحجة الحرص على صحته، التي ستتأثر بهـذا السفر
الشاق الطويل في شهور الصيف الشديدة القيظ .. وأن جوابه لهم كان :
ان الأجر على قدر المشقة .. مصمماً على السفر .

وبدأنا المسير ، وكان سفرنا من الكويت بعد صلاة العصر ، ودخلنا
الحدود السعودية قبل المغرب ، وعنـد المغرب توقفنا للراحة وتناول
العشاء .

لقد كان مرافقو عبد المحسن خمسة أشخاص ، كانوا يحملون السلاح .
ولفت نظري ، أنهم وهم يجمعون الحطب والاعشاب لاشعال النار لطبخ
العشاء ، احتفظوا بسلاحهم معلقاً بأكتافهم ، حتى خاطبهم عبد المحسن
بقوله : «اتركوا السلاح بالسيارات، إننا الآن في المملكة العربية السعودية..
إننا الآن في أمان » .

وكان لا بد أن أدرك أن للرجل ظروفاً معينـة ، وأن أفهم أن له
هدفاً أو أهدافاً لا يودّ أن يطلعني عليها .. ومن الطبيعي ان رفقة الطريق
تتيح للانسان أن يعرف الكثير عمن يرافقه لا سيما عن طبائعه ونفسيته .

ولقد قيل على سبيل المثال : كم بتّ مع صاحبك .. قال : يوماً وليلة . فقيل : إذن فلقد عرفت ما في نفسه ..

مساء اليوم الثاني وصلنا إلى الرياض . وإذا بالملك عبد العزيز قد أمر قبل وصولنا بتهيئة مسكن خاص في دار الضيافة للسيد عبد المحسن .

وفي الصباح توجهت للسلام على عبد العزيز ، وكان ذلك قبل أن يستقبل عبد المحسن . وسألني الملك عن حقيقة شخصية الرجل ، وحدثته برأيي تفصيلاً ..

ثم استقبله الملك.. فوجده شخصية تستحق الاعجاب والتقدير – كما علمت فيما بعد – وبعد حديث الترحيب والمجاملات المتبادلة ، سأل الملك ضيفه :

« هل لك من حاجة يا عبد المحسن ؟ » .

وأجاب عبد المحسن : « لغيري لا .. ولي نعم » .

وقبل ان يتحدث عبد المحسن عن حاجته ، واصل عبد العزيز الحديث .. وكان الأمر الذي أدهش عبد المحسن إلى حد كبير ، أن الملك كان خلال حديثه ، يذكر كل مـا كان هو – عبد المحسن – يعتزم التحدث بشأنه معه.. كان الملك يتطرق بحديثه إلى موضوع معين فيقول: إن الموضوع الفلاني ، يمنعنا عنه كذا .. والموضوع الآخر (ويذكره) يمكن أن نتصرف به بكذا .. الـخ .. وعبد المحسن صامت يستمع في دهشة . وانتهى الملك من حديثه ليقول : « لقد أكثرت عليك الحديث يا عبد المحسن ، وقاطعتك ، ولم أترك لك المجال لكي تتكلم ، فتفضل

بالحديث » .. داعياً له أن يذكر حاجته أو طلباته.. وأجاب عبدالمحسن: كل ما أريد أن أسألك عنه أجبتني عليه..وليس لديّ شيء بعد أسألك عنه.

كان عبد المحسن قبل لقائه هذا بعبد العزيز ، يسمع عنه وعن صفاته وذكائه وقوة فراسته ، ولكنه حتى تلك اللحظة لم يكن يتصور عظم هذه الموهبة عند عبد العزيز . لقد قام برحلته الطويلة الشاقة تلك ، وفي ذلك الطقس اللاهب ، وبحجة العمرة ، ليقابل عبد العزيز .. وكانت حصيلة مقابلته ما أراد ، وأن يقول :

« آمنت بالله ثم بنبيه محمد عليه الصلاة والسلام .. لا خوف على الاسلام والمسلمين طالما عبد العزيز بن عبد الرحمن على قيد الحياة، وعسى الله أن يجعل في أبنائه من يحذو حذوه » .

. . . . . .

كلمة حق . ودعاء استجاب الله عز وجل له.. فهذا هو الملك فيصل ، يحذو حذو والده الملك عبد العزيز .. ولا خوف بإذن الله على الاسلام والمسلمين ..

النضوج المبكر

تحدثنا في الصفحات السابقة عن بعض صفات وخصال عبد العزيز ، ومن بينها الذكاء وبعد النظر وسعة الأفق وإعمال الفكر بعمق قبل الاقدام .. وكلها صفات وخصال أصيلة في عبد العزيز ، عرفها الناس عنه في مراحل حياته رحمه الله ، وعرفها الكثيرون ممن عايشوه صغيراً ويافعاً قبل غيرهم بسنوات ، وقبل أن يبدأ مسيرة الجهاد الطويلة في سبيل تحرير بلاده وتوحيدها .. وفي هذه السطور ما يغني عن كل شرح ..

عندما كان عبد العزيز واخوته ، مع والدهم الامام عبد الرحمن آل سعود رحمه الله ، لاجئين في الكويت، كانوا جميعاً يعيشون كما ينبغي أن يعيش دعاة الحق ، في طهر وتقوى وتمسك متين بتعاليم الاسلام الصحيح .. وقد عُرف عن عبد العزيز ، بالذات ، بعدة التام عن كل ما يغضب الله .. هكذا كان منذ صغره ، وهكذا ظل طوال حياته ..

لذلك كان غريباً . بل وغريباً جداً ، ما لاحظته إحدى خادمات البيت ، وكانت الخادمة المسؤولة عن الباب الخلفي ، إذ كانت تتولى اغلاقه ليلاً وتحتفظ بالمفتاح قريباً من رأسها عندما تنام ، حتى تفتحه في الصباح .. لقد لاحظت أن عبد العزيز ، يتناول المفتاح في هدوء ويفتح الباب ويخرج ، ليعود قرب الصباح ويعيد المفتاح إلى مكانه .. !

وعندما تكرر ذلك لعدة ليالٍ ، رأت الخادمة التي تملكها العجب ، أن تبلغ والده الامام عبد الرحمن بالأمر ، وبالشكوك التي تساورهـــا ! وكان عجب الوالد الامام أشد وأعظم ..

ولم يشأ الوالد أن يسال عبد العزيز قبل أن يعرف حقيقـة الأمر . فكلف الأمير ناصر بن سعود ، والأمير عبد الله بن جلوي ، بالمراقبـة ، وبتتبع عبد العزيز ليعرفوا إلى أين يذهب كل ليلة ..

وخرج عبد العزيز كعادته في هدوء .. وتتبعه الأميران عن بعد .. ابتعد عبد العزيز عن المنزل ، واستمر يبتعد عن العمران حتى خرج إلى الصحراء ثم اتجه إلى تلة مرتفعة وارتقاها .. وجلس .. ووقف الأميران عن بعد يراقبان .. وظل عبد العزيز جالساً يفكر ، وهما ينتظران .. ومرّت ساعات الليل واقترب الصباح ، فنهض عبد العزيز وعاد ، وعادا بعده إلى المنزل دون أن يشعر ، وقد اعتقدا ـ بعد أن لم يشاهدا أحداً يحضر للقاء عبد العزيز ـ أن هناك اختلافاً ما في الموعـــد !.. فقررا الاستمرار في المراقبة .

وفي الليلة التالية تكرر ما حدث بالأمس .. ولمـــا اقترب الصباح وموعد عودة عبد العزيز ، تساءلا فيما بينهما : لماذا لا نذهب إليه في مكانه لنعرف ماذا يفعل ؟.. إننا لم نشاهد أحـداً يذهب للقائـه ، ولكن من المحتمل أن يكون من يقابله قـد سبقه إلى مكانـه ينتظره ، ولذلك لم نشاهده ؟!..

وصعدا المرتفع ، ووصلا إلى حيث يجلس ، فوجداه وحده غارقاً في التفكير ، فسلموا وردّ عليهم السلام في دهشة من حضورهم لا تقـل عن

دهشتهم إذ وجدوه بمفرده مستغرقاً في التفكير شاخصاً ببصره إلى الأفق البعيد .!.. سألوه ، ماذا يفعل في هذا المكان ، وفي مثل هذا الوقت ؟..

وأجاب. في هدوء . وفي ثقة. وبصوت عميق ينم عما يعتمل في نفسه من مشاعر : « إنني أرسم خطة » .. وتساءلا في دهشة : وما هي الخطة ؟ قال عبد العزيز ، اليافع الحديث السن .. :

« سأخرج من الكويت بإذن الله ، وسأحتل الرياض وأطارد الرشيد والأتراك وأبعدهم عن منطقة نجد كلها ، كما فعل جدّي تركي .. ولقد رسمت الخطة .. » وانطلق يشرح لهما خطته . ولكنهما استبعدا إمكان تنفيذها وتحقيقها ..

وعادوا .. إلى المنزل ، وأبلغا والده الإمام بما حدث ، مع ابداء دهشتهم وعجبهم من تفكير وتخطيط عبد العزيز .. ولقد ازدادت دهشتهم عندما قال لهم الإمام رحمه الله « لا تعجبوا .. إن الله على كل شيء قدير » ..

ومرّت الأيام ، ثم السنين ، والخطة تختمر في ذهن عبد العزيز ، والتصميم على تنفيذها يشتد ، حتى لم يعد ليستطيع الانتظار ، فبدأ بإذن الله مسيرة الجهاد.. واضعاً خطته موضع التنفيذ ، وانتصر ، بفضل الله، واحتل الرياض ، في معركة خاطفة ، عرفت بذبحة عجلان ، سنتحدث عنها تفصيلاً في فصل خاص عن معارك الجهاد ..

الفصل الثاني

فيصل بن عبد العزيز آل سعود



الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود

مواقف وخصال

ليس حديثي في هـذه الصفحات عن فيصل بن عبد العزيز ، حفظه الله ، شرحاً لسيرته ، وما أنقاها .. أو سرداً لتاريخه ، وما أنصعه .. أو مديحاً ، وما أحقه بالمديح .. فلستُ مؤرخاً .. كما أني لست بارعاً في تدبيج عبارات المديح ..

إنما هو حديث من القلب ..

حديث الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة .

حديث عن مزايا كريمة ، وصفات نبيلة ، وخصال حميدة ، لستُ أنا وحدي الذي انفرد بمعرفتها أو السماع عنها .. بل إنها الحقائق التي يعرفها الجميع .. يعرفونها جيداً،حتى أن الحديث عنها قليل . شأنها شان الحقائق البديهية الثابتة يعتادها الناس ويألفونها حتى لا يتحدث عنها أحد .

الخصال الحميدة،قد يكتسبها المرء بالتعوّد وإلزام النفس بالتمسك بها .. وقد تكون طبعاً أصيلاً من طبائعه وهبة من الله عز وجل ، والفارق بين الطبع والتطبع يعرفه الجميع .. وخصال فيصل أصيلة . إنها طباع حباه الله بها ، واعتاد الناس عليها .. حتى إنك لو عددتها أو رويتها بدون ذكر اسمه ، لعرف السامع أنك إنما تتحدث عن فيصل بن عبد العزيز ..

ومع ذلك فإنه من أصعب الأمور أن يحاول كاتب ما أن يقدّم للقارىء حديثاً عن فيصل ، يشمل كل ما يود الكاتب أن يقوله ، وكل ما يود القارىء أن يقرأه ـ وهذا ما أشعر به ـ وهل تكفي آلاف الصفحات لحديثنا لو شئنا تقديم تفاصيل المواقف والخصال .. ومن أين نبدأ ؟..

إننا ، شأننا في ذلك شأن الكثيرين ، لا نجد أمام هذه الحيرة ، إلا أن نقدم نبذاً مختصرة ، بل شديدة الاختصار ، نرجو أن تعبّر عما نودّ أن نعبر عنه . إنها كلمات قليلة مخلصة ، ما هي إلا تحية من القلب ..

*

تواضع وزهد

لا أدري لماذا شعرتُ بأن البدء بالحديث عن فيصل يجب أن يكون بالحديث عن تواضعه وزهده ..

هل لأنهما من أكرم الصفات التي يجب أن يتصف بها كل كبير وعظيم، وإنهما لواضحتان كل الوضوح لدى فيصل في كل مراحل حياته حفظه الله ..

تواضع شديد في الملبس والمآكل .. بل وفي الحديث ..

وزهد في مظاهر السلطة والعظمة والأبهة ، يصل إلى حد النفور من كل تميز للنفس عن الغير.. اللهم إلاّ في الحالات الاستثنائية التي تقتضيها الرسميات والبرتوكول .

ومراعاة مشاعر الآخرين واحترام آرائهم ولو كانت مخالفة لرأيه ..

إنها دون ريب .. النتيجة المنطقية للثقة الكاملة بالله ثم بالنفس ..

*

.. تريد أن تقابل فيصل ؟. فلتقابله .. ولتتحدث إليه بما تريد .. فبابه مفتوح للجميع .. لا تعقيدات ولا عقبات ولا قيود ولا شروط ..

وستستقبلك ابتسامة هادئة ، وكلمات ترحيب صادقة ، تشعرك بالاطمئنان والثقة في تحقيق ما قدمت من أجله ما كان إلى ذلك من سبيل..

وكما في المكتب .. في الطريق .. لا حائل أو حاجز يحول بين الناس وبينه ..

في المساجد ، وهذه أود لو أكررها عشرات المرات ، لا مقصورة خاصة لفيصل ، ولا مكاناً خاصاً يحجز خالياً حتى حضوره .. بل إنه ليجلس في أول مكان خال يجده بين صفوف المصلين ..

مسكن لا يمتاز عن غيره ، بل تمتاز بيوت الكثيرين عنه بالضخامة والأبهة وفاخر الأثاث .. ولكنه يقيناً يتميز عن غيره في شيء واحد ، هو مائدة الطعام التي يترأسها ظهيرة وعشية .. لا لعظمتها ولا لندرة أدواتها وغرابة أثاثها أو فخامته .. بل إنها لمائدة عادية ، إلا أنها تتسع لأكثر من مائة .. يشاركونه الغداء أو العشاء .. أكثر من مائة ، لا تستطيع أن تميز بينهم الضيف الغريب أو الأمير أو الوزير أو طالب الحاجة أو الخوي أو الكاتب الصغير .. إنها مائدة الجميع ، لا حاجب يسأل أو يحجز أو يمنع ، فالمائدة العامرة لكل من حضر وقتها .. وما من أحد يعتبر نفسه ضيفاً ، وكيف يعتبر نفسه ضيفاً وهو على مائدة فيصل وفي بيته ؟..

سيارة عادية لا فرق بينها وبين سيارات الغير . لا رقم خاص ولا

لون مميز ولا أعلام ترفرف .. ولمـــاذا اللوحة الخاصة واللون الخاص أو العلم ؟ إنه فيصل .. وكفى ..

. . . . . .

على ذكر السيارات تحضرني في هذا المجال واقعتان، أذكرهما،وأترك التعليق عليهما للقارىء ! الأولى كانت عندما نصّب ولياً للعهد بعد وفاة والده الملك عبد العزيز رحمه الله . وكان فيصل في زيارة لإحدى الأُسر الكريمة . فقال له بعض الحضور على سبيل المداعبة:سيارتك هذه يا فيصل لم تعد لائقة لك ، وقد أصبحت ولياً للعهد ..

وأجابهم فيصل: « بسيطة..إذا كان ولي عهدكم فيصل بن عبدالعزيز ، فأنا فيصل بن عبد العزيز. أما إذا كنتم تريدون لولاية العهد سيارة فخمة ضخمة ، فما عليكم إلا أن تشتركوا جميعاً في قيمتها وتشتروها وتضعوها في إحدى كراجاتكم ، وأن تحافظوا عليها من الغبار ! » .

. . . . . .

والثانية كانت عندما أتى إليه أحـــد أبناء إخوته ، متهللاً فرحاً ، قائلاً لفيصل : يا عمي أنا اشتريت سيارة كونتننتال .. وما أجملها ..

وسأله الفيصل : وكم القيمة ؟؟

وذكر الأمير اليافع ثمنها ، وكان كبيراً .. فتطلع إليـه فيصل قائلاً في هدوء :

ـ وكم في هذا الأوتيل من غرف ؟!

قال الأمير : يا عمي أنا اشتريت سيارة لا أوتيل ..

قال له فيصل : حقاً ؟ لقـد اعتقدت أنك اشتريت أوتيل ، عندما قلت لي كونتننتال ، وذكرت لي هذه القيمة !.

وفهم الأمير ماذا يقصد عمه . وانصرف ليضع السيارة العظيمة التي اشتراها في الكاراج ، ثم ليحاول الخلاص منها بأي ثمن ..

★

نفور من مظاهر العظمة

الثقة في الله ثم بالنفس ، تؤدي بالمرء إلى الرغبة عن المبالغة في الاهتمام بالمظاهر . بل وتؤدي إلى اعتبار ذلك خلقاً يجب أن يتحلى به الجميع ، وتجب الدعوة إليه والحث عليه، وإن فيصل ليفعل ذلك لا بصيغة الأمر ولكن بمجرد لفت النظر بهدوء وبطريق المداعبة .

إن الاهتمام المبالغ فيه بالمظاهر والاصرار على اتخـــاذ وسائل العظمة والأبهة ، يعبّـران عن رغبة في تكملة نقص يعتقده الانسان في نفسه ويود أن تستره مظاهر العظمة وأساليب الأبهة .. وما الستر إلا من عند الله .. وما الكمال إلا لله عز وجل..وما قد تستره المظاهر قد تكشفه التصرفات والأفعال والأقوال .. والكريم يظهر كرمه ، والعادل يتضح عـــدله ، والنبيل يُعرف نبله ، والفاضل يشتهر فضله ، والحكيم تذيع حكمته .. بدون مظاهر لا تقدّم ولا تؤخر ..

★

لكل ذي حق حقه

وكما لا تمييز في المسكن أو المجلس أو الطعام ، فلا تمييز أمـام الحق والقانون ، لا بينه وبين غيره ، ولا بين الخصوم المختلفين أياً كانوا .

.. حدث خلاف حول حدود قطعة أرض في الطائف ، بينـه وبين

فهد بن غشيّـان ، رئيس تشريفاته الدخلية. كانت القطعة تقـع إلى جوار قصر الحكم المسمى (قصر شبرا). وطلب منه ابن غشيان «حكم الشريعة» في الخلاف . ولبّـى فيصل الطلب. وجاء الحكم أن الحق مع ابن غشيان.

وأمر فيصل بتنفيذ الحكم واقرار الحق لصاحبـه . لم تحمل نفسه الكريمة ذرة من الغضب أو الاستياء أو النفور من ابن غشيان . واستمر الرجل في وظيفته حتى توفاه الله في جمادى الأولى عام ١٣٩٢ هـ .. وما زال ابنه يشغل نفس المنصب حتى يومنا هذا ..

. . . . . .

تقدمت إلى الفيصل ذات يوم بشكوى خاصة ، تتعلق بخلاف أحاطت به ظروف جعلتني أعتقد أني معرّض لظلم لا سبيل إلى اتقائه ، آملاً أن يتدخل في الأمر ، ليردع المختلفين معي . وبعد أن شرحت ما أردت، قال لي حفظه الله بالحرف الواحد :

« يا ابراهيم . أنت وغيرك عندي في هذا السبيل سواء . وهذه أمور تجارية. فعليك إذا كان لديك ما يثبت حقاً لك أن تقدمه للسلطة المختصة. وأنا وراء ذلك الحق ، إن كان لك فستأخذه مهـما كانت الظروف . وإن كان عليك فسآخذه منك لغيرك .. أما إذا كان خصمك من أجهزة الدولة فبالامكان النظر في الأمر » .

.. لقد شعرتُ بعد هذه الكلمات الصريحة الحازمة ، أنني في أمان . وارتاحت نفسي ، وغمرتني الثقة بأنني ساصل إلى حقي مهما كانت الظروف والأحوال .

★

مواقف حازمة

عندما اقدم هذه الصفحات عن الملك فيصل بن عبد العزيز .. والأمة العربية تمر في أدق مراحل حياتها وأخطرها ، لما يحيق بها من كل جانب من أخطار الطامعين والمتآمرين، وقضية فلسطين تملك على الشعب العربي في كل مكان حسّه وتسيطر على مشاعره وتشغله، بل وتشغل العالم كله.. فإنني أتجه ببصري وقلبي وفكري إلى الفيصل، متطلعاً إلى ما حباه به الله من فكر ثاقب وبعد نظر ، وأعود بالذاكرة إلى مواقفه الجليلة الثابتة والدالة على حسن تقديره للأمور وعواقبها ، في كل القضايا الهامة التي تؤثر على مستقبل الأمة العربية وعلى قضية فلسطين بالذات ..

أعود بالذاكرة إلى أول مؤتمر عربى عقد في لندن ، لوزراء خارجية الدول العربية، إبان انتهاء عهد الانتداب البريطاني في فلسطين ، وحضره الفيصل ممثلاً للملكة العربية السعودية .. وكان هدف المؤتمر مباحثة البريطانيين في موقفهم من قضية مخططات اليهود لإقامة دولة عنصرية على أرض فلسطين . والوصول معهم إلى حل ٍ يحفظ للبلاد عروبتها ولأهلها أراضيهم وديارهم واستقلالهم ..

قبل البدء في المحادثات ، وجو لندن كعادته ملبد بالغيوم الداكنة تحجب وجه الشمس أياماً بـل وأسابيع متتاليـة ، أشرقت الشمس على غير انتظار ، وكانت بهجة البريطانيين باشراقها لا توصف ، وبدا السرور على وجوه أعضاء الوفد البريطاني في المحادثات، فقال لهم الفيصل ما معناه: « إن هذه الشمس التي سررتم باشراقها هديّة من الشرق إلى الغرب، وعسى أن تستنيروا بنورها إلى ما فيه خير الجميع » .. ملمحاً بـذلك إلى الظلام الذي كانت تتخبط فيه السياسة البريطانية حيال فلسطين آنذاك.. وبعد الجلسة الأولى للمحادثات ، قررت الوفود العربية عقد جلسة مغلقـة ، لاتخاذ موقف موحد، وقرارات حاسمة حول ما يجب اتخاذه حيال الجانب الآخر .. وعقدت الجلسة المغلقة ، واتخذت القرارات ، وتم الاتفاق على أن تبقى سرية حتى تُعلن في الجلسة التالية للمحادثات مع البريطانيين ..

وعلم الفصيل أن أحد الوفود العربيـة أعطى الجانب الآخر تقريراً كاملاً مفصلاً عمّـا دار في الجلسة المغلقة ، بل وإنه نصحهم بمـا يجب عليهم ــأي البريطانيينــ عمله لمجابهة الموقف العربي !.. ثم جاء من يسلم الفيصل صورة فوتوغرافية واضحة لهذا التقرير المقدم ضد العرب ، ومن أحـد العرب !..

وحان وقت الجلسة الثانية للمحادثات . وبدأهـا الفيصل بالحديث ، قائلاً في إيجاز « إننا نرى أن لا فائدة من عقد هذه الجلسات. وإني لأعلن انسحابي ، طالما أن داء العرب من أنفسهم قبل أن يكون من أعدائهم ».. وفشلت المحاولات في اقناعه بالاستمرار.. فقد اتخذ قراره الحاسم.. وعاد

الى الرياض ، ليبلغ والده الملك عبد العزيز رحمه الله بتفصيل ما حدث.. ووافقه الملك على موقفه ..

.. من تلك اللحظة ، اعتمد الملك عبد العزيز ، ومن بعده الفيصل ، على مرّ السنين وحتى اليوم ، سياسة ثابتة ، تقوم أساساً على أن ما يصيب العرب من بلاء انما يصيبهم من أنفسهم قبل أن يصيبهم من أعدائهم . وأن العلة تكمن في بعض العرب الذين يظهرون غير ما يبطنون ، ولا يقدرون عواقب المواقف المترددة المتلونة غير القائمة على تقدير سليم للأمور . وأن النصر سيكون حليف العرب باذن الله لا تستطيع قوة في الأرض أن تحول دونه ، يوم يوحد العرب مواقفهم ويقدرونها على أسس واضحة ثابتة تتناسب مع امكانياتهم الحقيقية .. ويوم تنطبق مواقفهم المعلنة على نياتهم التي لا يعلم أمرها إلا الله ..

بعد النظر

أهم ما يميز المسؤول عن أمَّـة ، بعد نظره وحسن تقديره للأمور .
في هذا المجال أذكر موقفاً حضرته منذ أكثر مـن ثمانية عشر عاماً .

كان ممثلو الدول الأربع الكبرى آنذاك ، يعقدون مؤتمراً في جنيف . وكانت دول وشعوب العالم كله تتبع أنباء اجتماعاتهم بالاهـتمام والترقب ، منتظرة ما سيترتب عليها من نتائج في حالة اتفاقهم أو في حالة اختلافهم.

وكان فيصل قد تناول غداءه ، وجلس في مجلسه لتناول القهوة مـع الحاضرين كعادته ، وإذا بمامور الاذاعة آنذاك ، يُقبل ليقدم له ملخصاً عن آخر الأخبار ، وعلى وجهه إمارات البشر والسرور .

وساله الفيصل عما عنده من أخبار قبـل أن يقرأ الملخص . فأجاب المامور بفرح ظاهر : « يظهر أن المؤتمر قـد نجح ، وأن الأربعة الكبار قد اتفقوا » .. وأجابه فيصل على الفور بما معناه :

« إن البشرى الحقيقية،ليست أن يتفق الأربعة الكبار، إنما أن نتفق نحن العرب جميعاً .. هذه هي البشرى . المهم أن يتفق العرب فيما بينهم على ما يحبه الله ويرضاه وما فيه صالحهم. أما أن يتفق «الكبار» ويبقى العرب متفرقين مختلفين ، فلن يكون اتفاقهم لصالح العرب . بل وربما كان لغير صالح العرب والمسلمين . اتفاق العرب مع بعضهم هو الأساس ، فلن

يجعل الكبار للعرب حساباً في اتفاقاتهم ، إلا إذا كانوا متحدين متكاتفين ، وإلا كان اتفاق الكبار اتفاقاً على العرب وضد مصالحم .. » ..

.. كانت هذه كلمات فيصل منذ ما يقارب العشرين عاماً.. ولقد مرّت السنين .. وتعددت المؤتمرات للكبار وللصغار ، من كل لون وجنس ومبدأ ، وتعددت اتفاقات الدول الكبرى ، واختلفت الموازين الدولية ، وتنوعت أساليب الصراع بين القوى العالمية .. ولكن ، ومع ذلك كله ، تبقى الحقيقة الثابتة التى أشار إليها فيصل منذ عقدين من السنين ، حقيقة أن الدول الكبرى لن تقيم للعرب وزناً إلا اذا اتفقوا . إلا إذا أدرك « الكبار » أن أمامهم أمة عربية متحدة الكلمة والهدف تعرف حقوقها وتعرف كيف تدافع عنها .. لا أقطاراً عربية متعددة متفرقة الكلمة مختلفة الرأي والهدف .. تظل مجالاً للمساومات بين الكبار .. يساومون بعضهم بعضاً عليها غير عائبين ولا مكترثين إلا بما تحققه المساومات والاتفاقات والمعاهدات لهم من مصالح .. ودائماً ، على حساب العرب ..

نعم .. قالها الفيصل منذ عشرين عاماً : « لا يهمنا اتفاقهم هم . بل يهمنا اتفاق أمتنا واتحادها وتضامنها » .. وإن هذا الاتفاق الذي نرجو الله أن يتم ، وهذا التضامن الذي نأمل أن يقوى ، وهذا التفاهم الذي لا بد وأن يسود بإذن الله ، لجدير أن يرفع الأمة العربية إلى مصاف « الكبار » قوّة لها وزنها ، ولها مكانتها ، ولها كلمتها التي يجب أن تحترم ..

الاشبال

إن الأسد لا ينجب إلا أسداً ..

ولقد كان عبد العزيز رحمه الله ، أسد الجزيرة العربية.. فكان بديهياً أن تكون أشباله ، أُسوداً ، يرثون الخصال الكريمة ، وفي مقدمتها ، عزة النفس النادرة.. والمروءة، والشهامة .. وهي خصال أنجال عبد العزيز ، وفي مقدمتهم فيصل بن عبد العزيز .. أمدّ الله في عمره ..

أمر معروف ومؤكد .. يعرفه كل من التقى الفيصل وحادثه : إنـه يشعر أن الفيصل يعرف ما يقصده تماماً .. ولا يستطيع المتحدث أن يعرف ما يقصده فيصل .. إلا بعد أن يتحقق ، وعندها يذكر ويفهم ما كان يعنيه ..

وسيراً على ما رسمه والده ، كان الفيصل ومـا زال حريصاً على كل ما يؤدي إلى جمع شمل وتضامن العرب ..

وإن المواقف التي تشهد بذلك كثيرة .. بـل وأكثر من أن تحصى .. وأظهر من أن تُشرح وتوضّـح .. ولكن.. لعلي بهذه الواقعة التي أقدمها تفصيلاً ـ فقد كان لي شرف حضورها كشاهد عيان ـ أُلقي مزيـداً من الضوء على سياسة الفيصل تجاه جميع الأشقاء العرب ..

إنها واقعة ، جرَت في أحلك الظروف التي مرّت بها الأمة العربية ، ظروف تمزيق الشمل العربي، بنكسة الانفصال التي فصمت عرى الوحدة بين مصر وسوريا ، في أوائل الستينات ..

في اليوم الثالث لوقوع الانفصال ، والنفوس تتابع التفصيلات من الاذاعات والبرقيات والصحف ووكالات الأنباء ، والحسرة تمزقها على هذا الصرح الذي انهار.. كنتُ جالساً بين عشرات الجالسين في صالون فيصل في قصره العامر بالرياض ..

وبعد العشاء ، والقهوة تدار علينا كالمعتاد . كان الألم يغطي ملامح وجهه.. لأنباء الانفصال، وماتلاه من تطورات في الموقف.. وهو المعروف ببعد النظر وحسن تقدير الأمور وفهم ما تخفيه الأحداث من عواقب ..

وتساءل فيصل عن آخر الأخبار .. وإذا بأحد الجالسين ، وكان غير سعودي .. يقول : « إن آخر ما سمعناه ، أن طائرة هليوكبتر تقف الآن على سطح بيت جمال استعداداً لمغادرة القاهرة .. ولم يتضح بعد إلى أين سيقصد هو ورفاقه ». والله وحده أعلم بما كان يقصد ويهدف هذا المتحدث – غير السعودي – من حديثه هذا .. !

ولكن موقف فيصل كان مفاجأة كاملة له على أية حال ..

لقد انتفض فيصل والألم والغضب يرتسمان على وجه .. وكان يبدو كمن فقد عزيزاً لديه .. خلافاً لعادته في مسايرة المتحدثين كل على قدره . وساله بصوت سمعه الجميع :

« من أي اذاعة استمعتم إلى هذا الخبر ؟»

وأسقط في يد المتحدث ، ولعله فوجىء بغضبة فيصل ، التي تجلت

على ملامحه وفي سؤاله .. فأجاب متلعثما بعض الشيء : لقد سمعناه من أفواه الناس لا من الاذاعة ..

وظهر الارتياح على وجه فيصل . وعادت إليه مظاهر الاطمئنان .. وعاد إلى طبيعته من الحديث الهادىء كبير التاثير والوقع في النفوس .. ليقول بكل هدوئه .. وكانه يجيب على ما كان يـدور في نفس المتحدث بهذا الحديث من أفكار .. موجهاً الكلام إلى جميع الحاضرين ..

« يا أخوان .. أقول لكم بكل صراحة .. وبغض النظر عن كل خلاف في الرأي بيني وبين اخواننا زعماء مصر .. على ما نعتقده أو يعتقدونه لصالح العرب مما ستظهره الأيام .. ولا أقول أننا أحسن أو أقدر منهم على أي شيء .. كلنا مجتهدون ، وما التوفيق إلا من الله ..

« الشيء الوحيد الذي أريد أن تعرفوه لتبتعدوا عن الاخطـــاء من حيث لا تعلمون .. أقول بكل صراحة وبملء الفم . إن كل ما يحدث في أي قطر عربي ، ومهما كان ذلك الحدث ، لا يزيد عن كونه حدثاً محلياً يهم أمر ذلك القطر وحده .. لا يؤثر ، ولا يتاثر به كيان الأمة العربية .. بل يتعلق بشعب هذا القطر ، وهم وحدهم أدرى بمصالحهم الداخلية ولا تنعكس آثارها حسنة كانت أم سيئة إلا عليهم .. إلا القاهرة .. فوضعها يختلف عن وضع جميع الأقطار العربية .. ان العروبة يا اخوان ، بمثابة الخيمة الواسعة ، الأقطار العربية أطنابها وحبالها ، ومصر عمودها الأوسط .. وإن أي خلل في هذا العمود لا ترفعه الحبال .. مصر سند الجميع ، والجميع سند مصر .

وسكت فيصل قليلاً .. ثم أضاف :

« إن ما أقوله الآن ليس برأي جديد لي .. ولقد قاله المرحوم والدي من قبل .. بل لقد قال أبعد من ذلك .. ومنذ سنوات طويلة .. لقد دعا والدي فاروق ملك مصر آنذاك لزيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة . ولبى فاروق الدعوة للزيارة ، واستعد الوالد لاستقباله في ميناء ينبع، أقرب ميناء للمدينة المنورة. وكانت الاستعدادات في نظرنا أكبر بكثير مما يستحقه فاروق . ولكن أحداً منا لم يكن ليستطيع أن يقول للوالد أن الضيف القادم لا يستحق كل ذلك الاهتمام .. وكنا جميعاً متحسرين ، نعتبر ذلك إسرافاً في غير محله .. ونسكت .

« وفي اليوم الثاني من زيارة فاروق توجه من ينبع الى المدينة المنورة حسب برنامج الزيارة ، أرافقه أنا وبعض المستشارين ، وقضينا الليلة في المدينة وعدنا في الصباح إلى ينبع ، وطعام الغداء جاهز حسب الموعد المحدد في سرادق كبير، ووالدي ومعه جميع المدعوين ينتظرون وصولنا .. وعندما وصل موكب فاروق مشارف ينبع ، خرج الوالد من صالون الخيمة استعداداً لاستقبال الضيف المحترم .

« وكان طريق الميناء يمر أمام السرادق الكبير، وأمام صالون الخيمة، ووصلت سيارة فاروق ، وعندما تأهب السائق للوقوف أمام الصالون ، والوالد واقف أمامه ، إذ بفاروق يأمر السائق بعدم الوقوف وبالمسير إلى اليخت رأساً !! .. واستجبنا لرغبته .

« وكان الموكب كبيراً، والسيارات كثيرة، والأرض ترابية، ورأيت الغبار يتطاير من تحت عجلات السيارات حتى يحول بيني وبين رؤية الوالد والصالون !.

« في قرارة نفسي ، لقد سررت أنا ومن كان موجوداً من المستشارين، إذ اعتقدنا أن هذا التصرف الشاذ من فاروق سيقنع الوالد أن ضيفه أصغر من حجم الاستقبال الكبير الذي أعده له . وتركنا فاروق في اليخت ، لنعود إليه مرة أخرى لنأخذه لتناول الغداء وقت أن يشاء .. وعدنا مسرعين إلى صيوان الوالد ..

« كنا بطبيعة الأمر نعتقد أن الوالد لا بـد وأن يكون متأثراً من تصرف الضيف . وأن الفرصة ستكون سانحة لنا للافصاح عما في أنفسنا ..

« سلمنا على الوالد .. وجلسنا من حوله .. ولكنا وجدناه كعادته .. وكأن شيئاً لم يكن !. واحترنا جميعاً في أمرنا .. وتبادلنـــا النظرات .. وكأننا نشجع بعضنا البعض على بدء الحديث حتى لا تضيع هذه الفرصة علينا.

« قال أحدنا : نشكر الله أنك يا طويل العمر لم تتأثر من ضيفك .

« وأدرك الوالد ، أن الحديث إنما موجه منا جميعاً ، وإذ به يقول :

« الله يأخذكم جميعاً !.ما أقصر نظركم..أنتم تعتقدون أو تتصورون أنني شددت الرحال من الرياض ، لأبني مدينة من الخيام على أرض ينبع من أجل فاروق ، الذي أعرف عنه كذا وكذا وكذا .. الخ » .. (ولقد فوجئنا بأنه يعرف عن فاروق أكثر مما نعرفه نحن بكثير) ..

« لا .. ثم لا .. إنما جئت إلى هنا لأستقبل ٢٠ مليون عربي مصري ، يسندونني عند الحاجة وأسندهم قدر امكانياتي عند الحاجة ، ولا يهمني من يمثلهم فاروق أو غيره ، ولا تهمني أفعال فاروق » .

« من هذا المنطلق ، يا اخوان، قلت لكم ما سلف، لا عرب إلا بمصر،

ولا مصر إلا بالعرب . وإذ لم يكن ذلك لا سمح الله ، فمصير الجميع في مهب الريح .. ولله الحكمة في خلقه » .

.. هذا هو موقف الفيصل تجاه مصر .. موقف سليم وحكيم، بني على سياسة ثابتة تبناها والده العظيم من قبل ، موقف الدعم الصادق والتعاون المثمر الفعال ، لكل ما فيه خير مصر. فما دامت مصر بخير فالأمة العربية كلها بخير .

. . . . . .

والواقعة الثانية ، أقدمها للقارىء وهي غنية عن كل تعليق .

بادرة معروفة للجميع .. حدثت في عام ١٩٦٢ ، عندما احتجزت الباخرة العربية كليوبترا في ميناء نيويورك ، من قبل عمال الميناء الأمريكيين بتحريض من الصهيونية العالمية وأنصارها في أمريكا .. وكانت القوى الصهيونية تعتمد في تحريضها على أن الباخرة مصرية ، وأن لا خوف من ردة فعل عربية شاملة اعتماداً على ما هو معروف وشبه مؤكد من أن « العرب اتفقوا على ألا يتفقوا ! » ..

ولكن الحادث كانت له ردة فعل شديدة في جميع أنحاء العالم العربي تقريباً .. وقد اعتبر العرب في كل مكان أن الأمر يمس بكرامتهم جميعاً . وتوالت الانذارات العربية من كل قطر عربي، ولكن السلطات المسؤولة في أمريكا لم تعرها أي التفات ! وكأنها لا شيء .. ولا يجب أن يقام لها وزن أو اعتبار ، اعتماداً على أن العرب يقولون ولا يفعلون !..

حسب تقديري للأمور وقد أكون مخطئاً فيه أو مبالغاً .. كانت السلطات هناك تعتقد ، لظروف معينة ، أن هناك أقطاراً لا يخشى من

موقفها .. وأن ردة الفعل من جانبها لن تكون إلا مجرد احتجاجات أو تهديدات لفظية. رغم وجود نقابات عمالية كبيرة بها، كان يمكن أن يثيرها الموقف العدائي لعمال ميناء نيويورك.. كما اني اعتقد أن من بين هذه الدول التي كانت السلطات الامريكية تعتقد عدم إمكانية قيام عمالها بموقف مضاد : لبنان والعراق والكويت وعدن والأردن وليبيا وتونس والمغرب ، بالإضافة إلى السعودية التي ليس بها نقابات عمالية .

وأعتقد أنه في ذلك الوقت لم يحسب الأمريكيون لها أي حساب !.. كان كل ما قدروه أن يكون موقف مصر والسودان وسوريا ، موقفاً « متشدداً » وأن تفرض الدول الثلاث مقاطعة للسفن الأمريكية بالفعل ، وأن هذه الدول الثلاث مهما قاطعت، فلن تؤثر على حركة النقل البحري الأمريكي ، حتى ولو استمر اضراب العمال في موانئها زمناً طويلاً ..

وتطورت الأمور بشكل قلب كل تقديرات الأمريكيين رأساً على عقب .

كان لبنان ، أول قطر عربي .. قام عماله بالاضراب الشامل ومقاطعة كاملة للسفن الأمريكية .. ثم تلاه العراق والأردن والكويت ..

وإذا بالمغرب وليبيا وتونس واليمن وعدن .. تتخذ نفس الموقف.. بل واذا بالمقاطعة تمتد لتشمل عدة دول صديقة.. في آسيا وافريقيا ..

ثم كانت المفاجأة الكاملة للأمريكيين هي موقف السعودية .. لقد أضربت كل موانىء السعودية اضراباً شاملاً.. وقاطع العمال مقاطعة تامة السفن الأمريكية .. وكان ذلك مذهلاً للأمريكيين ، فضلاً عن الأضرار البالغة ، التي تلحقها مقاطعة السفن الأمريكية بالاقتصاد الأمريكي .

وأسرع السفير الأمريكي يتصل بالأمير فيصل بن عبــــد العزيز رئيس الوزراء ووزير الخارجية آنذاك.. وهو يقول ما معناه : لقد عملنا حساب كل شيء، إلا موقف المملكة العربية السعودية التي ليس بها نقابات عمالية، فكيف حصل هـذا الاضراب غير المتوقع من قِبَلنا ..

وأجابه الفيصل :

« بكلمات مختصرة.. أنتم مخطئون في تقديراتكم عن موقف السعودية.

« إن السعودية بها نقابة كبيرة.. بل وأكبر نقابة في الأقطار العربية، ولي الشرف أن أكون رئيساً لهـــذه النقابة .. وأنا الذي أمرت ونفذت الاضراب بنفسي .. ولا تنتظروا مني إلا أكثر من ذلك » .

ومعروف كيف انتهى الموقف العدائي للعمال الامريكيين تجــــاه الباخرة كليوباترا .. ومعروف أيضاً أنه لم يمت أحـد من الجوع أثنـــاء الاضراب ولا بعده ، وكان التضامن العربي كافياً لفرض احترامهم ..

وإن قوة فعالية جمع الشمل .. تجلت في موقف دول آسيا وأفريقيا تجاوباً مع الموقف العربي الموحد الصادق آنذاك ..

إن يد الله مع الجماعة .. وعندمـــا يتلاحم العرب مخلصين لله ثم لقضاياهم ، لا يكون إلا خير الأمة العربية وعزتها. وإنها أمنيتي فِي الحياة، أن يحدث ذلك .

أسأل الله العلي القدير أن يجمع شمل العرب في كل مجال مستعملين سلاح التلاحم الأقوى من القنابل الذرية وطائرات الفانتوم ليعيدوا الحق إلى نصابه ، وأرجو الله أن تتوحد المواقف العربية دائماً .

الملك فيصل والشعر

كل ألوان الأدب ، يستطيع الإنسان أن يتعلمها ويدرس أساليبها وأسرارها ويثابر على ممارستها حتى يجيدها ـ ما عدا الشعر . فنظم الشعر موهبة من الله عز وجل يمنحها لمن يشاء من عباده ، مع رقة الاحساس ورهافة النفس وذكاء فطري وبديهة حاضرة .. ثم تاتي دراسة الأصول والأوزان ، وحفظ ورواية الجيد من شعر الآخرين، لتصقل الموهبة وتنميها ..

.. من الصفات التي يتميز بها جلالة الملك فيصل عن بقية الملوك والرؤساء المعاصرين أنه شاعر .. شاعر رقيق يرسل الشعر ارتجالاً ، حاضر البديهة ، جزل العبارات منطقي الأفكار ، يجيد الرد على منافسيه بالشعر العربي الموزون الفصيح ، أو بالشعر المرسل الدارج .

ومن ذلك أنه في السنوات التي كان فيها نائباً لجلالة الملك المرحوم والده على الحجاز ما بين عامي ١٣٥٠هـ ـ ١٣٦٠هـ . كان يقيم كل أسبوع من أسابيع الصيف التي يمضيها في الطائف مباراة للشعراء يحضرها ويشترك فيها بنفسه، فيجمع بعض شعراء نجد وشعراء الحجاز وخاصة شعراء البادية ويجعلهم يتبارون في قول الشعر على البديهة ، وهو يشترك معهم ؛

ولكن شعره يطغى من حيث المعاني والألفاظ على أشعارهم . كما أنه ناقد حاذق وماهر . ومن هؤلاء الشعراء عبد الله لويحان من شعراء نجد ، والأزوري من شعراء الطائف .

لقد حضرت بنفسي عدداً كبيراً مـــن هذه الاجتماعات أو الندوات الأدبية ، حيث كانت تنصب خيمة كبيرة في أحد الأودية ، إما في وادي (ليا) بالطائف ، أو في وادي مسرّة (الطائف) ..

ثم كانوا يجمعون من الحطب كمية كبيرة، تكوّم وسط الحلقة وتشعل، ويقف الشعراء المتنافسون بجوارها ، كلّ يردد شعره ، فيما كان الحضور يجلسون يستمعون ويشاهدون والمحكمون يقارنون ويحكمون .

وكان إذا كرر أحد الشعراء بيتاً أو شطراً مـن بيت سبق وأن قاله غيره ، اعترض الحكام على الفور ونبهوه ، واعتبروا ذلك سقطة لشعره تحسب عليه وتقلل من قيمته .

وكثيراً ما كان فيصل (الأمير آنذاك) ، يقف مع الشعراء ، ينافسهم وينافسونه ، وكثيراً كان يشترك مع الحكام في نقد هذا البيت أو ذاك ، وكان عندما ينتهي شاعر من قصيدة يلقيها، يسأله فيصل: لو قلت كذا .. ألم يكن أفضل ؟.. ويجد الشاعر أن فيصل على حق فيغير البيت أو القصيدة .

الجدير بالذكر أن فيصل كان في بداية هذه الاجتماعات، يعطي الأمان للجميع ، ويطلب منهم أن يعبروا عن أفكارهم ومشاعرهم دونما أي حرج أو خوف من عاقبة مايقولون حتى ولو كان نقداً صريحاً يخصه هو شخصياً

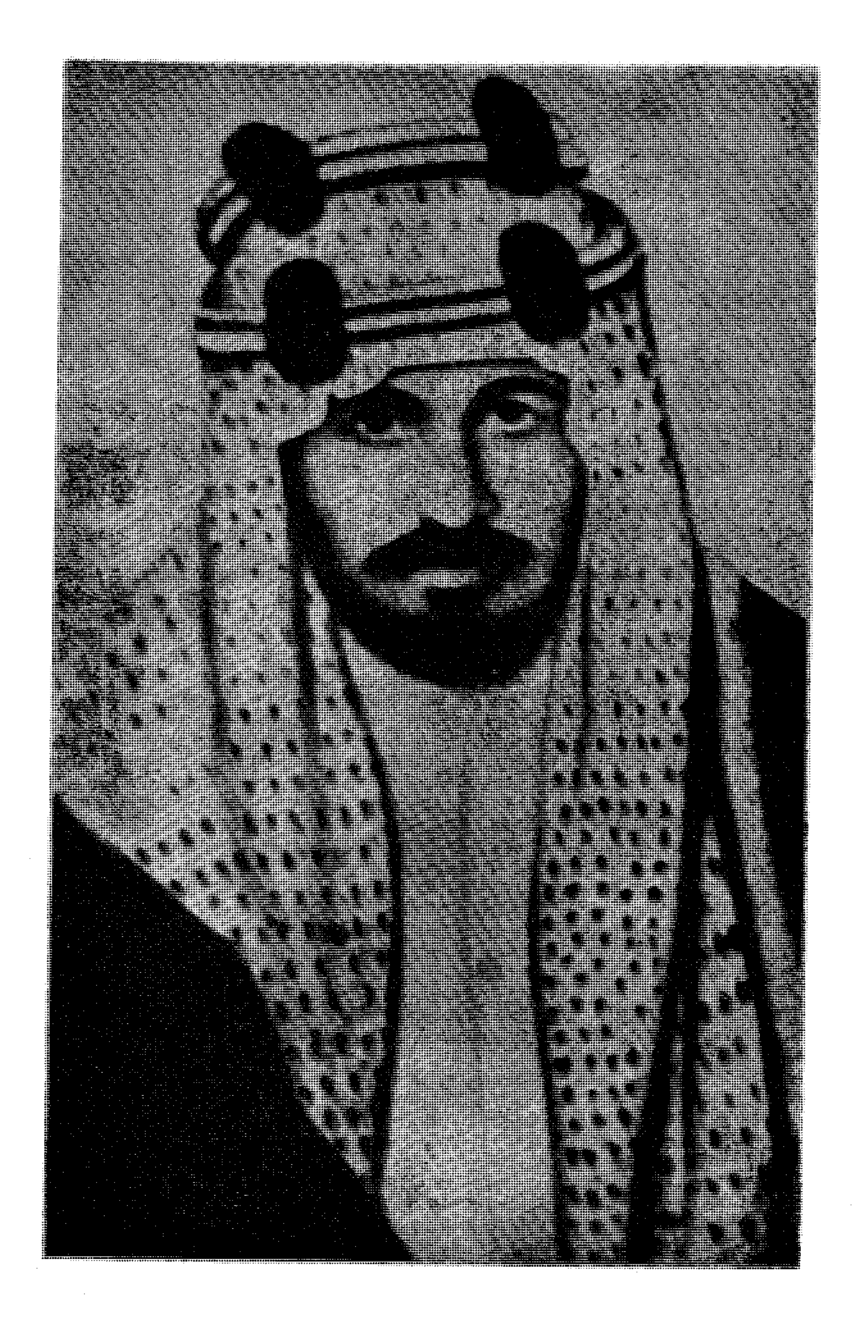
أو يخص أحد المسؤولين أو الحاضرين أياً كانت مراكزهم . فكان الشعراء يتمتعون بحرية في القول والنظم ، وتمضي السهرات بهيجة حافلة بروائع النظم ، وقيم التنافس ، كلّ يقول شعره من البديهة فيجاوبه الآخر .. وفيصل يشاركهم كفرد منهم ، يرد بالشعر على بعضهم أو يشترك مع الحكام في استحسان أو نقد شعر هذا أو ذاك ، وقد عُرِف ـ ولا زال ـ بأنه يتمتع بموهبة الذوق السليم في نقد الشعر ..

ومن هذا النبع من الشعر ، استقى الامير عبد الله الفيصل ، النجل الأكبر للملك فيصل ، موهبته في نظم جيّد الشعر .. وقصائده البديعة الرائعة أشهر من أن نعرّف بها القارىء .

الفصل الثالث

محمد بن عبد الرحمن آل سعود





الأمير محمد بن عبد الرحمن آل سعود

محمد بن عبد الرحمن آل سعود

كان رجلاً من أفضل وأكرم الرجال في بلادي . ولا أعدو الحقيقة إذا قلت من أفضل الرجال وأكرمهم في هذا الشرق العربي .. كان بكرمه يملك قلوب الرجال ، ولم يكن يعادله في كرمه أحد من أبناء جيله في منطقته سوى أخيه المرحوم الملك عبد العزيز ، هذا إذا قسنا كرم الإنسان وجودَه بامكانياته .

.. « حركات الفلك لا تبقي لأحد نعمته ، ولا تديم عليه نقمته ، فمن ولي منكم أمراً فلتكن همته تقليد المنن أعناق الرجال » .. عبارة مأثورة ، سامية المعاني عميقة الأهداف ، كانت رائده في كل أعماله وتصرفاته ؛ معي ومع عشرات بل ومئات غيري ، ممن لا ينكر أحد منهم حتى اليوم كرمه معه وفضله عليه .

إنه صانع الرجولة فيمن حوله من الرجال ، الأصيل في نبله ، العريق في كل جميل من الخصال وطيّب من السجايا ..

إنه الأمير محمد بن عبد الرحمن آل سعود[1] ، رحمه الله ..

* * *

حديثي عنه رحمه الله، حديث مختلف .. وكيف لا .. وقد التحقت

---

(١) محمد بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود .

به وأنا لم أبلغ مرحلة الشباب وبقيت معه حتى اختاره الله إلى جواره ..

إنها مرحلة جديدة من الحياة.. بل إنني اعتبر يوم التحاقي به نقطة التحول الحاسمة في حياتي .

.. بعد نشأة في ظروف قاسية ، وطفولة [1] تحملت فيها أعباء ينوء بحملها الكبار ، أكرمني الله بالتحاقي بالأمير محمد رحمه الله .. لأجد منه العطف الأبوي الذي حرمت منه منذ وفاة والدي ، ولأجد منه المرشد والمعلم ، ولأجد فيه الرائد النبيل الكريم ، الذي فتح لي أبواباً وسبلاً إلى حياة عملية طويلة ، صادفت فيها ولله الحمد كل خير وتوفيق.

التحقت بعملي عند محمد رحمه الله، وتدرجت من وظيفة إلى أخرى أعلى منها تباعاً ، إلى أن وصلت بفضل الله إلى أعلى وظيفة عنده ، ولم يكن علوّها في نظري ، ونظر الجميع ، يعود إلى المركز بقدر ما يعود إلى أن من ينالها لا بد وأن يكون متمتعاً بثقة الأمير في كفاءته وأمانته على ماله وأبنائه ..

إلى جانب الخلق النبيل والكرم اللذين كانا من صفاته ، كان يمتاز بالبسالة والإقدام ، وكان يتحلى بالصبر على المشاق والإقبال على المخاطر والتضحيات .. صفات وخصال ، لمستها كما لمسها غيري من المحيطين به والمقربين منه وعرفها القاصي والداني ، واعترف بها الصديق وغير الصديق ، بل وسجلها التاريخ فيما سجل على صفحاته المشرقة ..

(١) حديثي عن تفاصيل نشأتي وظروفها القاسية ، وطفولتي والأعباء التي تحملتها منذ وفاة والدي ، أفردتُ له فصلاً لاحقاً .

وتجلت في جولات المعارك[1] التي خاضها تحت قيادة شقيقه الملك الراحل عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله ..

.. خصال كريمة ، ومواقف عظيمة جليلة .. هي محور حديثي في هذا الفصل عن محمد بن عبد الرحمن .. الذي أتاح لي القدر ، بل أتاح لي حسن طالعي أن أعيش بقربه سنوات طوال ، حفلت بجلائل الأعمال.. لا أعتقد أني أستطيع أن أحدث القارىء عنها كلها ، وإلا احتاج ذلك مني إلى آلاف الصفحات في مئات المجلدات ، لذلك أكتفي ببعض منها مما عاصرته ، يفي برسم الصور الواقعية المشرقة ، لأخلاقه ومواقفه ومبادئه . وإنه لمن الواجب قبل ذلك أن أقدم نبذة عن حياته ونشأته ، نقلاً عمن عاصره قبلي وكان لهم الفضل في معاونتي بأحاديثهم وذكرياتهم ، على استكمال الصورة المشرقة ..

* * *

ولد محمد عام ١٢٩٦ هـ . في الرياض بعد ميلاد عبد العزيز أخيه بسنتين ونصف .

درس القرآن الكريم ، ومبادىء التفسير والشريعة ، على وجه صحيح على يد الشيخ ابن مصيبيح .

كان واضح الذكاء من صغره . يفكر في هدوء وعمق ، قبل أن يبدي رأياً أو يقوم بأي عمل .

---

(١) تفاصيل الحروب التي خاضها الأمير محمد بقيادة أو توجيه شقيقه الملك عبدالعزيز ، رحمهما الله، وهي تفاصيل النضال في سبيل توحيد البلاد ورفع راية الاسلام الحق والعدالة ، والتي كان لي شرف الاشتراك الفعلي في بعضها ؛ رأيت أن أفرد لها صفحات مستقلة في الفصل اللاحق .

التجأ والدهم عبدالرحمن آل سعود رحمه الله إلى الشيخ محمد بن صباح حاكم الكويت[1]. حيث عاشوا فترة من الزمن، وبدأ نجم عبد العزيز ونجم محمد يلمعان في الكويت، وكان أهل نجد يتطلعون إلى الكويت واثقين أن تخليصهم من حكم آل رشيد لا بد أن يتم بإذن الله، وينتظرون ما سيقوم به الشبلان، عبد العزيز ومحمد، متأكدين أنه مهما طال الزمن، فلا بد أن تعود الأمور إلى نصابها .. ولا بد أن يعود أبناء عبد الرحمن إلى نجد منتصرين ..

وكانت أنباء الشقيقين، والأحاديث التي يتبادلها أبناء نجد عنهما، تصل إلى عبد العزيز بن الرشيد .. فتشغله وتقلقه، حتى أراد أن يتأكد بنفسه من مدى إصرارهما أو أحدهما على استعادة حق أسرتهما الذي اغتصبه .. فكلف مستشاره الخاص موسى بن مجراد ـ وكان معروفاً ببعد النظر وخبيراً في تقدير وتحليل شخصيات الرجال ـ كلفه

(١) كان ذلك عام ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م، بعدما انتصر ابن الرشيد انتصاراً عظيماً على أهل القصيم في وقعة المليداء، وكان انتصاره فيها مقدمة لاستيلائه على نجد كلها. وكان الامام عبدالرحمن آل سعود، خارجاً برجاله من الرياض لنجدة أهل القصيم، وكان في منتصف الطريق عندما بلغته أنباء هزيمتهم، فعاد إلى الرياض، ليخرج حريمه وأولاده، ثم ليرتحلوا إلى الحساء حيث فاوضته الدولة العثمانية وعرضت عليه ولاية الرياض يحكمها من قبلها، على أن يعترف بسيادتها وأن يدفع لها الخراج، ورفض الامام الشروط. ورحل إلى الكويت هو وأولاده، وقبل الشيخ محمد بن الصباح حاكم الكويت يومئذ، أن يقيموا في بلاده .. وتولى بعده الشيخ مبارك الصباح إمارة الكويت عام ١٣١٣ هـ/ ١٨٩٥ م.

بالتوجه إلى الكويت ، بحجة ظاهرية هي التفاهم مـع الشيخ مبارك آل صباح على أمور تهم الطرفين .. وكان هدفه الحقيقي ، أن يختلط ابن مجراد بعبد الرحمن وأبنائه عبد العزيز ومحمد ، ليعود بالرأي عـن شخصيتهما وآرائهما ، وحقيقة ما يعتزمانه . وتم لإبن الرشيد ما أراد ، وعاد إليه ابن مجراد بالنتيجة . كلاهما يتمتع بالإحترام وينال التقدير ، عبد العزيز أخواله السدارا ، ومحمد أخواله آل جلوي .. هدف الاثنين واحد ، هو العودة العاجلة الظافرة إلى نجد وإلى الرياض ، مهما كانت الظروف والعقبات ، وأن كلاً منهما لا يقل تصميماً ولا حماساً عن أخيه، وإن كان عبد العزيز أشد تلهفاً إلى بدء الجهاد في سبيل العودة .. وفي تقديره ـ ابن مجراد ـ أن ستكون القيادة لعبد العزيز ، وأن سيكون محمد ساعده وسَنَده ، وأنهما معاً يشكلان خطراً حقيقياً ، لا بـد وأن يواجهه ابن الرشيد عن قريب ..

ومرّت الأيام ، وتحققت توقعات وآراء ابن مجراد .. انطلـق عبد العزيز من الكويت بادئاً معركة تحرير بلاده ، وإلى جواره محمد ، متكاتفين متضامنين في مراحل النضال كلها،حتى تحقق النصر بحمد الله..

* * *

كان محمد طيب القلب ، دمث الأخلاق .. غني النفس ، شديد الثقة بالله وبقدرته ، متمسكاً بتقاليد العروبة الحقة في العزة والكرامة ..

.. لم يكن الحقد ليجد إلى قلبه أو نفسه سبيلا، فكما كان سريـع الغضب كان سريع الرضا ، سمحاً ، متسامحاً ، صافحاً عمن يسيء إليه مهما كانت خطيئته ..

كان صادقاً ، صريحاً .. وكان يحب الصدق ويحث عليه ، ولا يُكذّب أحداً في قول ، إلا بعد أن تتأكد له الحقيقة المؤكدة ، فيواجهه بهدوء ولطف، وكأنه يعاتبه وينصحه.. دون أن يحاول إحراجه أمام الغير..

لم يكن ليعد إلا ليفي بوعده ، مهما كلفه ذلك ..

وكان قنوعاً لا يفكر في ثروة يكدسها، ولا يطمح إلى أكثر مما منحه إياه أخوه عبد العزيز .. بل أكاد أقول أنه لم يكن ليشغل نفسه بالتفكير في جمع مالٍ أو زيادة دخل نقدي ..

كان كريماً ، يكرم ويُنعِم بالخيل والإبل والسلاح والكساء والغذاء إن لم يكف ما لديه من مال نقدي لقضاء حاجة السائل .. مضيافاً لا تنطفىء له نار ، ولا تجف مذبحة الأغنام في بيته .. ويشهد الله أنه كان كذلك طوال حياته ، لا يرد سائلاً أو محتاجاً .. ولا حاجب يحجب عنه القاصد والمحتاج ..

كان يعطي الناس من وقته فصلين من كل يوم ، يجلس عند مدخل قصره أول النهار حتى وقت صلاة الظهر ، ثم يعود للجلوس مرة أخرى بعد صلاة العصر إلى وقت صلاة المغرب ، ومجلسه لمن شاء ، وللجميع بدون استثناء ..

كان محمد شديد الحرص على أداء الفرائض والعبادات يقيم الصلاة في أوقاتها ، ويتهجد آخر الليل حتى الفجر .

أما في حياته الخاصة ، فلقد كان حريصاً أشد الحرص على المساواة بين أفراد أسرته، لا يميز منهم أحداً على الآخر، لا في السر ولا في العلن ،

يختلي إلى عائلته من بعد صلاة العشاء مباشرة ، اللهم إلا إذا جدّ من الأمور الهامة ما يستدعي السهر ..

كان رحمه الله ، شديد الحرص على النظافة والنظام ، في كل شيء .. في الملبس ، والمأكل ، والمشرب ، والمجلس ..

كان مشروبه المفضل ، القهوة المخلوطة بالزعفران ، المستعملة بكثرة في مناطق الخليج العربي ، ولم يكـن ليشرب الشاي إلا قليلاً ويتبعه بالقهوة كما هو مألوف عند الجميع ببلادنا..وغير ذلك لم يشرب .. طوال حياته ..

هواياته كانت مركزة على اقتناءوتربية الخيل العربية الأصيلة،وثلاث مجموعات من الابل واحدةمنها «المغاتير» أي البيض،والثانية «المجاهيم» أي السمر ، والثالثة الحمر المعدّة للركوب فيالرحلاتوالغزواتوالنزهات . كما كان يهوى الزراعة وتربية الأغنام بنوع خاص وعلى نطاق واسع ، وكان يتفقد الخيل والإبل والماشية بنفسه يومياً ويحرص على العناية بهـا ويراقب المكلفين بها . ولم يكن ذلك بغرض التجارة ولا الربح في يوم من الأيام ، ولم يقل أحد أن محمداً باع من هذا النتاج بريال واحد مطلقاً ، فلم يكن رحمه الله يتاجر أبداً ، ولم يكن يبيـع منهـا شيئاً اللهم إلا النياق المتقدمة في السن التي لم تعد تصلح للعمل أو للانتاج ، وكان ينفق ثمنها على المحتاجين والمستحقين وعلى العناية ببقية الإبل الموجودة . ومـا كان هذا النتاج الوفير من كل هواياته ، بكافٍ للضيافة ولاستعماله الخاص ولا لاستهلاك الحاشية والمقيمين بالقصر ..

.. كان أيضاً يهوى اقتناء الصقور وكلاب الصيد .. ويخصص شهرين كل عام للقنص ..

أكثر ما كان يحب من الحيوانات الأليفة ، القطط ، حسنة اللون ، يطعمها بيده ، على طريقة أبي هريرة رضي الله وأرضاه .

أما من ألعاب التسلية ، فلم يكن يمارس إلا لعبة ، البيّـة [1] التي كان يحبها لما ترمز إليه من مكارم الأخلاق ومـا تؤكده من تقاليد العرب في إجارة المستجير ، وحقوق الجار ..

* * *

كان محمد رحمه الله لا يتدخل في الأمور السياسية إطلاقاً ، بل كان يتركها جميعها لأخيه عبد العزيز ، ليقرر فيها ما يراه ..

---

(١) البيّة ، لعبة تتكون من تسع نقاط ، وكل نقطة فيها تسع أو عشر حجرات ، (أو ما يقوم مقامها) - يلعبها إثنان ، يقول أحدهم للآخر « شدّ وإلا شدّيت » - (أي ارحل وإلا رحلت أنا) .. تنتهي بأن تتجمع الأحجار لصالح أحد اللاعبين في إحدى النقاط التسع . ولهذه اللعبة قصة مشهورة . بدأت عندما استعملها « مهمل المهادي » مع جاره وصديقه « مفرج » .. الذي استجار بـه بعد أن ضامه الدهر فأنقذه من الضيق والكرب وأجاره وأنزله في جواره ...ولكن أحد أبناء مفرج ، وكان شاباً طائشاً نزقاً .. سوّلت له نفسه أن يراود ابنة المهادي عن نفسها ، ولمـا صدّته ، أخذ يتحين الفرص للانقضاض عليها واغتصابها عنوة ..

وكانت الفتاة تبلغ أمها بمحاولات ابن مفرج ، وبصفاقته ونزقه ومحاولاته الشريرة ، وكانت الأم تبلغ المهادي بدورها ، والمهادي يكظم غيظه ويكبت ألمه ، ولا يريد أن يبلغ صديقه وجاره بالأمر حتى لا يسيء إليه وحتى لا ـــ

ولم يكن ذلك يعني انعزاله عن الأحداث والسياسيين والمستشارين ، بل كان يستقبلهم ويجلس إليهم ويناقشهم ، لكن دون أن يبحث معهم أي أمر يتعلق بسياسة الدولة أو علاقاتها أو مواقفها .. فقد كان يثق ثقة مطلقة بآراء أخيه ومواقفه ، ويسارع إلى تبنيها والتنفيذ الفوري الدقيق لكل ما يكلّف به ..

إنها قمة التعاون الأخوي ، وقمة التفاني في الإخلاص والتضامن ، وقمة إنكار الذات في سبيل المصلحة العليا للبلاد .

* * *

بعد النظر ، وحسن التقدير

كان بعد النظر من أبرز صفات محمد رحمه الله .. كان يحسب عاقبة كل أمر بدقة ، بل ويتدارك الأمر قبل وقوعه ..

←يتسبب في ثورته على ولده. ولكن الشاب تمادى في محاولاته، ففكر المهادي في طريقة يشعر بها جاره باستيائه ويدعوه إلى الرحيل من جواره بطريقة لا تجرحه .. فدعاه إلى لعب « البيّه » .. وتعمّد أن يكرر قوله « شد وإلا شدّيت » عدة مرات .. وبشكل لفت نظر صديقه وأثار انتباهه .. فما كان من مفرج إلا أن تنبّه وأدرك أن بالأمر شيئاً يخفيه عنه صديقه . وأراد أن يتأكد ؛ فذهب اليه في اليوم التالي مستأذناً في الرحيل من جواره ، فسمح له على الفور .. ورحل مفرج ، ولكنه ظل يتقصى الأمر ليدرك سبب غضب المهادي واستيائه .. إلى أن علم بحقيقة الأمر وبما كان من ولده الطائش وعدم مراعاته لحق الجوار ، فما كان منه إلا أن قتل ولده وأرسل برأسه – مع ولده الثاني – إلى المهادي .

وإن كان مبدئي « أن ليس كل ما يُعلم يقال » .. إلا أني أروي بإيجاز موقفاً يدل على ما كان يتمتع به محمد من بعد النظر ..

ففي عام ١٣٤٣ هـ . عندما كان محمد أمير الجيش في حَدَّهْ بانتظار الحرب أو السلم ، والجيش لم يتعود الانتظار ، وكاد الملل يدب في نفوس الكثير من أفراده . وإذا بشخصين من كبار الناس ومن المتبوعين ولا أعلم مَنْ وراءهم ، يترددون على محمد ليلاً ونهاراً ويتناولون معه الطعام في كل وقت ويحثونه على التقدم نحو جدة على مسمع مني باعتباري صغير السن معتقدين أنني لا أفهم شيئاً بالنسبة لصغري ولأن سني لم تكن تسمح لي بالإشتراك في الحديث مع الكبار والوجهاء . وساءلت نفسي : لماذا يسمع محمد من هؤلاء الرجال ولا يجاوبهم دائماً إلا بقوله : « يا جماعة الصبر مفتاح الفرج » ؟ وآخر مرة حضروا اليه ليلاً متحمسين يدلون بآخر ما في جعبتهم ، وفتح لهم صدره كعادته إلى أن قالوا له : « نحن نتكلم معك بلسان من بعثنا لتختار أحد أمرين لا ثالث لهما إما أن ترحل إلى جدة صباحاً ونرحل معك أو نرحل إلى مكة وافعل ما تشاء » . وإذا به يقوم واقفاً ويقول : « الآن اتضح لي ما في نفوسكم ، وأنا أخو نوره ، وبامكاني فعل ما أشاء بكم الآن ولكني لن أفعل . الآن بامكاني أن أكتفكم وأسلمكم لعبد العزيز في مكة ليفعل بكم ما يشاء . ولكن هذا ليس من شيمتي . فوالله الذي لا أقسم بسواه إذا قام أحد منكم بأي حركة مهما كان نوعها أو تكلم بكلمة واحدة من الآن وصاعداً فسيكون مصيره الموت ومن أنذر فقد أعذر » . وخمدت ثورتهم وعادوا إلى حيث يمكثون

حامدين الله على سلامتهم من غضب محمد ، ولم يبدر منهم أي شيء بعد ذلك . واتضح لي فيما بعد أن محمد كان يسايرهم ليعرف حقيقة ما في نفوسهم .. وبعد فترة انتقل الجيش بقيادة عبد العزيز لمحاصرة جدة .

* * *

الثقة بالله

نبذة عن واقعة أخرى حدثت بعد أن فسح لي المجال في إبداء رأيي إن كان خطأ أو صواب عن قناعة . وجلَّ من لا يخطىء .

ففي حوالي عام ١٣٥٢ هـ كنت في مكة المكرمة لقضاء حاجات لمحمد وإذا بأحد جيراننا من سكان الحلقة بمكة يلفت نظري قائلاً : «أفلا تعلمون أن الملك عبد العزيز سمح للأشراف المقيمين خارج المملكة العربية السعودية ببيع أملاكهم وتصدير قيمتها لهم في الخارج. وأن بيت عبدالله باشا الذي هو بيت عمك محمد والذي تسكن فيه أنت الآن معه، تحت البيع بمبلغ خمسة آلاف جنيه ذهب . فلماذا لا تشترونه أو تقول لعمك محمد يطلب من أخيه عبد العزيز أن يشتريه له ؟ ». وبما أنني كنت أعرف أن لا شيء عند محمد من هذا المبلغ المطلوب قيمة للبيت وعندي من القناعة التامة أن عبد العزيز لن يرفض طلباً لأخيه محمد .. رجعت مسرعاً للرياض تاركاً كل شيء ورائي طمعاً في شراء البيت ليكون لمحمد حاضراً ومستقبلاً ومراعاة لشعوره إذا حيل بينه وبين السكن في هذا البيت الذي أكمل تأثيثه بما يحبه من المفروشات . وحينما قابلته استغرب عودتي بهذه السرعة وقال : هل قضيت جميع حاجاتنا ؟ قلت : لا .

قال منفعلاً : لماذا رجعت دون أن تنهي شغلك ؟ قلت : في الأمر شيء أهم . قال : ما هو ؟ . قلت : الأمر كذا وكذا وبيتك معروض للبيع وسيباع بخمسه آلاف جنيه ذهب . أسرع واطلب من عبد العزيز أن يشتريه لك قبل فوات الأوان . وفوجئت به يقول : والله انني اعتقدت أن في الأمر شيء غير ذلك لا سمح الله .. وأخذ يكرر الحمد لله على أن الأمر لم يكن إلا ذلك . ثم قال بهدوء: لا يا ابراهيم.. ولماذا أطلب من عبد العزيز أن يشتري لي البيت . قلت : لأنه هو بيتك ومفروشاتك فيه ومعروف الآن باسمك ولا يوجد في مكة أحسن منه أو مثله مسكناً لك وبعد عمر طويل لأولادك . وإذا به يقول لي : خاف الله يا ابراهيم ، حكّم عقلك ،إذا أنا طلبت من عبد العزيز ورفض لأسباب لا أعرفها أنا ولا أنت فهل ترضى أن يكون في نفسي شيء على عبد العزيز وأنت السبب فيه ؟ وما سيكون في نفسي عليك أنت ؟ وأنا لا أحب أن يزعل مني عبدالعزيز . إرجع لمكة وخلص شغلك ولا أطلب منك إلا أن تؤمّن لي ملابسي التي طلبتها والروائح الطيبة والأحذية من شغل سعد العويد (وسعد العويد كان يعمل الأحذية خصيصاً له) ثم أضاف : الحمد لله على نعمته عليّ .. أما أولادي فالمتكفل بهم هو الله وهو المتكفل بي .

وحينا تغمد الله روحه برحمته لم يوجد بعده من النقود سوى أربعمائة ريال فقط لا في أرض ولا في بنوك ، ووُجِد مديناً بما يقارب الثلاثة ملايين مكسورة عليه نتيجة لكرمه وضيافته . أوفاها عنه أخاه عبد العزيز لأصحابها فيما بعد رحمة الله عليهم . لقد كانت ثقة محمد بالله ثم بأخيه ، تملأ نفسه بالإطمئنان على مستقبل أولاده وحياتهم من بعده ..

ولقد عاش أولاده وأعضاء أسرته من بعده في بحبوحة من العيش وعز يرفعون بـــه رؤوسهم . بفضل الله . ثم بفضل العطف الأخوي الذي شملهم به عميد الاسرة ، عمهم ، الملك عبد العزيز رحمه الله .

* * *

القصاص وحماية المستجير

كان محمد رحمه الله لا ينفذ عملاً إلا بعد أن يفكر فيه من كل جوانبه ، ولا يعد بشيء إلا بعد أن يعلم أنه قادر على الوفـاء باذن الله ، ولا يقول كلمة إلا وهو يحسب حساباً لمدلولها وأبعادها وآثارها .

كان شديد الإعتزاز بالتقاليد العربية ،وذلك من خصال أبناء الأسرة السعودية كلها .. ومن هذه التقاليد ، حماية اللاجىء المستجير ..

أذكر في هذا المجال ، موقفاً شهدت مراحله.. كان موقفاً بالغ الحرج بالنسبة للأمير محمد ، بل ولا أبالغ إن قلت إنه أحرج موقف مرّ به .. ولا زلت أذكر كيف كان محمد يطيل التفكير في سكون وهدوء ، باحثاً عن مخرج من ذلك الموقف ..

كان ذلك عندما التجأ إليه قاتل ولد « عبد الرحمن بن برمان » .. الذي أصدرت المحكمة الشرعية عليه حكمها بالإعدام بعد أن ثبت عليه القتل العمد .. وكان والد القتيـل عبد الرحمن بن برمان ، رجلاً من كرام الرجال وشجعانهم ، من قبيلة سبيع ، له مكانة كبيرة عند محمد ، كما كان لمحمد مكانة ومعزة خاصة عند الرجل وعند قبيلة سبيع ، بـل وكانت القبيلة بجميع أفخاذها تعتبر محمد كبيرهـا ، ورائدها ، خاصة وأن محمد كانت تربطه بالقبيلة صلة نسب .

.. قاتل ابن الصديق ، لجأ إليه مستجيراً..ولم يسبق لمحمد أن سلّم لائذاً به ولاجئاً إلى حمـاه للقتل .. وحكم شريعـة الله فوق كل شيء .. فما العمل ؟ ..

كان على محمد أن يفكر في وسيلة ما تحفظ له حرصه على تقاليد العروبة بحماية اللاجىء .. وتحفظ له صداقة الرجل العزيز عليه وقبيلته، وتحفظ للشريعة احترامها وحقها في النفاذ ..

واستطاع محمد في ليلة مباركة وفي جلسة طويلة مع عبد الرحمن (لا يعلم إلا الله ما دار بينهما فيها من حديث) ، استطاع إقناع ابن برمان بالعدول عن إعدام قاتل إبنه والعفو عنه . وفي اليوم التالي .. حضر عبد الرحمن ،حاملاً بندقيته ، وبصحبته رفاقه ، وبعض رجال سلطة تنفيذ الأحكام الشرعية لاستلام القاتل وتسليمه له ليعدمه بنفسه حسب حكم الشريعة ..

وأحضر القاتل، وسُلِّم إلى ابن برمان في ساحة قصر محمد في عتيقه، وكانت الساحة مزدحمة بجموع المتفرجين ، ينتظرون رؤية البندقية تصوّب إلى القاتل ، ثم الرصاصة تنطلق لتقضي عليه .. وفيم الكل ينظرون وينتظرون ، إذ بابن رمان يتقدم من قاتل ابنه ، ولكنه يعيد البندقية إلى كتفه ويمسك بشعر رأس القاتل ، ويتناول مقصاً من جيبه ، يقص به بعضـــاً من الشعر وهو يقول : أنت إبني عوضاً لي فيمن قتلته ..

لم أرَ في حياتي مشهداً أعظم من ذلك المشهد .. ولا أعتقد أن أحداً من المتفرجين يومذاك رأى في حياته مشهداً أعظم .. لقـد اغرورقت

العيون في تلك اللحظة بالدموع .. دموع لا يستطيع أحد أن يحدد إذا ما كانت دموع الفرح لحياة حفظت لصاحبها ، أم دموع التقدير للرجل الكبير والد القتيل عندما لبس تاج العفو عند المقدرة ، أم دموع الشكر لله على قضائه وتدبيره وحكمته .. فهذه إرادة الله ، أن يلهم الجميع ويوفقهم إلى الخير .. وأن يصدر العفو من صاحب الحق في التنفيذ والقادر عليه . وأن تحفظ لمحمد مكانته وحماه ..

ولعلي عبّرت عن هذا المشهد وعن هذه المعاني ، عندما قلت في قصيدتي عن قصر عتيقه [1] :

حَمَاه حامي هيكلك من عدوّه   في ساحتك ما سفك دماً ولا جاها

* * *

الحزم والصلابة . . والحكمة

مع طيبة القلب ودماثة الخلق ، كان محمد شجاعاً في الحق ، حازماً صلباً في المواقف التي تستدعي الحزم والصلابة ، ولعل في هذه الواقعة التي حدثت خلال فترة توليه إمارة مكة المكرمة عام ١٣٤٣ هـ فيما كان حصار جدة مستمراً ، كما سيأتي ذكره في الفصل اللاحق عن الحروب - لعل فيها خير دليل على الحزم والحكمة ، وما كان لهما من أثر فعال وحاسم في إخماد نيران فتنة لا يعلم إلا الله مداها وما كانت ستسببه من دمار وخراب فيما لو نجح مفتعلوها فيما خططوا له ..

في ذلك العام ، تناقل الناس في أنحاء الجزيرة العربية وخارجها ،

(١) انظر القصيدة الكاملة في الفصل الثاني عشر .

أنباء استقرار الأمور واستتباب الأمن في مكة المكرمة وما حولها بعد أن تمت سيطرة عبد العزيز على منطقتها ، وبعد أن تولى أمورها محمـد بحكمة ودراية . وفي موسم الحج ، بدأ الناس يفدون إلى مكة من كل فج عميق ، متشوقين لزيارة بيت الله الحرام ، واداء فريضة الحج وهم على يقين من سيادة الأمن والنظام وهدوء الأحوال .

وخـلال تجمع الحجاج في مرتفعات وادي مكة (الأبطح) والمسماة (العدل) تأهباً للعودة لبلادهم بعد اداء فريضة الحج ، وكان الحجاج يذهبون إلى أسواق مكة لشراء ما يلزمهم قبل سفرهم ، توجه بعضهم إلى سوق الجودرية ويعرف عند أهل مكة بسوق (الشروق)فحدثت مشادة بين بعض رجال البادية المسمين آنذاك (بالإخوان) وبعض أهالي مكة .

.. كثيراً ما تحدث المشادات ويحدث العراك كأمر طبيعي في الأسواق خاصة في مواسم الإزدحام ، ودائماً ما تنتهي هـذه المشادات بتدخل العقلاء والصالحين ، ينهونها بسلام ويعود الصفاء .

ولكن الأمور هنا اختلفت ، ولم يكن هناك عقلاء ومصلحون بـل كانت هناك عناصر من فلول المنهزمين وجدت في المشادة فرصة لإشعال نار فتنة شعواء بين الحجاج .. عناصر مخربة حاقدة ، ساءها أن ينتصر عبد العزيز وأن يستتب الأمن ويسود النظام .. وهم يدركون أن نجاح موسم الحج وانقضاءه في هدوء ، هو نصر آخر لعبد العزيز وهو الدليل العملي أمام الحجاج والبلاد المجاورة بل وأمام العالم أجمع بان الأمر قـد استتب له .. فارادوا أن يفسدوا الأمور ، ويشوهوا الموسم باشعال نار

فتنة بين الحجاج وأهالي مكة ، تسيل فيها الدماء وتنتقل أنباؤها إلى أنحاء البلاد وخارجها ، للتقليل من هيبة عبد العزيز والتشكيك في سيطرته على الأمور .

بتاثير هذه العناصر تطورت المشادة إلى اشتباك بين أهالي مكة والإخوان .. وكان المعروف عن الإخوان اتصافهم بسرعة الإنفعال مع التعصب الشديد وضيق الأفق ، مما يجعل التفاهم معهم من أصعب الأمور ومما يحتاج إلى أقصى درجات الحلم وطول البال والمرونة .

وانتقلت أنباء الإعتداء على الإخوان إلى قومهم المقيمين في مرتفعات مكة ، فثارت نفوسهم وتملكهم الغضب القبلي الجارف ، وسيطر عليهم الحماس والانفعال ، وتنادوا للنزول إلى مكة لنصرة إخوانهم والإنتقام ممن اعتدى عليهم ، وانطلقت جموعهم تنادي بالتجمع والمسير لقتال « أعداء الله » . وكان النداء كافياً لتجميع المزيد ، وللمزيد من الثورة والحماس والإنفعال ، فقد كان كل من يسمع صيحة الدعوة المثيرة « اقتلوا أعداء الله » ينضم اليهم حتى تالفت جموع حاشدة ثائرة ، انحدرت باسلحتها وغضبها الجارف كالطوفان متجهة إلى مكة .

كان عبد العزيز في ذلك الوقت ، في موسم الحج ، مقيماً في بيت السقاف في عوالي الأبطح ، وتسمى بالمعابدة . وبلغه الأمر وأدرك ما يمكن أن يحدث لو وصلت هذه الجموع الثائرة الغاضبة والمسلحة الى مكة فاسرع يعترض الزاحفين ويناشدهم بحق الله أن يعودوا الى أماكنهم ، وأخذ يقطع لهم العهود بانه سيحقق في الأمر وأنه لن يكون الا في

جانب الحق .. ويؤكد لهم أنه المسؤول عـن كل ما حدث وما يحدث ويعدهم بعقاب المخطىء ، سواء كان منهم أو من أهالي مكة .. كما أكد لهم أنه لا يريد أن يمنعهم بالسلاح ، بل بالحسنى ..

ولكن جهود عبد العزيز لم تنجح مع الاخوان ، وهم كما وصفناهم ، وقد سيطر عليهم الغضب والتعصب ولم يستجيبوا لحديثه ولا لوعوده ، واستمروا في زحفهم تجاه مكة مصممين على الإنتقام . وتركهم يرون . كان عبد العزيز في حقيقة الأمر يستطيع منعهم وردعهم بالقوة، لكنه لم يكن يريد استعمالها ، بل كان مصمماً على اقناعهم بالحسنى لا لعجز قواته عن التصدي لهم ، ولكن لأنه كان يدرك أبعاد نشوب القتال ومخاطره وخصوصاً في موسم الحج وإنها لأول مرة يحج المسلمون في عهده . وقرر أن يحاول مرة أخرى .. كانت المسافة التي تفصل مكان اقامته عن مكان اقامة أخيه محمد حوالي الكيلومترين.. وقدّر عبدالعزيز عندما تركهم يواصلون الزحف متوجهين الى مكة ، ان قطعها يستغرق وقتاً ربما كان كافياً لتهدئة نفوسهم بعض الشيء ، وقديكون أيضاً كافياً بالنسبة له هو لتدارك الموقف .

ويحضرني في هذه المناسبة مثل ربما يناسب معناه هذا الموقف. يقول المثل، «قيل لأحدهم، أتفضّل أن تُقْتَل بالسيف أم بالبندقية ؟ فأجاب: بالسيف، لعل في سلة السيف فرجا !». أي انه وهو يواجه القتل في الحالتين فضّل السيف أملاً أن يكون في اللحظات القصيرة التي يستغرقها سل سيف الجلاد من غمده فرجاً يخلصه .

أسرع عبد العزيز ، يرسل (فهد المعشوق) على جواد باقصى مـا يستطيع من السرعة ، بتفصيلات عن الموقف وبتعليمات إلى أخيه محمد قبل أن يصل الثائرون الى موقعه .. ولم يكتف بذلك ، بل بادر الى الاتصال باخيه هاتفياً ..

وكنت ـ وأنا أقيم مع الأمير محمد ـ قرب التليفون عندما دق .. ورفعت السماعة للإجابة وإذ بي أستمع اليه يقول: « أنا عبد العزيز. وين عمك محمد ؟» وأجبته أنه موجود مع الخويا بالدهليز . فسالني: هل كلهم موجودون ؟

قلت : نعم كلهم حاضرون وجاهزون .

قال : قل لعمك أن أخاك عبد العزيز يخبرك بأن الاخوان تعدّونا متجهين الى مكة .. وان عددهم ليس قليلا .. أبلغه أني أستحلفه بحق الله عليه ثم بحقي أن لا يرد عليهم الا بالحكمة لا بالقوة حتى لو اضطرته الحالة للدفاع. ثم أضاف: أبلغه، واتصلوا بي بأسرع ما يمكنكم، وسابقى عند التليفون. وأسرعت أبلغ محمداً حرفيّاً ما قاله أخاه عبد العزيز. وما كدت أنتهي حتى وصل فهد المعشوق على جواده ، ليبلغ محمد رسالة عبد العزيز وهي ذاتها التي أمرني بابلاغها بالتليفون . أدرك الأمير خطورة الموقف ..وهو يعلم كل شيء عن طباع الاخوان وغضبهم وتعصبهم ..وأخذ يقلب الأمر على مختلف أوجهه ويبحث عن الحل السريع الحاسم ،خاصة والوقت ضيق وما تلبث الجموع الثائرة أن تصل. وفكر سريعاً.. وانتهى إلى أن يوزع رجاله (الخويا) على مداخل مكة الثلاث .. الطريق العام المسمى بالأبطح وطريق الحلقة الذي يتفرع من الطريق العام ، وطريق شعب

عامر الذي يتفرع أيضاً من الأبطح عند برحة الرشيدي . وزع الأمير رجاله وكان عددهم يقارب الثلاثمائة وأمرهم بالاستعداد .

ومرت دقائق . واذا بجموع الاخوان تصل هادرة زاحفة كالسيل الجارف .. ما بين خيالة ومشاة .. وما زالوا في أوج ثورتهم وغضبهم وتصميمهم على الانتقام . ولم يعد بيننا وبينهم ، ونحن نعترض الطريق في وجههم شاهري السلاح .. أكثر من خمسين متراً .. وارتقى الأمير محمد درج بيت الحُكم (بيت الشريف عبد الله باشا سابقاً) .. وصاح فيهم بصوت عال : وين رايحين ؟ وين رايحين ؟

وكان ردهم : رايحين لبيت الله ..

وأجابهم بصوت قاطع : لا .. ثم لا .. والله لا يدخل حرم الله من يحمل سلاح الفتن ..

ثم أضاف بلهجة قوية حازمة ، عبارته الحاسمة : فوالله لو تقدم أحد منكم خطوة واحدة ليكونن مصيره الموت ..

وتوقف الزحف الهادر فجأة أمام الكلمات القوية الحاسمة ، وأمام الموقف الحازم الصلب.. وأدرك الاخوان أن تقدمهم يعني القتال الفوري لا محالة .. وان الانذار قاطع وجاد ، والسلاح جاهز مشهر في وجههم، فوقفوا في أماكنهم وكأن قوة ما سمرتهم فيها وجمدتهم ..

وأخذت كلمات الأمير محمد الحاسمة تفعل فعلها في الجموع الثائرة ..

سادت صفوفهم الأمامية حركة اضطراب ما لبثت أن سرت إلى الخلف . وكنا نشاهدهم وهم يدورون حول أنفسهم يتحركون إلى اليمين

وإلى الشمال وإلى الخلف . لا يكادون يعرفون ماذا يفعلون، وكأنما هناك قوة آسرة تشدهم إلى الخلف ..!

لم يبد واحد منهم أية محاولة لمواصلة التقدم، أو أي بادرة للتحدي.. بل ولم يحاول أحد منهم ولا من زعمائهم التقدم للحوار مع الأمير محمد من جديد ..

بعد فترة من الاضطراب في صفوفهم ، رأينا الصفوف تلتف حول نفسها ، لتعود من حيث أتت ! وكأنما تيار عاصف واحد يدور بهم ويعيدهم بسرعة الى الوراء .

وتنفسنا الصعداء ، وحمدنا الله على نعمته بعودة الاخوان دون أن نضطر الى إجبارهم بالسلاح الى العودة ..في هذه الأثناء كانت أخبار عن هذا الزحف الثائر والمسلح ، وعن الفتنة المقبلة على مكة، قد وصلت الى الأهالي فأسرع التجار يقفلون حوانيتهم ، وأقفرت الشوارع من الناس . وبقيت مكة تترقب ما تأتي به الأحداث . وأسرع الأمير محمد بعد أن تم حسم الموقف وإجبار الاخوان على التوقف ثم ارتداد جموعهم ، أسرع بالنزول الى المسعى يدعو التجار الى فتح حوانيتهم ويدعو أهل مكة للاطمئنان وإلى مزاولة أعمالهم كالمعتاد .. وتنادى الناس بالأمان وزاد في اطمئنانهم رؤيتهم للأمير محمد غاديا في المسعى بنفسه يحث الجميع على العمل ويطمئنهم مؤكداً لهم أن الأزمة انتهت وان الأمور عادت الى مجراها وان ليس عليهم أن يخشوا شيئاً وعلى مسؤوليته .. وكان أول من افتتح حوانيته الصيارفة .. وكانوا يمثلون في ذلك الوقت

« البنوك » في الوقت الحاضر وتزخر حوانيتهم بالأموال الضخمة من مختلف العملات ، وفي مقدمتهم صالح وعبد العزيز آل كعكي ، وزاد إقدام الصيارفة على افتتاح حوانيتهم من اطمئنان بقية التجار والأهالي.. وما هي إلا ساعة وعاد كل شيء إلى مجراه الطبيعي ..

أعتقد انني لست في حاجة الى التعليق على هذه الحادثة .. ولكنها كلمة حق أود أن أضيفها ..

إنه الحزم في موقعه ، وانها الصلابة في الحـق ، والكلمة الحاسمة في مناسبتهـا .

وانه التعاون الفعال بين الشقيقين ، والثقة الـكاملة بالله ثم بالنفس، والحرص التام على المصلحة العامة ..

ولقد زادت هذه الحادثة مـن اكبار عبد العزيز لأخيه ووطدت ثقته الغالية فيه وفي حسن تصرفه وفي الايمان بامكانيــة الاعتماد عليه في المهمات الصعبة والمواقف الحاسمة .

* * *

واقعة ثانية ، أذكرها للقارىء كشاهد عيان ، حدثت بعد أن ترك الأمير محمد إمارة مكة عام ١٣٤٤ هـ . أقدمها لأؤكد بعض ما ذكرته في حديثي السابق عن كريم خصال محمد وما أداه من جلائل الأعمال ..

في ذلك العام ، وبعد ما ذكرناه من سقوط جدة بعد حصارها ـ وقد تم الاستيلاء أيضاً على المدينة المنورة على يد الأمير محمد بن عبد العزيز ـ استتب الأمر في الحجاز كله ، وساد الإطمئنان والهدوء جميع أرجاء

المملكة العربية السعودية واطمأن أهل البلاد الى سيادة النظام والأمن كما اطمأن المسلمون في البلاد المجاورة وفي مختلف أقطار العالم الى انتهـاء الصراع في البلاد وعودة الأمور الى وضعها الطبيعي في الديار المقدسة . وكانت النتيجة الحتمية لذلك الاطمئنان أن اشتد الاقبال على أداء فريضة الحج وأقبل المسلمون من كل حدب وصوب بعد أن حرموا من القدوم الى الديار المقدسة سنوات بسبب ما دار حولها من صراع ..

وكان الحجاج المصريون فيطليعة الحجاج الذين أسرعوا لأداء الفريضة كما كانوا الأكثر عدداً .. وبرفقتهم كسوة الكعبة الشريفة .. التي كانت تصاحبها قوة عسكرية لحراستها ، وترافقها بعثة خاصة يرأسها أمير الحج المصري .. وكان يطلق عليها (المحمل المصري) ولعل هذه التسمية تعود الى أن الكسوة الشريفة كانت بعد أن يتم صنعها وتهيئتها بمصر يحتفل بعرضها محمولة على ظهور الجمال في احتفال رسمي كبير يقام لهذا الغرض . ثم تحمل بالمراكب الى جدة ، حيث تعود الجمال لحملهـــا الى مكة المكرمة لتكسى بها الكعبة المشرفة .

كانت القوة العسكرية المرافقة للمحمل مسلحة بالبنادق والمدافـع والرشاشات .. ويصاحبها مـا يصاحب القوات العسكرية عادة مـن موسيقى عسكرية ..

في ذلك الوقت كان كثير من المسلمين بـل معظمهم ، ينكرون ويرفضون رفضاً باتاً ، كل ما يرونه خروجاً على تعاليم الإسلام الحنيف من البدع غير المستحبة والمخالفة للشريعة الاسلامية ولسنة رسول الله

محمد صلاة الله وسلامه عليه . ومن ذلك الطرب بكل أنواعه والموسيقى بكل أنواعها ، ولا سيما في موسم الحج تطبيقاً لقوله سبحانه وتعالى « لا فسوق ولا جدال في الحج »..

كان كثير من الحجاج ، سواء من أهل المملكة أو من الحجاج الوافدين اليها من الخارج ، كانوا ممن لم يعرفوا شيئاً عن تقاليد الاحتفال بالمحمل ، أو عما يرافقه من موسيقى عسكرية ولم يكونوا قد رأوا ذلك من قبل وان كانوا قد سمعوا به ..

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة عام ١٣٤٤ هـ . وهو اليوم الذي يتجمع فيه الحجاج في منى للتاهب للذهاب الى جبل عرفات تادية لمناسك الحج ، ظهراً ، على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

حدث في المساء ، قبيل منتصف الليل أن أصدر أمير الحج المصري أمره الى قائد القوة المصرية العسكرية المرافقة للمحمل بالتاهب للمسير الى عرفات .

وكان طبيعياً أن ينبه القائد قواته للاستعداد للمسير بواسطة (البرزان) ـ ويسمى البروجي أو النفير ـ الذي يستعمل عادة في كل جيوش العالم للنداءات العسكرية .

وعندما سمع الحجاح من غير المصريين صوت (البرازان) ولم يكونوا يفهمون القصد منه أو من أنغامه التي لا يفهمها الا العسكريون ، اعتقدوا أنه صوت موسيقى صادر عن آلات للطرب .. واعتبروا ذلك خروجاً على أوامر الله عز وجل وتعاليم الاسلام ، بل واعتبروه



المحمل المصري – إحدى قطع كسوة الكعبة الشريفة التي كانت تحملها الجمال من جدّة إلى مكة المكرمة ،

تحدياً من جانب المصريين لمشاعر المسلمين واهانة لقدسية الحج واستفزازاً للحجاج .

والله أعلم بحقيقة النية ، وحقيقة الدوافع التي حدت ببعض الحجاج الى الغضب والثورة وهل كان ذلك رد فعل على ما اعتقدوه من استفزاز وتحد للمشاعر ومخالفة لأوامر الله، وهل كانت ثورة بريئة غيرة على الدين وعلى تعاليم الاسلام ودفاعاً عن القدسية الواجب احترامها .. أم انه كان هناك محرضون من فلول المنهزمين في المعارك المختلفة السابقة[1] التي تم فيها النصر لعبد العزيز آل سعود ، من العناصر الراغبة في اثارة فتنة مسلحة لافساد موسم الحج ، ثم اتخاذ الفتنة ومـا يحدث فيها من قتال وسفك دماء دليلاً على عدم تمـام السيطرة السعودية على البلاد ..

هذا أمر لا يعلم حقيقته الا الله .

خلاصة الأمر أن الثورة اجتاحت آلاف الحجاج وتجمعوا غاضبين، وكان معظمهم من أهالي البلاد ومـن أهالي منطقة (نجد) بالذات .. وكانوا مسلحين وأشد الحجاج غضباً وثورة ..

وأصبح الأمر ينذر بشر مستطير ـ بعد أن تجمع الحجاج المسلحون الثائرون ، ليعترضوا طريق سير المحمل المصري ـ والقوات المرافقة له وبعثة الحج ..

وإذ كنا حوالي منتصف الليل ، والظلام يلف الجميع ، كان واضحاً أن أي اشتباك بين الطرفين سيؤدي دون شك الى سقوط مئات الضحايا..

(١) رأينا أن نفرد للحديث عن بعض المعارك الهامة فصلاً خاصاً ، هو الفصل الرابع .

وما أكثر ضحايا معارك الليل ، التي لا يتبين فيها مطلق النار هدفه الذي يطلق النار عليه ..

وتوقف المحمل المصري ،وتوقفت القوة المرافقة له ،وأحاطأفرادها بالمحمل وببعثة الحج ، واتخذوا مواقعهم وأعدوا استحكامات تحصنوا خلفها ، وأسرعوا بنصب المدافع واعدادها للإنطلاق ..

وابتدأ اطلاق النار من كلا الجانبين ، بشكل متقطع .. ثم أطلقت المدافع المصرية بعض الطلقات . ولكن الى هذا الحد ، لم تقع اصابات في الأرواح من الجانبين ، بل كانت الخسائر محصورة في الجمال والمواشي وما كانت تحمله من أغراض ..

وبطبيعة الحال علم الملك عبد العزيز بالأمر ، وأسرع يرسل رسله الى أمير الحج المصري ، ليأمر قائد القوة العسكرية بوقف اطلاق النار، ولم تستجب القوة المصرية لرسل عبد العزيز ..

وأخذ الموقف يتأزم لحظة بعد لحظة .. اطلاق النـار مستمر والآلاف من الحجاج ، سواء منهم المشاركون في حصار القوة المصرية أو الموجودون في المكان ، لا يعلمون عن مصيرهم شيئاً اذا نشبت المعركة العنيفة المتوقعة والتي يمهد لها الجانبان بهذه النيران المتقطعة ..

وأسرع الملك يستدعي أخاه ، الأمير محمد بن عبد الرحمن ، ويحمّـله رسالة الى أمير الحج المصري .. كانت توصية بالهدوء والكف عن اطلاق النار ، وتحذيراً من مغبة الأمر – وأوصاه أن يعجل بنقلهـا الى أمير الحج .. وسار الأمير محمد متوجهاً الى مكان المحمل ، وبصحبته ابنه

خالد رحمه الله وحاشيته جميعاً .. واخترقنا جموع الحجاج الثائرين المصممين على الانتقام من القوات المصرية .. واستمر الأمير في التقدم بين الجموع حتى وصل الى المنطقة المحصورة بين الجانبين ، أمام المكان الذي تحصن فيه الجنود المصريون حول المحمل .

ونادى الأمير محمد الجنود معرفاً بنفسه كرسول من أخيه الملك عبد العزيز وطالباً منهم السماح له بالتقدم لمقابلة أمير الحج وقائد القوات المصرية .

بعد لحظات سمحوا له بالتقدم نحو التحصينات ، مشترطين أن لا يدخل معه سوى أربعة أشخاص، ووافق الأمير محمد واختار أن يصحبه نجله خالد ، وثلاثة من الحاشية كنت أحدهم ـ ولعل ذلك هو ما يجعلني أستفيض في ذكر تفاصيل هذه الواقعة التي حضرتها كشاهد عيان ..

وتقدمنا بصحبة الأمير محمد ، مخترقين صفوف الجنود والتحصينات حتى وصلنا إلى المحمل حيث وقف إلى جواره أمير الحج وقائد القوات المصرية وحولهم الكثير من الضباط . وتبادل الامير محمد معهم التحية والسلام .. وبدأ حديثه بابلاغهم أنه يحدثهم نيابة عن أخيه الملك عبد العزيز ثم قال لهم في هدوء وثقة :

« إذا كنتم قد أتيتم إلى هذا المكان قاصدين وجه الله وحج بيته الحرام فإننا نعاهدكم بالله اننا نحن حرّاسكم من كل سوء بعد حراسة الله.. وليس هذا السلاح الذي بين ايديكم هو الذي سيحرسكم . أما إذا كنتم قد جئتم لغرض غير ذلك فعليكم ان تتحملوا نتائج ما سيحدث لا قدر الله».

وكان جواب أمير الحج المصري وقائد القوة والضباط ، أن أقسموا جميعاً بالله العظيم أنهم لم يأتوا إلى ذلك المكان إلا للحج ، قاصدين بيت الله الحرام ، وأنه ليس لهم غرض ما ولا هدف آخر سوى ذلك ..

وأجابهم الأمير محمد : « إذن . نرجوكم جميعاً أن تلتزموا الهدوء وأن تسيروا برعاية الله ثم برعايتنا بكل سكينة وهدوء واطمئنان كما نرجوكم ألا تستعملوا هذا (البرزان) اطلاقاً من الآن فصاعداً حتى لا يثير المشاعر .. سيروا على بركة الله . وستؤمن حمايتكم من كل اتجاه » .

واطمأن المصريون إلى كلمات الأمير محمد نوعاً ما .. وانصرف الأمير محمد مطمئناً .. وما هي إلا لحظات إلا وأقبل الأمير فيصل بن عبدالعزيز ، وتوجه إلى أمير الحج وقائد القوة ليبلغهم القول الفاصل ، ثم ليأمرهم بالمسير معلناً أنه سيرافقهم إلى عرفات . وعندها اطمأن الجميع وسرت السكينة إلى النفوس ، وعدل المصريون عن استخدام القوة دفاعاً عن أنفسهم ، فقد اطمأنوا تماماً بسير الأمير فيصل معهم . وسرى الهدوء أيضاً إلى الحجاج الثائرين المحتشدين .. وما هي إلا فترة يسيرة وتفرقت الجموع كلٌّ يستعد للمسير ..

وسار موكب المحمل إلى عرفات ، والأمير فيصل برفقته في رعاية الله ، ثم في حماية عبدالعزيز آل سعود ..

هكذا ، أخفقت محاولة إشعـــال نيران الفتنة .. بفضل الله ، ثم بفضل الملك عبدالعزيز وسرعة تصرفه ، وحكمة ولباقة الأمير محمد وقوة شخصيته وحسن حديثه ، وحزم الأمير فيصل وإقدامه والثقة الكاملة التي يشيعها حديثه وحضوره .

وانقضى الحج ذلك العام على خير ما يكون هدوءاً وأمناً ، دون حادث ما يعكّر صفاء تلك الأيام المباركة .

•

وبعد ..

بقيتُ مع الأمير محمد ، أمارس عملي معه بكل أمانة وتفان في خدمته، معتزاً بهذا العمل إلى أن اختاره الله إلى جواره رحمة الله عليه..

أكثر من خمسة عشر عاماً ، وأنا في عملي أجد اللذة في الاخلاص له ولاسرته الكريمة التي ما زال الكثيرون منها موجودين ولله الحمد.احفظ لهم كل مودة واخوة ، واعتز بهم .. .. سنوات طوال ، لم اترك فيها العمل معه رحمه الله سوى فترة بسيطة لا تزيد عن ثلاثة أشهر..إذا قسناها الى المدة الطويلة لا تعد شيئاً يذكر ، ولا تعتبر إلا كلحظات ..

كان خلاف بسيط ، كالذي يحدث عادة بين الوالد وأولاده ، وبين الأخوة ، وبين الاصدقاء . انتقلت على أثره للعمل مع أخيه الملك عبدالعزيز رحمه الله كرئيس لمجموعة من مجموعات الحرس الخاص ، وحتى خلال هذه الفترة البسيطة كان الود متصلاً بيني وبين الأمير محمد . وهل كان من الممكن أن يكون غير ذلك ؟..

في هذه الفترة وفي عام ١٣٥١ هـ روعت الاسرة بوفاة الامير خالد أكبر انجال الامير محمد في حادث سيارة عندما كان مع والده قائمين برحلة صيد .. ولقد وقع خبر وفاة خالد ، وقع الصاعقة على الجميع ، واهتزت البلاد من اقصاها إلى أقصاها ، وشمل الأسى والحزن الجميع ، الاسرة السعودية ، والشعب جميعاً .. لهذا الحادث المؤسف الأليم .

وقرر الملك عبدالعزيز أن يسرع لتعزية أخيه وان يكون إلى جواره في هذه المحنة ، وكنت في صحبة جلالته ولا يعلم إلا الله ما كان في نفسي من آلام ، وما في قلبي من أسى .. لقد جفت الدموع في عيني حتى لقد كنت أتمنى لو سالت دموعي لعلها تطفىء نيران الألم التي تكاد تصهر قلبي وفؤادي ، حزناً على خالد .

وفيما كنت في الطريق إليه عبر الصحراء بصحبة الملك ، كانت الافكار تتزاحم في رأسي.. ماذا سيقول الأمير محمد عندما يراني؟ وماذا ساقول له عندما أراه .. هو الوالد الحنون والأخ الأكبر ، الذي لم أكن بعدت عنه أكثر من ثلاثة شهور . ثم أقابله للمرة الاولى بعد البعد في هذا الظرف المؤلم ؟.

من واجبي أن أعزيه ، وأنا أحق أن يعزيني الناس . وكيف لا وقد عشت معه ومع أنجاله عمراً طويلاً لا أكاد أفترق عنهم إلا ساعات .

ووصلنا إلى الصيوان الفسيح الذي أقيم في الصحراء ، وكان يموج بكتل من البشر جاءوا كلهم يشاركون الامير محمد أحزانه ويواسونه في مصابه .. ورآني وأنا أترجل ولاقاني وأسرعت اليه أحتضنه وأقبل جبينه وقد انعقد لساني فلا استطيع النطق بكلمة واحدة أعزي بها أو أعبر بها عن لوعتي . وسمعته ، رحمه الله ، والدموع تسيل على خديه ، يقول لي بصوت لا يكاد يسمع :

ـ مات خالد .. مات خالد يا ابراهيم .. لا تتركني يا ابراهيم ..

ولم استطع من فرط تأثري أن أظل في مكاني .. فانتحيت جانباً ..

أجتر اللوعة والحزن .. وافكر في كيفية عودتي لأكون بجوار هذا الرجل الكريم ، والوالد العطوف في محنته ، ولأكون بجانبه دائماً كما كنت، وأرجو الله أن ييسر ذلك . واستجاب الله لرجائي .. وحقق لي ما تمنيته ، وكان الأمر سهلاً ميسراً بتوفيق الله .. وقبول أخيه الملك عبدالعزيز .. وعدت لعملي معه ـ أو عدت في الحقيقة لأكون معه وبجواره . رحمه الله .

*

ولا زلت ، وساظل مدى الحياة ، اذكر تلك الايام الحافلة ، أيام عملي الطويل مع الامير محمد رحمه الله . أذكره بالعرفان والتقدير والشكر. وحتى لا يعتقد القارىء أن في حديثي عنه وعن خصاله وصفاته مبالغة مني ، أذكر هنا بعض ما نلته من تقديره وكرمه رحمه الله مما يقصر عنه كل شكر .

لقد احتضنني كواحد من أولاده .. فعوضني عن فقد أبي بحنانه وعطفه .

ولقد كفاني جميع متطلبات حياتي قبل زواجي ، جميعها بدون استثناء .. مما رفع مستواي في المجتمع بين أبناء جيلي وزملائي .. ولقد وهبني سكناً خاصاً ، ملّكه لي.. وتحمل جميع نفقات زواجي .واهداني ما لا يعد من الخيل والسيارات .. وساعدني وظل يساعدني ، مادياً ومعنوياً ، ويساندني في شتى المجالات ، حتى نجحت في كل اعمالي ،وحتى ارتفع مستوى حياتي إلى أفضل حد بحمد الله .

وهنا أود أن أوضح للقارىء شيئاً .. عادة أو تقليداً ، أو رأياً كان سائداً في جيلنا في ذلك الوقت .. كان جيلنا ، يرفض ان يتولى وظيفة ما ، سواء كانت مدنية أو عسكرية ، لقاء راتب شهري محدد .. أي انه كان يرفض أن يأخذ أجراً ثابتاً لقاء عمل ثابت .. كان ذلك شأن الجميع وشأني ، بل وكنا نعتبر ذلك عيباً نتجنبه .

كنا نرحب بالعمل ، بكل عمل ، صغيراً كان أو كبيراً ، مريحاً كان أم شاقاً ، ونؤدي كل واجب بدون قيد أو شرط ونتسابق لأي مهمة نقضيها بكل اخلاص وتفانٍ ، نبذل الجهد مهما كان عظيماً دون نظر إلى وقت معين طال أو قصر ، بل ونبذل الدم لو استدعى الأمر التضحية بالنفس في سبيل الواجب .. وكل منا يعيش على المكافأة التي تقدر على أساس امكانياته وجهده في العمل الموكل إليه .. وكنا نحن الراجحين دائماً . فقد كان تقدير ومكافآت الأمير محمد رحمه الله ،اضعاف اضعاف ما كنا نبذل. ومعي بالذات ،كانت مكافآته سخية وكان تقديره عظيماً ، وكان جميله يطوق عنقي ويشملني من كل جانب .

*

بعد هذه الصفحات عن الامير محمد وعن كرمه وعطفه ومواقفه ، لا بد أن القارىء سيقدر عنف الصدمة التي احسست بها يوم اختاره الله الى جواره فافتقده الجميع ، وحرمت منه .

لم يكن بالنسبة لي صاحب عمل أعمل عنده .

لذلك ، فقد اقسمت يوم وفاته بالله العـــلي العظيم ان لا أقبل أي وظيفة مهما كانت عالية ، مستثنياً واجبي في خدمة أسرته الكريمة ، ألبي طلباتها ، وأقضي حاجاتها ، بكل ما وسعني من جهد ، بدون ارتباط بوظيفة معينة أو ثابتة ، وفاء مني وتقديراً لصاحب الفضل والايادي البيضاء .

وقد كان هذا شأني وموقفي مع الامير سعود (ولي العهد آنذاك) رحمه الله ، فقد قمت بما يجب من خدمته، بدون ارتباط ثابت ، أو شرط محدّد ، وقد قدّر لي موقفي ووفائي لاسرة المرحوم عمه ، وأنعم عليّ بأكثرمما كنت استحقه لو كنت موظفاً عنده .

واقد عرضت عليّ وظائف كثيرة عالية ، ومحترمة.. ولكني وفيت بقسمي ولم أقبل أياً منها . ولم يكن رفضي للوظيفة خسارة لي. بل كان ربحي والحمد لله يفوق ربح كل وظيفة مهما عظمت... لقد ربحت ما لا يقدر بمال .

ربحت تقدير أخيه ، الملك عبدالعزيز رحمه الله ، تقديره لموقفي . ربحت أن يقول لي جلالته بالحرف الواحد « توكل على الله يا ابراهيم ، وامض في طريقك وأنا معك مادياً ومعنوياً . »

أي ربح كنت أنتظره اكثر من هذا ؟ وأي تقدير أستحقه ارفع من هذا ؟

وذلك ما حدث فعلاً، لقد ساعدني جلالته ، والملك سعود من بعده رحمها الله مساعدات مادية ومعنوية لا تقدر ، ولم أشعر يوماً بحاجة مادية ، مطلقاً .

إني أذكر ذلك ، وفاء مني لهما رحمهما الله ، لكني لا استطيع ان أتحدث بالشكر ولا أن أقوم بواجب الوفاء نحو جميل مستمر ، وتقدير مستمر ، ورعاية مستمرة دائمة ، من قبـــل جلالة الفيصل المعظم حتى اليوم .

واني لأحمد الله ، فلا زلت موضع الرعاية الدائمة من الأسرة السعودية الكريمة كلها ، ولا زالت علاقتي حتى اليوم وستظل باذن الله ، بأبناء الأمير محمد رحمه الله ، علاقة المودة والثقة . ولعلي مهما بذلت من جهد استطيع ان أفيهم حقهم الواجب عليّ . وأرجو الله أن يوفقهم كما وفق والدهم ، ووالدي الروحي ، من قبـــل .. واني لأكرر الشكر الى الله تعالى ، وأحمده اذ أرى ابناءه الكرام يحذون حذو والدهم رحمه الله على قدر امكانياتهم ، ومتعاونين مع ابناء عمهم عبدالعزيز .. شقيق محمد، رحمهما الله .

*

وأَحمد الله أن أرى وأنا حيّ أبناء عبد العزيز وأبناء محمد يتعاونون جنباً إلى جنب ويداً بيد في عهد فيصل خليفة عبد العزيز وخليفة جده الثالث تركي الذي استعاد كيان الاسرة من الغاصبين . واسأل الله العلي القدير ان يعينه على حفظ هذا الكيان المقدس عريق الجذور ليبقى على طول الدهر وإلى الابد حياً ناطقاً بلسان حماته من أي غادر ولا يتكلف كاتب أو مؤرخ للسؤال عن ماضٍ . مكتفين بما للصامدين لحماية هذا التراث المجيد وحماية كلمة الله العليا على كل شيء .

*

عمي محمد ..

هكذا كنت أقول، وأردد..ولا زلت، كلما ذكرت اسمه رحمه‌الله.

لم يكن عمي شقيق أبي ، بالمعنى الذي تعنيه كلمة العم .. بل كان الوالد والعم والأخ والصديق في آن واحد .. ويشهد الله أني لم أكتب عنه إلا الحق والواقع ..

كل من عمّتني نعمته فهو عمي..ولا أقصد بالنعمة الخير المادي فحسب بل إن أكبر نعمة يمكن أن يحظى بها المرء ، هي التقدير ، والاحترام .. هذا في نظر كل انسان .. يفهم معنى الانسانية .

إنها كلمة وفاء .. لعلي أكون قد وفقت بها في التعبير عما أكنه في نفسي وفي قلبي نحو عمي .. محمد بن عبد الرحمن .

الفصل الرابع

من معارك الجهاد

تضحية.. وبطولة.. وفداء

تمهيد

حديثي في هذا الفصل عن المعارك التي خاضها أبناء الأسرة السعودية وأنصارها ، بقيادة عبدالعزيز رحمه الله ، وتحت رايته في سبيل توحيد البلاد في مملكة واحدة قوية متماسكة ، يسودها العدل والأمن ، وتتجسد فيها مبادىء الاسلام الصحيح الصافي ، والعروبة الأصيلة المجيدة .. أقول إن حديثي هذا ليس تأريخاً للحروب التي خاضها عبدالعزيز ، فالتأريخ مهمة المؤرخين ، الذين يتتبعون أحداث المعارك يوماً بيوم بل وساعة بساعة ، محللين مدققين معقبين معلقين ، دارسين للأسباب والمقدمات والنتائج . بتفصيل لا بد منه عند كتابة التاريخ .. ولست مؤرخاً .. إنما أنا فرد من أفراد الشعب العربي السعودي، أتاحت لي ظروف حياتي أن أكون قريباً من القادة الذين حملوا راية الجهاد .. كنت أقيم معهم وفي رعايتهم .. فكان طبيعياً أن أشارك في المعارك أو في بعضها ، كما كان طبيعياً أن استمع إلى أحاديث المعارك التي لم تتح لي فرصة الاشتراك فيها ، ممن عاصروها أو اشتركوا فيها .

أمر آخر ، إن المؤرخ يكتفي بذكر الوقائع مرتبة حسب تواريخ

حدوثها ، لا يلتفت إلى غير ذلك .. وربما حدثت هذه الوقائع قبل وجوده بعشرات السنين ، فيلجأ إلى ما كتبه معاصروها ، أو إلى الآثار والوثائق ، يقلبها باحثاً مدققاً محللاً .. وأنا لا اعتمد في روايتي إلا على ذاكرتي ، وذاكرة الأصدقاء والمعارف أستعين بهم في تذكر بعض الأسماء لمن اشتركوا في الوقائع التي شاهدتها أو شاهدوها أو شاهدناها سوياً ..

أمر ثالث .. إن المؤرخ يكتفي بذكر وقائع الأحداث .. ولكني وأنا أروي ذكريات هذه الوقائع وتجاربي فيها ، أستطرد كثيراً في رواية ما قد يكون رافق حدوثها من مواقف معينة ، أو لمحات إنسانية تأثرت بها كما تأثر بها الكثيرون ، أو نوادر طريفة أثارت الضحكات وأشاعت جواً من المرح وسط جو الجدية والانفعال والحماس الذي كان يغمرنا أيام القتال ..أليست هذه المواقف واللمحات والنوادر جزءاً من التاريخ؟ إن لم تكن في نظر البعض ، فإنها بدون شك جزء من الذكريات .وجزء من تجارب الحياة .

وما أروعها من تجارب وما أمجدها من ذكريات ..

وكيف لا تكون رائعة تجارب حياة النضال والجهاد في سبيل الحق .

وكيف لا تكون مجيدة ذكريات رفقة المناضلين والمجاهدين في سبيل الله وفي سبيل نصرة الاسلام والمسلمين ، وفي سبيل العزة العربية ..

•

لقد عشت في رعاية الأمير سلمان بن محمد فترة ، ثم في رعاية الامير محمد بن عبد الرحمن سنوات وسنوات .. كانت كلهـــا سنوات نضال وجهاد .. وكان عبد العزيز يخوض المعركة تلو المعركة يرافقه إخوته أو ابناؤه على رأس الفصائل والسرايا ، أو كان يوجههم إلى حيث يقتضي الجهاد أن يتوجهوا .

وكان لي شرف الاشتراك الفعلي في بعض هذه المعارك ، كما لم تتح لي فرصة معاصرة أو الاشتراك في بعضها . ولكني أقدمها للقارىء ، نظراً لأهميتها القصوى ، في تاريخ البلاد .. أقدمها حسب ما سمعت من تفاصيل رواها من حضروها أو عاصروها . منهم من اختاره الله إلى جواره. ومنهم من هو على قيد الحياة أرجو الله أن يمد في عمره...مواقف هي جزء من حقيقة التعاون والتضامن والتكاتف ، الذي يربط أبناء الأسرةالسعودية جميعاً ، بعضهم إلى بعض.

*

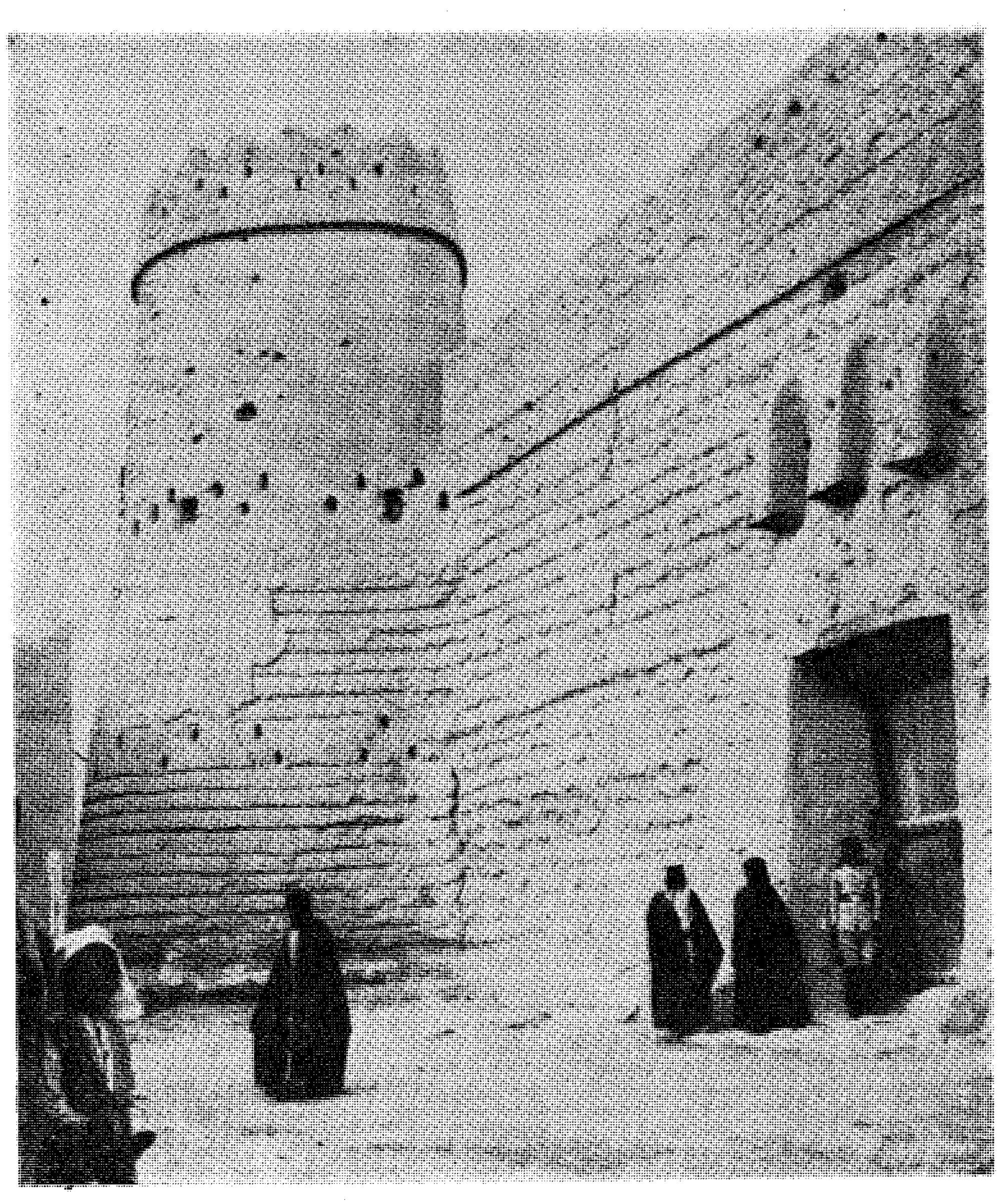
أبدأ بالحديث عن أهم المعارك التي لم تتح لي فرصة الاشتراك الفعلي في خوضها .

خرج عبدالعزيز على رأس خمسين رجلا منهم أخيه محمد بن عبدالرحمن، وعبد العزيز بن جلوي، وفهد بن جلوي ، وعبدالله بن جلوي، وعبدالعزيز ابن مساعد بن جلوي ، وسعود بن ناصر بن فرحان ، وغـــيرهم من الأنصار المجاهدين المخلصين ، وقد صمم عبد العزيز على استرداد الرياض في هجوم مباغت صاعق .

ووصل عبدالعزيز ورفاقه ليلاً إلى جبل (أبو مخاروق)[1] وتسلل مشاة عبدالعزيز ورفاقه بما فيهم أخيه محمد وبقي القليل منهم عند ركائبهم ودخلوا الرياض وقصدوا بيت الجويسر الملاصق لبيت سكن عجلان الخاص .

وقرع عبدالعزيز الباب بقرعات خفيفة واذ بجويسر يجاوب : من الطارق ؟ وهمس له عبد العزيز بصوت خافت من نافذة صغيرة (على حجم يد الانسان لفتح الباب من الداخل) : أنا عبد العزيز بن عبدالرحمن يا جويسر . وكانت فرحة جويسر بسماع صوت عبد العزيز كبيرة

(١) هذا المكان معروف باسم أبو مخروق لأنـــه يشبه النفق أو الجسر الطبيعي ولا يزال معروفاً بهذا الاسم . ويتخذ حتى الآن كمكان للنزهة لبرودته حتى في أشد أيام الصيف حرارة .



حصن المصمك ، المنيع ، الذي اقتحمه عبد العزيز ورجـاله القلائل في معركة « ذبحة عجلان » ، التي انتهت باستيلاء عبد العزيز على الحصن واسترداد الرياض . .



الجميع بيت جويسر وسألوه عن طريقة عجلان فأبلغهمبكل شيء وقال لهم ان عجلان لا ينام في بيته الخاص ، ينـــام في « المصمك » ويأتي في الصباح ويتناول طعام الافطار في بيته الخاص .

وكانت زوجة عجلان أختاً لعبدالعزيز في الرضاعة،وخادمتها أماً لسعد بن بخيت أحد مرافقي عبدالعزيز، واقتضى النظر أن يتسللوا من بيت جويسر الى بيت عجلان الخاص ليلا من نافذة فتحوها برش الماء لأن الحيطان من الطين ، ودخلوا البيت من هذه النافذة وصعدوا إلى سطح البيت .

دخل عبد العزيز على زوجة عجلان وهي نائمة وايقظها بهدوء من نومها كما يوقظ الأخ أخته، ولما استيقظت شاهدت عبد العزيز على ضوء شمعة كانوا يحملونها معهم .. وقال لها : اطمئني أنا أخوك عبد العزيز، وكانت فرحتها بعبد العزيز لا تقل عن فرحة جويسر ، وأبلغته بكل ما يريد .. واقتضى النظر ان يُلبسوا سعد بن بخيت ملابس أمه حتى إذا أتى عجلان يفتح له الباب كأمه ويلقون القبض عليه بكل سهولة .

وكان هذا البيت يبعد عن « المصمك » مسافة لا تزيد عن المئة متر وجميع النوافذ المؤدية الى هذه الساحة مسكرة بالبناء عدا مدخل واحد، وفي الساحة مرابط خيل عجلان .

وبعد شروق الشمس بقليل واذا بباب المصمك يفتح ويخرج منه عجلان وبعض جنوده الذين لم يكونوا مسلحين ، وصار يتمشى حول الخيل ، ولكنه في هذه الاثناء رأى ان الجو غير عادي فقال لرفاقه :

كأنني أشم رائحة رجال !.. وفي هذه اللحظات كان عبد العزيز ورفاقه يرونه من حفر الحيطان مستعدين لاطلاق الرصاص عليه ، فاقتضى نظر الامير محمد بن عبدالرحمن ان يقتله من نفس البيت ومنعه أخوه عبدالعزيز خشية ان يخطئــــه ، وإذ بعجلان ينصرف عائداً الى المصمك.. وفي هذه اللحظات انطلق الجميع نحوه ، وسكر باب المصمك وكان به نافذة صغيرة واقعة في نصف الباب وتسلل منهم من تسلل إلى داخل القصر ، وعندما دخل عجلان أمسكه عبدالعزيز برجليه وكان فهد بن جلوي قد قذفه بشلفا لكنها أخطأته ووقعت على الباب ولا يزال أثرهـــا إلى تاريخه.. ولكنه استطاع ان يتخلص ويدخل، ودخل من بعده من النافذة عبدالله بن جلوي ثم مطلق بن عجيبان وفتح الباب الكبير ليدخل جميع رفـاق عبدالعزيز . وإذ بعجلان لم يتمكن من الصعود إلى الطابق الثاني ويدخل المسجد وعبدالله بن جلوي يلاحقه إلى أن قتله بسيفه .

حدثني عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي، عن هذه اللحظات التاريخية الحاسمة ، قال : عندما وفق الله عبدالعزيز ، ودخلنا الحصن لمطاردة عجلان ورجاله ، أردتُ الصعود فوق المقصورة الشرقية الشمالية التي تسمى (اليتيمة) ، حيث تحصن اثنى عشر رجلاً من رجال عجلان .. فوجدنا الباب المؤدي إلى المقصورة مغلقاً ، وحاولت كسر جمجمة الباب فضربتها بالعجرة (عصا غليظة لها رأس كبير) . في حين أسقط رجال عجلان علينا حجراً كبيراً من أعلى ، كان موجوداً بين شرف المقصورة وكان كفيلا بقتلي لو سقط على رأسي، ولكن أحد الرجال تنبه في الوقت المناسب فجرّني من شعر رأسي ، وسقط الحجر وأصابني بعرش رجلي،

وسقطت ، واندفع الرجال يحطمون الباب ويقاتلون رجال عجلان في كل زاوية من الحصن حتى تم النصر ، ولقد قضيت بعد المعركة ، شهراً طريح الفراش بسبب تلك الاصابة ..

*

قتل عجلان ، ومعظم رجاله ، واستسلم البعض،وهرب الكثيرون، وانطلق عبدالعزيز يلاحق الهاربين الذين لجأ بعضهم إلى دار آل سويلم حيث استسلموا ، تاركاً أخاه محمد بن عبد الرحمن محاصراً بقية حامية الحصن والذين احتموا بالابراج الشمالية والجنوبية للحصن إلى أن استسلموا على يده كأسرى حرب . وسقط الحصن المنيع ،في الخامس من شوال ١٣١٩ هـ.

وهكذا بعد احـــدى عشرة سنة ، ومع اشراقة الصباح ، كانت الرياض ، عاصمة الأجداد .. تعود إلى آل سعود على يد عبدالعزيز ، ورفاقه الابطال ..

قد يتساءل البعض ، في دهشة ، عن سبب سقوط هذا الحصن المنيع وبه العدد الكثير من رجال عجلان بأسلحتهم .. وبهذه السهولة .. وعلى يد مجموعة لا تزيد عن الأربعين .. إنها ارادة الله فوق كل ارادة «ولينصرن الله من ينصره »،وإنه الايمان بالله ، ثم بالحق الذي آلوا على أنفسهم إلا أن يستردوه .. وإنه الإقدام الفائق واقتحام المخاطر والاستبسال في القتال. وإنها القيادة الواعية ، والخطة الحكيمة، الخطة الكاملة للاقتحام المباغت الصاعق ، وانه التوقيت المناسب في ساعة لم يكن عجـــلان ورجاله يتوقعون فيها خطراً ما من أية جهة .. ساعة الشروق ، الساعة التي

غالباً ما يطمئن فيها الحراس ومن في الخنادق بعدما انقضى الليل بطوله دونما خطر ، وكانت ساعة الراحة واستبدال الحراس .. بل إنها « ساعة الغفلة » وقانا الله شرها ، حين يغفل المرء عن الحذر والحيطة ..

*

معركة ، كانت نقطة تحول في التاريخ العربي .. وبداية موفقـــة لمعارك النضال في سبيل الحق .. معركة فدائية حاسمة ، بالتخطيط والاستعداد والتنفيذ ، تشكل نموذجاً لمـــا ينبغي أن يكون عليه الفداء والجهاد ..

.. كان ابن حماد من أعيان الرياض ، قد دعا عجلان للفطور عنده في ذلك اليوم ، وأعد ابن حماد عدته ، وظل طوال اليوم السابق ، والليلة السابقة ، يعدّ مائدته لاستقبال أمير الرياض ومن معه.. وحدثت المعركة المفاجئة ، وقتل عجلان .. وذهب الرجل إلى الحصن ، مهنئاً عبدالعزيز ، مرحباً بعودته إلى الرياض ، يسأله أن يلبي دعوته إلى الفطور الجاهز .. وقبل عبدالعزيز الدعوة ولبّاها .. إنها كما قلنا ودائمـــاً : إرادة الله .. وهكذا ، أعد الافطار لعجلان فكان من نصيب عبد العزيز ورفاقه ..

* * *

لا بد من وقفة هنا ، نقضيها في تأمل وتفكير في دلالة هذه الواقعة وفي معاني البطولة التي تفيض بها تفاصيل هذه المعركة الحاسمة .. بطولة تفوق في رأيي ورأي كل منصف سليم التقدير ، غيرها من البطولات التي تنال الاحترام والاعجاب.

حصن حصين، مقفل من جميع جوانبه يعجّ بجنود أشداء كاملي التدريب والمران ، مدججين بالسلاح ، وتحت أيديهم من الذخيرة الشيء الكثير . ويقودهم قائد عُرف بالحذر والبأس والصرامة والكفاءة في توزيع قواته في كل ركن أو برج من أركان وأبراج الحصن المنيع .. ويأتي عبدالعزيز، لا يرافقه سوى نفر قليل.. ويقتحم الحصن ويستولي عليه ويسيطر على العاصمة كلها ، منتزعاً حق آل سعود من غاصبيه ، ومحرراً عاصمة بلاده من سيطرة الغزاة المتمردين ، بادئاً بهذا النصر الحاسم مسيرة الجهاد الظافرة، لتوحيد البلاد في المملكةالعربية السعودية.

. . . . .

أذكر هنا نادرة ذات مغزى واضح .. فقد كان « عجلان » قائد حامية الحصن ، عندما يرد ذكر عبدالله بن جلوي ، يبدي كل استهتار وسخرية ، بل وينعت عبدالله باسم أمه « هويديه » متجاهلا إسم والده « جلوي » .. إمعاناً في السخرية والاستهتار بشأنه !.. وخلال اقتحام عبدالعزيز للحصن-وكان برفقته ابن عمه عبدالله كما ذكرنا - انطلق عبدالله داخل الحصن يلاحق عجلان من مكان إلى مكان إلى أن ظفر به وتمكن منه ، فما كان من عجلان إلا أن يستغيث صارخاً : « دخيلك يا عبدالله ابن جلوي » .. فيجيبه عبدالله : « أنا لست عبدالله بن جلوي .. أنا ابن أمي هويديه التي أفتخر بأن تنعتني بها » . ثم هجم عليـــه وهو يصيح « وخذها يا ظالم » .. ضارباً عنق عجلان بسيفه .

*

وتحضرني في هذا المجال رواية طريفة ، عن كيفية تلقي ابن رشيد نبأ تلك المعركة .. ولعل أطرف ما فيها ما تؤكد، من قدرة البعض على الاستنتاج السريع الصحيح نتيجة لتمتعهم بموهبة قوة الملاحظة وحسن التفكير .

كان ابن رشيد متوجهاً من حائل إلى الرياض ، في قافلة ، عندما أدرك القافلة النجّاب الذي أرسله عبدالله بن عسكر أمير المجمعة آنذاك (عاصمة منطقة سدير) من قبل ابن الرشيد ، بكتاب يوضح فيه لابن رشيد ما حدث .

المعتاد في سير القوافل أو الجيوش ، أن تتحرك القافلة بعد صلاة الفجر مباشرة في أغلب الأحوال ، وبعد مسير ساعتين أو ثلاثة ينادي المنادي بكلمات يفهم الجميع معناها ، قائلاً : « المضحى يا قوم » ، ويعني بذلك أن وقت الغداء قد حان ، فتتوقف القافلة ، ويتناول الجميع غداءهم ، وبعد فترة تعود القافلة إلى المسير ، حتى ما بعد الظهر ، وحتى يرتفع صوت المنادي بنداء جديد قائلاً : « المعشى يا قوم » .. أي حان وقت العشاء والمبيت .

وكانت قافلة ابن رشيد قد انتهت من فترة الغداء وتحركت فسارت مسافة لا تزيد عن كيلومتر واحد ، عندما أدركها النجاب المرسل من ابن عسكر حاملا خبر الهزيمة ، وتقدم النجاب حتى التصق براحلة ابن رشيد ، وسلم عليه وناوله الكتاب .

وقرأ ابن رشيد الكتاب وطواه .. وأمر المنادي أن ينادي : « المعشى يا قوم » .. وحرص على أن يبقى النجاب إلى جانبه ، حتى لا يتيح له فرصة للحديث مع أحد في القافلة فينتشر الخبر ..

وتعجب الجميع من النداء ، فلم يكن وقت العشاء قد حان ، وهم لم يبدؤوا المسير بعد فترة الغداء الا منـــذ فترة قصيرة .. وأناخ الجميع رواحلهم ، ونصبت الخيام ، واستدعى ابن رشيد كبار القوم ليبلغهم الخبر المفاجىء ، وليتدارس وإياهم ما يجب عمله إزاء الموقف الذي نشأ عن هذه الهزيمة .. وبعد أن عرض الأمر عليهم ، أوصاهم ، بأن يحرصوا أشد الحرص على ألا ينتشر الخبر ، إلى بقية قومهم .. وانصرفوا، وعاد كل منهم إلى مقره .. ليفاجأ بأن الخبر منتشر يتحدث به جميع رفاقه ! فأسرعوا – جميعاً – يعودون إلى ابن رشيد ليخبروه بأن الخـبر الذي حذرهم من تسربه ، منتشر ويعرفه الجميع .. وفوجىء ابن رشيد ، وأمرهم ان يعودوا كل إلى رفاقه ، ليتقصى حقيقة الأمر وليعـــلم منهم كيف تسرب الخبر ، واوصاهم بتتبع كل مصدر حتى يمكن حصر المصدر الأول الذي نقل الخبر إلى الجميع .

وكان ما أمر به ابن رشيد ، وبعد فترة عاد اليه كبار القوم مؤكدين ان الخبر انتقل إلى قومهم من رفاق عبيد بن رشيد ، ابن عمه ، وكان لم يستدعه معهم عندما استدعاهم أول الأمر ليخبرهم برسالة ابن عسكر ..

وتأكد ابن رشيد من الأمر بعدما استدعى رفاق عبيد وسألهم : من أين اخذتم هذا الخبر ، وأجابوه : من عبيد .. فاستدعى ابن عمه عبيد ، وسأله : « من أين اخذت هذا الخبر الذي لا صحة له يا عبيد ؟ » .

أجابه عبيد : « .. إنه الواقع » ..

وتساءل ابن رشيد : « وكيف يكون ذلك ؟! » ..

قال عبيد : « إنك بعد الغداء بفترة وجيزة،أمرت بالنزول والتوقف للعشاء ، ووالله ما يجعلك تفعل ذلك إلا أمر خطير .. وليس من أمر أخطر من مقتل عجلان ودخول ابن سعود الرياض..ولاشيء يضطرك إلى التوقف إلا ذلك » .

ولم يستطع ابن رشيد نفي الواقع الذي تحدث عنه عبيد ، فأجابه بعبارة اشتهرت وتناقلها الناس منــــذ قيلت حتى اليوم : « صدقت يا عبيد ، الله ياخذك . لقد قتل عجلان ، انفخ بذيله. ودخل عبدالعزيز ابن عبد الرحمن الرياض » ..

ولم تكمل القافلة مسيرها إلى الرياض.. وبقي ابن رشيد في منطقة القصيم ، وتوالت المعارك بين جيوش ابن رشيد وجيوش عبد العزيز ابن عبدالرحمن..إلى ان تم النصر بفضل الله،واستتب الأمر لعبد العزيز .

معارك هامة

إن المعارك التي خاضها عبدالعزيز ورجاله في سبيل توحيد جميع مناطق شبه الجزيرة العربية ، تحت راية التوحيد والدعوة الاسلامية الصافية ، أكثر من أن تعد أو تحصى ، وإذا كانت المعركة التي تحدثنا عنها « ذبحة عجلان » تعتبر المعركة الحاسمة ونقطة التحول في التاريخ السعودي ، فإن هناك في تقديري ، معركتان أخريان ، لا تقلان أهمية وخطورة عن ذبحة عجلان، وقد كان لهما أثر كبير في التمهيد للانتصارات المتتالية الحاسمة .

المعركة الأولى سنة ١٣٢٤ هـ. كانت ذبحة عبدالعزيز بن رشيد في مطقة القصيم .

والمعركة الثانيةسنة١٣٣١ هـ. معركة سقوط مدينة الهفهوف بالمنطقة الشرقية (الأحساء) ..

المعركة الاولى : هي المعركة التي قتل فيها عبدالعزيز بن رشيد ــ في منطقة القصيم . والتي تعرف باسم (ذبحة ابن رشيد) .. عام ١٣٢٤ هـ. لقد كانت قوات عبدالعزيز بن رشيد لا تقل عدداً وعدة عــــن قوات عبد العزيز بن عبد الرحمن .. كما كان لهم من الشجاعة والاقدام والبأس

والقتال ما كان لرجال عبد العزيز ، بل وكان ابن رشيد أيضاً صاحب باس وشجاعة وإقدام لا تقلان كثيراً عما اتصف به عبدالعزيز ، ولكنها إرادة الله التي كانت دائماً تقود عبد العزيز إلى اختيار المكان المناسب والتوقيت المناسب ، والخطة المناسبة التي تكفل النصر ، وما النصر إلا من عند الله يهبه من يشاء من عباده .

لقد كتب ابن رشيد الى عبد العزيز قبل المعركة كتاباً أرسله له مع مرسول خاص ، يقول فيه : « أنا وأنت نشكل قوتين ، وكل من القوتين تؤمن بالله ورسوله ، وبدلاً من تطاحن هاتين القوتين لصالحي أو لصالحك فإني أطلب منك أن تبارزني شخصياً ، فإما أن تقتلني وتريح الكل مني ، وإما أن أقتلك وأريح الكل منك . وباعتقادي أن هذا أفضل من سفك دماء المسلمين » .

وكان في رد عبدالعزيز الدليل على ما ذكرناه من شجاعة ابن رشيد. لقد أجابه عبدالعزيز على رسالته برسالة قال فيها: « أنعم بك يا عبدالعزيز ابن رشيد يا أخو بنيّه . لا شك لدي في شجاعتك . ولكن هناك فارقاً بيني وبينك . وهو انك تريد الموت وأنا أريد الحياة . والحي لا يبارز الميت . والنصر والهزيمة مقرون بارادة الله» .

وخطط عبدالعزيز خططه الموفقة بحسن اختيار الوقت وهجم على ابن رشيد (في روضة مهنا) ليلاً بتاريخ ١٨ صفر سنة ١٣٢٤ ، وكان النصر لعبد العزيز وقتل ابن رشيد في المعركة .

دليل آخر على ما ذكرناه ، وذلك عندما برزت قوة عبدالعزيز بن

عبدالرحمن في نجد على قوة آل الرشيد.فإذا بالشيخ مبـــارك بن صباح حاكم الكويت آنذاك، رحمه الله، يرى أن هنـــاك قوتين متعادلتين تتطاحنان في نجد وملحقاتها . فيسعى لارضاء كل منهما، وتوطيد صداقة معه لتكون هذه الصداقة حرزاً له في المستقبل مع من يتم له النصر منهما. فاضطر لأن يرسل لكل منهما على حدة ،رسالة يشيد فيها بصداقته ويرجو له النصر !.. وشاء القدر ، أن يخطىء كاتب الشيخ ..فيضع رسالة بن رشيد في الغـــلاف المرسل إلى عبد العزيز ، ورسالة عبد العزيز في الغلاف المرسل إلى ابن رشيد .. وأرسلهما ..

واستلم كل منهما الرسالة الموجهة إلى الآخر ..

ولم يكن الشيخ مبارك بن صباح آنذاك ليقف هذا الموقف عن سوء نية ، بل كان عن حكمة وتقدير للواقع ، فلقد كان عدد سكان بلاده لا يتجاوز ثلاثين ألف نسمة ، ولم يكن لهم مورد للعيش سوىما يتصيدونه من البحر أو ما يصدرونه لنجد ، فكان الشيخ حريصاً كل الحرص على صداقة جيرانه ، وعدم إثارة خصومة لا داعي لها مع أيّ من الفريقين القويين المتحاربين .

*

المعركةالثانية : لقد كانت الهفهوف كبرى مدن المنطقة الشرقية ، تنقسم إلى قسمين ، القسم الغربي محصن بالاسوار ، ويشمل حوالي نصف المدينة ، ويسمى « الكوت » ، وبه الدوائر الحكومية ومساكن العائلات التركية ، وقصر يسمى (قصر ابراهيم) كان أكبر وأحصن من المصمك في الرياض . أما القسم الشرقي من المدينة فكان غير محصن ، ويسكنه

أهالي الاحساء والاسواق التجارية، وكان يحيط (بالكوت) أسوار شائكة ، وأبراج كثيفة وخندق لا يقل عرضه عن ١٥ متر وعمقه عن عشرة أمتار . ويتجمع داخل أسوارها عدة آلاف مـــن جنود وضباط الجيش التركي بكامل أسلحتهم ومدافعهم .

وكانت القوات السعودية لا يصل عددها إلى الألف ، متجهة من الرياض الى الهفهوف بقيادة عبد العزيز ومعه الكثير من رجال الاسرة . ولم تكن مع القوات السعودية مدفعية ، بل كان سلاحهم البنادق والسيوف .

وتقدم عبدالعزيز برجاله ليلاً يجتاز الأشجار الكثيفة المحيطة بالمدينة حتى إذا ما اقترب من الحصن ، وقف ينظم قواته ، ويعطيهم توجيهاته وأوامره . وقسم رجاله إلى ثلاث مجموعات ، مجموعة أمرها بأن تتجه إلى الباب الجنوبي للأسوار لتقبض على الحراس وتقتحم الباب ، والمجموعة الثانية أمرها بأن تنطلق بعد عبور الخندق والاسوار رأساً إلى السراي لتقبض على المتصرف إذا وجدته . والثالثة تتجه إلى أبراج السور تقاتل المتحصنين فيها ـ ثم بدأ ورجاله يحزمون جذوع النخيل اليابسة الواقعة في الاراضي المحيطة بالمدينة ، ليجعلوا منها جسوراً يجتازون بها الخندق العميق وسلالم يستعينون بها في تسلق السور ، بالاضافة إلى الحبال المعقودة يستعينون بها أيضاً في التسلق ..

تم كل ذلك بهدوء وصمت وكأنهم أشباح تتحرك في ظلام الليل ، وعبروا الخندق وتسلقوا السور ، وتفرقت المجموعات لتنجز كل منها

المهمة المكلفة بها .. وتفيق القوات التركية لتجد نفسها وجهاً لوجه مع القوات المهاجمة ، ويفيق أهـــل المدينة على صوت المؤذن يؤذن للصلاة ويعلن عن دخول عبدالعزيز المدينة ، داعياً إلى وجوب الطـــاعة والتزام الهدوء ..

وحاولت القوات التركية المقاومة ، ولكن الاضطراب الكبير الذي سببته المفاجأة شل قدرتها ، فقتل من قتل ، واستسلم من استسلم ، وهرب من هرب إلى خارج المدينة ثم إلى العقير ميناء الأحساء على الخليج ، حيث كانت السفن .. أما من بقي في الأبراج المحصنة وفي القصر فقد استسلموا وكان عددهم يزيد عن الألف ، ثم رُحِّلوا مع عائلاتهم ومتاعهم في حراسة قوة من رجال عبدالعزيز بقيادة احمد بن ثنيان حتى بلغوا البحرين ليبحروا منها إلى العراق .

ووطد عبدالعزيز ، الحكم في بقية مناطق الأحساء ، فأرسل قواته مجموعات إثر مجموعات تطارد فلول عصابات النهب والتمرد ، وتقر العدالة والأمن .

. . . . .

تحضرني هنا طرفة تناقلها الناس . فقد كلف عبدالعزيز ، عبدالله ابن حلوان من أهالي الرياض ، على رأس سرية من المقاتلين ، بملاحقـــة فلول القوات التركية الهاربة إلى ميناء العقير ، فأبدى شجاعة فائقة ، وقام بمهمته ببراعة استحق عليها التقدير . ورغب عبد العزيز في مكافأته مكافأة كبيرة تقديراً لشجاعته . فقال له : «يا عبدالله . اطلب ما تشاء ،

ولك ما تريد» . وإذا بابن حلوان يقول : « لا أريد شيئاً..إلا أن تعاهدني أن أبقى بجانبك طول الحياة» .. ودهش الجميع. وهز عبدالعزيز رأسه مبتسماً وقال : « قلب كبير بعقل صغير .. يا عبدالله.. حسناً ، ستبقى جانبي دائماً». (وكان الجميع يعتقدون ان الرجل سيطلب مكافأة عظيمة) وظل ابن حلوان بالفعل إلى جوار عبد العزيز حتى توفي رحمه الله .

* * *

رد الجميل

لم ينسَ عبد العزيز أحداً ممن عاونوه أيام جهـــاده المرير ، ونضاله الطويل .. بل كان دائماً يرد الجميل بما هو أجمل ، في ودّ ووفاء نادرين .

وتحضرني هنا بادرة من بوادر هذا الوفاء ..

كان عبدالله بن حمد النفيسي من مواليد الرياض . مقيماً في الكويت آنذاك كتاجر ، وعندما كان عبدالعزيز يستعد لحملتــه للاستيلاء على الرياض ، ساهم عبدالله في تجهيز عبدالعزيز بكل امكانياته المادية ، حتى لقد رهن مصاغ زوجته في سبيل تامين ما يلزم نفقات ..

ولم ينسَ عبدالعزيز جهد ومروءة عبدالله ، بعد أن تم له النصر ، فمنح عبدالله مهمة تمثيله في الكويت سياسياً وتجارياً ، دون قيد أو شرط. وظل كذلك حتى توفي رحمه الله. ومن بعده تولى المنصب ابنه عبدالعزيز ابن عبدالله النفيسي وظل يشغله أيضاً حتى وفاته .. ومن بعده ولي ابنه فهد بن عبدالعزيز النفيسي ، إلى أن تنازل عنـــه باختياره وإرادته .

وأصبح بيت النفيسي هو دار الضيافة بالنسبة لكل ضيوف عبدالعزيز المارين بالكويت ، بل وللكثير من أهالي نجد . وما زال آل النفيسي إلى اليوم ، وما أكثرهم ، يقيمون في الكويت ، يعتبرون أنفسهم من أبناء البلدين الشقيقين معاً .. يعيشون في الكويت وكانهم بالرياض موطنهم الأول .. وما زال بيت جـــدهم الاول حمد النفيسي موجوداً بالرياض ويسمى لليوم بيت النفيسي ، وهو بيت الإمام المرحوم عبدالرحمن آل فيصل ، ومن بعده بيت ابنه الأمير أحمد بن عبدالرحمن .

*

حرب الشنانة : (١٣٢٢ هـ)

يروي الرواة من أهل الصدق والثقة ممن عاصروها ، انها استمرت ثلاثة أشهر كاملة،ضد ابن رشيد ، وكانت بقيادة الأمير محمد بنعبدالرحمن في أول الأمر يخوضها ورجاله بكل اقدام وبسالة، حتى انهزم ابن رشيد، ثم وصل عبد العزيز ورجاله ليشتركوا في القتال ، وليقضوا على البقية الباقية من جيش ابن رشيد ، القضاء الكامل والنهائي ..

* * *

حرب كنزان والاحساء : (١٣٣٣ هـ)

وقعت معاركها في المنطقة الشرقية ، واشترك فيها الأمير محمد بن عبدالرحمن ، بعد استشهاد أخيه سعد وإصابة أخيه عبدالعزيز ، حيث أسرع محمد على رأس قوات النجدة، التي حسمت الموقف ضد العجمان.. وتم النصر بحمد الله .

* * *

بعد عودته إلى الرياض خرج محمد مرة ثانية من الرياض غازياً قبيلة شمر القاطنين على (عظيم المكحول) الواقع غرب القصيم وكان زعيم تلك القبيلة هو ابن الفيصم الشمري. وتم له النصر بعد معركة دارت بين الطرفين.

* * *

وخرج محمد بن عبد الرحمن من الرياض غازياً قبيلة عتيبه ، الهيضل

والدعاجين ، والمهرى ، الدغالبة ، والرباعين ، الروقة ، وكانوا يقطنون الشعراء بنجد قرب جبل ذهلان المعروف . ولم يحصل منهم على طائل .

واتجه إلى قبيلة قحطان القاطنين على ماء يعرف بابي خياله ،القريب من جبل العارض ، وشن عليهم حملة شعواء وكان زعيم تلك القبيلة يدعى محمد ، الملقب « بالضب الأسود » وتمكن من قتل زعيمهم المذكور وشتت جموعهم ، وهرب من بقي منهم ، وعاد منتصراً .

* * *

أما المعارك التي كان لي شرف معاصرتها وخوضها ، فإني أرويها للقارىء كشاهد عيان ، وإن في روايتها الكثير من الشواهد على ما تحلى به دائماً ، أبناء هذه الاسرة المناضلة من ضروب الشجاعة والاقدام ، وما كانوا يتصفون به من الحزم وبعد النظر .

معركة « تربه »

.. إن الذاكرة تضعف على مر السنين ، هذه حقيقة ثابتة . وإن المرء قد لا يتذكر وقائع معينة بعد مرور سنوات عليها إلا إذا أجهد فكره ونبش أعماق ذاكرته ، ليكشف سُتُر النسيان عن تلك الوقائع .. ولكني اليوم ، وبعد مرور عشرات السنين ، تتزاحم أمام ذاكرتي صور كاملة لمنظر رأيته وأنا لم أبلغ بعد مرحلة الفتوة .

كنت مع الأمير سلمان بن محمد بن سعود في الثانية عشرة من عمري ، ولم أكن قد تدربت على استعمال السلاح بعد ، وأتاحت لي الظروف أن أشاهد ولأول مرة في حياتي آثار معركة عنيفة ، بقيت مشاهدها حيّة في ذاكرتي حتى اليوم ، وكأني شاهدتها بالأمس القريب .

كان الملك عبدالعزيز متوجهاً بقواته إلى مدينة « تربه » وبرفقته جميع رجال الأسرة وفي مقدمتهم الأمير محمد بن عبدالرحمن .. وأنا مع الأمير سلمان كما ذكرت . وكنا بين الخرمة ورانيه ، عندما أرسل عبد العزيز رسلاً ، كان منهم « صيتان – من عتيبة » إلى الشريف عبدالله بن الحسين ، يطلب منه الجلاء عن « تربه » حقناً للدماء . وبعد أيام قليلة عاد صيتان ورفاقه ، وما أن اقتربوا من المخيم – وكنا بعد صلاة العصر – إذ بهم يطلقون الرصاص في الهواء، وهذه علامة البشرى.

وأسرع الكثير من الرجال يقابلونهم ويسألونهم مستفسرين عن البشرى، فكانوا يقولون : « انهزم الشريف .. انهزم الشريف .. » . حتى إذا وصلوا إلى مكان عبدالعزيز الذي كان متهيئاً لسماع البشرى ، ودخلوا صالون الخيمة ، صاح صيتان :

- بشير .. ويبغي البشارة يا عبدالعزيز ..

أجابه عبدالعزيز : أبشر يا صيتان . وما الذي تبشّـر به ؟

قال صيتان : الشريف انكسر وانهزم ..

وتساءل عبدالعزيز : كيف ؟.. ومن الذي كسره ؟؟

وكان جواب صيتان : الله هزمه ..

وعاد عبدالعزيز يسأله : كيف ؟..

قال صيتان : ذهبنا برسالتك ، وبعد أن قرأها ، أخذنا وأطلعنا على المدافع والرشاشات ، وقال: لو كنت أقصد الرياض لما أحضرت كل هذه القوة . ولكني أحضرتها لأعيّـد عيد الفطر في الأحساء . فقلت له : كل شيء بمشيئة الله . قال : « إن شاء أو ما شاء، سأعيّـد في الأحساء!».

ثم أضاف صيتان : فوالله لن ينصره الله ، وسينهزم وينكسر ! .

قال عبدالعزيز ، بعد أن تبين حقيقة البشرى .. : «فال خير .. إن شاء الله خير » ..

ثم جاءت أنباء المعركة والنصر الكبير الذي تم بعون الله ، فقـد اندفعت قوات عبد العزيز بقيادة خالد بن منصور بن لؤي ، وسلطان ابن بجاد إلى تربه ، (في شعبان ١٣٣٧ هـ الموافق أيار ١٩١٩) ، فدخلتها

بعد منتصف الليل منقضّة على جنود الشريف ـ الغارقين في النوم ـ لتفتك بهم بالسلاح الأبيض فتكاً ذريعاً ، وكان جنود الشريف الذين أذهلتهم المفاجأة ، والذين سيطر عليهم الذعر ، يقتلون بعضهم بعضاً معتقدين أنهم يقتلون المهاجمين ! وظل القتال دائراً بقية الليل ، ولم يبزغ الفجر إلا وقد أبيدت قوات الشريف ، ولم ينج منها إلا ستون جندياً وضابطاً .. هربوا على الخيل .

وجاءت الأنباء بسير المعركة وبالنصر الباهر ونحن ما زلنا حول الخرمة ، على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً من تربه . وأخذ البعض ممن كانوا معنا يذهبون إلى تربه ليشاهدوا آثار المعركة . وساورتني الرغبة في الذهاب لأتفرج أنا أيضاً .. ولم تكن لي خبرة بالمسافات ، فلم استطع تقدير بُعد تربة عن مخيمنا ، وانطلقت في الصباح الباكر في اتجاه البلدة سيراً على قدميّ . وتابعت السير مقتفياً آثار المتجهين إلى تربه ، تحت وهج الشمس ، والطقس بالغ الحرارة. .وبعد ساعات من المسير نزلت وادي تربه.. وهناك فوجئت بالمشهد الذي لم تمحه من ذاكرتي عشرات السنين. . لم أكن قبل تلك اللحظة قد رأيت جثة قتيل ، فإذا بي أمام الوادي وكأنما فرشت أرضه بجثث القتلى ، متناثرة بين شجر العشر الذي يملأ الوادي والدماء متجمدة حولها . لم يكن هناك جذع شجرة إلا وبجانبه جثة أو جثتان !. وكلما توغلت في الوادي ازدادت أعداد الجثث ، وقد بدأ السواد يغطي جلدها من حرارة الشمس ..

وواصلت السير ، وقد تملكتني الرغبة في الهروب من المكان ..

ولكن إلى أين ؟!. وجاء الفرج .. شاهدت قافلة من بضعة عشر جملاً ، ما أن شاهدتها حتى أسرعت أعدو وكانني أطير ! حتى لحقت بها ، وكانت كل جمالها مردوفة عدا واحداً .. ورغم أني لم أكن في حياتي ـ حتى تلك السن ـ قد علوت جملاً إلا بمساعدة رجل أو حبل ، إلا أني في تلك اللحظة استطعت أن أعتلي الجمل في لمح البصر بدون مساعدة! ونظر إليّ صاحبه نظرة حانية مهدئاً من روعي .

ورحتُ وقد استويت فوق ظهر الجمل أتطلع لأرى المزيد من الجثث في كل مكان .

وعندما وصلت القافلة إلى معسكر تربه وجدناه مليئاً بالجثث مكدسة بعضها فوق بعض ، كما وجدنا جثثاً أخرى فوق أسِرتها ، لم يستطع أصحابها مغادرتها عندما فوجئوا بالهجوم .. وأخرى ، شاهدناها حول المدافع التي لم يستطع أصحابها اطلاقها ، وكانوا موثقين بسلاسل من الحديد إلى المدافع فلم يستطيعوا الفرار !.

وانطلقت أجول في المعسكر مع المتجولين، وإذا بفرج العفين ـ مرافق الأمير سلمان بن محمد ، وأكبر المسؤولين في حاشيته ـ يراني ، فيجذبني إليه ، ليصفعني على وجهي صفعتين قاسيتين ، وهو يردد بغضب : لماذا جئت إلى هذا المكان ..ثم يسلمني إلى سعود بن ضويحي ـ وكان المسؤول عن إسعاف القوافل ـ الذي أرسلني مع أحد الأشخاص على راحلة ليعيدني إلى المخيم .

وبعد أيام قليلة ، انتقل عبدالعزيز إلى تربه ، وكان لا بد أن يقوم

الرجال بحفر حفر كبيرة لدفن بعض الجثث، لاخلاء مكان لنصب الخيام ومنعاً للروائح الكريهة المنبعثة من الجثث المهترئة المتعفنة .

خطط عبدالعزيز لمعركة فتح حائل ثم عاد الى الرياض .

* * *

فتح حائل

كلف عبد العزيز خالد بن الوي وسلطان بن بجاد بملاحقة الشريف حسين بن علي وأمّـن لهم المال والسلاح .

وكلف ابنه سعود بملاحقة قبائـل عتيبه الموالية للشريف ، وقبيلة شمر الموالية لآل رشيد في الشمال .

وكلف أخاه محمد بالغزو على حائل كما كلف ابنه فيصل بالغزو وعلى عسير وغامد ... محمد بن عبد الرحمن حاصر حائـــل في عكاش من الجنوب وحاصرها من الشمال بسرية بقيادة فهد بن معمر ، أما سعود ومعه سلمان ابن محمد آل سعود وسعود بن عبـد الله آل سعود وتركي بن عبد الله آل سعود فقد غزوا عتيبه وانتصروا عليهم في الدفينه وغزوا شمر في الحِجَـرَه وانتصروا عليهم في الصَّحَـن ، وبعـــد هذه الانتصارات والمكاسب الضخمة عاد سعود من الحجره قاصداً محاصرة حائل عاصمة آل الرشيد من الشرق ، وعندما نزل قنا وام القلبان وإذ بالمفاجاة الكبرى غير المنتظرة تقلب الأمور رأساً على عقب وتهز مشاعر عبد العزيز الذي كان قد عاد من تربه الى الرياض لتمويل وامداد الجيوش في كل مكان ومتابعة سيرهم ،،، ماذا حصل ؟...

محمد بن عبد الرحمن تراجع من عكاش بسبب قلة التموين والمجاعة التي كان من آثارها أن شلت قوى جنوده، وكان ابن طلال مخيماً في قرية « جبّـه » شمالي حائل، ومعه قبائل شمر التي كان لاجئاً ومنتسبا إليها- بعـد خلاف سفكت فيه الدماء بين محمد بن طلال وعبدالله بن متعب آل رشيد - . وفي هذه الاثناء قام فهد بن معمر قائد القوة المحاصرة لمدينة حائل باتخاذ خطة لم يوفق فيها، فقد تحرك بقواته قاصداً الهجوم على محمد بن طلال في « جبّـة »، وفي اثناء سيره، سقط في كمين نصبته له سرية من جيش عبد الله بن متعب حاكم حائل آنذاك، وكانت السرية بقيادة ابراهيم السالم، وكان الكمين في «نهاره» غرب جبل « أجا » وقتل فهـد بن معمر في الكمين، وكذلك بعض جنوده، وتبعثر الباقون .

واتصل عبد الرحمن بن معمر بعد مقتل أخيه فهد بالأمير سعود وكان مخيماً في « أم القلبان » يطلب النجدة. وأسرع سعود بارسال نجدة الخيالة بقيادة سلمان بن محمد آل سعود، ولكنها لم تصل إلا بعد انتهاء كل شيء وانهزام جنود بن معمر . والتقوا في الطريق فعاد سلمان بقواتـه الى « أم القلبان »، أما جنود بن معمر فاتجهوا إلى « بقعـا » حيث التقوا بسعود ..

وسرعان مـا وصل هذا الخبر لمحمد بن طلال في جبّـه، فأسرع بالمسير لاحتلال حائل، وكان وجود قوات ابن معمر المحاصرة لحائل يمنعه من ذلك من قبل.. واحتل ابن طلال حائل وفرّ حاكمها آنذاك عبد الله ابن متعب وفر معه سلمان العنبر الحاكم الفعلي آنذاك لأن بن متعب كان صغير السن . .

وبعدما انصرف سعود من اتجاهه لحائل الى (القرية بَقْعَا) الواقعة شرق جنوب حائل بسرعة هائلة ومواصلة سير مع تلك الجبال الرملية.. وكما رأيت كان الجميع من الخوف كالمهزومين، وعندما وصلوا بقعا، إذا بحاكم حائل السابق المنهزم الملازم عبدالله بن متعب يصل إلى سعود وبصحبته مستشاره سلمان آل عنبر، لاجئين لآل سعود. وكانت فرحة سعود بذلك كبيرة وكأنه قد احتل مدينة حائل.. وفي الحال واصل سيره متجهاً للرياض وبصحبته ابن متعب وعندما وصل للرياض لم يلاق من والده عبد العزيز إلا الغضب الشديد...

كان عبد العزيز يرى ان لا بد من مواجهة ابن طلال وجهاً لوجه، وقد جهز نفسه للسير نحو حائل وبقي سعود في الرياض ورجعت جيوش سعود مع عبد العزيز إلى المعركة الحاسمة.

من مظاهر توفيق الله لعبد العزيز، ولسلامة نيته في حرصه على حقن دماء المسلمين.. أن ابن طلال، قام بحملة انتقامية شملت جميع القرى التابعة لحائل، والتي كانت شخصياتها ورجال الدين فيها يوالون عبد العزيز، وأمعن ابن طلال في الاعتداء عليهم وشرد منهم من شرد، وقتل من قتل، حتى لقد قتل بعضهم داخل المساجد، مما ألب الناس عليه وجعلهم ينتظرون ساعة الخلاص ويرجون الله أن ينتقم لهم منه..

وصل عبد العزيز إلى مشارف حائل، ثم حاصرها من جميع الجهات..واستمر القتال يدور حولها مدّة تقرب من أربعة شهور، حتى

لم يجد أهل حائل، بدأ من الضغط على ابن طلال للاستسلام لعبد العزيز ، وقام ابراهيم آل سالم من كبار رجال حائل بالتوجه إلى مخيم عبدالعزيز، يعرض عليه الاستسلام، ويطلب الأمان لمحمد بن طلال، ووافق عبدالعزيز وأرسل معه عبد العزيزبن مساعد بن جلوي بوثيقة الأمان إلى ابن طلال، فتوجه معه إلى حائل ثم عـــاد بابن طلال إلى عبد العزيز ؛ واستسلمت حائل .. وقدر عبد العزيز لابراهيم آل سالم موقفه مدى حياته .... ونصبه أميراً على حائل ، فترة من الزمن ، وتولى إمارة حائل من بعده رفيق الجهاد الامير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي ، إلى عام ١٣٩٢هـ ثم خلفه الامير فهد بن سعد بن عبدالرحمن آل فيصل أميرها الحالي كما لم يزل ابنه عبدالله بن عبـــد العزيز بن مساعد أمير المنطقة الشمالية وعاصمتها عرعر .

أما الأمير فيصل فقد استولى على منطقة عسير وغامد بما في ذلك العاصمة (أبها) وبدون تكاليف مادية أو خسائر فادحة في الأرواح .

ونقل حكامها السابقين آل مرعي إلى الرياض التي عاشوا فيهـــا معززين مكرمين .

وأما خالد بن الوي وسلطان بن بجاد لحقوا الأشراف إلى أن استولوا على مكة المكرمه بدون قتال وذلك بعد معركة الطائف الداميـــة التي لم يبق لقوات الأشراف بعدها أي معنوية يقاتلون بها .

وأسرع عبد العزيز من الرياض إلى مكة المكرمة لملاحقة الأشراف في جدة والمدينة المنورة . .

.. وهكذا دخل عبد العزيز حائل بدون سفك دماء أهلها .. كما كان يرجو دائماً، ثم عاد الى الرياض .

وعاش ابن طلال معززاً مكرماً في الرياض، في ظل الملك عبدالعزيز حتى تحقق القول المأثور ، « بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين » ..وقتل ابن طلال ، وكان لمقتله قصة جديرة بأن تروى ..

مقتل ابن طلال

كان لدى ابن طلال عبد اسمه فارس ، اشتراه صغيراً وربّاه عنده حتى كبر وتزوج وأنجب ، وذات يوم طلب فارس من ابن طلال أن يعتقه أو يبيعه ، رافضاً أن يبقى عنده مطلقاً .. ورفض ابن طلال . . وأصر على الرفض فما كان من « فارس » الا أن تناول مسدسه وأفرغه في جسد سيده . . وفي قصره . . في «السويدي» جنوبي الرياض ..

وهكذا قتل ابن طلال،الذي شرد وقتل الابرياء .. على يد مَنْ ربّاه وعاش معه عشرات السنين . وانها لارادة الله وانتقامه العادل .

حرب جدة

كانت جدة تحت سيطرة الاشراف ، وكان الملك عبدالعزيز وقد استتب له الأمر في شرق البلاد ووسطها يتقدم نحو جدة . وفي طريقه إليها سيطر على مكة المكرمة ، وعند وصوله إليها عسكر بقواته في عواليها التي ينحدر منها الابطح المؤدي إلى مدخل مكة . ثم انتقل إلى الشهداء ، منتظراً نتيجة المفاوضات مع الاشراف .. هذه المفاوضات التي كانت تتم عن طريق القنصل البريطاني في جدة ، الذي كان ينقل الى الشريف مطالب الملك عبد العزيز، كما ينقل الى عبد العزيز وجهة نظر الشريف علي بن الحسين ... وكان لعبد العزيز مطلب واحد ، هو ان ينتهي الأمر باستسلامهم الكامل له بدون قتال ، حقناً للدماء . ولا يقبل بغير ذلك ..

ثم انتقل عبدالعزيز بمعسكره الى حدّة الواقعة بين مكة وجدة للاجتماع مع القنصل البريطاني ، ولم تتقدم المحادثات تقدماً يذكر، وتأكد عبد العزيز من عدم جدوى استمرار الاتصالات .. فعاد الى مكة .. مسلماً القيادة في حدّة إلى شقيقه الأمير محمد بن عبد الرحمن .

بعد أكثر من شهر قضيناه في مكاننا ، نواصل التدرب وأداء التمارين اليومية ، والأمير محمد يشكل كل يوم سرية من الخيالة يبعثها للاستطلاع

نحو جوانب وضواحي جدة ، لاكتشاف تحركات قوات الاشراف ومدى قوة استحكاماتهم ومواقعهم .

وفشلت كل المحاولات التي بذلت لاقناع الأشراف بتسليم جدة بدون مقاومة حقناً للدماء ، واستعد الملك عبد العزيز والأمير محمد للانتقال برجالهما الى«الرغامة» لحصار جدة .

وفي أول يوم من المسير نزل عبدالعزيز بجيوشه في مفارش وادي فاطمه قرب عين العزيزية ، وبعد أن نصبت الخيام ، إذا بطائرة تغير على المخيم وتقصفه بالقنابل ، ولكن القنابل لم تسبب أضراراً مـا ، ولم يصب أحد على الاطلاق ، والطريف ، أن آخر قنبلة كانت تحملها تلك الطائرة انفجرت تحت جناحيها وهي في الجو مما أدى إلى سقوطها قرب عين العزيزية ومقتل طياريها البريطانيين ، وهرعنا نعدو لنشاهـــد حطام الطائرة . .

وفي اليوم الثاني عسكر عبد العزيز بقواته في الرغامة ، واستمرت الطائرات تغير علينا بين آن وآخر ، ولكن دون جدوى ، فلم تكن تحدث أية إصابات في معسكرنا ، مما جعلنا لا نأبه لقدومها ولا يختبىء أحد ، بل يسارع الجميع لاطلاق الرصاص عليها ..

واستمرحصار جدة ما يقارب السنة تخللتها معارك لا عدّ لها استشهد فيها الكثيرون ، وكان عبد العزيز يعتمد على محمد في كل متطلبات الحصار .. وكان الأمير محمد يقوم باختيار الرجال الأكفـــاء المناسبين

المعروفين بالشجاعة والاخلاص وحسن التصرف والذين يثق في قدرتهم على أداء ما يطلب منهم وإنجاز المهمة المنتدبين لهـــا في الوقت المحدد سواء كان ذلك في وضح النهار أو في ظلمة الليل .

وكانت السرايا تعود بعد نجاحها بالنتائج التي كان يخطط لها الأمير محمد.. واستمرت معركة الحصار ، يديرها على اكفأ وجه ، حتى اختاره شقيقه عبد العزيز ليكلفه بتولي إمارة مكة والقيام بشؤونهـــا في هذه المرحلة الحاسمة من الحرب . وبقي الملك محاصراً جدة حتى إستسلمت حاميتها ١٣٤٤ هـ ـ وكانت حامية المدينة المنورة قد استسلمت على يد الأمير محمد بن عبد العزيز ، بعد أن حاصرتها من قبل قوة من حاضرة نجد بقيادة ابراهيم النشمي وقوة من البادية من قبيلة مطير بقيـــادة فيصل الدويش والقبائل الموالية لعبد العزيز ، قبل وصول الأمير محمد بقواته. وفرّ الأشراف وعلى رأسهم عبد الله بن الحسين وفـــلول القوات التركية من المدينة عن طريق ميناء ينبع الى جدّة ثم استسلمت ينبع بدون قتال يذكر ، ثم فروا ثانية من جدّة بالبواخر .. واستتب الأمن والنظام فيها وفي جميـع أنحاء الحجاز .

* * *

نادرة أيام حصار جدة

بعد هذا الحديث الجاد عن معركة حصار جدة ، انتقل بالقارىء إلى حديث طريف استمده مما يصاحب الحروب عادة من مصادفات واحداث تلعب فيها الأقدار الدور الحاسم ، وتتجلى فيها مشيئة الخالق سبحانـه وتعالى وقدرته .. من ذلك هذه الواقعة التي أقدمها للقارىء :

ففي الليلة الاولى مـــن حصار جدة ، صدرت الأوامر إلينا ببناء استحكامات في عدة مواقع حول المدينة ، بغية تشديد الحصار عليها . وحدد لنا مواقع بنائها ، كان قسم منها عند (الكيلو ٥ .. طريق مكة) ، والقسم الثاني شمالي غربي جامعة الملك عبد العزيز حالياً ..

وقد تم بناؤها من أكياس الرمل وتسقيفها بجذوع الدوم التي كان أهل جدة وضواحيها .. يسقفون بها بيوتهم ، وأُحضرت هذه الجذوع لتسقيف الاستحكامات من بيوت هدمت في الرويس ، وتم البناء ليلاً ..

وفي الصباح اتضح أن اختيار المواقع لم يكن موفقاً ، وان المدافع تهدد بالإستيلاء عليها بكل سهولة، مما دعا قائد الحامية أن يرسل بطلب نجدة عاجلة تساعدهم في حماية الاستحكامات خلال النهار ، ثم تقوم معهم بنقلها ليلا إلى الوراء مسافة معقولة تبعد خطر إستيلاء العدو عليها . واستجاب الملك لطلبهم وكلف أخاه محمداً أن يرسل لنجدتهم خمسين شخصاً ممن يعتمد عليهم .. وأرسل الأمير محمد النجدة المطلوبة ، ولم أكن أنا بين من انتدبوا للذهاب في حين أني في حقيقـــة الأمر وبيني وبين نفسي كنت أتمنى الانطلاق معهم . .

وفيما أنا اتجول هنا وهناك وقت راحتي التقيت بالمجموعة الذاهبة ، ووجدت نفسي أقرر الذهـــاب معهم برغبتي ودون تكليف رسمي ، لمعاونتهم فيما هم ذاهبون لادائه ...

وعند وصولنا إلى الاستحكامات ، إذ برصاص بنادق العدو ينطلق وينهال علينا فأسرعنا نحتمي بالتحصينات المقامـة ، ولم يصب أحد منا

بسوء حتى ذلك الوقت . . واستمر العدو يطلق الرصاص في اتجاهنا على فترات متقطعة. وقبيل الظهر . . وفيما أنا جالس في مدخل الموقع المعد لحماية السرية استريح من تعب أحسست به ، لاحظت أن جلستي كانت في مكان لا يظللني فيه سقف المدخل بشكل كامل ، فقد كانت الشمس تقع على كتفي الأيمن . .

وكما ذكرت، لم أكن مكلفاً بالعمل مع القوة رسمياً . . وكان اطلاق الرصاص قد توقف لفترة . . فنهضت مزمعاً العودة من حيث أتيت إلى مكاني في معسكر الأمير محمد . . وتركت الموقع . وما أن سرت مسافة لا تزيد عن العشرين متراً ــ وقد انتقل أحد أفراد القوة إلى مكاني الذي كنت جالساً فيه عند مدخل الموقع ــ إذا بالعدو يطلق قنبلة من أحد مدافعه فتسقط فوق هذا الشخص بذاته الذي جلس مكاني ، وأرى بعيني أشلاءه وقد تطايرت إلى مسافات بعيدة بعد أن انفجرت القنبلة عليه . ثم أرى قنبلة أخرى أطلقها العدو تسقط على أحد المواقع بل وتسقط في فوهة المدفع ، ثم تنفجر مفجّـرة المدفع ، ومدمرة الموقـــع بأكمله قاتلة كل من حوله بمن فيهم رئيس الموقع حسين المدافعي . . وابتعدت ، وأنا أتألم لما حاق برفاقي الذين استشهدوا في سبيـــل الواجب . . وأعجب في نفس الوقت من تصاريف القدر . . وأشكر الله على إرادته ونعمته وقضائه . . وأحمده على النجاة . . وقد ازداد إيماني ويقيني بأنه لا شيء يتم إلا بارادة الله سبحانه وتعالى . . فلو تأخرت في القيام لحظات ، وبقيت في الموقع

وفي المكان الذي كنت أجلس فيه للقيت حتفي ولكنها إرادة الله وإنه لقضاؤه الذي يتحكم في مصير الانسان منذ يولد وحتى يختاره الله .

. . . . . .

واقعة اخرى تبرز فيها ارادة الله جلت قـــدرته ، وهي الارادة الظاهرة الواضحة لو تأملنا كل ما نقوم به من اعمال .. كما يتضح فيها جانب آخر طريف .

فبعد الواقعة السابق تفصيلها ، تقدر ان توضع مدافـــع أخرى في استحكامات جديدة شمال الكندرة في الموقع الذي يسمى الآن (الاشرفية) شمال غربي مطار جدة حالياً .. وتم اختيار الموقع بحيث لا يصل اليه مرمى مدافع العدو ،وتقرر بناء سبعة استحكامات للمدافع في مكان منخفض واثنين لجلوس الجنود، محفورة في الارض ، مسقوفة في مستوى سطح الارض ، على ان تكون بعمق متر ونصف تقريباً ويجمعها خندق متصل بالجميع عرضه متر أو اكثر قليلاً يكون مكشوفاً حتى اذا أطلق العدو سقطت امامه أو خلفه .

في تلك الفترة كان هناك شخصان معروفان ، وكانا من الفرسان المشهورين ومن بلدة واحدة هي « حائل » . ولكن الغريب في الأمر ان احدهما وهو فهد الذعيت كان قائد هذا الموقع المكون من الاستحكامات السبعة ، والآخر هو صالح السعدالله ، في الجانب الآخر منضماً الى قوات الشريف المحاصرة في جدة ! وكل منهما يتحدى الآخر ..

ذات يوم توجه فهد الذعيت ، قائد الموقع ، الى الملك عبد العزيز قائلا بالحرف الواحد :

ارجو ان ترسلوا لي قوة اضافية من الرجال ، تضاف الى القوة التي معي ، فاني اتوقع ان يفاجئني صالح السعدالله بالهجوم واشعر ان ذلك حتمي وقريب .

واجابه الملك : أخشى ان يكون الخوف قد سيطر عليك يافهد .

ورد فهد : لا والله لم أخف ولكني اشعر انه لا بد وأن يهاجمني حالاً.

وقرر الملك أن يرسل اليه قوة لتعزيز الموقع ، وتقرر ان تتوجه القوة ليلا ، ليتمكن افرادها من الوصول سالمين تحت جنح الظلام .

وعاد فهد الذعيت الى موقعه، وفي صباح اليوم التالي اذا بتحركات مريبة للعدو على شاطىء جدة.. وعندما علم الملك عبد العزيز بتحركات العدو توقع هجومه علينا على نطاق واسع أو هربه من جدة فأصدر أوامره لأخيه محمد بان يمشي الجنود نحو جدة وصدرت الاوامر للجيش بالتقدم نحو جدة على نطاق واسع وفي منتصف الطريق واذا بالملك عبد العزيز يرسل خيالة ليطلبوا من الجيش العودة الى ثكناتهم قائلين «العافية العافية ارجعوا الى ثكناتكم » . ورجع الجيش بناء على طلب عبد العزيز حيث اتضح لعبد العزيز ان حركة العدو كانت مجرد تمويه .

وفيما كنت وبرفقتي صديقي بخيت آل محمد نقرر زيارة الرويس لمشاهدة بيوتها الخالية الخاوية بعد ان نزور الأستحكامات والمدافع ونستريح فيها قليلاً انطلقنا ونحن نتحدث وبينما نحن على بعد ما يقارب الكيلومترين من الاستحكامات شاهدنا خيالة يقدر عددهم بثلاثين خيالا ينطلقون من مقر الاستحكامات متوجهين لجدة فسالت صديقي ما هذه

الخيل ؟ فقال : ربما تكون خيل الاخوان يريدون دخول جدة. وما هي الا لحظة حتى شاهدت خيـــل الاخوان تنطلق من الجبال الشمالية من معسكر الرغامية متوجهة الى مواقع الاستحكامات كنجدة فقلت له . لو كانت خيل الاخوان فاذن دخلوا جدة ولكن أنظر خيل الاخوان تنطلق من معسكراتها..؟ فاسرعنا بالمسير جريا على الأقدام لنعرف الحقيقة وعندما وصلنا الاستحكامات وجدنا فهد الذعيت مع بعض رفاقه قتلى كما وجدنا صالح السعدالله ومعه خمسة من الدروز قتلى مع خيولهم، وبقينا مع الأحياء طوال النهار الى ان وصل المدد الذي طلبه الذعيت على دفعات ليتخذوا مواقعهم داخل الأستحكامات استعداداً لأي طارىء .

.. وحمل رفاق الذعيت جثمانه ، ليتولوا دفنه في المعسكر في الرغامة .. رحمه الله ..

نادرة مع القنابل ..

عنـــد غروب الشمس ، وقد حان وقت صلاة المغرب ، وأقيمت الصلاة ، وإذ نحن نصلي خلف الامام..وقد بلغنا السجدة الأولى وسجدنا بالفعل . وإذ بالعدو يطلق قنبلة تأتي بصوتها المدوي ، وقد أصبح بالنسبة إلينا شيئاً عاديا من طول ما تمرسنا بالقتال وتعودنا عليه.. وطال سجودنا على الأرض. . ! وبقينا ساجدين وكل منا يعجب في نفسه من طول مدة السجدة وأخذنا نردد الكلمة المباحة في الصلاة « سبحان الله » ... لننبه الامام إلى أن ينهض دون جدوى، وبقينا ساجدين نكرر سبحان الله ، وإذا ببادي بن دبيان ، من شيوخ قبيلة قحطان، وقد رفع رأسه ليتبين جلية الأمر ،وإذ به لا يرى الامام .. فقال بصوت عال : يا جماعة،سبحان الله في الدريشة (أي الاستحكام) .. كان الامام قد فر من أمامنا عندما سمع صوت القنبلة . فجرى يختبىء في الاستحكام دون أن نراه ودون ان ننتبه إلى فراره ونحن ساجدين !

ونهضنا جميعاً ، ضاحكين ، لنعيد الصلاة .

*

أذكر هنا ، أمراً قد يعجب البعض من ذكره .. وإني لاعجب أيضاً منه إذ أذكره بعد هذه السنوات الطوال التي مرت على تلك الوقائع ، وتغيرت الظروف وأحوال المعيشة الى الأفضل بحمد الله .. فحتى يومي هذا ، لا زلت أشعر أن ألذ وأطعم ما أكلته في حيـــاتي وحتى اليوم وجبة من الارز قمنا بطبخها ونحن في موقعنا داخل الاستحكامات!

كان الأرز لم يغسل بالماء قبل طبخه.. ولم يكن فيه من السمن والملح إلا الشيء القليل .. والكثير من الرمل وكان القدر (تنكه) صفيحة ! وكان الطبق (الصحن) الذي أكلنا فيه صندوق رصاص فارغ مغلفاً داخله بورق السلفان ..

وأكلنا وشبعنا .. وشعرت بحلاوة (الوليمة) بعد الجوع .. ولا زلت حتى اليوم أعتبرها أشهى وجبة نلتها حتى يومي هذا .!

*

نعود إلى الحديث عن الحروب والقتـال .. وقد استسلمت حامية جدة .. وانتهت المعارك جميعاً بالنصر بعون الله وتوفيقه .

واستتب الأمر،وظل محمد أميراً لمكةالمكرمة..وحتىرأىانه قد أدى واجبه وانه قد قام بدوره في الفترة الحاسمة فرغب رحمه الله في التخلي عن منصبه في إمارة مكة ليختار لها شقيقه من يراه لتوليها . والحق انه كان جديرا بها وبالاستمرار في توليها ، ولكنه كان يعتبر نفسه بكل تواضع كمندوب انتهت مهمته معلناً استعداده الدائم لكل مهمة أخرى مهمـــا عظمت في سبيل المصلحة العامة .



عبد العزيز ، القـــائد ، والفارس ..
دائماً في المقدمة على طريق الجهاد والنصر ..



معركة السبلة

إحدى الحروب التي خاضها الأمير محمد تحت قيادة أخيه عبد العزيز وكان لي شرف معاصرتها والاشتراك فيها اشتراكاً فعلياً ولعل ذلك هو السبب في حديثي التفصيلي هذا عنها ، بالاضافة إلى ما أعتبره من أن هذه الحرب ، أو هذه المعركة الكبرى الفاصلة تعد نقطة تحول هام في التاريخ السعودي ، نظراً لضخامة القوى والجيوش التي اشتركت فيها . وما ترتب عليها من نتائج .. وكانت المعركة عام ١٣٤٦ هـ.

كان المتمردون على آل سعود تدعمهم قوى خارجية أجنبية من وراء الحدود، وكانوا بزعامة سلطان بن بجاد شيخ قبيلة برقة من عتيبة وفيصل الدويش شيخ قبيلة مطير ، وقد تجمع حولهما آلاف من رجال البادية، بدوافع مختلفة وتأثيرات متعددة . بعضهم كان مخدوعاً بدعاية الدويش المضللة ، وبعضهم يقاتل بدافع القرابة والعصبية القبلية ، وبعضهم طامع في الاغراءات والوعود .. وكلهم أهل البادية ، من المقاتلين، ولكنهم يفتقرون إلى التمسك بعقيدة يقاتلون من أجلها ، ومن يقاتل دفاعاً عن عقيدة وعن حق يكون عادة أكثر صلابة وأشد بأساً وأعظم اقبالا على التضحية .

وكان آل سعود بقيادة الملك عبد العزيز رحمه الله ، وقـــد التف حولهم عشرات الالوف من رجال القبائل وجميع حاضرة نجد والشمال والجنوب يستعدون ويتجمعون للزحف إلى ميـــدان المعركة متشوقين للقتال في سبيل الحق والعقيدة ، وعندما وصلت أنباء هذا الحشد الضخم الملتف حول الملك عبد العزيز ، والذي يستعد لخوض المعركة الفاصلة إلى ابن بجـــاد ، أيقنوا ان خسارة كبيرة لا بد وأن تلحق بهم وبمناصريهم إذا اشتبكوا في معركة سافرة مع جيش آل سعود .

وكانوا يودون لو أتيحت لهم الفرصة للقضاء على آل سعود ومناصريهم دون أن تلحق بهم وبرجال البادية المتجمعين معهـــم خسائر تذكر ، واعتقدوا في أنفسهم القدرة على تحقيق ذلك ، وخططوا لـكي يتجنبوا المواجهة السافرة .. كانوا يعلمون أن الملك عبد العزيز قـد وصل إلى عاصمة القصيم ، بريدة ، قادماً من الرياض بالسيارات وانه ينتظر هناك حتى تتجمع البيارق القادمة من كل مكان من نجد ومن الشمال والجنوب ، عازماً على الانتقال إلى موقع المعركة في السبلة بعد تمام تجمع البيارق في القصيم . وبلغهم أن القوات التي وصلت بالفعل إلى بريدة ، قليلة ، وان البيرق الرئيسي الذي يشكل القوة الحقيقية في جيش عبد العزيز ، لا زال في طريقه إلى القصيم ، قادماً من الرياض على الجمال ..

واقترح أحد كبار المتمردين ، ويدعى مطلق بن الجبعا من مشائخ قبيلة مطير ، على الدويش وابن بجـــاد ورفاقهم أن يسارعوا بالمسير ليلا ، ليكمنوا في طريق البيرق القادم من الرياض في منتصف الطريق ، في

مكان يسمى «المستوي» قرب جبل «برمه» حتى إذا سقط في الكمين وحاصروه أمكنهم القضاء عليه، وبذلك يحرمون الملك عبد العزيز من البيرق الرئيسي القوي، الذي ينتظر وصوله اليه ليبدأ الزحف.

ولقد كانت هذه الخطة كفيلة، كما كان يرى مطلق بن الجبعا، بتغيير ميزان القوى في المعركة، ويقلب نتائجها لصالح الدويش وابن بجاد لو تم تنفيذها، فقد كان رأيه، انها إلى جانب القضاء على القوة الرئيسية القادمة ستحقق أثرا أكبر في اضعاف الروح المعنوية للقبائل التي تزحف من كل مكان للتجمع حول آل سعود في القصيم فيتراجع بعضها، ويتقاعس آخرون، مما يؤدي إلى اضعاف قوة جيش آل سعود فيتمكنون من هزيمته في المعركة المقبلة. ولكن قادة المتمردين لم يوافقوا على اقتراح مطلق بن الجبعا.

انها ارادة الله جلت قدرته التي أعمت بصائرهم عن قبول هذا الاقتراح وتنفيذ هذه الخطة. وانه الغرور الذي جعل الدويش يرد على مطلق بن الجبعا قائلاً: اننا لا نريد ان نقضي عليهم مجموعة تلو مجموعة بل سنقضي عليهم جميعاً، دفعة واحدة.

وهكذا وصلت بسلام الى القصيم القوة الرئيسية القادمة من الرياض، لتعزز قوة آل سعود ثم ليستمر تجمع القبائل والقوات تلتف كلها حول الملك عبد العزيز..

وما أن التام شمل الجميع، واحتشدت الالاف المؤلفة من رجال الحضر والقبائل قرر الملك الانتقال بجيشه الى الزلفي (شرقي جنوب

القصيم) ومنها الى السبلة .. وقبل أن ينتقل عبدالعزيز من القصيم إلى الزلفي عمّد ولده الامير فيصل قائداً عاماً لحاميات مكة المكرمة والمدينة المنورة وتوابعهما في المنطقة الغربية تحفظاً للطوارىء وتأميناً للتموين من جدة للقصيم القافلة تلو الأخرى .

ما أن حشد عبدالعزيز جيوشه في مواجهة قوات المتمردين، واتضح لابن بجـــاد والدويش ضخامة القوات المناصرة لآل سعود ، حتى ايقنا ان نتيجة المعركة لن تكون في صالحهم ، وعادوا الى التفكير في خديعة تنقذهم من المواجهة السافرة ، ومحاولة لتجنب الخسائر الكبيرة التي لا بد وانها ستصيبهم لو بدأ القتال .

هداهم تفكيرهم إلى وجوب الغدر بالملك عبدالعزيز شخصياً ، إما بالقتل أو بالأسر ، قبل نشوب المعركة ليضعوا جيش آل سعود أمام الأمر الواقع ويتم لهم النصر بدون قتال !

كان الملك ، وهو الحريص دائماً على حقن الدماء ، قد أرسل إليهم رسولاً يطلب منهم أن يستسلموا دون قتال صوناً لدماء المسلمين ان تسفك وإقراراً للحق ..

واعتقدوا ان الفرصة قد حانت لهم لتنفيذ مخطط الغدر بالملك .. أرادوا استغلال ما يعرفونه عنه من ايمان شديد بالله وتمسك بالغ بكتاب الله الكريم ، وبسنة نبيه المصطفى صلاة الله وسلامه عليـه ، فأرسلوا اليه مجيبين : « اننا نطلب منك شريعة الله وسنة نبيه ورسوله محمد صلاة الله وسلامه عليه ، ونطلب تحكيم العلماء الضالعين في أحكامها ممن معنا

ومن معكم» .. مؤكدين انهم سيوافقون على ما يحكم به العلماء الأجلاء ..

وكانت دعوتهم إلى تحكيم كتاب الله وسنة نبيه بواسطة العلماء دعوة ظاهرها الحق، وباطنها الخديعة والغدر مما سيأتي تفصيله ..

وتفاءل الملك بالخير أمام مطلبهم هذا .. وهو الذي لا يفكر في الخديعة والغدر، بل يفكر في إقرار الحق وحقن الدماء ما أمكنه ذلك .. ووافق على طلبهم بل وفرح به فرحاً كبيراً، لايمانه بان التحكيم سيقر الحق الى جانبه ويوفر على الجانبين خوض معركة يسقط فيها آلاف القتلى من الجيشين ..

وكانت المسافة بين المعسكرين حسب تقديري الخاص قرابة الثلاثين كيلومتراً .. تنتهي بمرتفع جبلي تحصن فوقه وخلفه جيش ابن بجاد والدويش وامامه سهل ممتد بسيط به مساحة مزروعة، وببقيته أشجار كثيرة وان كانت لا تعد غابة كثيفة الا ان كثرتها تجعل من الممكن أن تكون مكاناً صالحاً لاختفاء أعداد كبيرة من الجنود.. بين الاشجار القريبة بعضها من بعض .

وعندما وافق الملك على مطلبهم بالتحكيم اتفق الطرفان على أن يكون مكان الاجتماع بين وفدي الطرفين في خيمة تقام في منتصف المسافة بين المعسكرين أي قرب هذا السهل الذي وصفناه، وسط الاشجار .. وذلك ما كان يخطط له المتمردون والمتآمرون وما كانوا يرجون تحقيقه حتى تتاح لهم الفرصة للغدر بالملك .

ففي عشية اليوم المحدد للاجتماع والذي كان مقرراً ان يحضره الملك

وفي صحبته عشرة من الخيالةفقط، أوعز ابن بجاد والدويش الى عدد كبير من جنودهم ان يتسللوا بين الاشجار المحيطة بالخيمة ويكمنوا فيها حتى اذا حضر الملك ومن معه انقضوا بجموعهم عليهم ، غدراً، وبذلك يتمكنون من قتل الملك أو أسره ، وينتهي الامر في نظرهم بفرض الامر الواقع على الجميع.. وهكذا بدأ جنود الدويش وابن بجاد يتسللون ليلاً ليحيطوا بمكان الخيمة.. ولكن بعض البادية المناصرين لآل سعود ، اكتشفوا تحرك جنود العدو ليلاً .. وفطنوا إلى ما يدبره ابن بجـــاد والدويش واخبروا زعماءهم وشيوخهم بالامر ..

وفي صبيحة اليوم المحدد للاجتماع ، والملك يستعد للذهاب ، وقبل ان يتحرك هو ومن معه إذا بهؤلاء الشيوخ يأتون على ظهور الخيـــل مسرعين ، وعلى رأسهم مشاري بن بصيّص شيخ قبيلة مطير وعمر بن ربيعان شيخ قبيلة الروقة من عتيبه ، وابن حشر ومذكر بن فارس من مشايخ آل عاصم من قبائل قحطان وعبدالمحسن الفرم شيخ قبيلةحرب. وظيدأن أبو اثنين ووليد ابن شويه من مشايخ قبيلة سبيع . وكانوا من الموالين لآل سعود رغم ان أفخاذاً من القبائل (عدا سبيع) كانت منضمة الى معسكر ابن بجاد والدويش .

واتجه القادمون فوراً الى خيمة الامير محمد بن عبد الرحمن لإعتقادهم ان الملك عبد العزيز لن يصدقهم ولن يطاوعهم اذا هم نصحوه بعدم الذهاب الى الاجتماع، واخبروا محمداً بما علموه من تدبير العدو وأكدوا له ان جنود ابن بجاد والدويش يحيطون بمكان الاجتماع وسط الاشجـــار وانهم أعدوا العدة للغدر بالملك وان ذلك هو هدفهم الحقيقي من الاجتماع.

وكانت خيمة الأمير محمد تبعد حوالى مائتي متر عن خيمة الملك عبدالعزيز التي سينطلق منها في طريقه الى الأجتماع .

وأمرني الأمير محمد ان اسرع بالكتاب لاسلمه الى اخيه عبد العزيز يداً بيد .. وأسرعت أقطع المسافة جرياً على قدمي ، حتى وصلت الى خيمة الملك وسلمته الرسالة العاجلة من أخيه وكان مضمونها أنه يرجو من الله ثم من أخيه عبدالعزيز أن لا يذهب إلى خيمة الاجتماع ويقول « لقد ثبت لدينا من أقوال شيوخ القبائل فلان وفلان الخ ... ان الامر مجرد خديعة لنا ولك وليس كما تعتقد . ولا يمكن ان تمكنهم ان يخدعونا فما لك إلا أحد أمرين إما ان تعدل عن الذهاب اليهم ريثما يتضح الامر عن حقيقته واذا لم توافق على هذا فارجو ان لا تذهب إلا وبصحبتك مائتين خيال مردوفة (ويعني بذلك اربعمائة رجل) ونحن نراقبكم جميعاً عن كثب بحذر واستعداد للطوارىء وأسأل الله ان يرشدك لما فيه الخير لك ولنا . والسلام » .

قرأ الملك الرسالة وبانت على وجهه امارات التفكير العميق وبقيت واقفاً أمامه ما يقارب الربع ساعة .. ولكنه لم يجب بشيء وكان عليّ أن أنصرف ..

وعدت الى أخيه محمد مسرعاً ، وأخبرته بالامر كما حدث .. وكان واضحاً ان عبدالعزيز لم يعدل عن الذهاب وربما لم ياخذ برأي أخيه في الاحتياط بمصاحبة أربعمائة رجل مع الملك اذا ذهب للاجتماع .

وعاد الامير محمد يستدعي الكاتب مرة أخرى ويمليه رسالة ثانية

وكان مضمونها : « أخي عبدالعزيز حفظك الله ،لا نوافق جميعاً على ذهابك اليهم ولا بأي شكل من الأشكال وما عليك إلا أن ترسل لهم وتطلب منهم المجيء إلى عندك هنا وتعاهدهم بالله ان يأتوا ظـالمين ويعودا سالمين.فإن كانت نيتهم حسنة فهم يعرفون حق المعرفة التزامك بعهود الله . اما انا فقد امرت الجماعة بالهجوم علىالخيمة ومن فيها ومن حولها قبل وصولك إليها إذا لم توافق على ما اتفقنا عليه ولله في أمره ما يريد والسلام . . . »

وعدت أسرع بالرسالة الثانية جرياً الى مكان الملك لاسلمها. وسلمت الرسالة الى الملك وبعد أن قرأها تطلع إلي يسألني : هو محمد شايف شيء ؟ (أي هل يرى اخي محمد شيئاً) . قلت له الله أعلم . وطلب الملك المنظار المكبر وأحضروه له وخرج من الخيمة وابتعد قليلا الى مكان تسهل منه الرؤية وتطلع بالمنظار الى مكان الخيمة وسط السهل ليرى اذا ما كان حولها أي تحرك أو حشد .

وفي هذه اللحظة رأى الملك قوات القبائل الموالية التي امرها الامير محمد حاملة أعلامها تبدأ في التحرك للزحف الى مكان خيمة الاجتماع ..

قال لي الملك: « أسرع وقل لعمك استخرنا اللهعن الذهاب » وأرسل الخيالة العشرة ينادون .. «العافية يا قوم .. عودوا إلى ما كنتم عليه» .

. . . . . .

وبالرغم من مرور الزمن على ما احتوتـه الرسالتان من عبارات أمليت على كاتبهاسليمان بن فليح ـ الذي استشهد في اليوم الثاني من كتابتها

تحت البيرق ـ على مسمع من الحاضرين وأنا منهم وحملتها كموزع بريـد ، لم أنسَ كلماتها، للأهمية البالغة لها التي جعلت العبارات ترسخ في ذاكرتي كالنقش على الحجر ، أنتظر متى يأتي الوقت لنقلها من ذاكرتي للتاريخ . والحمد لله على طول العمر ..

وعدل الملك عن الذهاب وأرسل للمتمردين بهـــذا الاقتراح الذي اقترحه الأمير محمد يطلب منهم الحضور إليه وعليهم أمان الله . وواصل المتمردون خداعهم فأرسلوا فيصل الدويش وحده ..

واستقبله الملك وقال فيصل الدويش : لقد قدمت إليك لأعاهدك بالله أنني معك !.. ورد عليه الملك قائلاً: إن بيني وبينك عهداً سابقاً فـــإذا كنتَ قد نقضته فلا بد أنك ستنقض العهد الجديد .. ثم أضاف : ارجـع إلى قومك على أساس العهد القديم إن كنت صادقاً .. وحـــدد له الملك موعداً أخيراً لحسم الأمر إما بالحرب أو بالسلم على أساس التسليم . وكان الموعد شروق شمس الغد ، وأرسل معه مندوبين عنه من بينهم سعود بن غرير ، وعبد الرحمن بن برمان يصحبونه إلى قومـــه للعودة بالجواب النهائي إلى الملك . ومـــا ان وصل الدويش إلى معسكره ، حتى صاح بجنوده :

القتال القتال ..! ليس أمامكم من القوم من تخشونه ..

وظل الملك ينتظر عودة مندوبيـه طوال الليل ، وفي نفس الوقت يعد العدة للاحتمال الأخير : القتـال ، حتى ان جموعنا بدأت تزحف إلى ميدان المعركة من بعد غروب الشمس مباشرة وخلال الليل حتى نكون

قربهم في الصباح . وعند بزوغ الشمس عاد المندوبون بالجواب الذي كنا نتوقعه : إنه القتال ..

بعدما رجع الدويش إلى معسكره ، رسم عبد العزيز الخطة ليلاً ، على النحو الآتي : قسم المشاة ثلاث جبهات متلاحمة .

الجبهة الوسطى ببيارق أهل الرياض بقيادة عبد العزيز ومعه الأمير عبد الله بن عبد الرحمن وعددها اثنين .

الجبهة الشمالية ابتداء من أهل القصيم إلى أهل حائل وتوابعهم من حضر وبادية ، بقيادة الأمير محمد بن عبد الرحمن وكل منطقة من المناطق تحمل ببيرقها ، ولا يقل عددها عن العشرين بيرقاً .

هذا عدا الجبهة الرابعة وهي جبهة الخيالة الشمالية التي كانت بقيادة محمد بن عبد الرحمن وابنه خالد ومعه من رجال الأسرة السعودية الأمير سعود بن عبد الرحمن والأمير أحمد بن عبد الرحمن والأمير فيصل بن سعدبن عبد الرحمن والأمير فهد بن سعد بن عبد الرحمن والأمير سعود ابن سعد بن عبد الرحمن والأمير محمد بن سعود بن عبد الرحمن والأمير سلمان بن محمد آل سعود وقد توزع هؤلاء الرجال على عدة مجموعات من بيارق الجبهة الشمالية لتوجيهها نحو المعركة ومعهم جميع القبائل الشمالية من خيالة ومشاة .

الجبهة الجنوبية : ابتداء من منطقة شقرا ومنطقة سدير ومنطقة الجنوب إلى وادي الدواسر وتوابعهم من حضر وبادية بقيادة سعود بن

عبدالعزيز بن عبدالرحمن معه من رجال الاسرة السعودية الامير محمد ابن عبدالعزيز والامير خالد بن عبدالعزيز والامير فيصل بن تركي بن عبدالعزيز والامير سعود بن عبدالعزيز آل سعود الملقب بالكبيروابنه الامير محمد الملقب بشقران وسعود بن عبدالله آل سعود ومحمد بن عبدالعزيز آل سعود الملقب بالمطوّع وقد توزع هؤلاء الرجال على عدة مجموعات من بيارق الجبهة الجنوبية ومعهم جميع القبائل الجنوبية من خيالة ومشاة، وكل الرجال المقتدرين على حمل السلاح من مشاة وخيالة من أسرة آل سعود من نسل تركي الاول وما قبله.. اشتركوا في خوض هذه المعركة الحاسمة جنباً إلى جنب، رحمالله الاموات منهم وللاحياء طول العمر .

وكنت أحد جنود المشاة في الجبهة الوسطى تحت قيادة الملك .

لا زلت أذكر تلك الليلة رغم مرور عشرات السنين عليها .. منذ منتصف الليل ونحن مستفون حول البيرق. ورغم ان المندوبين لم يكونوا قد عادوا بعد الا اننا كنا واثقين انه لا مفر من القتال . وكانت الروح المعنوية على أروع ما تكون والكل متشوق الى المعركة ..

كنا جميعاً نشعر بالدماء الحارة تلهب عروقنا، وفورة الحماس تؤججنا نشاطاً .. حتى لقد كنا نشعر وكأننا في أشد أيام الصيف قيظاً .. رغم ان الطقس كان قارس البرودة .

ولا أبالغ إذا قلت أننا كنا نستثقل الوقت وهو يمر بطيئا في انتظار

الصباح ، متشوقين إلى القتال مستعجلين اللقاء مع العدو واثقين بإذن الله من النصر . .

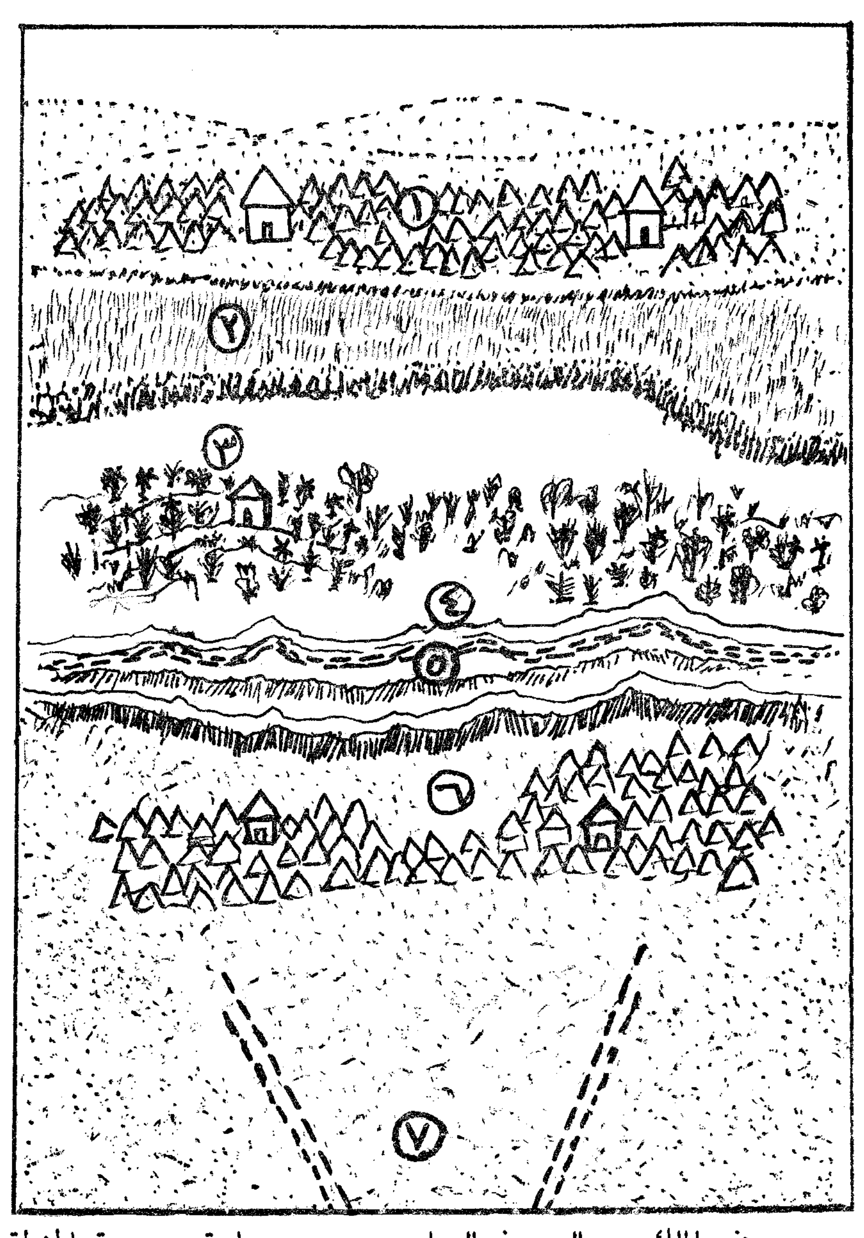
وبعد شروق الشمس بقليل إذا بالملك عبد العزيز يأتيناعلى جواده.. ويخاطب جموعنا بقوله :

«يا أبناءنا ويا ذخيرتنا .. ربينا وعشنا لنذود عن حمـــانا وحقنا وحدودنا في هذا اليوم وأمثاله ولنصد جموع المعتدين .. إن عدوكم تطاول على حمانا وتحملنا ، وتطاول على المواشي وتحملنا ، وتطاول على السواني وتحملنا، وما بقي إلا محارمنا فدافعوا عنها ، واليوم يومكم والله معنا ».

ثم أضاف : وإني استحلفكم بالله الا تبدأوا باطلاق النار إلا بعد أن يطلق العدو علينا النار . .

وزادتنا كلماته حماساً وبدأنا الزحف .. اندفعنا في اتجـــاه ميدان المعركة نحو العدو والملك يواكبنا عن يميننا إلى ان وصلنا إلى مرتفـــع ارتقاه هو ليشرف على سير المعركة وهو يردد الدعاء والابتهال إلى الله أن ينصرنا على الأعداء . . وواصلنا الاندفاع للقاء العدو .. ورآهم الملك يخرجون من تحصيناتهم فوق المرتفعات وينحدرون متجهين الى لقائنافي أطراف السهل .. وعندها استبشر .. وأيقن من النصر بعد أن رأى أن استهتارهم بقوتنا أغراهم بترك المرتفعات الحصينة والنزول الى السهل . .

وفي تقديري أننا كنا كثيري العدد وربما أكثر من أعدائنا عدداً ،



١ – مخيم الملك عبد العزيز في السهل . ٢ – مساحة مزروعة بالحنطة
٣ – أشجار متقاربة بوسطها أعدت خيمة الاجتماع . ٤– سفح الجبل حيث
دارت المعركة . ٥ – الجبل الذي تحصنت فيه قوات الدويش وابن بجاد .
٦ – معسكر المتمردين خلف الجبل. ٧ – الصحراء خلف الجبل ، ويوضح
الخطان المنقطان الطريق الذي تجمع فيه الهاربون متجهين إلى الأرطاوية .

ولكننا لم نكن أفضل منهم في الموقع ، كانوا يمتازون عنا باستحكامهم في المناطق المرتفعة وهي ميزة لم يعرفوا قيمتها باستهتارهم ورعونتهم .. فعندما اقتربنامن مواقعهم بلغ استخفافهم بنا ان اندفعوا من مرتفعاتهم واستحكاماتهم المحصنة لقتالنا .. ولو بقوا في استحكاماتهم لم يكن أحد غير الله يعلم كيف كانت هذه المعركة ستنتهي وكم كان سيكلفنا قتالهم وإخراجهم من مواقعهم منضحايا. .لكن الغرور والاستخفاف والتسرع دفعهم الى الخطأ المدمر . .

ودارت المعركة الرهيبة الضارية والتحمت الألوف المؤلفة من مقاتلي الجانبين وانطلقت النيران الغزيرة تمزق صفوفهم وكأني بتلك الساعة أتمثل الآية الكريمة : (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت) فكل منا كان ذهلا عن نفسه في حمى وطيس القتال .

واستمر القتال الضاري في عنف بالغ ، كنا نصب عليهم نيراننا صباً وكنا جميعاً نقاتل في عنف بالغ وحماسة متأججة واندفاع وتصميم .. مؤمنين بالله وبشرعيةما نقاتل من أجله ونطلب الاستشهاد في سبيله..

وكان لتصميمنا على النصر ولاندفاعنا وحماسنا غير المحدود اثره منذ الدقائق الأولى ولم يدم القتال الضاري أكثر من نصف ساعة . . وان كان تطهير أرض المعركة من فلولهم استغرق منا ما يقارب الثلاث ساعات.

وإنها لمفاجأة كبرى ان تنتهي معركة يشترك فيها أكثر من مائة ألف مقاتل من الجانبين في مثل هذه المدة الوجيزة لقد كان سلاحنـــــا

وسلاحهم واحد . البنادق والفرود (المسدسات) والسيوف والخناجر . كان عند عبد العزيز مدافع ورشاشات ولكنه لم يقبل أن يحضر الى ميدان المعركة أي شيء منها ، ولا قطعة واحدة ، بل ولم يقبل ان يستعمل السيارات في ميدان المعركة أو الزحف رغم وجودها لديه في القصيم .. وتمسك بذلك بل ولم يحضر سيارة واحدة لاستعماله الخاص ، فقد قرر أن لا يحاربهم الا بمثل ما في أيديهم من سلاح .. معتمداً على الله واثقاً من النصر ثقته بعدالة ما يحارب من أجله .

ولا أنسى في وصفي للمعركة أن أذكر مصير عدد كبير من (المتزرفين) وهم القناصة الفدائيون أو دوريات الاستطلاع والمناوشات المتقدمة بالتعبير العسكري الحديث، وكان ابن بجاد والدويش قد حشدوهم ليلا بين الأشجار في السهل بالاضافة الى الكمين الذي كانوا أعدوه في اليوم السابق حول خيمة الاجتماع للغدر بالملك . فهؤلاء جميعاً سقطوا بين كماشة رهيبة من نيران قواتنا من جهة ونيران قوات قومهم من خلفهم.. فكانوا كبش المحرقة في المعركة ولم ينج أحد منهم من الموت.

وكما كان انتصارنا السريع الحاسم والمثير، كانت الكيفية التي آثروا فيها الفرار من ميدان المعركة مفاجأة عجيبة ..

عندما أيقنوا بالهزيمة وكثرت ضحاياهم في فترة القتال الضاري القصيرة دبت الفوضى في جموعهم واختل نظام صفوفهم وبدأوا يتقهقرون مزمعين الهرب في اتجاه (الارطاوية) بلاد الدويش ونحن نندفع خلفهم نتعقبهم بالسلاح . لقد كنت قبل المعركة أسمع المثل السائر الذي يقول

(ضاق بهم سوق البر) أو ضاقت بهم الصحراء ، ولم أكن في الحقيقةأفهم معنى لهذا المثل فكيف يضيق البر وكيف تضيق الصحراء؟!حتى حضرت هذه المعركة وشاهدت ما شاهدت ففهمت المثل وأيقنت بصحته .

شاهدت هذه الجموع الحاشدة، الآلاف المؤلفة،التي كانت تشغل ساحة لا تقل عن عدة كيلومترات طولاً وعرضاً ، شاهدتها بعد ان أيقنت من الهزيمة واضطربت صفوفها ودبت فيها الفوضى تلتف صفوفها حول بعضها البعض وتدور لتنطلق على طريق الهزيمة كالسيل الجـــارف يهدر في واد منحدر ..

وكان منظراً فريداً عجيبا ! عشرات الالوف من الهاربين يتزاحمون بالمناكب في طريق ضيق لا يتعدى اتساعه خمسون متراً ! أمامهم الصحراء المتسعة .. والبر المترامي الاطراف . صحراء لا تحدها حدود . ولكنهم عموا عن الصحراء وعن البر واندفعوا يحشدون أنفسهم كتفاً إلى كتف في هذا المضيق !.. ومقدمة (طلائع) جبهاتنا من الخيالة والمترزفين والمشاة قد التفت كلها على مشارف المضيق تذيقهم البأس ونحن من خلفهم نفتك بكل من نصل اليه ..وهم لا يحاولون حتى مجرد أن يشقوا لأنفسهم طريقاً للهرب عبر الصحراء أو عبر البر ... ويندفعون الى المضيق !

وكدنا أن نفتك بمعظمهم وكان في استطاعتنا ذلك ، لولا أن أرسل إلينا الملك ابن عمه سعود بن عبد العزيز آل سعود الملقب بسعود الكبير ينادي فينا :

باسم الله ثم باسم عبد العزيز ، أرفعوا السلاح . أوقفوا القتال .

وأوقفنا اطلاق النار ورفعنا السلاح .. وعدنا الى قواعدنا سالمين غانمين وحسب المعتدين الله وحسب مَن وراءهم هذه الهزيمة .

وكان للمعركة نتائجها، وكان للنصر المدوي الذي أحرزه عبدالعزيز أثره داخل البلاد وخارجها..فقد كان المعروف مما يردده الناس أن هناك جهات أجنبية كانت وراء المتمردين تمدهم بالسلاح والذخيرة وتحرضهم على القتال ضد عبد العزيز...وكان لا بد أن يوقنوا من فشل مؤامراتهم وقد عاد اليهم المتمردون مهزومين مدحورين بل وأمعن بعض زعمائهم في الهرب حتى عبر الحدود إلى محرضيه ومشجعيه خارج البلاد !

أما زعيما المتمردين .. فقد هرب سلطان بن بجاد إلى بلدته «الغطغط» ثم سلمّ نفسه فيما بعد لعبد العزيز ، فأرسله إلى الرياض حيث أودع سجن « المصمك » ..

وأما فيصل الدويش ، الذي أصيب في المعركة ، فقد حمله رجاله الهاربون معهم إلى « أرطاوية » ..

بعد هذا النصر المبين الذي منّ الله به على عبد العزيز في هذه المعركة الفاصلة ، قرر عبد العزيز تتبع الهاربين . للقضاء على رؤوس التمرد حتى لا يعودوا إلى بذر بذور الفتنة والتمرد من جديد .. كما فعلوا من قبل . فانتقل بجيشه من ميدان المعركة في « السبله» إلى الروضة «زبده» قرب « أرطاوية » بلدة فيصل الدويش ..

ثم أرسل عبد العزيز إنذاراً قاطعاً إلى الدويش ، أن يسلمّ نفسه اليه فوراً ، وبدون قيد أو شرط ، حقناً لدمـــاء سكان بلدة أرطاوية

الابرياء . وأدرك فيصل الدويش ، وأعوانه ، أن عبد العزيز يعني ما يقول،وأنه سينفذ إنذاره ويهاجم البلدة إذا لم يستسلموا، ولن يستطيعوا صدّ قواته ..

ورضخ الدويش للانذار ، فسلمّ نفسه، منعوشاً على اكتاف أعوانه.. فقد كانت إصابته بليغة ..

هنا يحق لنا أن نتحدث عن الموقف الانساني النبيل ، الذي وقفه عبدالعزيز تجاه فيصل الدويش ..

لقد أمر عبدالعزيز ، بالاسعاف الفوري للدويش ، وكلف طبيبه الخاص بالاهتمام الشديد بعلاجه حتى يبرأ من إصابته .. التي كانت كفيلة بالقضاء على حياته لو ترك وشأنه ..

إنها فضيلة « العفو عن المقدرة » التي كان يتمتع بهـا عبدالعزيز ، ويلتزمها دائماً مع كل أعدائه .. الدويش سبق أن عاهد عبدالعزيز عهوداً ثم عاد فنقضها ، وقام بتجميع المتمردين وقادهم إلى هذه المعركة التي سفكت فيها دماء الكثيرين .. ينتهي به الأمر إلى أن يستسلم مصاباً إصابة كانت كافية للقضاء عليه لا محالة.. ويسارع عبدالعزيز إلى إسعافه وعلاجه وإنقاذه .

إن التاريخ يعيد نفسه . وما أشبه هذا الموقف ، بموقف صلاح الدين الأيوبي عندما انتصر على « قلب الأسد » وأسره جريحاً ، فأشرف بنفسه على علاجه ، حتى شفي .

موقف عبدالعزيز كان كموقف صلاح الدين ، الموقف الجدير بالقادة الأبطال الشرفاء .. ولكن موقف الدويش لم يكن مثل موقف قلب الأسد .. فهذا الأخير بعد أن تم شفاؤه من جراحه ، عاهد صلاح الدين على ألا يعود للقتال ، ووفى بعهده مقدراً جميل موقف صلاح الدين . أما الدويش ، فقد نكث بعهده ، وأخل بوعوده ، كما نكث من قبل ، وعاد يثير القلاقل ويحرض على التمرد ، الى أن ظفر به عبد العزيز ثانية.. ورغم ذلك لم يقتله عبدالعزيز، والقتل عقاب من يخون العهد ويثير الفتن تسفك فيها دماء المسلمين .. لقد اكتفى عبد العزيز ، بايداعه سجن « المصمك » .. حتى وافاه أجله المحتوم ..

. . . . .

لن نسترسل هنا في التعليق على هذه المواقف ، فقد خصصنا فصلاً خاصاً في نهاية الكتاب عن « خلاصة تجارب الحياة » أوردنا فيه ما يمكن استخلاصه من عبر من كل ما أوردناه من تجارب ومواقف .

*

نادرة – متخلف عن المعركة !

بعد هذا الحديث المطول عن المعركة ومفاجآتها انتقل بالقارىء فترة وجيزة الى الحديث عما يصاحب المعارك والحروب من نوادر وطرائف كثيراً ماتحدث فتخفف عن المحاربين ما لاقوه من عناء في القتال.

من ذلك ما حدث بعد ان توقف اطلاق النار في معركة السبلة .

فبعد ان عادت القوات الى قواعدها .. كانت النادرة التالية التي كنت أحد اطرافها .

أتاني أحد الرفاق وكان ناصر بن حمد بن حميد ، وكان معروفاً عند أصحابه بل وعند الجميع بحرصه الشديد على حياته وخوفه من الموت إلى حد ان اتهمه الكثيرون بالجبن ، وان كنا نعرف عنه انه عندما يقع في مأزق ويطبق عليه الخطر ويدرك أن لا مفر له من حبـــال الموت يبدي شيئاً من الشجاعة يخلصه من الموت ، ويسارع إلى السير في طريق الشجعان !

أتاني هذا الصديق وأسرّ إلي بما في نفسه،قال لي : انه لم يخض المعركة معنا بل قضى مدتها مختبئاً في الزرع ومعه فلان وفلان من الجبناء،وأخذ يرجوني ويلح علي أن أقص عليه ما حدث معي في المعركة ويسألني أين قعدت وأين قمت ومن كان حولك من الرجال .. حتى يخبر بذلك كله الامير محمد مدعياً انه كان معي ومع الرجال الذين كانوا حولي وانه فعل كذا وكذا كما فعلنا !.

وإزاء إلحاحه ورجائه قصصت عليه كل ما حدث خلال المعركة بالتفصيل .

وعندما جلس الأمير محمد يتحدث مع رجاله عن المعركة ونتائجها وكل منهم يدلي بما عنده من أخبار وبما فعله رأى الأمير هذا الشخص فسأله : وأنت يا ناصر .. وين كنت وماذا فعلت ؟

وأجاب ناصر : أنا كنت مع ابراهيم بن خميس ، وفلان وفلان ، وعملنا كذا وكذا .

وسرد عليه ما كنت قد أخبرته به بالتفصيل . . وظهرت الدهشة على الأمير محمد ، وتعجب .. ولكنه سكت . . بل ولم يسألني عما فعلته كما فعل مع بقية الرجال..وفي منتصف الليل دعاني الأمير إليه وقال :

إن كان ما قاله ناصر بن حميد صحيحاً .. فيا خيبة ظني فيك يا ابراهيم ! إذن كنتما أنت وهو مختبئين واتفقتما جميعاً على هذا القول !

وأحرجني حديث الأمير وتبينت انه يعرف عـــن ناصر الجبن الشديد .. ويوقن ان ما قاله مختلق .. فأخبرته بالحقيقة كاملة ، وبمـــا كان بيني وبين ناصر .. ولاحظت انه قد اطمان الى حديثي ولم يستكثر على ناصر الجبن والكذب ، ولكنه لم يستدعه ليعاتبه .. وترك الأمر..

وفي الصباح – إذا بأحد الرفاق ، وهو سليمان بن فليح الذي كان مصاباً إصابة بليغة عندما كان تحت البيرق خلال المعركة ، يسلم الروح، متأثراً باصابته رحمه الله .. وقمنا لدفنه ..

وعندما كنا نقوم بالدفن ، كان الأمير خالد نجل الأمير محمد يلقي كلمة تأبين للمقاتل الفقيد منها قوله :

« رحمك الله يا سليمان ، لم تمت إلا بوسمك وفي ساحة الشرف » . وإذ بناصر بن حميد الذي تحدثت عنه في بداية القصة يقاطع خالد بقوله : أين الموسم يا خالد .. ونحن سندفنه هنا وسنتركه غداً ؟ والله يا خالد انه لأحسن من الموسم لي ان أبيع جملا في سوق الرياض وآخذ عمولتي عليه ريالين وأعود إلى بيتي سالماً . (حيث أنه كان يشتغل دلالاً لبيع الإبل). (يقصد أن يقول : ما فائدة الموسم وقد مات الرجل ودفناه !.)

وفي اليوم الثالث انتقل عبد العزيز بقواته الى الروضة المسماة (زبدة) على مقربة من الارطاوية التي سلم الدويش نفسه بها منعوشاً وإذا بالملك يطلب من رئيس شؤون عائلته عبد الرحمن الطبيشي ان يتوجه للرياض ويخبر العائلة للتوجه الى مكة المكرمة على أن يلتقي بهم هو بالطريق .

وإذا بناصر بن حميد يذهب الى الأمير محمد ويقول له :

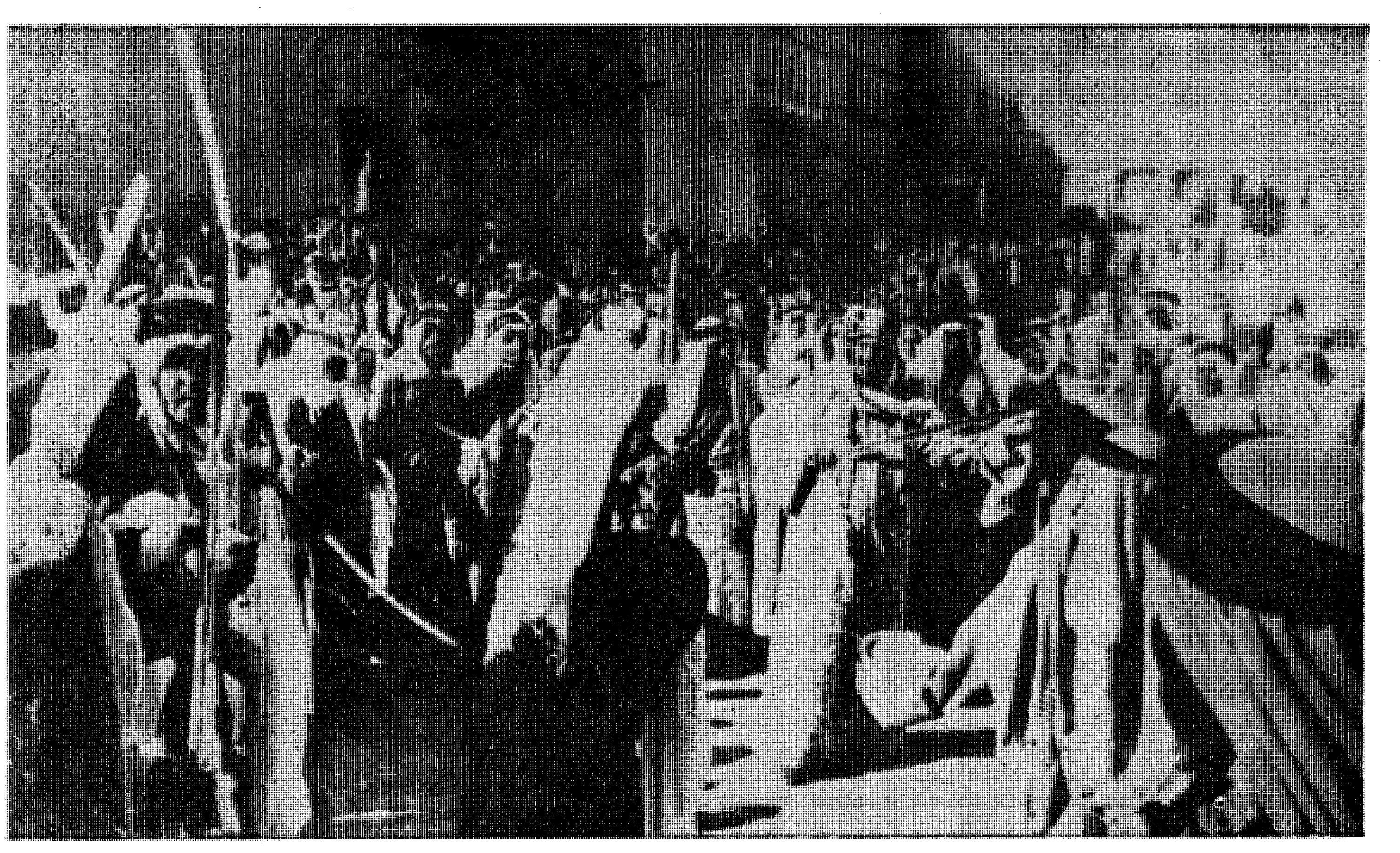
يا طويل العمر ، الطبيشي سيذهب للرياض الآن وأرجوك أن تسمح لي أن أذهب معه للرياض لأرى عيالي .

فقال له الأمير : لا مانع يا ناصر .. لقد قضيت اللازم يا ولد حمد .. ولا حاجة لنا في بقائك معنا .

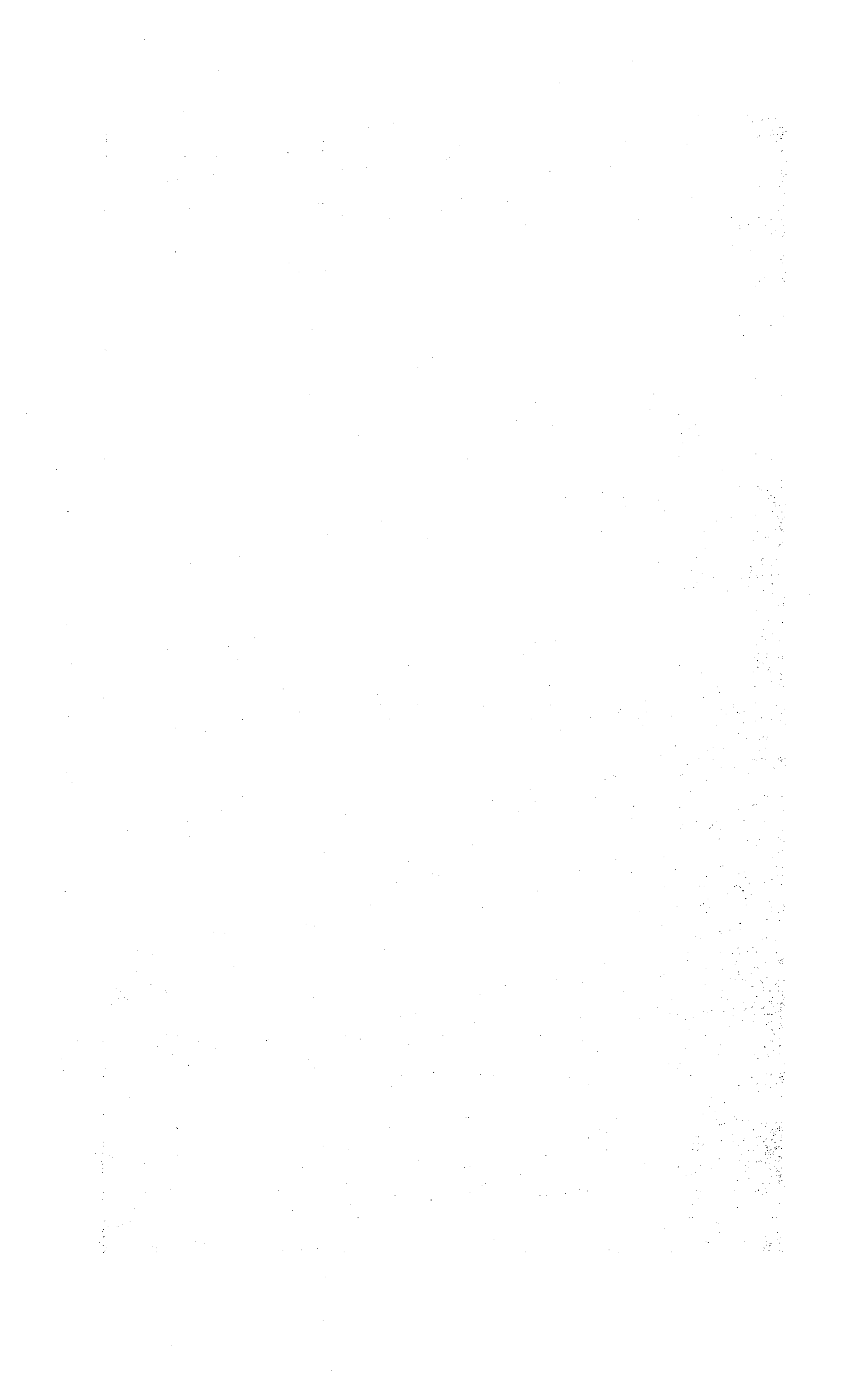
وهنا نهض ناصر بن حميد قائلا أمام الجميع وبدون خجل :

« والله ما قضيت لكم أي لازم – ولو أتكلكم الله عليّ وعلى أمثالي ما كان يردكم إلا الزلفي وما كنتم تصلون اليها الا حفاة..أنا كنت في الزرع مختبئا ومعي فلان وفلان وفلان » .

وضحك الجميع . . ومعظمهم كان يعرف الحقيقة .. وبقيت هذه النادرة يتناقلها الجميع للتفكه والمداعبة .



الملك عبد العزيز ، في إحدى « العارضات » التي تقام دائماً قبل التحرك إلى ميدان المعركة ..



معارك أخرى

لم يكتف المتمردون بهزيمتهم في السبلة ، بل أعادوا الكرة ، بعد أن أعادوا تجميع قواهم ، وحشدوا عدداً كبيراً من مطير ، بقيادة عبد العزيز ابن فيصل الدويش . ثم قاموا بالهجوم على « القاعية » . . وكانت بها سرية من قوات الملك عبد العزيز بقيادة ابراهيم بن عرفج ، لا يزيد عددها عن ١٨٠ نفراً . . وكلهم من أهل الرياض وأهل العارض (وادي حنيفة ومـا حوله) . . من خيرة الشباب المعروفين بالشجاعة والاقدام . وبالرغم مما هو معروف من أن « الكثرة تغلب الشجاعة » . . دافع هؤلاء المجاهدون عن البلدة دفاع المستميت ، وقتلوا من عشرات المئـــات المهاجمين أضعاف ما قُتل منهم . حتى نفذت ذخيرتهم . . فعادوا إلى صناديق الذخيرة المقفلة يفتحونها للحصول على الذخيرة لمواصلة الدفاع ، ليفاجأوا بأن مـا تحويه الصناديق من ذخيرة نوع آخر غير ما تحتاجه بنادقهم . . (وكان ذلك خطأ من شلهوب مدير الخزانة آنذاك) . .

وأسقط في أيدي الرجال الشجعان . . وتمكن المهاجمون منهم ، فـلم ينج منهم إلا القليل الذي تمكن من مغادرة البلدة قبل أن يطبق عليها المهاجمون من كل جهة . وكان بين الناجين ابراهيم بن عرفج أمير السرية . .

وشجع هذا الانتصار الدويش ، فتقـدم برجاله إلى « أم ارضمه » .
وكان بها سرية من قوات عبد العزيز بن مساعد بن جلوي ، أمير المنطقة الشمالية آنذاك التي مركزها (حايل) ، بقيادة الشنيفي ، تماثـل السرية التي كانت في القاعية عدداً وعدة ..

وبدأت الحرب ، وإذ بعبد العزيز بن مساعد بن جلوي ، يصل على رأس قوة كبيرة ، ودارت الدائرة على الدويش وقواته ، وقتل في المعركة عزيّـز الدويش كما قتل من رجال ابن جلوي ـ نـدا بن نهيّـر شيخ قبيلة حرب الموالية لآل سعود ، وكان معروفاً بشجاعته وجرأته . وكان نصراً حاسماً فسميت المعركة « حجّـامة »[1] وبعدها اضطر الدويش إلى الهرب إلى العراق .

. . . . . .

بعد ذلك وفي عام ١٣٤٨ هـ . حدث تمرد في نجد .. عندما ثارت قبائل عتيبة ، بقيادة مقعد الدهينه ، فوجّـه إليهم عبد العزيز قوة بقيادة خالد ابن محمد بن عبد الرحمن ومن بينها رجال قبيلة قحطان ، وفخـذ برقة من عتيبة .. ورجال من الحضر .

والتقت قواته بقوات الثائرين عند دخن ، والنيبر ، في جبال نجد .. وبدأت المعركة ..

---

(١) الحجامة ، هي سحب الدم مـــن الجسم ، وكانت التسمية إثر سحق قوات المتمردين ، تعني التشبيه بمعنى كلمة الحجامة .

ورغبة في سحق التمرد نهائياً أرسل الملك عبد العزيز قوة أخرى مجهزة بقيادة أخيه الأمير عبدالله بن عبد الرحمن ، لتساند خالد بن محمد، ولكن القوة عندما وصلت إلى « الشعرا » ، كانت قوات خالد قد تمكنت من هزيمة الثائرين وإنهاء مقاومتهم.. واستسلم له الدهينة شخصياً ..

. . . . . .

تمرد آخر

قاد ظيدان بن حثلين ، ونايف أبا الكلاب ، تمرداً جديداً في المنطقة الشرقية ، وتصدى لهم فهد بن عبد الله بن جلوي بقواته من الحاضرة ومعهم قبائل آل مرّة والعوازم وآل عريعر وبني هاجر الموالين لآل سعود . فهزمهم في معركة « العيينة » ، وسحق مقاومتهم نهائياً وقتل زعيم التمرد ظيدان وهرب نايف إلى العراق حتى سُلّم لعبد العزيز مع الدويش وابن بجاد ورفاقهم في الدبدبة ، ثم أودعوا سجن « المصمك » في الرياض وسجن « قصر إبراهيم » في الأحساء .. وأصيب فهد بن جلوي إصابة قاتلة في المعركة استشهد على أثرها . رحمه الله .

اليمن

في عام ١٣٥٢ هـ اعتقد الامام يحيى بن حميد الدين ، حاكم اليمن آنذاك أن بامكانه أن يستولي على جنوب المملكة العربية السعودية وأن يبعد آل سعود عنها ، ثم قرر أن ينفذ ذلك ، وحشد رجاله على الحدود، وبدأت المناوشات التي تحولت إلى حرب تدريجياً .

وأدرك الملك عبد العزيز خطورة الامر ، وأنه لا بد من وضع حد لأطماع الإمام يحيى ولا بد من الدفاع عن أرض الوطن وامتثل لقول الله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) . وقوله تعالى : (وإن ينصركم الله فلا غالب لكم). وقرر خوض الحرب .

خطط الملك عبد العزيز لخوض الحرب مع الإمام يحيى على جبهتين واحدة في الشرق ومركزها نجران والثانية من الغرب ومركزها القنقذة وعهد بالقيادة في الجبهة الأولى إلى ولي العهد الأمير سعود وبرفقته من رجال الأسرة السعودية الأمير خالد بن عبد العزيز والأمير خالد ابن محمد بن عبد الرحمن والأمير فيصل بن سعد بن عبد الرحمن والأمير

فهد بن سعد بن عبد الرحمن والأمير سعود بن سعد بن عبـد الرحمن والأمير أحمد بن عبد الرحمن والأمير محمد بن سعود بن عبد الرحمن . والأمير فيصل بن تركي بن عبد العزيز والامير محمد بن سعود الكبير الملقب بشقران .

ملاحظة : علاوة عما ذكر هناك شيء لا يستهان بـه ألفت نظر القارىء الكريم إليه وهي قدرة الله في تكوين جبال اليمن الشاهقة وصعوبة المواصلات فيها وتعذر الصعود إليها بالمعدات الثقيلة وهي حصون منيعة للقناصة ، ومن هذا الواقع، بقي الوضع يتارجح من هجوم إلى إنسحاب ومن نصر إلى هزيمة ومن هزيمـــة إلى نصر وعدد القتلى من الطرفين لا يستهان بـه وحتى وصلت الحالة إلى ان لم يبق بايدي قوات سعود من المواقع التي سبق احتلالها من اراضي اليمن سوى نقعة الواقعة بالقرب من صعدا وهذه القرية المسماة « نقعه » احتلها وضواحيها الأمير محمد بن سعود الكبير الملقب بشقران ومعه من قبائل سبيـع أهل الخرمة وأهل رنيه وكبار الاشراف فيها وقبائل شهران، وبقيت القرية المسماة نقعه وضواحيها تحت سيطرة القوات السعودية إلى ان سقطت الحدّيدة على يد فيصل ثم أعيدت القريـة كما أعيدت الحديدة وغيرها إلى اليمنيين مرة أخرى وكفى الله المؤمنين شر القتال .

أما باقي أبناء الأسرة السعودية فقد ظلوا مع عبد العزيز في الطائف وفي مقدمتهم الأمير عبد الله بن عبد الرحمن ، والقسم الآخر بقي مـــع الأمير محمد بن عبد الرحمن في الرياض للطوارىء ..

أما الجبهة الثانية فقد عهد بها إلى حمد الشويعر وكان من الرجال الناجحين الموثوق بهم ..

وما ان بدأت المعارك حتى تبين للملك عبد العزيز ان النتيجة لن تكون في صالحه وان الفشل سيكون من نصيب جيشه اذا استمر الأمر على ما كان عليه ، فقد اتضح له ان المعتمدين في الجبهة الشرقية قد استغلوا كرم قائدهم لمصلحتهم الشخصية . واستولوا على النفقات المعتمدة للجيش لحسابهم الخاص ، وهكذا كانت قواتهم تمنى بالهزيمة إثر الهزيمة كنتيجة حتمية لجشعهم واستغلالهم الموقف واستغلالهم كرم قائد الجبهة ووثوقه بهم واعتماده عليهم .. كذلك اتضح له ان قائد الجبهة الغربية رغم جهوده الكبيرة لم يتمكن من السيطرة الكاملة على أصحاب النفوذ الملحقين به .. وكانوا قصيري النظر لا يدركون أبعاد المعركة ونتائج تقصيرهم برغم محاولات حمد الشويعر وكرمه الفائق معهم ..

أمام ذلك قرر الملك عبد العزيز ان يغير الموقف تغييراً جذرياً ، فالمعركة تبدو أكبر من مستوى القائمين بأمرها « ولم يعد بعد دون الحلق إلا اليدين » كما يقول المثل .. فعهد لابنه محمد ان يتوجه من الرياض على رأس قوة كبيرة من الاحتياط لنجدة سعود فسار حتى وصل « أبها » « وخميس مشيط » .

سار الأمير محمد بن عبد العزيز من الرياض ومعه من الأسرة السعودية الأمير سلمان بن محمد آل سعود ومعهم من أهل الرياض أكبر قسم من رجال الاحتياط، وانضم إليهم سبعة وعشرون بيرقاً من أهالي



(الأمير) فيصل بن عبد العزيز ، ثم الأمير سعود بن عبد العزيز ، ثم الامير خالد بن محمد بن عبد الرحمن في صالون الاستقبال يوم العيد ، بعـــد انتهاء معارك الحجاز ..

نجد حضراً وبادية. وعندما وصل محمد إلى « ابها » و « خميس مشيط »، وإذا به وابن عمه سلمان يرون أن التحاقهم بسعود لا فائدة منه واقترحوا على الملك عبدالعزيز ان يسمح لهم بفتح جبهة ثالثة طريقها سحار وأجابهم على طلبهم بالموافقة وعندما حضروا جيوشهم للتاهب وتموينهم لمدة ٦٠ يوماً.. إذا بالخبر المسر يأتيهم ان فيصل احتل الحديدة – كما سنذكر بالتفصيل في الصفحات التالية – وانتهى كل شيء.. وكفى الله المؤمنين شر القتال ..

. . . . . .

وهناك نادرة طريفة ... لم يتأخر عن نداء الواجب إلا واحد وهـو إبراهيم الباحوث مصلح ساعات الذي قال للأمير محمد على سبيل المزاح ألا تعرف قول الشاعر يا طويل العمر وهو يقول :

لا تغزي إلا بقوم قد غزوا

وإلا فخلي المغازي لاهلهـــا

وأنا ما قد غزيت . فقـال له الأمير محمد : « لقد صدقت يا إبراهيم فوالله لولا إنك مصلح ساعات الناس ولا يوجد غيرك لاخذتك معنـا واذا ما قتلت تقتل كما قيل من قبلي للجبناء الذين ليس بيدهم صنعة يستفيد بها الناس ».وأعفى الأمير محمد الباحوث من المشاركة بالحرب على أساس هذا الحديث..

. . . . . .

وعهد الملك عبد العزيز إلى الامير فيصل بقيادة الجبهة الغربية وأمره بالمسير متوكلاً على الله .. وأسرع فيصل بجنوده إلى الميدان ، وتسلم القيادة من محمد الشويعر ..

وأقدم هنا موجزاً عن مسيرة فيصل، حسب ما أعرفه وما قيل لي..

سار الأمير فيصل من جدة ومعه من الاسرةالسعودية تركي بن عبد الله آل سعود وتركي بن عبد العزيز وأبو ذعار آل جلوي ومجموعة من أهل الرياض وملحقاتها ومن أهل القصيم وملحقاتها ومن أهل حائل وملحقاتها وجميع هؤلاء التفوا حوله منذتوليهالنيابة عن والده عبدالعزيز على الحجاز ، كما كان معه محمد بن طلال آل رشيد ، وعبيد آل عبد الله آل رشيد وسلطان بن جبر آل رشيد ، وشيوخ قبائل الحجاز واشرافها وتوابعهم الذين ملأ قلوبهم الاطمئنان والسكينة على أنفسهم واحوالهم في عهد آل سعود ..

وعند وصول فيصل إلى جيزان مقر حمد الشويعر قائد القوات السعودية المرابطة للدفاع ، بدون جدوى ، اذا بالمسؤولين عن تموين الجيوش المرابطة يتقدمون إليه بجدول منصرفات الشويعر ..

واذا ـ ويا للعجب ـ بالمستشارين وأصحاب النفوذ الذين كانوا من أسباب فشل القائد السابق يأتون فيصل ببيان يعترضون فيه على تصرفات قائدهم السابق ويطلبون من فيصل الموافقة على تخفيض النفقات التي كان القائد الاول قد اعتمدها للمعركة بمقدار ٥٠٪ من قيمتها ..! وتملك العجب من أمرهم فيصل وكان جوابه لهم :

« يا عجب العجب، مندوبنـــا يقتنع بوجوب صرف ١٠ ونأتي نحن لنخفضها الى ٥ ؟ ونخفضها عمن أكرمونا بدمهم؟؟ لا ، نحن لن نشح عليهم بالمال .. ضاعفوا لهم ما كان مقرراً من قبل وصولي مائة بالمئة ».. وتم ما قرره فيصل .. وأشعل وجوده حماسة المقاتلين ، فالتفـــوا من حوله وانطلق الجيش مندفعاً لقتال الطامعين في البلاد .

وانقلب الموقف ، وأصبح الجيش وفي مقدمتـه فيصل ، ينتقل من نصر الى نصر ، وجيشه يندفع كالنار المستعرة تلتهم الاخضر واليابس دون هوادة أو توقف في الليل أو النهار .. وتشتتت جيوش الامام، ومنيت بالخسائر الفادحة وانقلبت فلولهـا تولي الادبار ..

معركة ميدي

وعندما وصل فيصل وقواته منطقـــة بلدة « ميدي » ، واستعد لاحتلالها وزع القوات على جبهتين واحدة بقيادة حمد الشويعر والثانية بقيادة الفيصل.. وقرر فيصل المبيت قرب المدينة، وقد خطط لاحتلالها في الغـد .. وفي الصباح ، استدعى فيصل كبار القوم ، وأبلغهم أنه سيحتل ميدي .. ثم توجه قاصداً تفقد المواقع المحيطة بالبلدة ، لدراسة خطة الهجوم .

ومن مكان قريب ، أمكنه أن يكشف البـلدة ويدرس كل احتمالات الخطة .. وعاد ليرتب وضع قواته كل قوة في مكان معين تبدأ منه الهجوم وتقدمت القوات حسب أوامره واتخذت أماكنها محاصرة للمدينة ومستعدة للهجوم . وارتقى فيصل مرتفعاً قريباً يطل على البلدة .. ينتظر الساعة التي حددها لقواته لتبدأ بالهجوم .. وكانت معـالم التفكير العميق تبدو عليه .. حتى أن سلطان ابن جبر الرشيد ، لاحظ ذلك فسأله :

– إيش فيك يا فيصل ؟..

فأجابه فيصل : أفكر في مَـنْ بهذه البلدة مـــن شيوخ وأطفال ونساء ، لا ذنب لهم إذا بدأت المعركة وأكلتهم النيران ، خاصة وأن

مساكنهم من الخوص (سعف النخيل) ..

في فترة الانتظار هذه ، كان رجل يتقدم إلى أحـد رجال فيصل ، ويبلغه أنه رسول أهل ميدي يطلبون الصلح.. واقتاده الرجال إلى مكان فيصل ـ وساله عن أمره ، فابلغه رسالة أهل ميدي .. وقال له :

ـ إلتفت إلى البلدة ..

والتفت فيصل إلى البلدة ، فإذا بالبيارق معلقة على البيوت ، إشارة التسليم ..

في تلك اللحظات ، لم يكن قد بقي عـلى الموعد الذي حدده فيصل لقواته لبدء الهجوم إلا القليل .. وقدّر فيصل الموقف ، وهو يعلم أن رجاله مستعدون للقتال بل ومتشوقون إلى الهجوم واحتلال البلدة .. فأسرع يرسل أبناء عمه ومعهم بعض الخيالة إلى مواقع القوات ، باقصى ما يمكنهم من السرعة ، لابلاغهم بأن الهجوم قد أوقف فقـد سلّـمت البلدة بدون قتال ..

وكان فيصل يحس بالسعادة تغمره ، ويكرر حمد الله وشكره ، أن حقق أمله في دخول البلدة بدون معركة تسفك فيها دماء بريئة من شيوخها ونسائها وأطفالها .. الذين لا ذنب لهم في الأمر ..

وهربت قوات حميد الدين وعلى رأسها قائدهم وأمير البلدة عبد الله العرشي . وأرسل فيصل قوة وراءهم ، موصياً إياهم إذا تمكنوا منهم أن ياتوه بقائدهم حياً ، فأدركتهم وقاتلتهم حتى فتكت بهم ، وغنمت ما معهم من سلاح وزاد ومال ، وأسرت العرشي ، وعادت به أسيراً لفيصل.

وقد قابله في معتقله في ميدي أحـد كتاب الأمـير فيصل وتحدث معـه مستفسراً عن شعوره بعـد وقوعه أسيراً في يد القوات السعودية ، فأجاب بقوله : « لو كشف الغيب ما اخترت غير الواقع » . وكان العرشي معدوداًمن فطاحل الشعراءوالأدباء اليمنيين الذين كانيستخدمهم الامام يحيى كحكامللمناطق (أمراء للمناطق) .

وفي الصباح قرر فيصل التقدم إلى الحديّـدة، وكان بها قوة لا يستهان بها من جنود الامام يحيى ، ترابط قرب الميناء . وأنـذرهم فيصل بالقتال إذا لم يخـلوا مواقعهم ويغادروا الحديدة ، وأيقنوا أن القوة الضاربة التي يقودها فيصل كفيـــلة بسحق مقاومتهم ، فرضخوا للانذار وغادروا المدينة . .

ودخلها فيصل بقواته ، وبقي فيها حوالى الشهرين، بعد أن تلقي أمراً من والده الملك عبد العزيز بعـدم التقدم بعدها ، والبقـاء فيها ، كما أصدر أمراً الى الجبهتين الشمالية والشرقية بعدم التقدم والكف عن اطلاق النار، إلى حين معرفة نتيجة الوساطة التي كان بعضالزعماء العرب يقومون بها للاصلاح بين حاكم اليمن الامام يحيى بناء على طلبه ، والملك عبد العزيز . .

وكان بين هؤلاء الوسطاء : هاشم الأتاسي من سوريا ، والحاج أمين الحسيني من فلسطين ، ومحمد علي علوبة (باشا) مـن مصر ، وشكيب أرسلان من سوريا. وكانت تلك الشخصيات العربية الكبيرة قـد قدمت بصحبة عبد الله بن الوزير مندوب الامام يحيى إلى الحديدة ، وبقوا فيها

بضعة أيام ، قابلوا خلالها الأمير فيصل (آنذاك) . وتحدثوا معه بشأن مهمتهم ، وأن هدفهم المصالحة بين والده والامام يحيى حقناً لدماء المسلمين. فقام الأمير فيصل بتجهيزهم بما يلزمهم من السيارات، توجهوا بها من الحديدة إلى صنعاء. وكانت الطريق آنذاك غير معبدة ووعرة . وبعد أن قضوا في صنعاء أسبوعين يتشاورون مع الامام يحيى، عادوا بالموافقة منه على مطالب الملك عبد العزيز كلها، وكان أهمها آل الادريسي وتسليمهم الأدارسة إليه، وإخلاء الجبال التي كانت قوات الامـام تحتلها في جبال السراة ، وبعض أجزاء من منطقة نجران ، باعتبارها تابعة للمملكة السعودية . وفي مقابل ذلك وعد الملك بسحب قواته التي تحتل بعض المناطق في تهامة بما فيها الحديدة ، وجهات أخرى من اليمن ، وبتحديد الحدود الثابتة بين البلدين فيما بعد ..

. . . . . .

وهكذا وبفضل الله ثم بفضل شجاعة فيصل وكرمه وحسن تصرفه ، تم النصر المبين، وانتهت الحرب في منتصف عام ١٣٥٣هـ. وأدرك الطامعون مصير كل من تسوّل له نفسه الغدر أو العدوان ..

*

في تلك الأيام ، كنت مع الأمير محمد في الرياض ضمن القوة الاحتياطية هناك ، المستعدة لأي طارىء في حين كان الملك عبد العزيز في الطائف يراقب سير المعارك تباعاً ، ويبلّغ الأمير محمد أنباءها باللاسلكي يوماً بيوم . وفي الحقيقة كنت أتمنى لو أتيحت لي فرصة مشاركة إخواني

الجنود الذين انطلقوا للجهاد في سبيل الله ثم الوطن ، ولكنني وقد بقيت مع الأمير محمد لم أملك تحقيق ذلك ، فعبّـرت عن مشاعري ببعض أبيات من الشعر أرسلها إلى إخواني ورفاقي في ميدان القتال . ولقـد أوردت القصيدة كاملة في فصل خاص عن الشعر ، وكان مطلعها :

خذ يا مدير البرق يا خير نجاب

ابعث سلامي للنشامه المهابـــه

وكانت الردود على هذه القصيدة كثيرة ، وكتُـب الشكر أكثر سواء شعراً أو نثراً . وأكتفي بما قاله المرحوم خالد بن محمد بن عبد الرحمن .. قال :

« اطلعت على رسالتك الشعرية وليس ما قلتَ كثيراً عليك يا ابراهيم وبما أنك تعرف أنني لا أجيد الشعر ، ولكن إن جاد ظـني أن مثلك كمثل الذئب الذي قالوا له اسرح بالغنم فرفض باكياً وبنفسه أن يكون صحيحاً ، وإلى اللقاء والسلام» .

*

الفَصْل الخَامِس

الجُدُود .. وَالأُسْرَة
والسّيف الأَجرب



تركي .. و « الأجرب »

بعد الحديث عن المعارك والحروب التي خاضها الأمير محمد بقيادة أخيه عبد العزيز ، لنا كلمة يجب أن تقال : انه ليس من المستغرب ان يستعين عبد العزيز بمحمد وانه من الطبيعي ان يسارع محمد إلى مساندة عبدالعزيز وان يتبادلا الثقـة المطلقة وان يقوم كل منهما بواجبه تجاه الآخر مهـــما عظمت التضحيات، فلقد ورثا حب التعاون والتضامن المثمر والنضال في سبيل الحق عن اجدادهم الذين زرعوا في نفوس ابنائهم وأحفادهم الخصال الكريمة والأخلاق النبيلة .. والايمان الشديد بالله سبحانه وتعالى وقدرته. إلى جانب الشجاعة والاقدام والبسالة المنقطعة النظير ، مما ظهر وتجلى في تصرفاتهم وتصرفات أبناء الأسرة السعودية كلها وفي مختلف الظروف .

لقد كان عبد العزيز وكان محمد يتصفان فيما يتصفان به وكما ذكرنا من قبل بالاقدام والتضحية، وانها لنفس الصفات التي كان يتصف بها جدهم الثاني تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود الأول ، الذي رويت عنه أعمال تناقلها الناس من جيل إلى جيل وكأنها أساطير لفرط ما بها من ألوان الشجاعة والبطولة التي تفوق كل تقدير .

وانه لمن المناسب أن نقدم في هذا المجال نبذة عن هذا الرجل الكبير ،

لنؤكد أن الخصال الكريمة تنتقل من الجد إلى الحفيد ، ولا سيما ان تركي رحمه الله ، له الفضل الأول في الحفاظ على كيان الأسرة السعودية، وإعادة الحكم لها بنضاله وحده ، بنفسه وسيفه وإقدامه وتصميمه .

كان ذلك عندما نجحت المحاولات العديدة والحملات المتتالية العنيفة والهجمات الضارية التي قامت بها الدولة العثمانية للقضاء على الحكم السعودي مستخدمة قوات مختلفة من بينها القوات المصرية خلال حكم ابراهيم باشا ، نجحت في الاستيلاء على الرياض والسيطرة على أجزاء من البلاد بحيث جعلت الحكم السعودي في مهب الريح واعتقد الكثيرون ان المقاومة للمحتلين ستتلاشى .. وان الأمر على وشك الانتهاء . عندها آلى تركي على نفسه أن يصمد في وجه الغزاة المحتلين ، وأن يحارب ويقاتل ولو منفرداً حاملاً سيفه المسمى (بالأجرب) الذي أشار اليه في قصيدته المشهورة ومطلعها :

سر يا قلم واكتب على ما تورّا   اكتب سلامي لابن عمّي مشاري
إذا كلّ خوي من خويّه تبرّا   حملت أنا الأجرب خويّاً مباري

وبدأ تركي مقاومته لجنود الاحتلال وللحكام وأمراء النواحي من قِبَلهم ، ولكل من تعاون معهم وأيدهم . كان يهب للنضال ليلاً ، يفتك بسيفه بكل من يستحق القتل من هؤلاء .. ويختفي اثناء النهار وكأن الارض قد ابتلعته، وكان يمارس نشاطه هذا في وادي حنيفة الذي يمتد على مسافة ٢٥٠ كيلومتر تقريباً . ابتداء من العيينة (عاصمة مسيلمة الكذاب الذي ادّعى النبوة في صدر الاسلام) حتى الخرج ، ويعتبر هذا الوادي من أكبر المناطق الزراعية وأكثرها ازدحاماً بالسكان حتى اليوم .

وأعلن تركي مقاومته للاحتلال العثماني وللقوات المصرية المحتلة ، كما أعلن عن بدء نضاله لتحرير البلاد من الغاصبين وفي سبيل عودة الحكم إلى أصحابه الشرعيين آل سعود .

وكانت نتيجة أعماله أن اجتاح جميع سكان قرى الوادي الهلع ، وأصابهم رعب لا يوصف ولا يفوقه إلا الرعب من الطاعون!! كان تركي يعمل في حقول هذه القرى كفلاح نهاراً ، أما ليلاً فكان ينطلق بسيفه (الأجرب) ، يضرب هنا وهناك في هذه القرية أو تلك، يضرب ضربته الخاطفة ، ويختفي فلا يظهر له أثر [1] .

---

(١) اتضح فيما بعد أن مأوى تركي كان مغارة في جبل «عليّه» . جبل صعب المسالك ومرتع للوعول ، خصب المرعى كثيف الأشجار كثير المغارات وملازم الماء . وهذا الجبل يبعد عن الرياض ما يقارب ١٣٠ كيلومتراً ويبعد عن إدلم عاصمة الخرج ما يقارب ٢٥ كيلومتراً من الغرب. وكان ينطلق منه إلى الخرج ليلاً متنكراً في بعض الأحيان كعامل فلاح ليتلقى الأخبار من العمال وعلى ضوء ما يسمع يوجه ضربته. و«عليه »منطقة لا يسكنها إلا قبيلة آل شامر ، ومن دواعي الصدف أن يكون في فجر يوم من الأيام عائداً إلى مغارته وإذ بوضح النهار يسبقه قبل الصعود للجبل ، وإذ بطريقه فتاة من قبيلة آل شامر اسمها هويديه ترعى غنماً،وحكم عليه الظرف أن يحدثها حتى لا تشعر أنه غريب عن المنطقة والفتاة لا تعرفه ولم تسمع عنه شيئاً،إنها راعية غنم وفي هذا المكان المنعزل عن الناس ولا يهمها إلا رعي غنمها . واطمأنت الفتاة إلى حديثه ، وإلى سمات الرجولة والأصالة البادية على وجهه ، وتوسمت فيه الخير . فما كان منها إلا أن تحلب من غنمها وتسقيه بدون أن تسأله من يكون. وبعد هذا اعتمدت أن تسرح كل يوم لتسقيه من حليب الغنم اذا رأته ولا تسأله عن هويته ولا عن عمله ولم تبلغ أهلها عنه بشيء ، وبعد ما تم له الأمر بالنصر خطبها من أبيها وتزوجها وأنجب منها ابنه جلوي جد أسرة آل جلوي التي تعتبر من أكبر وأكرم الأسر حتى اليوم .

ونتوقف هنا قليلاً لنقول كلمة نعقب بها على أعمال تركي البطولية، حول مفهوم البطولة . ففي رأيي – وكل امرىء له رأيه ، وله تفكيره الخاص ، وله اجتهاده يخطىء فيه أو يصيب ، – أقول ، في رأيي أن أبطال الرجال الذين تتردد أسماؤهم في صفحات التاريخ ، يختلفون في مراتب البطولة كما يختلفون في الوسائل التي كرّسُوا بها هذه البطولة .

أبطال الرجال كثيرون ، بل وكثيرون جداً . ولقد توالت علينا أنباؤهم ، نطالعها في صفحات التاريخ ، كما تطالعنا آثار خالدة خلفوها وبقيت تذكرنا بما قاموا به من جلائل الأعمال.. ولقد كان لكل بطل منهم أعماله التي قدرها أهل بلاده في عصره ثم قدرتها واعترفت بها الاجيال المتتالية عبر التاريخ. فإذا كان لنا أن نقارن بين هؤلاء الأبطال المرموقين في كل العصور ، لوجدنا كفة تركي وبطولته ترجح كل كفة . وإذا كان لنا أن نعيد التقييم والتقدير لنال تركي ما يفوق الجميع من التقدير والتمجيد .

هناك أبطال قادوا شعوبهم أو جيوشهم نحو النصر . إنهم أبطال . ولكن بطولتهم اعتمدت على قوة الشعب بأسره ، أو على الجيش الذي تجلت مهارتهم وعبقريتهم في قيادته .

ولكن بطولة تركي كانت بطولة من نوع آخر فريد . لم يعتمد على شعب فالشعب كان مكبلاً بقيود الحاكم المسيطر . ولم يعتمد على جيش فجيش الحاكم كان ضده يطارده في كل مكان وفي كل وقت .

لقد بدأ تركي نضاله لاسترداد السلطة من غاصبيها ولاعادة الحكم إلى آل سعود ، بدأ منفرداً لا يعتمد إلا على الله ثم على سيفه « الأجرب » ،

وعلى شجاعته الاسطورية .. بـدأ وحده واستمر يكافح ويناضل بقوة حتى انتشرت أنباء نضاله فاسترد الأنصار المغلوبون على أمرهم ثقتهم بانفسهم وبامكانية النصر فتجمعوا حوله. .ومضت قافلة الجهاد بقيادته حتى النصر، وحتى ارتفعت راية آل سعود ترفرف من جديد في سماء البلاد ..

هذه هي البطولة الحقة الفريدة في نوعها .. البداية مـــن لا شيء والاستمرار حتى النصر المبين مهما كانت التضحيات والمصاعب . وهذه هي البسالة الفائقة والشجاعة النادرة . أن يحمـل السلاح بمفرده ليقاوم العدو المنتصر ويستمر حتى يهزمه ..

كلمة أخرى ، أو رأي آخر حول مفهوم البطولة . فإني أميّـز بين بطولات تقوم على نجاح في عمل رائع أو حكم سليم أو سياسة ناجحة .. ربما كانت كلها قائمة على استعداد خاص عند البطل ، أو موهبة حباه الله بها ، بالاضافة إلى ظروف معينة ملائمة ، ساعدت على النجاح وبالتالي على نيل لقب البطولة .. أميز بين ذلك كله وبين البطولات التي تعمّـد بحمل السلاح وخوض المعارك الضارية . وأعتبر أن البطولة الحقيقية لا تظهر إلا في ميدان المعركة..وأن التاريخ المجيد لبطل ما لا يبدأ إلا على أرض المعركة ، فبالشجاعة والاقدام والتضحية تقرر البطولة .

ثم نعود إلى حديث تركي الفدائي البطل .. وسيفه الأجرب..

كانت إحدى وقائعه تلك المغامرة المذهلة ، عندما دخل قرية عِرقة ليلاً (وتقع بـــين الرياض والدرعية)، دخلها منفرداً لا يحمل إلا سيفه

الأجرب ، وتوجه إلى الجامع ، يدخله قبل المصلين القادمين لصلاة الفجر ويختبىء في أحد أركانه .

وبعد ان أدى المصلون صلاة الفجر إذ بامير عرقة وهو المعيَّن من قبل الغزاة يخطب في المصلين فيحذرهم من (ثعلب مجاري السيل) ويعني بذلك تركي . وينبههم إلى انه قد بلغه أنه في هذه النواحي ويؤكد عليهم بوجوب الاحتياط والإنتباه ،وبأن يسارع أي منهم يعلم شيئاً عنه أو يراه بابلاغه فوراً . . .

ولم يكد الأمير ينتهي من تحذيره للاهالي ، حتى قفز تركي إلى أمامه شاهراً سيفه قائلاً بصوت جهوري قاطع : « اسبطوا يا أهل عرقة ، أنا هنا يا خائفاً مني » . ثم هجم على الأمير الذي اذهلته المفاجأة فلم يستطع ان يحرك ساكناً ، ليقتله أمام الجميع الغارقين في ذهولهم وقد افقدهم الرعب القدرة على الحركة وشلَّ الذعر حتى ألسنتهم . . . ثم اختفى تركي كما ظهر . . وأفاق الناس بعد ذهابه ليحملوا أميرهم ليدفنوه . . !

وكان لهذه الواقعة أثر كبير في المنطقة فلم يجرؤ واحد بعدها ان يقبل بتولي أمارة عِرقة ، لقد بقيت هذه القرية دون أمير حتى عاد الحكم إلى آل سعود .

وكانت نتيجة أعمال تركي الفدائية البطولية ان بدأ المخلصون من انصار آل سعود يتجمعون ويلتفون حوله ويناضلون تحت قيادته ، وتألفت المجموعات الفدائية وتكاثر الانصار ، وسرت روح المقاومة إلى جميع المناطق واستمرت إلى ان تم تحرير البلاد وعاد الحق الى أصحابه . .

هـذا السيف (الأجرب) الذي كان سلاح تركي في نضاله البطولي الذي أعاد الأمور إلى نصابها ومكن أصحاب الحق الشرعيين من استرداد حقهم بقي رمزاً لقوة آل سعود إلى اليوم[1] ، يذكره الجميع ويتناقلون الأحاديث عنه كما يذكرون السيف (ذو الفقار) الذي عرفوا دوره في الدفاع عن الاسلام وتوطيد دعائمه بالجهاد ضد المشركين والكفار في صدر الاسلام. وظل آل سعود يتناقلون(الأجرب)من يد إلى يد إلى أن وصل إلى يد محمد بن سعود بن فيصل بن تركي إلى أن أهداه إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين آنذاك .

* * *

من كريم الخصال التي تنتقل من الأجداد إلى الأحفاد في هذه الأسرة الكريمة ، ما كان يتصف به الملك عبد العزيز رحمه الله من الإيمان العميق

---

(١) السيف الأجرب له تاريخ، فقد كان ضمن عشرة سيوف من سيوف الصحابة رضي الله عنهم ، استولى على هذه السيوف سعود بن عبد العزيز بن محمد حامي الدعوة السلفية رحمه الله، عندما استولى على جنوب العراق، وأسمى هذه السيوف بسيوف الحجرة (أي حجرة علي) رضي الله عنه . وكانت أسماء السيوف كالآتي: الأجرب (لقب بالأجرب لأنه كان به نوع من الصدأ) صويلح، القصّاب، أرحيّان ، أرقبان ، مرجانه (قرده)، بشيان، شعيرن ، سيف السيد ، البسام. وانتقل الأجرب من يد إلى يد إلى ان وصل يد محمد بن سعود بن فيصل بن تركي ، وعندما زار الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكم البحرين آنذاك زيارة ودية كان الأجرب معه وأعجب آل خليفة به . ولما رأى محمد بن سعود هذا الإعجاب ما كان منه إلا أن قال لعيسى : « تفضل يا أخي عيسى هذا السيف هدية مني لك» ، ولما كان الشيخ عيسى يعرف حق المعرفة قيمة هذا السيف عند آل سعود فقد =

بالله وقدرته وفضله ومن الثقة الكاملة في النصر بإذن الله وتوفيقه وان الانسان لن ينال إلا ما قسمه الله له. ولن يصيبه إلا ما كتبه له سبحانه وتعالى..

كان رحمه الله، لا يخاف إلا من الله.. ولا يعتمد إلا على الله، ولا يكل أمره إلا لله. ومن كان ذلك شأنه لا بد أن يكون النصر حليفه في كل عمل يقدم عليه.

ولقد عرف عنه أنه كان يصطحب معه في الطريق رجالا وشباباً من الذين قُتل آباؤهم في ميدان القتال.. يسيرون خلفه، او يركبون خلفه في سيارته وسلاحهم بأيديهم.. لا يخافهم على حياته مؤمناً برعاية الله وحمايته.

.. إن الثقة في الله تمنح المرء القوة في الحـــق، فينطلق في جرأة وإقدام غير مبالٍ بالأخطار مهما عظمت، ملقياً الرعب في قلوب الأعداء، مشيعاً الهيبة والاحترام في قلوب الأنصار والأصدقاء، ماضٍ في دروب الجهاد حتى يكتب الله له النصر.

= رفض قبوله، فأقسم محمد أن لا يحمله بعد قائلا: « نحن آل سعود وأنتم آل خليفة أسرة واحدة ».. وقبل عيسى السيف كأمانة.

وفي عـام ١٣٥٨ جدد الملك عبد العزيز ما قاله ابن عمه محمد لعيسى عندما زاره الشيخ حمد آل خليفة في المنطقة الشرقية عند افتتاح آبار البترول، وإذ بحمد يحمل السيف الأجرب معه، وقال لعبد العزيز: « هذا السيف الأجرب أمانة عندنا لكم وسنرد الأمانات الى أهلها ». فقال عبد العزيز: « هذا السيف شائب (مُسِنّ) لنا ولكم ونحن وأنتم أسرة واحدة وسيبقى عندكم لنعتز به جميعاً ». وبقي السيف الأجرب عند آل خليفة الى اليوم مكرماً كسيف لتركي أكثر من تاريخه الماضي. ولم تزل السيوف التسعة الباقية بأيدي الأمراء السعوديين يتوارثونها عن أسلافهم. ومنها السيف « أرقبان » وهو سيف الملك فيصل بن عبد العزيز حتى اليوم.

أسرة رائدة ، وأسر كريمة

في سياق أحاديثنا في الفصول السابقة برزت صفات حميدة متعددة اتصف بها أبناء الاسرة السعودية. وإذا كان التلاحم والتساند هما من أبرز هذه الصفات فإننا نستطيع أن نقول أن روح التضامن والتعاون الفعال والمساندة الكاملة قد شملت جميع عائلات وأفراد الشعب السعودي ، حتى أصبحت البلاد كلها تشكل أسرة واحدة متضامنة متآخية، تسعى كلها في سبيل عزة البلاد واستقرارها وازدهارها ورخائها. ولا ننسى الدور الكبير الذي قامت به أسرتان كريمتان كبيرتان تعدّان دائماً جزءاً لا يتجزأ من أسرة آل سعود .. آل الشيخ أسرة محمد بن عبد الوهاب رحمه الله[1] وما تفرع

(١) ولد في العيينة عام ١١٥ هـ - ١٧٠٣ م . واختار له والده القاضي عبد الوهاب بن محمد بن سليمان بن علي التميمي اسم « محمد » .

وكان بيت والده ، بيت علم وفقه ودراسة للمذهب الحنبلي .

لاحظ والده عليه التفتح المبكر ؛ حفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره . وتعلم عن والده تفسير وحفظ الحديث . ثم بعد حفظ القرآن والكثير من الأحاديث النبوية رحل إلى الحجاز للحج والزيارة ، واجتمع إلى العديد من رجال الفقه والعلم الاسلامي . وكان أكثر التصاقاً بنهج أبيه نهج الإمام احمد ابن حنبل . ثم ارتحل في طلب العلم إلى الحجاز والأحساء والبصرة مراراً ،فقرأ على كبار الفقهاء،حتى أصبح فقيهاً مرموقاً . وعكف على دراسة فقه وفتاوى =

عنها ، وهم أخوال الملك فيصل بن عبد العزيز أطال الله عمره ، وأخوال أبنـاء الأمير محمد بن عبد الرحمن الكبار ، (خالد رحمه الله ، وفهد أمير القصيم أمد الله في عمره) ، وأخوال فيصل بن سعد بن عبد الرحمن وأخيه

= ابن حنبل ، وتلميذه النابـغ ابن تيمية ومؤلفاته العديدة القيمة .

أيقن أن إصلاح حال العرب والمسلمين لا يمكن أن يتم إلا بالعودة إلى الدين الصحيح ، وإلى صفاء الاسلام في أيامه الأولى ، وأخلاق الاسلام . وبالعودة في كل أمور الدين والدنيا إلى المنبع الصافي الصحيح : القرآن الكريم والصحيح المتفق عليه من الحديث النبوي ، وفقه وفتاوى الامام احمد بن حنبل .

هكذا أخذ يدعو إلى العودة للحياة النقية كما كانت في صدر الاسلام. مؤمناً بأن الدعوة الاسلامية الصحيحة التي نهضت بالمجتمع قبـــل اثنتي عشر قرناً ، يمكن ان تنهض بالمجتمع المتخلف وتبعثه من جديـد . وجهر بدعوته في البصرة ، فانتقد الطقوس والبدع ، فاضطهد حتى اضطر إلى الخروج من البصرة لينجو بنفسه. وعاد إلى العيينة ، وأقدم على بث الدعوة واكتسب لها الأنصار .

وبدأت الدعوة خارج العيينة إلى المناطق القريبة ، دعوة التوحيد والهداية إلى الاسلام الصحيح . ولكن أمير الاحساء عارض الدعوة وأنذر أمير العيينة وأمره بقتل الشيخ إن لم يكف عن دعوته .

ولم يكن أمير العيينة بقادر على مجابهة أمير الاحساء . فقرر الشيخ الهجرة إلى الدرعية مقر أمارة آل سعود وكان له فيها بعض الاخوان المؤمنين بالدعوة .

وعلم الأمير محمد آل سعود أمير الدرعية بوصوله ، فذهب اليه مع رجاله في منزل مضيفه أحمد بن سويلم ، ورحب به ، وعاهده على حمايته ونصرته . وتم العهد على التعاون للعودة بالمجتمع الى الاسلام الصحيح .. وبدأ الجهاد .. وأشرق فجر تاريخ جديد مجيد ...

فهد بن سعد[1] ..وآل السداره[2]، وهم أخوال عبد العزيز بن عبد الرحمن وأخيه سعد رحمهما الله،وأخوال الأمراء فهد وسلطان وسنان وعبدالرحمن ونايف وتركي وسعد وعبد المحسن ومساعد، أمدَّ الله في أعمارهم، وأخوال عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، وأخوال سعود بن سعد بن عبدالرحمن.

لقد اشترك الكثيرون من رجال وشباب الأسرتين الكريمتين في معركة السبلي[3] ومعظم المعارك الأخرى في الكفاح الطويل الذي خاضه آل سعود لتوحيد البلاد ورفع راية الاسلام الحنيف، ثم شاركوا بعد النصر في معارك البنـــاء وتدعيم أُسس الاستقرار والازدهار والنمو الاقتصادي المطرد، ولا زالوا حتى اليوم والغد، يديرون الأعمـال المسندة إليهم بكل مهارة وكفاءة وإخلاص.

كما لا ننسى دور أسر أخرى عريقـة شارك رجالها في هذه المعركة وغيرها، وجندوا أنفسهم وما يزالون تحت راية الحق، راية آل سعود، منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، آل سويلم، وآل عبيكان، وآل مَرْشَـد، وآل حماد، وآل غنام، وآل مبارك، وآل ثنيان، وآل الدغيثر وآل زيد، وآل حسن وغيرهم.

لقد كانت روح البسالة والإقدام والتضحية التي تجيش في صدور أبناء

---

(١) أمير منطقة حائل حالياً.

(٢) السدارا من البدارين من قبيلة الدواسر وهم امراء قبيلة الدواسر كافة والتحامهم بالأسرة السعودية قديم منذ أيام الأمير محمد بن سعود في الدرعية.

(٣) ذكرنا تفاصيلها في الفصل الرابع عند الحديث عن الحروب والمعارك.

هذه الأسر جميعاً ، عاملاً حاسماً من عوامل النصر في معارك الجهاد الطويل ولا زالت روح التضامن والتلاحم التي تسود الجميع عاملاً حاسماً حقق ويحقق حتى اليوم والغد بإذن الله ، النجاح الواضح والباهر في معارك أخرى لا تقل أهمية ، هي معارك البناء . بناء الدولة العصرية الحديثة ، التي يسودها الاستقرار ، وينعم شعبها بالرخاء والازدهار في ظل قيادة واعية حكيمة مؤهلة لكل فوز ونصر ..

*

.. إن من أحبّه الله ، حبّبه إلى خلقه . كلمة حق تقال . وإذا كنا نعتبرها نعمة أن يحظى المرء بصداقة وود رجال مخلصين يلتفون حوله ويؤيدونه ويعاونونه ، فلا بد أن نثق أن النعمة الكبرى هي أن يوفق الله المرء للاحتفاظ بصداقة وود هؤلاء الرجال .. وهذا ما تحقق بحمد الله .. ودائماً .. حتى أصبح شعب المملكة العربية السعودية أسرة واحدة متحابة متضامنة يتصدرها آل سعود ، ويسعى كل فرد فيها في سبيل خير الجميع .

الفصل السادس

من تجارب الحياة العملية في السعودية

طفولة ..

ما أجمل أن يعود الانسان إلى ذكريات طفولتـه .. حتى ولو كانت طفولة معذبة يحيط بها شقاء البؤس وألم الحرمان .. فان جمـال وبراءة الطفولة وصفاءها من زيف العلاقات التي تغلف الكبار ، يجعل لها لذة خاصة ، ولذكرياتها معنى خاصاً ، رغم كل ما يحيط بها من ظروف ..

ولدتُ في الدرعية العاصمة الأولى لآل سعود . وكنت في الثالثة من من عمري عندما قتل والدي في الحرب ، في المعركة المشهورة بين آل سعود والهزازنة في بلاد الحريق ، عام ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) وكان آل سعود بقيادة الملك عبد العزيز رحمه الله ..

قتل والدي ، ولم يظهر له بعد وفاته أي تركة أو ميراث يعيلنا من قسوة اليتم ، وتركنا أنا ووالدتي واخواتي، أربع فتيات صغيرات..

تركنا الأعمام والأخوال ،الذين لم يقدّم لنا أحد منهم بعد وفاة والدي ما يكفي معيشتنا[١] .

وانتقلت بنا والدتي إلى الرياض سعياً وراء لقمة العيش ..

---

(١) بالاضافة إلى كونه فارساً محارباً، كان والدي رحمه الله مزارعاً نشيطاً، ومالكاً للطالعية والعذيبات (النخيل المشهور في الدرعية). وأروي للقارىء هنـا كيف بيعت العذيبات وضاعت الطالعية ، وحُرم القصّر . ولكني قبل ذلك أؤكد انني لست حاقداً على أحد ، فإن إرادة اللهفوق كلإرادة، وإنه←

← الجهل والجشع وحب المال، التي تدفع الانسان إلى الخطأ ولو أصاب القصَّر البؤس.

كانت العذيبات ولم تزل من أحسن المغروسات من النخيل في الدرعية عندما ساعد الحظ سعيد بن بيشان بغنيمة – صندوق من الذهب العثماني – اثناء هزيمة فلول الترك وآل رشيد في معركة « البكيرية » المشهورة في القصيم ، ومن هذه الغنيمة اشترى من والدي العذيبات بأكثر مما تستحقه ، ومن ثمنها وسّع والدي الطالعية وجدّد الغرس كذخيرة له ولأولاده من بعده ، وتمادى في كرمه على من يضيفه . . وكما يعلم الجميع . . لا بد أن يضطر الكريم إلى الاستدانـة ، من جامعي المال ، وكان ذلك ما حدث ، فقـــد اضطر والدي إلى الاستدانة من ابن سالم ، مقابل أن يرهن الطالعية ، في أقل من عُشر قيمتها ، معتمداً على الله ثم على نفسه ، في أن يسدد الدين عند استحقاقه من انتاجهـا السنوي . ولكن المنية وافته قبل استحقاق الدين ، ولا أعلم ، ماذا حدث بعد ذلك ، فقد كنت آنذاك ، وإخوتي قصَّر لا نعي مثل هـــذه الأمور . ومرّت السنين والطالعية بقبضة ابن سالم كالك شرعي لها ، اللهم إلا تمر نخلة واحدة كنا نتسلمه كل عام ، كان والدي أوقفها للضحية السنوية إلى تاريخه . .

وبعد بلوغي سن الرشد ، وعندما أصبح باستطاعتي دفع الدين المستحق على والدي والمرهون به الطالعية ، أتاني من يرشدني ، وينصحني باستشارة أحـد « الراسخين في العلم » . وذهبت إلى من كان كثيرون غيري يستشيرونـه قبل اقدامهم على الادعاء ، وكان جوابه – سامحه الله – أن أبتعد عن أي ادعاء بهذا الموضوع . واستمعت – للأسف – لرأيـــه واتبعت نصيحته . ومرت سنوات أخرى ، وإذا بابن بيشان يبيع العذيبات على فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، ثم يشتري الطالعة من ابن سالم . . وانكشف لي السر بعـد فوات الأوان . فقد كان مَنْ استشرته ، ابن اخت ابن سالم . .

وهكذا ضاعت الطالعية وتشرد القصّر . . ولكنا عشنا ولله الحمد بكرامة من فضل الله . ولا بد أن أوضح هنا أن قصور جهد الأقارب عن مساعدتنا لم يكن إهمالاً أو تقصيراً ، بل كان بسبب عسرٍ ألم بالجميع آنذاك .

إني لأذكر بالاعتزاز والفخر ، كيف كافحت والدتي ، رحمها الله ، وجالدت وجاهـدت بكل شرف ، في سبيل عيشنا أنا واخوتي . لم تكن تعتمد على أحد بعد الله، إلا على جهدها وعرق جبينها وكدّها ليل نهار.

قامت بعمل مطحن يدوي للقمح كان إيراده يكاد يكفي لقوتنا الضروري.

وبلغت العاشرة من عمري ، ولم تتح لي فرصة أن أتعلم ، أو أذهب إلى الكتّـاب أو إلى المدرسة ، فذلك كان ترفاً لا يناله أمثالي ممن لا يحصلون إلا بشق الأنفس على قوتهم الضروري .

وفي هذه السن المبكرة وجدت أن من واجبي أن أساعد أمي ، لكسب العيش، وأن أقوم بجهد مايعاونها في سبيل عيشنا ورعاية إخوتي القاصرات..

كان أول عملي، مع لحّـام .. كنت أقطع اللحم ، وبعد أن يزنه، أحمله إلى بيوت الموسرين القادرين على شرائه !..

ولعل القارىء يعجب إذا علم أنه كان عيبـاً في تلك الأيام أن يحمل المشتري اللحم بنفسه ، وأن المشتري كان يشترط أن نحمل اللحم إلى منزله، بل وأن نحمله ملفوفاً مخبئاً تحت القميص خوفاً من أعين الفقراء المحرومين أن تراه .. اتقاء الحسد !. لذلك كنت أحمل اللحم تحت قميصي ، أنقله إلى المنازل. قميصي الذي لم أكن أملك غيره، وفي المساء تقوم والدتي بغسل القميص مما علق به من الدم واللحم ، ثم تنشره ليجف وألبسه في الصباح.. أنقل اللحم أخفيه عن أعين الفقراء ، وأنا أشد الناس حرماناً منه !. ولقاء قروش معدودة كانت سعادتي بها ـ وأنا في العاشرة وأشعر أني أتكسب بعرق جبيني ، لا تفوقها سعادة ..

وتركت اللحام إلى الحدّاد ، أقوم بتشغيل المنافيخ الجلدية الكبيرة ، التي تدفع بالهواء إلى المواقد ، وأحياناً ما كان الحداد يكلفني بحمل المطرقة التي لم أكن أكاد أستطيع حملها ، لأضرب بها الحديد المحمى .

كنت أعمل طول اليوم لقاء قروش معدودات..وكنت أراقب شرر نار الموقـد ، وشرر الحديد المنصهر ، يتطاير ويسقط على جسمي فلا ألتفت اليه ، وإنما كنت أبعده عندما يمسك بقميصي وقبل أن يحرقه ، أبعده لا خوفاً من الألم بل خوفاً على القميص الوحيد أن يحترق !

وكبرت .. وانتقلت إلى العمل الزراعي ، مع الفلاحين ..

أسوق السواني ، حافي القدمين .. أفلح الأرض بالمحراث اليدوي .. أحصد المزروعات بالمنجل .. نهـاراً في الشمس المحرقة وليلاً في الظلام والبرد القارس .. لا ألتفت إلى تعب ، وبدون كلل ولا ملل .. فقد كان « الأجر » ــ أياً كان ذلك الأجر ،لازماً لي ولأمي ولاخوتي .. وفي سبيل العيش وفي سبيل الواجب ، لم يكن عـليّ أن التفت إلى جرح أو ألم أو تعب، حتى إذا أحسست به .

ثم اشتغلت مع الحطابين ، أجمع الحطب وأحزمه ، وأحمله عـلى رأسي ، حافي القدمين، تدمي الأشواك والأغصان البرية الصغيرة قدميّ، بل وأجمع بعر الجمال مع الحطب وسعف النخيل ، آخذاً أجراً على ما أجمع .. وأقتطع جزءاً منه لأحمله إلى حجرتنا، نوقده، نلتمس الدفء بناره في ليالي البرد القارس ..

وهكذا ، من حرفـة إلى أخرى . ومن عمل إلى آخر ، حتى بلغت

الثانية عشرة من عمري،والتحقت بخدمة الأمير سلمان بن محمد آل سعود، كسائس مع ساسة الخيل في الاصطبل ..

لقد شعرت في عملي هذا بالسعادة!. فلقد أحببت الخيل .. ومن فرط حبي لها كنت أتفانى في خدمتها، حتى لقد كنت أقوم في الليل المظلم أحش لها الحشائش من الصحراء ، لا أخشى وحوش الليل أو الحيّات الضخمة التي تزخر بها الصحراء والبراري .. لا ألتفت إلى الأشواك تنغرس في قدمي وكفي في الظلام .. وأسرع بما أجمعه من حشائش إلى أحبائي ، الخيل .. كان أجري لا بأس به .. وشعرت بالراحة النفسية بعض الشيء..

وأسرعت إليّ معالم الرجولة والصلابة في تلك السن. وكيف لا..وقد حملت مطرقة الحداد والمنجل والمحراث،وحطبت الحطب وسست الخيل، وأنا في السن التي يقال أنها سن الطفولة الناعمة ! السن التي يجب أن يهتم الجميع بأن يوفروا فيها للطفل أسباب الراحة والعناية والهناء، والتي تتحمل فيها الأسرة مسؤوليته كاملة .. تحملت أنا فيها مسؤولية الأسرة بصورة شبه كاملة !

وكان لتحمل المسؤوليات هذا في تلك السن المبكرة أثره على تكويني، وكان لا بد أن ينضج تفكيري بدرجة أسرع ممن هم في مثل سني، وأن أشعر بأني وقد تحملت الأعباء قد تخطيت مرحلة الطفولة ، فقلدت الرجال ! كان الرجال من سكان الرياض وضواحيها في ذلك الوقت يحملون السلاح، ومعظمهم كان يقاتل تحت راية الملك عبد العزيز رحمه الله .. فقلدتهم وحاكيتهم في تصرفاتهم وأفعالهم وممارساتهم وهواياتهم ، حتى إذا بلغت

الخامسة عشرة كنت رجلاً كاملاً بكل ما تعنيه الرجولة الكاملة آنذاك . حملت السلاح وتدربت عليه وبرعت في استخدامه ، إلى جانب براعتي السابقة في ركوب الخيل وخبرتي في مواجهة مسؤوليات الحياة ..

في هذه الفترة أنعم الله علينا بنعمة كبرى ، وما أكثر نعم الله عليّ ، فلقد زوّجنا إخوتي جميعاً .. وكأنما كان ذلك إيذاناً بأن والدتي قد أتمت واجبها ، فاختارها الله إلى جواره ، رحمها الله ..

وعدت أسوس الخيل، وأواصل التدرّب على ركوبها إلى أن ازدادت خبرتي وبراعتي في ذلك . ولم تكن براعتي المبكرة تلك شيئاً نلته بسهولة بل كان ذلك أولاً لأني كنت أحب الخيل كما ذكرت ، وكان ثانياً بفضل « كفوف » المدربين والمربين التي كانت تنهال على وجهي إذا أخطأت أو قصرت أو تقاعست، يحثونني لا على مجرد التعلم بل على الاتقان والتفوق. وكان على رأس هؤلاء المربين الأمير سلمان بن محمد ، الذي كان له الفضل في تشجيعي المستمر . ولا زلت أذكر بالعرفان والتقدير قسوته البالغة عليّ في التدريب ، فلولاها لما بلغت ما بلغت من مران وخبرة .

بعد ذلك التحقت بخدمة الأمير محمد بن عبد الرحمن في إحدى بيوته الخاصة ، لأقضي اعواماً في خدمته وفي رفقته لها ذكريات حافلة مشرقة .. قدمتها للقارىء في فصول أخرى من هذا الكتاب ..

★

وبعد الطفولة تأتي المراهقة .. بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة .. ولست في حاجة إلى تعريف القارىء بفترة المراهقة، ولكني، بعد عشرات

السنين منها ، أرى أن لي رأياً أود أن أقدمه .. إنه من الخطأ على الوالد أو المربي ، أن يقسو على المراهق أو أن يبالغ في لومه،وأن يشتط في ذلك مصمماً على أن يلزم المراهق بآرائه وأفكاره وتقاليده وهو الناضج العقل والتفكير. إن للمراهق عقله وقلبه .. يكفي أن يُراقب ويُنصح في رفق وحكمة إذا بدر منه الطيش وغالباً ما يبدر . وليذكر كل مربٍّ أو والد كيف قاسى هو من تعنت والديه خلال مروره بهذه الفترة. ليذكر ذلك ثم ليتبع الحكمة البالغة في تربية ولده حتى يعبر هذه المرحلة في يسر وسلام، فلا تتأثر بها نفسيته ولا تتعقد بعدها حياته . إن اللين المفرط والتراخي الشديد يضرّان بالمراهق كما تضرُّ به القسوة البالغة والتزمت الشديد .

لقد غامرت ، ومارست كل ما يمكن أن يمارسه المراهق من أعمال تعد طيشاً وانحرافاً إذا قسناها بمقياس التزمت وتعد طبيعية لا غبار عليها بالنسبة للمراهق.. ولكني كنت سعيداً وأنا أمارسها، وهكذا كل مراهق.. واليوم أحس أني تعلمت كثيراً في تلك الفترة . تعلمت المفيد والضّار ، بنفسي دون والد أو معلم أو مرب .

★

الطرق الصحراوية

أقول من باب الاعتزاز لا من باب التفاخر ،ان لي فضلاً في فتح الطرق الصحراوية بالمملكة للسيارات التجارية والشاحنات .. أقولها وأنا أذكّر الجميع بأن ما سأرويه حدث منذ أكثر من خمسين عاماً ، لا اليوم ،وشبكة

الطرق البديعة المرصوفة تغطي المملكة مـن أدناها إلى أقصاها ولا يكاد سيل الشاحنات ينقطع منها . ولقيامي بذلك قصة :

كانت السيارات الخصوصية قليلة تعد على الأصابع في ذلك الوقت ، وكان عندي ولله الحمد سيارتان ! إحداهما شيفروليه عادية ، والأخرى فورد « لوكس » .. وكان أصدقائي الكثيرون يحتاجون إلى السيارتين أو إحداهما أحياناً للنزهة وأحياناً لقضاء حاجاتهم من القرى المجاورة . وكنت ألبي رغباتهم .. وأضطر إلى مــلء خزانات السيارة المطلوبة بالبنزين قبل إعارتها لهذا الصديق أو ذاك ، وكان سعر « التنكة » من البنزين في تلك الأيام يتراوح بين ٤٠ ، ٥٠ ريالاً سعودياً ، ولم يكن البترول قد اكتُشف بعد ، ليصبح سعر البنزين كما هو اليوم اربعة ريالات ونصف ! وعندما تكررت الإعارات ، وجدت أن ثمن البنزين يحملني فوق طاقتي كل أسبوع ، ولم اكن لأستطيع أن أرفض طلباً لصديق يحتاج السيارة . وفضلت حلاً وسطاً .. كنت إذا احتاج أحدهم السيارة أرسلها له ، بعد أن أضع فيها غالوناً واحداً .. وأرسل له مع السائق ، أن ينتبه إلى وضع البنزين الكافي قبل أن يبدأ رحلته .. وحتى إذا لم يكن عند الصديق سائق ، وكنت أنا الذي أتولى قيادة السيارة له في رحلته كنت أنبهه إلى البنزين ، فيضطر هو إلى وضعه .. وكثيراً ما سمعت بأذني عبارات السخط لا زلت أذكر منها : « الله لا يحسن حالك ولا يكثر خيرك » ! ثم التساؤل : « لماذا لم تضع أنت بها تنكة بنزين !؟ » .

وأزعجني ذلك الوضع ،إما أن أغرم فأُشكر ، وإما أن أوفر مالي ، فلا ينالني إلا السباب !..

كان تأجير السيارات وقتها عيباً كبيراً .. وكان لا بد لي أن أكسر طوق التقاليد ..

وجهزت السيارتين ، وأجَّرتهما إلى الاحساء ــ العاصمة الشرقية ــ لتعملا على طريق الجمّالة الرملي المسمى « مذاليج » . لم يكن هدفي كسب المادة بقدر ما كانت رغبتي في محو هذا « العيب » من الأذهان ، لعل ذلك يشجع غيري على العمل ، وينتشر نظام التأجير فأخلص من ورطة الإعارة.

وكان أول من أشرف على تأجير السيارتين ، الأخ صالح الباحوث ، وكان مهندساً للساعات ويتجه إلى تعلّم هندسة السيارات ، وكان يملك سيارة فورد بوكس ، أجَّرها مع سيارتيّ ..

بعد ذلك بما يقارب العامين ، وكنت آنذاك لفترة وجيزة ملحقاً كرئيس مجموعة بالحرس الخاص بالملك عبد العزيز ، وبعد وفاة الأمير خالد ابن محمد بن عبد الرحمن.. (أنظر الفصل الرابع) .حدث أن سافرت إلى الكويت .. وكانت أول سفرة لي خارج المملكة ، وكان عمري إذ ذاك يقارب الخمسة وعشرين عاماً ..

أقمت في الكويت مدة شهر أو أكثر قليلاً ، بين حكامها وتجارها الكبار ..عام ١٣٧٥ هـ .

لقد كانت هذه المدة ، كافية لتحويل مجرى حياتي ، وإثارة رغبتي

في اقتحام ميدان العمل التجاري. وجدتهم يعتمدون على أنفسهم ويمارسون التجارة بكل شيء وعلى أوسع نطاق ، ويعيشون من تجارتهم معيشة هنيئة ويرفلون في نعيم العيش .. فلماذا لا أسلك سبيل التجارة ، وأنا معتمد على الله ثم على رعاية الأمير محمد ثم على نفسي ورغبتي الاكيدة في العمل وتشوقي إلى سلوك ميدان الأعمال التجارية الحرة ..؟

وعدت إلى الرياض ، والأفكار حول البداية تتزاحم في ذهني ، والآمال الكبيرة تملأ نفسي .. واستأذنت الملك عبد العزيز فوافق وعدت إلى الالتحاق بعملي مع الأمير محمد .. وعرضت عليه الأمر فيما بعد ، واقتنع رحمه الله ووعدني بتأييدي في ما اعتزمته ..

ورجعت إلى الكويت مرة ثانية ، هذه المرة بغرض وهدف دراسة الأسواق لكي أبدأ في التنفيذ ..

كان رأسمالي كله لا يتجاوز الألفي ريال .. عدا سيارة شاحنة صغيرة كنت أملكها.. وحمّلت السيارة بضائع من الكويت شحنتها إلى الرياض..أخشاباً من إنتاج الهند تلزم للعمران (قمت بشرائهامن الفليج)، وبترول ومحروقات (من الغانم)..وتم الشحن عن الطريق الرملي المسمى (طريق رماح) .

وبيعت معي هذه البضائع في الرياض،وربحت منها ربحاً لا باس به، ومن هذا المنطلق المتواضع، بدأت أعمالي تتسع وتمكنت بمشاركة عبدالعزيز ابن شائق وعبد العزيز بن سرحان ، من شراء ثلاث شاحنات مشاركة ،

وأرسلناها إلى بريدة (عاصمة القصيم)، تحمل من القصيم إلى الرياض خشب « الأثل » للعمران. ولم تطل هذه الشركة لأن حسن النية لم يكن متوافراً عند الجميع .. ولعل ذلك كان السبب في عـدم التوفيق الذي تجلّـى في احتراق إحدى السيارات بكامل حمولتها .. مما دفعني إلى التصميم على فض الشركة . وقبلت شراء حصتيهما بالسعر الذي حدّداه ، ووسط جمع من الأصدقاء في سهرة واحدة صفينا الأمر ، ودفعت مـــا طلباه ، وبقي للشركة دين على سلمان بن مشالح قدره ١٣٠٠ ريال فرنسي. .عندما يحصّـل يكون لنا جميعاً.. وكان بودي أن أتخلص من أي أثر لهذه الشركة .

في نهاية السهرة ، ربما على سبيل المزاح ، أو ربما لإظهار عدم اكتراثي بالشركة بقيت أو لم تبق ، أعلنت للحاضرين عـن رغبتي في بيـع نصيبي المتوقع ، أي بيـع ما أستحقه من الدين بعد أن آلت الشركة إليّ .. وتقدم أحد الأصدقاء عبد العزيز بن عبد الله بن عيسى قائلاً: لقد اشتريت حصتك بخمس أكيـاس أرز « كراشي » !. ووافقت على الفور.. وتم البيـع .. أعطاني سنداً بالأكياس الخمسة من الأرز ، وأعطيته سنداً بتنازلي عن حصتي من الدراهم .. ومضت الأيام والشهور .. وكدت أنسى الأمر ، ولم أطالبه بأكياس الأرز ..

ونشبت الحرب العالمية الثانية ، وارتفعت أسعار كل شيء ، وقفز سعر كيس الأرز من ٢٥ ريالاً إلى ٢٥٠ ريالاً .. وإذ بعبد العزيز بن عيسى يأتيني في يوم من الأيام ومعه الأكياس الخمسة محملة عـلى حمير .. قلت له

لماذا يا أخي أحضرتها .. وأنا لم أطلبها ؟ . قال : أرجوك أن تأخذها الآن حتى لا تبقى عندي إلى أن يصل سعرها عدة آلاف !.

في هذه البادرة من الرجل ، مثال على الأمانـة والشرف .. لقد كان يستطيـع أن يتمسك بسعرها أيام عقدنا الاتفاق ، وقبل أن يتضاعف عشر مرات . ولكنه الشرف ، والأمانة . والدنيا ، على كثرة مـا فيها من ألوان وأصناف الرجال لا تخلو من الأشراف الأمناء ..

بمضي الشهور والأعوام ، أخذ الكثيرون يبيعون بيوتهم السكنية ، ويشترون شاحنات بهدف تأجيرها وتسييرها على الطرق الصحراوية محملة بالبضائع .. وأصبح ما كان يعتبر عيباً منذ سنوات ، تجارة شريفة يعكف الكثيرون إلى ممارستها ..

وهكذا..تم كسر طوق التقاليد..وتحقق هدف من أهدافي التي قصدتها عندما افتتحت الطريق بأول سيارة وأول شحنة !.. بعـــد ذلك وفقني الله إلى شراء عدة سيارات (ماك) حمولة الواحدة منها ٢٠ طناً.. وكنت قد وسّعت اتصالاتي من الكويت إلى سوريا .. وحملت سياراتي بضائع سورية مختلفة لتشحن من الشام إلى الرياض عن طريق الصحراء مارة بـ « قريّات الملح » .. وكانت سياراتي ، أول سيارات تحمل البضائع من سوريا إلى المملكة .



من المناسب الآن أن أحدث القارىء عن آراء لي في ميدان الأعمال التجارية،أرجو ألاّ يعتبرها فلسفة غير مرغوب فيها،إنما هي آراء وأفكار

اتضحت لي بعد طول الممارسة .. وبعد التجارب العملية الطويلةفي حياة حافلة بالشقاء والسعادة ، بالبؤس والنعيم ..

« الإقدام » و « العزم » .. أساسيان في كل عمل ، فلا شيء يقتل العمل التجاري ، بل وأي عمل ، مثل التردد والنكوص . التجارة تحتاج إلى تفكير سليم ثم بت سريع، ثم تنفيذ بعناية ..

الفرص قد تحين أمام المرء ، وما يعتبر فرصة فريدة بالنسبة إلى شخص ما قد لا يعتبر فرصة أمام غيره .. وقد تكون ظروف المرء تحتم عليه ان ينتهز الفرصة، ولو استشار غيره لوجد عنده رأياً آخر .. وهذا ما ينطبق عليه المثل المعروف « الجائع لا يستشير الشبعان ، والعريان لا يستشير المكتسي » أو « لا يحس بالجمر إلا الداعس عليه » .. كلٌّ يحدِّد موقفه حسب ظروفه وإمكاناته وخبرته ..

واقع ذلك ، لا يتنافى مع الاستشارة .. استشارة أهل الخبرة والمعرفة ممن يوثق فيهم . ولا يتنافى أيضاً مع التعاون مع الخيِّرين الصالحين ، و « اليد الواحدة لا تصفق » ..

« مخافة الله » ومراعاة الضمير ، والحرص على الكسب الحلال ، والابتعاد عن الجشع ، كلها صفات لا بد أن يتصف بها التاجر الناجح ، حتى يبارك الله له في ماله وحياته وصحته وأولاده .. ويخطىء من يعتقد أن التجارة تعني التجرد من كل خلق كريم ، في سبيل تحقيق المكسب ، فعلى فرض تحقيق مكسب سريع وفاحش بطرق لا يرضاها الله ولا العرف ولا الخلق الكريم ، فكل من يؤمن بعدالة الله ، لا بد وأن يدرك

أن مصير ذلك كله إلى الزوال ، وكم من ربح فاحش تحقق عن طريق غير سليم أو مشروع يضيع كله في خسارة مفاجئة. أو حادثة مؤلمة أو مرض مستعص أو فقدان ولد . وإنه ليس « الحظ » كما يتوهم البعض ، ولكنه قضاء الله . والله يمهل ولا يهمل ، جلّت قدرته ..

و« الاعتراف بفضل ذوي الفضل» .. وتلك خصلة كريمة لا يجب اتباعها في التجارة فحسب بل في كل ناحية من نواحي الحياة .. وإني لأجد لذة في ذكر فضل من كانوا أو لا زالوا أصحاب فضل عليّ .. ولا ينكر الجميل إلا لئيم لا يستحقه .. وهناك فارق بين النفاق وبين عرفان الجميل والاعتراف بالفضل .. إن حبل النفاق قصير ، والمنافق يفتضح أمره بأسرع مما يتصور ، ولا يجني إلا الاحتقار حتى من الذين ينافقهم ويكيل إليهم المديح ويظهر لهم الود !.

إنني ،وبكل تقدير وعرفان،لأعترف بفضل الأمير محمد بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله عليّ .. لقد دعمني وأيدني ، وساعدني لكي أشق طريقي وانطلق في ميدان الحياة العملية .. ولقد ساعدني الكثيرون ولا زالوا يساعدون . هذه حقائق لا أخجل من ذكرها ، بل أشعر بلذة في ترديدها .. فاذا كان جهدي قاصراً عن رد الجميل ، فلا أقل من كلمة وفاء وشكر لأصحاب الفضل ..

« التواضع » .. صفة محمودة، وواجبٌ الاتصاف بها .. وبالأخص في ميدان العمل التجاري ، فلا شيء يثير الكراهية والحقد قدر ما يثيرهما الغرور والتعالي اللذان يصيبان بعض الأشخاص عندما يصادفهم النجاح ،

يخيل اليهم أن التعالي يدفع الناس إلى احترامهم ، أو يزيد ذلك الاحترام.. وأن المبالغة في الكبرياء واتخاذ مظاهر العظمة والأبهـــة تشجع الكثيرين على الثقة بهم .. وإنهم لواهمون !..

ولو التزم كل تاجر هـــذه الصفات التي تحدثت عنها ، لما كانت هذه المشاكل التي تملأ المحاكم ..تهدر الجهد والوقت والمال ولكنها ـ ورب ضارة نافعة ـ لازمة لعيش المحامين (!) ولما أصبحت الفكرة عن التجارة أنها حرب يجوز فيها استخدام كل سلاح ولو كان مدمراً ..

قال ناصح لابنه : يا بنيّ لا تكن رأساً ، فان الرأس كثير الآفات .. ولعل ذلك الحكيم كان يقصد ألا يحاول ابنه أن يكون زعيماً أو رئيساً أو أن يتصدر القوم دائماً ، لأن من يكون في مركز الصدارة يكون هدفاً للسهام تصوّب اليه من كل جانب . ولعله أراده أن يكون تاجراً .!

وللتجارة لذة ، لذة المغامرة والسعي المتواصل والعمل الدائب ثم فرحة التوفيق مع الاقتناع بما قسمه الله من ربح .. وحب المال كثيراً ما يطغى على الانسان فيشقيه ..

وما دمنا في سبيل إبداء رأي عن تجربة ، فلعل من المناسب هنا أن أبدي رأيـــاً آخر يتمثل في قول شعبي ماثور : (من لا يفادي لا يجيب المكاسب) فلا بـــد من المغامرة والمثابرة والصبر ، والصمود للشدائد ، فطريق النجاح طويل وشاق .. ولا سيا في التجارة.. وهي البحر العميق، لا يستطيع إنسان أن يبلغ قراره . وفيها مجال دائم للعمل لكل مستزيد .

★

نعود إلى حديث عملي في التجارة .. وقد نمت وازدادت بفضل الله، وتوثقت صلاتي بالكويت ، ولعل مجال الحديث عنها يكون أوسع عندما أقدّم بعض تجاربي في كل بلد على حدة في الفصول القادمة .

لقد توسعت في أعمالي التجارية ، والنصائح التي قدمتها سابقاً لم تكن إلا ثمرة الجهاد المتواصل والتجارب المريرة التي ابتليتُ بها في علاقاتي مع الناس تجاراً كانوا أو غير تجار .

أول مشكلة مالية اعترضت سبيل حياتي ، كان غريباً أن تحدث في الرياض، وفي ذلك الوقت بالذات. ولقد استفدت منها العديد من الدروس وإن كنت قد قاسيت منها الكثير من الآلام النفسية والخسارة المادية ..

كنت في ذلك الوقت مسؤولاً عن تأمين جميع حاجات الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، رحمه الله ، من مواد غذائية إلى ملابس إلى كماليات ..

وكان المتبع أن يقوم التجار بتقديم كل ما يلزم من أغراض ، واتولى استلامها ، ثم أدفع ثمنها عندما أتسلم مخصصات محمد من أخيه عبد العزيز . وجرت الأمور على هذا المنوال سنوات عديدة ، والثقة متبادلة وكاملة والحمد لله .

في ذات يوم احتجنا مبلغاً معيناً من المال ، وكان عليّ أن أؤمنه على وجه السرعة ، وحاولت الحصول عليه من أصدقائي الواحد بعد الآخر فلم أوفّق ، وعندها لجأت إلى التاجر الغنيّ ، سعد بن عبد العزيز ابن سعيد ، تاجر السمن الذي كان يموّننا دائمًا .. ولم أكن أعرف أنه سيستغل الفرصة لنصب فخٍّ لي مستغلاً الحاجة إلى المبلغ . ولقد نفذ الرجل خطته بمهارة كاملة : اعتذر عن تقديم المبلغ مدعياً عدم وجوده

معه ، ولكنه أبدى الاستعداد لتامينه ، خدمة لي من أحد عملائه ، وبفائدة تبلغ ٣٠٪ إلى أجل كنا نسميه « الوعدة »[1] . وأشار عليّ بأن أذهب معه إلى عميله واشتري بضاعة بالمبلغ ، ثم أتركها ، وأوقع سنداً باستلامها ، ثم يدفع لي هو قيمتها وهي تعادل المطلوب لي مضافاً إليه فائدته !.. ثم يتولى هو استلام البضاعة وبيعها لحسابي .. وتحت ضغط الحاجة إلى المبلغ قبلت عرضه ونفذت كل ما طلب .. فسلمني (ابن سعيد) القسم الأكبر من المبلغ ووعدني بإعطائي الباقي عندما يتم بيع البضاعة .. وبعد أيام دفع لي جزءاً بسيطاً من المبلغ المتبقي مدعياً أن سعر البضاعة قد انخفض في السوق ! وانه خصم أيضاً مبلغاً كأتعاب له على إتمام الصفقة !..

بعد شهور تيسرت الأمور ، فاستدعيت التجار جميعاً وسددت لهم حقوقهم كالمعتاد ، ومن بينهم التاجر ابن سعيد ، ولاحظت انه لم يُعد إليّ السند الموقع مني ولكن لم أعر الأمر أهمية لفرط الثقة السائدة في مجال التعامل التجاري آنذاك ..

بعد مدة جاء من يخبرني بأن ابن سعيد قد زوّر عليّ سنداً بخط عميله ذاك بمبلغ ٢٥٠٠ ريال ! .

ولم أصدّق، بل ولم أهتم بالخبر لاعتقادي بعدم صحته، وكيف أُصدّق وقد سددت للتاجر حقه كاملاً ؟ ! .. إلى أن فوجئت باستدعائي للمثول أمام القاضي لنظر دعوى مطالبة ابن سعيد بالمبلغ .. وذهبت ، وتمكن

---

(١) الوعدة ، كانت تعني أن يشتري المرء بضاعة مقابل سند يوقعه بأكثر من قيمتها الحقيقية على أن يسدّده خلال سنة ، أو على الأكثر في نهايتها .

ابن سعيد بفضل السند المزوّر ، وبفضل شهادة زور من التاجر صاحب البضاعة مـن أن يخرج موقفي ، وأن يقنع القاضي باستحقاقه للمبلغ !.. وكيف لا يقتنع القاضي .. والرجل قد أقسم يميناً على صدق دعواه !.. ولم يكن أحد غير الله وغيره وغيري، يعلم أنه قد أقسم يميناً كاذبة .. وأن شهادة التاجر صاحبه شهادة زور. ولم يكن أمامي غير أن أوسِّط صديقاً في الأمر فوسّـطت عبد الله بن كنعان ليبلغ ابن سعيد بمـــا في نفسي ، ولينصحه بالتراجع عن ادعائه الكاذب ، وليخبره صراحة باني ساضطر للدفاع عن نفسي ومالي بكل وسيلة حتى ولو كانت تخـالف طباعي أو تخالف العرف ..

كم تالمت في تلك الأيام.. وكم كنت أضغط على أعصابي حتى لا تنفجر من الغيظ . كان الغضب يعصف بي ، وأنا أشعر باني عاجز أمام هــــذه المكيدة الحافلة بالغدر والتزوير وشهادة الزور . وراودتني نفسي ذات ليلة أن أذهب إلى ابن سعيد وأجبره على قول الحقيقة .. كان أمام بيته بئر ، وفكرت أن أقصده وأستدرجه إلى حافـة البئر وأهدده ، إما أنـ يقر بالحقيقة أو أقذفه فيها .. وكدت مـن فرط ثورتي ويأسي أن أقدم على ذلك ، ولكــــني عدت إلى هدوئي وأسلمت الأمر إلى الله ، ودعوته أن ينصرني على المزورين وشهود الزور وأن ينتقم لي وهو العالم بحقيقة الأمر وبما تخفي الصدور .

وقبيل شروق الشمس حضر إلى بيتي عبـد الله بن كنعان ، يطلب مني الذهاب إلى منزل سعدون بن سعدون .. فذهبت ، وإذا بإبن سعيد وعبد العزيز أبو خنجر ومعه السند الأصلي الموقع مني للتاجر ، وإذا به

يسلمني إياه ويكتب لي براءة ذمة بشهادة الحاضرين . وأسرعت إلى القاضي أطلعه على السند وعلى براءة الذمة . ودهش القاضي ، فقد كان مقتنعاً بدعوى ابن سعيد . وانتهت القضية، وقد ازداد إيماني بالله العظيم وقدرته كما ازدادت ثقتي بنصره لأصحاب الحق وللمظلومين .. سبحانه وهو القائل : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » صدق الله العظيم .



من مكيدة إلى أخرى ..!

من الحادثة السابقة التي أزعجتني كثيراً إلى أن منّ الله عليّ بالنصر فيها ، أنتقل إلى أخرى تعقدت فيها الأمور إلى درجة كبيرة ، ولكنها انتهت والحمد لله دائماً ، بما لم أكن أنتظره أو أتوقعه من ربح وفير .

في منتصف سنوات الحرب فكرت في شراء السيارات المستعملة من الرياض والمنطقة المحيطة بها ، وشحنها إلى الكويت لبيعها هناك حيث كان فرق الأسعار يحقق ربحاً لا بأس به. وما أن درست الفكرة حتى بدأت التنفيذ.

جهزت فعلاً ثلاث سيارات إحداها شفروليه والثانية دودج والثالثة شاحنة فورد ، استعداداً لشحنها . وقصدت أحد أصدقائي العاملين في تجارة السيارات المستعملة لغرض ما ، وإذ بي أجد عنده سيارة بونتياك صغيرة وقد رفعها على أحجار وكانت بدون دواليب (كفرات) دليلاً على عدم استعمالها ، وبدت لي السيارة في حالة لا بأس بها وعندما فحصتها

وجدت هيكلها سليماً من الداخل والخارج . سألته عن ثمنها فاجاب بانه قد اشتراها بثلاثمائة ريال من جراج الأمير تركي أبو ذعار . وأعجبتني السيارة ، خاصة بهذا السعر ، وصممت فيما بيني وبين نفسي على شرائها . ولخبرتي بتجار السيارات المستعملة وطريقة التعامل معهم لم أظهر له إعجابي بها خاصة وأنا متأكد من أنه لا داعي للعجلة إذ لا يعقل أن يتقدم لشرائها أحد وهي بحالتها تلك ، وأيضاً لأتأكد أولاً من وجود «كفرات» بقياسها في الأسواق .

سافرت إلى مكة فوجدت الكفرات واشتريتها بالفعل ـ قبل أن أشتري السيارة بل وقبل أن يعلم الرجل برغبتي في شرائها ! .. ثم عدت إلى الرياض ، وكان صديقي صاحب الجراج من جملة من حضر من الأصدقاء لتهنئتي بسلامة الوصول . ومن حديث إلى حديث سألته دون اهتمام ، هل يبيعني السيارة ؟ فأجاب بالايجاب بصوت عالٍ وبطريقة تدل على عجبه وعلى استهجانه للسؤال،فلم يكن يتوقع أو حتى يفكر باني أريد شراءها حقيقة . وعدت أسأله عن الثمن ، فقال مازحاً وهو ما زال غير مصدّق أني جادٌّ في السؤال : خـذها مقابل بيت سكن لي ولأولادي !. قلت : إن البيوت تتفاوت في القيمة ، وعليك أن تحدد سعرها بالريالات. قال مستهجناً إلحاحي ولكي يضع حـداً للحديث : ثلاثة آلاف ريال .. وأسرعت بالموافقة . وأعطيته في الحال تحويلاً بالمبلغ وقد تملكته الدهشة كما تملكت الحاضرين جميعاً ، إذ لم يصدق حتى تلك اللحظة أني اشتريت السيارة بالفعل وبهذا المبلغ الكبير !.. ولقد علمت فيما بعد أنه لم ينم طيلة ليلته تلك خشية أن أغيِّر رأيي في الأمر وأعدل عن شراء السيارة . ولم

تهدأ نفسه إلا في الصباح الباكر عندما أسرع يقبض قيمة التحويل .. عند ذلك فقط اطمأن إلى جدّية الأمر .. وذهبت إلى محـله وقمت بتركيب « كفرات » السيارة واستلمتها بالفعل ..

كنت على وشك السفر إلى الكويت اتماماً لمشروعي ، ولم يبـق معي من المال ما يكفي لتجهيز السيارات للسفر بالبنزين والسائقين بعد ان دفعت كل ما أملك في شراء السيارات وغـــير ذلك من النفقات . وكان مازقاً اجتهدت في الخلاص منـه دون جدوى ، إلى أن جاءني الفرج .. وذلك بحضور أحد الأصدقاء عندي ، وكان تاجر سيارات وأخشاب ، فكان أن أعجبته السيارة الفورد الشاحنـة وطلب شراءها ، فوافقت على بيعها له بستة آلاف ريال ، سعر تكلفتها ، على حالتها الحاضرة مع قبوله بكل ما فيها من عيوب إذا وُجدت . واستلم السيارة بالفعل واعـداً بأن يأتيني بقيمتها في المساء . وحمدت الله على ذلك فقد كان المبلغ كافياً لتجهيز باقي السيارات ولأجر السائقين .. وانتظرت حتى المساء فلم يحضر الصديق ، وانتظرت طوال اليوم التالي ومساءه ولم يحضر .. لعلّ عنده عذراً !.. ومر اليوم الثالث وأنا أنتظر عـلى أحر من الجمر . وأخيراً جاء مساء اليوم الرابع وكان عندي كثير من الاصدقاء .. وفرحت بمجيئه كما يفرح العطشان برؤية الماء .. واطمأنت نفسي إذ توقعت أن يكون قد تأخر هذه الايام في تدبير المبلغ .. ودارت علينا القهوة وأكواب الشاي، وتشعب الحديث وأنا أتوقع بين لحظة وأخرى أن يبدأ الحديث عن السيارة ويسلمني المبلغ .. وبدأ الرجل ـ الصديق ـ الحديث ولكن ليقول أمام الجميع : « لقد وجدنا في إحدى كفرات السيارة ثقباً صغيراً . وأرجو أن تحضر

معي صباحاً إلى المحكمة لنعرض الامر على القاضي،ليقضي بيننا وبينك»!

للقارىء أن يقدر مدى الصدمة التي أصابتني فأذهلتني ، ومدى خيبة الأمل التي ملأت نفسي وأعجزتني عن التفكير . وسكت ، وساد الصمت الحجرة بجميع من فيها إذ أن المفاجأة شملت الجميع . لم أكن أدري ما أقول،ولا بماذا أرد عليه. واكتفيت بالنظر إلىوجههوالتدقيق فيملامحه. وخطر لي خاطر سريع .. إن هذا الرجل يخفي أمراً يحرص ألا يظهره. وإن موقفه هذا غير المتوقع لا يمكن أن يكون تصرفاً طبيعياً . فقلت: لا حاجة للمحكمة ولا للقاضي ، لا أريد لك أيّ ازعاج . إنك مخـيّر ، إما أن تأتيني بثمن السيارة التي اتفقنا عليه صباح الغد، أو تعيد إليّ سيارتي.. ولاحظت الارتياح عـلى قسمات وجهه عندما أعلنت استعدادي لالغاء الصفقةواستعادة السيارة. وقبل شروق شمس اليوم التالي وجدت السيارة أمام الباب . وعدت أحاول وأبذل كل جهدٍ حتى تمكنت من تدبير ما يلزمني من مال للسفر،ولقد استغرق ذلك مني خمسة عشر يوماً أخرى. ويسّـر الله الأمور ، وبدأت رحلـتي إلى الكويت وبصحبتي السيارات الأربع المعدّة للبيع .

في الكويت ، وجدت التجار الايرانيين شديدي الاقبال عـلى شراء السيارات المستعملة بشكل منقطع النظير . وحالفني التوفيق إلى أسعار لا تكاد تصدّق . السيارة الشفروليه الـــتي كلفتني ٣٥٠٠ ريال بعتها إلى النفيسي بمبلغ ٢٢٠٠٠ ريال ، والسيارة البونتياك التي كلفت ٣٨٠٠ ريال اشتراها مساعد الصالح بمبلغ ٢٥٠٠٠ ريال،والدودج التي كلفت ٢٨٠٠ ريال أرسلتها إلى البصرة فاشتراها عبدالله بن شويش بالف دينار عراقي . أما

السيارة الفورد الشاحنة ، التي صُدمت وخاب أملي عندما رفض صديقي تاجر الأخشاب شراءها بستة آلاف ريال فقد اشتراها ابـن مرشود بمبلغ ١٨٠٠٠ ريال أي بثلاثة أضعاف السعر الذي كنت أتلهف لبيعها به في الرياض !.

آمنت بالله وبحكمته ، وسبحانه تعالى وهـــو القائل « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » ..

تذكرت انتظاري للرجل على أحر من الجمر يوماً بعـــد يوم ليأتيني بثمن السيارة ، وتذكرت المفاجأة وضيعة الأمل بعـد أن دعاني للذهاب معه إلى المحكمة حتى يتخلص من شرائها ! وتذكرت الضائقة التي ألمت بي ، والقلق خوفاً على المشروع من الفشل وأنا لا أملك شيئاً ، والجهـد الذي بذلته لكي أؤمّـن ما يكفي لتجهيز السيارات للسفر .. وبعد ذلك كله ، يأتي الفرج ، والرزق العميم ، والربح الوفير ، أضعاف أضعاف ما كنت آمل أو أنتظر .. من عند الله الكريم الحكيم ..



في السجن !

أود قبل أن أسجل تفاصيل واقعة جديدة .. أن ألفت نظر القارىء إلى أمر أعتقد انه لن يغيب عنه إدراكه ،وهو الأثر الذي كانت تتركه هذه الحوادث أو الوقائع أو المواقف في نفسي ، والدروس التي كنت أتلقاها منها ، والخبرة في الحياة التي كنت أكتسبها ، وأثر كل ذلك على تصرفاتي ومواقفي المقبلة .. إن ما أذكره من وقائع أو قصص ، ليس فيه حديث

عن بطولة أو تفاخر بذكاء أو جهد خارق . أذكرها كما حدثت دون أدنى زيادة ، بل وببعض الاختصار الذي أحرص عليه أشد الحرص لأسباب منها ان بعض أبطال هـــذه القصص ما زالوا على قيد الحياة وما زالوا يمارسون أعمالهم في مواقع مختلفة ، ويهمني ألا أروي ما قد يعتبرونه أو يعتبره البعض إساءة اليهم من حيث لا أقصد . لذلك أكتفي بذكر الحقائق التي لا تجرح أحـــداً، والتي يمكن أن أقدمها للقارىء كتجربة في الحياة استفدت منها ، وأرجو أن يستفيد منها غيري ..

الواقعة التالية، ترددت كثيراً في تقديمها لظروف معينة تحيط بأبطالها وتفاصيلها،ولعلي أتمكن من سرد هذه التفاصيل دون أن يخل بها الاختصار أو الاغفال المقصود لجزء منها.. ولكني حسمت التردد واقتنعت بضرورة تقديمها للقارىء .. وكيف لا أرويها وقد كان من نتائجها أن قضيت أياماً في سجن « المسمك » دون ذنب أو جريرة ؟!..

عندما وزعت الدولة أرض « المرقب » على المواطنين دون مقابل ، كنت من جملة من استفاد من بادرة الدولة الكريمة عندما مُنحت قطعة أرض اعتزمت أن أبني عليها بيتاً يكون مقراً لي ولأولادي ، وتمكنت من شراء ما يجاورها من الأراضي من جهات ثلاث ، الغرب والجنوب والشرق ، وبقيت قطعة من جهة الشمال .. قطعة صغيرة ولكنها تحجب قسماً من قطعتي عن الشارع الرئيسي ، كما أنها بوضعها تطل على المدخل المؤدي من الشارع إلى قطعتي ، لذلك كان لا بد من شرائها . أولاً لرغبتي أن يصبح منزلي في المستقبل على الشارع الرئيسي ، وثانياً للخلاص من أي إزعاج

أو احراج أو مشاكل قد يسببها اشراف هذه القطعة على المدخل الخاص المؤدي للمنزل .

ووكلت عبد العزيز بن عيسى في شراء هذه القطعة لي بالثمن الذي يرضي أصحابها وأوصيته بالاستعجال في الأمر ، إذ كنت أستعد للسفر إلى سوريا ، وسافرت ، وذهب وكيلي إلى أصحابها الشريكين ، علي بن مطلق وابن دخيل ، فطلبوا منه ثلاثة آلاف ريال ، ولسوء الحظ لم يقم وكيلي بالشراء كما أوصيته .. أولاً لأنه لم يكن يدرك استعدادي لشرائها بأي ثمن ، وثانياً لأنه لم يكن يعلم شيئاً عن هدفي الحقيقي من الاصرار على شرائها . وعندما عدت إلى الرياض جاء الرجل إليّ ليخبرني بأنه وجد السعر مرتفعاً وأن القطعة لا تساوي الثلاثة آلاف ريال المطلوبة . وكان الرجل على حق في موقفه .

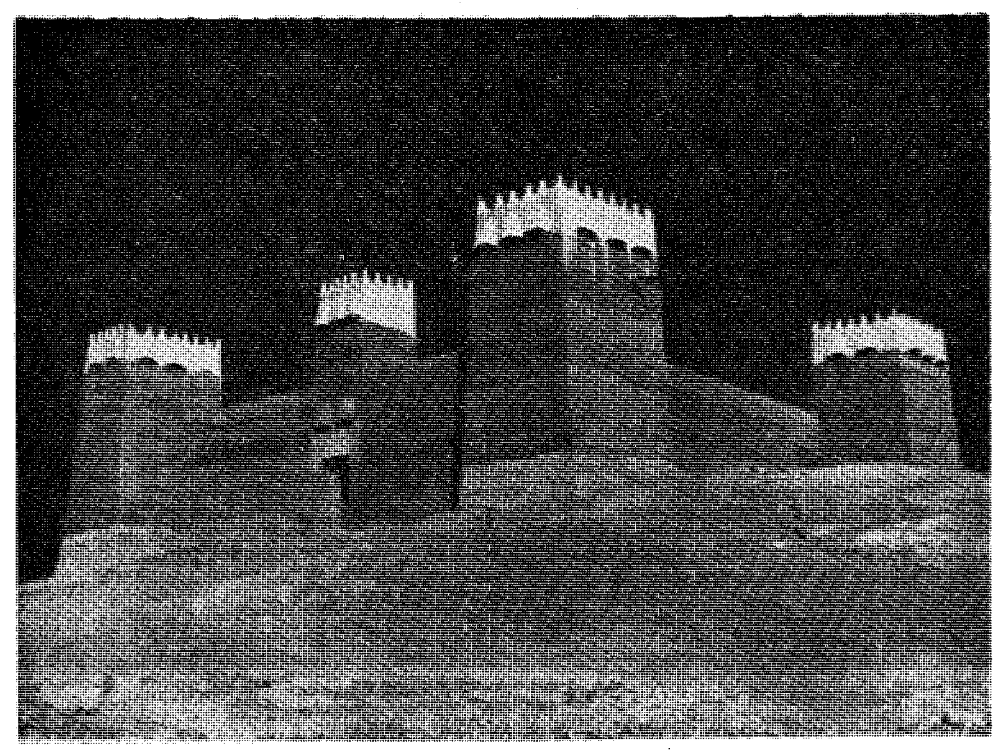
وكلفت صديقاً آخر ، ابراهيم بن مهيزع، أن يشتري لي القطعة بأي ثمن يطلبونه ، واتصل ابراهيم بهم فطلبوا خمسة آلاف ريال ، فلم يستطع الرجل أن يبت في الأمر بل عاد إليّ متذمراً من طمعهم ، فالمبلغ كان في نظره خيالياً .. وقد كان كذلك بالفعل في نظري ونظر الناس جميعاً . وفوجىء الرجل بموافقتي على السعر وبإسراعي لإحضار المبلغ وتسليمه له مع توصيتي ورجائي بأن يذهب ليدفعه فوراً ولإحضار صك البيع . وذهب الرجل .. ليعود مبتسماً وهو يحمد الله !. ويقول : « إحمد ربك والله إن فلوسك حلال . الجماعة رفضوا البيع بخمسة آلاف ، وقالوا انهم استخاروا الله ولن يبيعوا إلا بعشرة آلاف ريال ! » .. وكان الرجل

معذوراً في رفضه الشراء بهذا السعر محافظة على مالي .. فلم يكن يدرك هو الآخر أهمية الأمر بالنسبة لي. وكظمت غيظي .. كان واضحاً أن «الجماعة» تأكدوا من إصراري على الشراء ، وأنهم مصممون على استغلال الموقف أبشع استغلال .

وفوجىء الرجل عندما أسرعت أحضر له الخمسة آلاف ريال الباقية ليتم المبلغ بها عشرة آلاف ، وذُهِل عندما رجوته أن يعود إليهم ليدفع العشرة آلاف ويُتمّ الصفقة . واعترض ، وحاول إقناعي بشتى الطرق أن أعدل عن الأمر وأنا أصر على موقفي وألح في الرجاء أن يذهب. وأخيراً وتحت ضغط إلحاحي ورجائي قبِل ، سلَّم أمره إلى الله وذهب إليهم وهو ساخطٌ عليّ وعلى تفريطي في مالي إلى هذا الحد .

بعد فترة عاد إليّ مندفعاً يصيح غاضباً : « ألم أقل أن مالك حلال؟.. الحمد لله . الجماعة رفضوا أن يبيعوا إلا بخمسة عشر ألف ريال !» . وقبل أن يسترسل في الحديث ودون أن أرد عليه بكلمة واحدة أسرعت أحضر الخمسة آلاف ريال الثالثة وأنا أرجوه وأستحلفه أن يذهب ويتم الصفقة.. واتهمني الرجل بالجنون ، وأصر على عدم الذهاب، وأعلن رفضه البات أن يشتري قطعة الأرض بعشرة أضعاف ثمنها، فاضطررت أن أخبره بحقيقة الأمر: إني لا أدفع هذا المبلغ الكبير ثمناً للأرض ولكن إتقاء للشر وتفادياً للمشاكل التي لا بد وأن تحدث مع هؤلاء الجيران واقتنع نوعاً ما، وذهب.

بعد فترة أخرى عاد الرجل شديد الثورة غير متمالك لأعصابه، ليرمي لي بالمبلغ قائلاً : « ابن مطلق وابن دخيل يطلبون عشرين ألف ريال !..



قلعة المرقب على تلة ترتفع حوالي ١٠٠ متر عما يجاورها

والله ان تشتري هذه القطعة عـــن طريقي ، فاكون أنا وأنت سخرية المجالس في كل البلاد » .

أسقط في يدي . وأيقنت من سوء نيـة القوم ، فأقسمت أمامه بالله العظيم أن لا أشتريها منهم ولو عادوا وطلبوا ثمنها ريالاً واحداً. واعتبرت الأمر منتهياً . وتوكلت على الله وعمّـرت سكني وملحقاته . ولم يكن في المنطقة كلها على مدى البصر بيت واحد للسكن غير بيتي ، ولكن كانت هناك وعلى بعد فوق مرتفع ظاهر قلعة قديمة « قلعة المرقب » .

ومرت الأيام والشهور ، ثم حدث ما كنت أتوقعه وأخشاه وظهرت حقيقة نوايا « الجماعة » .. لقد ظلوا ينتظرون طيلة هذه المدة أن أعود لطلب شراء القطعة ، ولم أفعل ، ولم يتقدم أحد غيري لشرائها ، ففكروا في وسيلة يضغطون بها عليّ حتى أشتري. واهتدوا إلى خير وسيلة للضغط في نظرهم . فما دمت حريصاً على البعد عن المشاكل،فلا بد إذن من افتعال المشاكل حتى أستسلم !.

جاءوا إلى قطعة الأرض وأخذوا يتظاهرون بتخطيطها ، إلى أن وصلت وبادرتهم بالسلام فدعوني إلى الجلوس معهم، فجلست. قالوا : « يا أخ إبراهيم . لقد أصبحنا جيراناً . وقد أوصى الرسول عليه الصلاة والسلام على الجار حتى كاد أن يورثه ، وقد فكرنا في استغلال قطعتنا ورأينا أن نستشيرك قبل أن نبدأ ، فلكم حق الشفعة فيها . إننا قررنا أن نبني عليها ست دكاكين لنبيعها. وستكون أبوابها على المدخل المؤدي إلى بيتك ، ونخشى أن يشتريها نجارون أو حدّادون ، فنكون بذلك قد تسببنا في إزعاجكم » !

وفهمت ما يحوي كلامهم من تهديد فسألت عن السعر الذي سيبيعون به الدكاكين وأجابني ابن دخيل : « سعر بسيط جداً. الدكان بثلاثة آلاف ريال فيكون المبلغ ١٨ ألف ريال ». كانوا يتوقعون أن أسرع بالموافقة ، ولكني وقد أقسمت من قبل ألا أشتري الأرض مهما كان الثمن أجبتهم بكل هدوء : « إنه ثمن مناسب ، ومبروك عليكم كجيران ، وأنتم أدرى بمصالحكم فلا تهتموا لأمري أو لما قد يصيبني من إزعاج » . ثم أضفت :

« إنكم عشتم زماناً في الزبير والبصرة ، وفيها مـا فيها من (...) ، فإذا أمكنكم أيضاً جلب بعضهن ووضعهن في دكاكينكم، فلا مانع لديَّ . ولكل حادث حديث ! » .

كان رداً قاسياً مني . إنها الحقيقة . أذكرها كما حدثت . وكان طبيعياً أن يسيئهم هذا الرد . ولكن تصرفهم بعده دلّ على أنهم كانوا قد دبروا خطتهم سلفاً ، ولم يكن تصرفاً عفوياً رداً على كلماتي . فقـد هبوا واقفين صارخين في وجهي : « يا ظالم يا قليـل الخوف من الله . نطلب منك الشرع ثلاث مرات وترفض ! ، وقـد بنيت بيتك في المرقب بهذا العلوّ ، لتكشف قلعـــة الحكومة إذا صار حرب !! ؟ » . ولم أُجبهم بكلمة .. وانصرفت .

تقدموا بشكوى في المحكمة الشرعية فحواها : انني بنيت بيتاً عالياً نوافذه تكشف محارمهم،ويطلبون هدمه أو إغلاق نوافذه بالطين واللبن ! . وتعجب القاضي لهذا الادعاء ، إذ كان يعلم حق العلم بعدم وجود بيت في المنطقة كلها إلا بيتي . وكلف هيئة مختصة برئاسة ابن سلمة للتأكد مـن الادعاء وقامت الهيئة بواجبها فكشفت على المكان وأقرّت ببطلان الادعاء فرفض القاضي الدعوى ، وخاب تدبيرهم .. فهل كان ذلك كافياً لردعهم أو إقناعهم بالكف عن افتعال المشاكل ؟ . لا . بل إن حقدهم قد ازداد، كما ازداد إصرارهم على تدبير المكائد انتقاماً مني ! .

ذات يوم أحضروا أصحاب الأرض السابقين وكانوا ثلاثة، أحضروهم بأسلحتهم وقد لثّموا وجوههم ، بحجة حماية العمال الذين أحضروهم لبناء

سور حول قطعتهم ، وشرعوا يبنونه متعدّين على المدخل ليقتطعوا منه ثلاثة أمتار من أصل ٦ أمتار يضمونها إلى قطعتهم داخل السور ا. وعندما حضرت وشاهدت ما يفعلون وشاهدت الرجال الملثمين المسلحين أدركت أن هدفهم استفزازي حتى أرتكب ما يعتبر خطأً مني في حقهم. فكظمت غيظي وانصرفت مسرعاً إلى « ولي الأمر » آنذاك ، وأبلغته بما يحدث فكان عجبه بالغاً ، وأصدر أمره في الحال إلى مدير الأمـن ليذهب فوراً بجنوده إلى « المرقب » وأن يقبض على من يجده من المسلحين ويقودهم إلى السجن ، وأن يقتل منهم من يقاوم الجنـود . وتوجهت القوة إلى المكان لتجد المسلحين الذين لم يقاوموا واستسلموا وتم تجريدهم من سلاحهم واقتيادهم إلى السجن حيث عوقبوا أشد العقاب .

للمرة الثالثة فشل تدبير ابن مطلق وابن دخيل ، فهل ارتدعوا؟ كلا. وهل من الممكن أن يرتدع من كانت نفسه مريضة بالحقد والطمع والجشع وحب الشر والإيذاء ؟!.. فكّـروا في إيذائي بوسيلة أخرى دلت على مدى ما وصل إليه حقدهم ، بل وعلى ما يعفّ لساني وقلمي عن وصفهم به .

كانوا يعرفون كما أعرف ويعرف الجميع ـ ومنـــذ تولى آل سعود أمر البلاد ، أن العـدل هو أساس الحكم ، وأن آل سعود يحرصون أشد الحرص على تنفيذ تعاليم الدين الحنيف ولا تأخذهم في الحـق لومة لائم ، وأنهم يطبقون الشرع على الجميع بكل حزم ويعاقبون المخطىء ولو كان من أقرب المقربين إليهم، ولا يتهاونون في أمر ما مهما هان إذا كان متعلقاً بالدين أو الأمن أو النظام ، وأنهم قـد منحوا هيئة كريمة السلطة المطلقة للاشراف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومعاقبة من يتقاعس عن

الالتزام بالفرائض وأوامر الله أو يخالف الشرع الحنيف. أقول ، كان ابن مطلق وابن دخيل يعرفان ذلك ، فهداهم تفكيرهم بعــد فشل مكائدهم السابقة أن يكيدوا لي في هذا المجال ، فادّعوا عليَّ وعلى ابن عمي ، ادعاء، أننا اعتدينا بالضرب على « الداورية » الطوافة بعد منتصف الليل وأننـا أيضاً بعد ذلك الاعتداء لم نذهب لصلاة الفجر .

ولم أعلم بادعائهم في وقته إلى أن فوجئت بمحمد بن محيذيف وبرفقته أربعة أشخاص يطلبون مني التوجه معهم إلى دائرة الأمن العام. وذهبت وأنا لا أعلم عن السبب شيئاً . واستقبلني مدير الأمـــن هاشا باشا . وإذ بمحمد بن محيذيف يقول له : هذا الرجل محبوس بأمر الشيخ .. وذهـل مدير الأمن . وفيما كان الجنود يقبضون عليَّ ويسوقونني إلى السجن كان هو يسرع إلى القصر ليخبر الأمير سعود وليّ العهد آنذاك بالأمر ، وكان والده الملك عبد العزيز في الحجاز وقتها .

وبكل هدوء ذهبت مع الجنود إلى سجن « المصمك »[1] ، لم أكن أعلم

---

(١) كان المصمك داراً للسكن والحكم وبيتاً للمال ، بناها عبدالله بن فيصل ابن تركي ، وكان في داخلها السجن الذي لقب فيما بعد اسم (سجن العنقري) . ثم أطلق على هذه الدار الحصينة اسم « المصمك » – أي المحكمة الاغلاق (المسكرة) من جميع جوانبها ، فلم يكن بجدرانها العالية لا نوافذ ولا شبابيك ولا فتحات اللهم إلا منافذ صغيرة تنفذ منها فوهات البنادق ، ومدخل واحد في جانبها الغربي . وقد بقي المصمك إلى اليوم بهيكله الطبيعي دون تغير أو تبدّل أو خلل في بنيانه ، رمزاً للشجاعة والجرأة التي أتمّ بها عبد العزيز فتح هـذا الحصن ، (أنظر حديثنا عن ذبحة عجلان في الفصل الخاص بالحروب والجهاد) . واليوم يبقى المصمك مفتوحاً للسيّاح يرتادونه دون مقابل ، وأُبـدل سجن العنقري بسجون حديثة خارج هذا الحصن الشامخ .

بحقيقة الأمر ولكني كنت متأكداً بيني وبين نفسي أن بالأمر مكيدة دُبِّرت ودسيسة أبلغت للشيخ فأمر بسجني . وبعد دخولي السجن بفترة استدعاني الحارس للرد على مكالمة هاتفية ، وإذ بالمتحدث أحد الأمراء ـ أكرمهم الله ـ يستفهم مني بأمر من ولي العهد عما فعلت وعن حقيقة التهم المنسوبة إليّ (الاعتداء على الداورية والامتناع عن الصلاة) وحمدت الله إذ علمت أن ولي العهد لم يعلم بعد بهذه التهم وفهمت أن أمر الشيخ يقضي بسجني عشرة أيام ، وأن ابن عمي لم يدخل السجن رغم أن الادعاء يشمله أيضاً !. فتأكدت أنني المقصود بالمكيدة والدسيسة .

وسرعان ما انتشر خبر سجني وعلم به معظم أصدقائي من الأسرة السعودية الكريمة فسارع كل منهم إلى ولي العهد يطلب منه الافراج عني على كفالته . ولكنه رفض طلبهم لأن الأمر يتعلق بالدين والأمن والنظام، وكان جوابه: «لو أعلم أن ابراهيم مسجون من أجل دَيْنٍ أو مال، لفتحتُ للمدعي خزانتي الشخصية ليأخذ منها ما يريد ولأفرجت عن ابراهيم، أما والأمر يتعلق بالشرع والنظام فلا . » .

مرت خمسة أيام وأنا في السجن . وإذ بالأمير محمد بن عبد العزيز يعلم بحقيقة الأمر ويعرف المكيدة التي دبرها الحاقدان والدسيسة التي تقدما بها إلى الشيخ . وأسرع الأمير إلى الشيخ يطلعه على ما علم . وأسرع الشيخ بدوره يتصل بولي العهد ليخبره بالأمر وبأنه سيفرج عني بعد أن علم الحقيقة . وحضر إلى السجن مندوب بأمر الافراج عني . وأبلغني بما حدث ، وأن ولي العهد يرى أن أذهب إلى الشيخ وأعتذر له ولبقية المشايخ حتى تنتهي المسألة تماماً ..

ورغم أني كنت الضحية للادعاء الكاذب ، إلا أني وجدت أن من الأفضل أن أذهب إلى الشيخ لأشرح له حقيقة الأمر ولأزيل من نفسه كل أثر للشك في موقفي . وذهبت. وفيما أنا جالس عنده وقد شرحت الموقف وأوضحت الأمور وحل الصفاء وقدموا لي الشاي والقهوة وعبارات الأسف لما حدث .. إذ بالأمير عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن يدخل علينا وهو بثياب معفرة بتراب الصحراء ، وكان عائداً لتوه من رحلة للقنص وما أن علم بالأمر حتى أسرع إلى بيت رئيس الهيئة قبل أن يذهب إلى بيته . وإذ دخل علينا استغرب الجو الودي الذي كان يسود الغرفة .. فهدأت نفسه أكرمه الله وجلس معنا ، ثم خرجنا سوياً .

تأكدت بعدها أن الدسيسة كانت من قِبل أصحاب قطعة الأرض التي رفضت شراءها . وأسلمت أمري إلى الله وحمدته على النجاة من كيد الكائدين بفضله ، وبمساعدة الرجال المخلصين ذوي المروءة والشهامة من أصدقائي أعضاء الأسرة الكريمة ..

ومرت الشهور والسنين . وبعد حوالي سبع سنين وكانت أسعار الأرض قد ارتفعت واتسعت حركة العمران ، اشترى عبد العزيز السديري قطعة الأرض ذاتها .. فكان نعم الجار . وحمدت الله . إذ تأكدت بذلك أني قد تخلصت من مكائد الحاقدين ودسائس الموتورين بشكل نهائي ..

الكريم يحفظ الجميل

« إن الجميل لا يضيع عند الكرام » .. ما أصدق هذا القول المشهور، وما أكثر ما تؤكده الأيام بالتجارب الواقعية وبالدليل القاطع . على المرء أن يفعل الجميل وأن يقدم المعروف دون انتظار لشكر أو تقدير أو جزاء ما. وليكن على ثقة من أن الكريم لو أتيحت له الفرصة لرد الجميل فسيردّه أضعافاً مضاعفة ..

.. كثير من الناس لا يقدم على فعل المعروف إلا إذا تأكد أولاً أنه سيستفيد مستقبلاً ممن قدّم له المعروف! ذلك لا يعتبر في نظري إلا تجارة بالمعروف . إنني أروي في هذا المجال واقعة يسّر الله لي فيها أن أسدي معروفاً ضئيلاً لرجل كريم . وأروي كيف دارت الأيام دورتها والرجل الكريم يحفظ الجميل ولا تكاد تمر مناسبة إلا ويغرقني بفضله وكرمه ونبله ..

كانت صدفة أن علمت أن مجموعة من الناس قد دخلت السجن في ظروف معينة . وبدون سابق معرفة لأحد منهم على الاطلاق دفعتني عاطفتي الانسانية أن أقدم لهم بين الفترة والفترة ما أستطيع من غذاء أو فاكهة ، فقد كانت الظروف ظروف حرب مستمرة وضارية ، وكثيراً

ما كانت تحدث الأخطاء أو يحدث الاشتباه وفي مثل تلك الظروف كان الاعتقال والسجن اجراءً للاحتياط .

وعندما أراد الملك عبد العزيز التوجه إلى ميدان معركة السبله التي أفردنا لها صفحات في فصل سابق ، لقتال المتمردين المتجمعين هناك، أمر رحمه الله بالعفو عن جميع المعتقلين وباخراجهم من السجن ونقلهم إلى منزل يليق بهم واعتبارهم ضيوفاً عليه،وليس كمذنبين أطلق سراحهم. لقد كان رحمه الله بعيد النظر ، شديد الثقة بالله ، يعرف كيف يأسر الرجال بعفوه وكرمه .

تقدمت إليه رحمه الله وطلبت منه السماح لي بدعوتهم لتناول العشاء في بيتي فوافق ، بل وشكرني على ذلك . فذهبت إليهم في المنزل الذي خُصِّص لهم وتعرفت إليهم ودعوتهم .. ويومها فقط تعرفت ضمنهم إلى محمد سرور الصبان . وعدت لأدعو أصدقائي ليكونوا حاضرين قبل الضيوف .. وتمت المادبة ودارت الأحاديث واجتهدنا جميعاً أن نحيطهم بجو من الألفة والمودة ..

منذ أن تعرفت إلى محمد سرور الصبان أحسست بالأنس إليه .. وشعرت وكأني عثرت على أخٍ شفيق . وهكذا كان ، فعلى مر الأيام توطدت بيني وبينه عرى الصداقة والمحبة والود ، والأخوة التي أدامها الله حتى يوم وفاته رحمه الله في يوم الثلاثاء الثاني من ذي الحجة عام ١٣٩١ هجرية، الموافق ١٨ ـ ١ ـ ١٩٧٢ م.

.. في يوم من الايام اعتزمت القيام بعدة مشاريع دفعة واحدة، ورأيت

أن لا بد لي من شريك نتعاون معاً بالمال والجهد . وكان أول من فكرت فيه الاخ محمد سرور الصبان . وذهبت أعرض عليه الأمر وألح عليه أن يقبل مشاركتي . وكانت المشاريع كلها مؤكدة النجاح مضمونة الربح باذن الله . ولو عرضتها على غيره لأسرع إلى قبول المشاركة. ولكنه رفض رفضاً باتاً ، بل وأقسم بالله العظيم ثلاثاً أن لا يدخل معي في شركة بمال لا في هذه المرة ولا في غيرها، مصرّاً على أن المادة دائماً ما تفرّق بين الاخوة، وأنه يريد أن تبقى صداقتنا واخوتنا خالصة لوجه الله بعيدة عن كل ما يخدشها . وفي نفس الوقت الذي يرفض فيه المشاركة والربح المضمون حرصاً على الاخوة يضع كل إمكانياته المالية والمعنوية تحت تصرفي وبدون قيد أو شرط أو ارتباط، آخذ ما تحتاج إليه مشاريعي كاملاً .. بل كل ما أعتقد أني ساحتاج إليه .. متمنياً لي التوفيق .

وهكذا كان، وظل ذلك شأنه معي منذ ذلك الوقت وعلى مر السنين.. إنني والحمد لله أعتز بأني قدّمت للكثيرين مساعدات وقت ضيقهم وأسديت إلى الكثيرين خدمات وقضيت للمحتاجين حاجات . ولكني أقولها بكل اعتزاز وفخر ، إنني لم أفعل ولم أقدّم ما يمكن أن يقدّر بواحد من الألف مما قام به الرجل الكريم محمد سرور الصبان وما قدّمه للكثيرين وأنا من جملتهم . بل ولا أبالغ إذا قلت لا واحداً من الألف .. ولا واحداً من مائة ألف ..

بعد سنوات طويلة من معرفتي به، ألمّت بي ضائقة مالية، وسُدّت الأبواب في وجهي ، وضاقت بي الأرض بما رَحُبت. كنت في أشد الحاجة

إلى أي مبلغ من المال،وكانت لديّ قطعةأرض مساحتها ٥٠٠٠ مترمربع. وأبت عليّ نفسي أن ألجأ إلى الاقتراض أو أن أعرض وضعي على الاصدقاء وأنا أعلم أن معظمهم لا يملك أن يشتريها إذا عرضتها عليه مع رغبتهم الاكيدة جميعاً في مساعدتي . الاصدقاء لا يملكون . والاعداء سيشمتون وسيبخسون قيمتها . وكنت أعلم أن بقاءها في حوزتي أفضل بكثير من بيعها ولكن كانت حاجتي للمال أكثر من ضرورة . وكما قيل : « تباع الكحيلة بعشاء ليلة »[1] ! .. وقبل أن أعرض القطعة للبيع بأي سعر يُقَدَّم هداني الله إلى فكرة أحفظ بها كرامتي ..

قمت بتسجيل إهداء خطي لقطعة الارض إلى الشيخ محمد سرور الصبان . وتمنيت في نفسي أن يقبل الهدية ، واثقاً من أنه سيفهم الامر على حقيقته،مقدراً أنه لن يحوجني إلى طلب المال منه وأنه سيقدر قيمتها بالعدل ويدفعه لي فاقضي به حاجتي وأظل مستوراً أمام الناس . لقد كان دائماً يقول لي : « لا تخف يا أخي . المستور من الله لا يمكن أن ينكشف » . وكان الامر كما قدرت وقبل الرجل الكريم الهدية ثم كلف صالح باصلوح مدير البنك الاهلي وثلاثة آخرين معه بالكشف على القطعة وتقدير قيمتها وأوصاهم بان يتم ذلك دون أن يلاحظه أحد . وقاموا بالكشف وقدروا قيمتها بستين ألف ريال أرسلها لي الشيخ عداً ونقداً .. وقضيت حاجتي ولله الحمد .

وانتظرت أن يرسل الشيخ من يتسلم الارض ولكن أحداً لم يحضر . وبقيت أستعملها سبع سنوات دون أي مقابل.ولا أحد يعرف أنها أرضه

(١) مثل نجدي يستعمل لبيع الغالي عند الحاجة . والكحيلة اسم لنوع من الخيل العربية الأصيلة .

إلا الله ، وأولئك الاخوة المحيطين به الذين أوصاهم بكتمان الامر . وخلال هذه السنوات، وهو يؤجل استلام الارض عاماً بعد عام، كلفني ببناء بيت له في مدينة الرياض في « المعذر » ، تشجيعاً لي وقد بدأت أعمالي في مجال مقاولات البناء . وبدون اتفاق خطي بل وبدون سؤال عن التكاليف طلب مني التنفيذ. وبدأت العمل وكنت كلما احتجت مبلغاً على الحساب أمر محاسبه بصرفه على الفور دون سؤال .

وتم البناء وانتقل للسكن فيه ثم سالني عن التكاليف ، فقدمت بياناً كاملاً بما تكلفت وبما تسلمته من دفعات وبما تبقى لي .. وبعد اسبوعين إذا بمحاسبه محمد العناني يسلمني كشفاً من قِبَلِه بعد مراجعة الحساب لديهم . وعندما اطلعت على الكشف فوجئت بأن العناني قد أدرج مبلغ الستين ألف ريال التي استلمتها مقابل قطعة الارض منذ سبع سنوات ، على أنها دفعة من حساب تكاليف البناء !. وتعجبت من ذلك واعتبرته خطأ أو سهواً من العناني فاخذت الكشف إلى الشيخ محمد سرور قائلا له:

« العناني غلطان في أحد بنود كشف الحساب الذي أرسله إليّ » .

أجابني الشيخ : « وما هو البند » ؟..

قلت : « قيمة الأرض التي دفعتها لي منذ سبع سنوات . قيدها دفعة على حساب البناء !. فارجو أن تخبره بالأمر ليرفعها من الحساب . فقطعة الأرض ملكك رغم أنها لا زالت بحوزتي وأستعملها » .

فوجئت بالرجل الكريم يبتسم وهو يقول : « لا يا أخي ابراهيم . العناني ليس مخطئاً ، وما عمل إلا الصحيح »..!

واعترتني الدهشة . ولم أفهم الأمر ولا ماذا يقصد بعد،ورحت أتطلع إليه في صمت متسائل .. إلى أن أضاف قوله :

« الأرض مـا زالت أرضك يا ابراهيم . وستبقى أرضك . لو كانت قيمتها اليوم أقل من قيمتها يوم أهديتها لي منذ سبع سنوات ، لاستلمتها منك الآن. ولكن الأرض ارتفع ثمنها وتضاعفت قيمتها أضعافاً مضاعفة، لقد أصبح ثمنهـا اليوم أضعاف المبلغ الذي دفعته لك ، ولذلك لا اقبل أخذها . فأنا بغنى عنها وأولادي في غنى عنها، وأنت وأولادك أولى بها» ..

كنت أستمع إليه في ذهول . وأنا لا أكاد أصدق ما تسمعه أذناي .

هل في العالم كله من يمكن أن يفعل هذا ..!؟ قيمة الأرض أصبحت اليوم تزيد عن ثلاثمائة ألف ريال . وكل ما دفعـه فيها ستون ألف ريال . ويرفضها ؟؟!.

وقبل أن أعترض،إذا به يخرج من جيبه سند الاهداءوالتنازل الموقع مني منذ سبع سنوات ويقدمه لي ، ويطلب مـني أن أقرأه .. وقرأته . وسألني : هل هـذا هو السند ؟ وعندما أجبته بالايجاب قال : أعِده لي لأقرأه لك .. فناولته إياه وأنا لا زلت في ذهول من تصرفه . وقبل أن أنطق كلمة واحدة لأعترض وأصرّ على أن يستلم الأرض . إذ بـه يمزّق السند بسرعة وأمام عيني وهو يردد :

« أنت وأولادك أولى بالأرض يا ابراهيم » ..

.. ماذا أقول ؟ إنها أرضه . لقد دفع ثمنها لي منـذ سبع سنوات .

وقيمتها تضاعفت عشر مرات اليوم . وتركني أستعملها سبع سنوات .. ثم يعيدها إليّ اليوم ..

ليس في قدرتي أن أعبّر عـن مشاعري في تلك اللحظات .. مهما حاولت فلن أستطيع التعبير . وإني لأترك الأمر للقارىء ، راجياً أن أن يطيل التأمل في تفاصيل هذا الموقف الرائع ، ثم ليتساءل معي : هل هناك من يقف مثل موقف الشيخ محمد سرور معي ؟

ولا ريب أن الجواب سيكون بالايجاب.. فكرام الرجال موجودون في كل زمان وفي كل مكان ، ولكنهـا إرادة الله التي تيسّـر للمرء أسباب الاتصال بهم ومعرفتهم ، والتي تلهمهم بذل العون والعطاء .

*

الفصل السابع

من تجارب الحياة العملية
في الكويت والبحرين والعراق

في الكويت

تمهيد

عند الحديث عن بعض مواقف الملك عبد العزيز ، تحدثنا عن موقفه الحاسم عندما وقع تمرد داخلي في الكويت، كان مؤيداً من خارج الحدود.. من غازي ملك العراق آنذاك الذي كان يحلم بضم الكويت إلى العراق. لقد كان ذلك الموقف طبيعياً من الملك عبد العزيز رحمه الله وقد كان لآل الصباح جميل سابق ، عندما التجأ الامام عبد الرحمن آل سعود وأولاده ومنهم عبد العزيز إلى الكويت ، كما ذكرنا في من قبل .. وليس أفضل من الجميل إلا رده عند الحاجة بما هو أجمل ..

أذكر هنا حقيقة ثابتة يعترف بها كل عربي مخلص ، وهي أن آل الصباح ذوو فضل عظيم وأصحاب أيادٍ بيضاء على كل من اتصلت بينه وبينهم الصلات والعلاقات، ويزيد فضلهم عظمة أنهم لا يعلنون عما يفعلون ولا يمنون على أحد بما قدموا أو يقدمون له من عون ، بل ولا يحبون أن يعلن أحد عما ناله من عونهم أو جميلهم ..

هذه الحقيقة أذكرها ، وأؤكدها ، لا لكوني سعودياً يعرف أن آل

الصباح وقفوا بكل إمكاناتهم مع الأسرة السعودية في نضالها لا سيا في بداية انطلاقه ، ولا لأن السعودي يعتبر الكويت وطنه كما يعتبر الكويتي السعودية وطناً له ، ولا لكوني حظيت منهم بكل عطف وتأييد ودعم ، خلال إقامتي في الكويت ونشاطي التجاري الذي كاد في بدايته أن يكون محصوراً بين الكويت والمملكة ، لا لكل ذلك فحسب ، بل ولما هو معلوم للجميع ، من أن أفضالهم قد عمَّت الآلاف من الاخوة العرب على اختلاف جنسياتهم ، بل ولقد تعدَّت الأفراد إلى الأقطار والدول إنهم يسارعون إلى تقديم كل عون مادي أو معنوي لكل من يحتاجه . وكثيراً ما يقدمونه دون انتظار أن يتقدم بطلبه ..

وليس بكثير على آل الصباح أن يتصفوا اليوم بالكرم والمروءة . فآباؤهم وأجدادهم كانوا دائماً منبعاً غزيراً لهذه الخصال. وإذا كان مما اشتهروا به إكرام الضيف وهذا ما لمسته بنفسي ، وأنا لم أكن في الكويت إلا ضيفاً خفيفاً ، نلت من إكرامهم الكثير الكثير .. قال أحد الشعراء :

عظُم النَّدى ما قط يُصْرَى من النَّدى
ينْدي ولو هو بالمراح محيل

.. هكذا هم .. مَعين كرمهم وفضلهم لا ينضب . وهكذا الكويت ، كانت وما زالت ، « روضة نباتها ثمر .. بلا شوك » ..

*

أنتقل من هذا التمهيد إلى الحديث عن تجاربي العملية خلال سنوات نشاطي التجاري بين بلادي والكويت، وهو النشاط الذي بدأ كما ذكرت

في الفصل السادس ، عام ١٣٧٥ هـ ، عندما أقمت في الكويت ما يقارب الشهرين ، في أول سفرة لي خارج المملكة .

.. كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها ، واستتب الأمن وساد الهدوء جميع الأرجاء ، وكان طبيعياً أن يدبّ النشاط في الأسواق وأن تزداد الحركة التجارية .

ولقد راقبت هذا النشاط الاقتصادي بكل اهتمام وإعجاب ، خلال مدة إقامتي ، حيث توثقت الصلات بيني وبين حكامها وتجارها . فلمست مثابرتهم واعتمادهم على أنفسهم في تهيئة حياة رغيدة يتمتعون فيها بالرخاء وراحة النفس وحرية العمل . حتى تاقت نفسي إلى أن أحذو حذوهم ..

وعندما عدت إلى الرياض كانت الرغبة في ممارسة التجارة تتملكني، وكان أن استأذنت من الأمير محمد ، ووافق رحمه الله بعد أن ناقشني طويلاً ..

وكانت البداية التي تحدثت عنها من قبل .. وازدادت صلاتي بحكام الكويت وثوقاً وعلى رأسهم الشيخ أحمد الجابر حاكم الكويت آنذاك . والشيخ عبد الله السالم والشيخ فهد السالم مدير المالية رحمهم الله ، والشيخ صباح السالم ، أمير الكويت اليوم ، ومدير الشرطة آنذاك ، ولا أنسى مساعداته لتسهيل أموري، ومواقفه الخيّرة الهادفة لكل ما هو في صالحي. وبتوفيق من الله نلتُ ثقتهم الغالية ، حتى لقد كنت أتمتع بتسهيلات لا حصر لها من السلطات الكويتية ، فكانت سياراتي وشاحناتي العديدة صغيرة وكبيرة ، بكل ما تحمل من بضائع ، تتمتع بتسهيلات جمّة في الجمارك عند الدخول أو الخروج .. حتى لقد كانت معفاة من التفتيش ومن الرسوم .

ولقد أثارت هذه التسهيلات التي كنت أتمتع بها وتتمتع بها تجارتي الكثير من التعليقات.. حتى قال بعضهم: لو استغل ابن خميس تلك الفرصة لأصبح الآن من كبار الأغنياء.. ولعلهم كانوا يقصدون استغلال ما كنت أتمتع به من تسهيلات في تهريب ما يمكن تهريبه إلى الكويت، مما يجني منه المهربون عادة أرباحاً طائلة!.. ولكني.. (ولهذا كانت تساؤلهم).. أحمد الله أنه كانت لي من ثقتي ببركة الله في الربح الحلال ما عصمني عن ممارسة أي نوع من استغلال الثقة التي أولاني إياها المسؤولون في الكويت باللجوء إلى أي وسيلة من وسائل الربح غير المشروع..

إن الغنى غنى النفس وإن مقابلة الثقة بالمزيد من الاخلاص والحرص عليها والترفع عن استغلالها، خلق يجب أن يتحلى به الرجال الذين يأملون في توفيق الله ورزقه الحلال المبارك، ويأملون في الحفاظ على التقدير والاكرام والثقة التي أتيح لهم أن يحظوا بها.، وذلك كان شاني دائماً ولله الحمد.



لقد نمت تجارتي مع الكويت، وتعددت زياراتي لها، كما تعددت مشاريعي، وكان النجاح حليفي فيها، ونلت بفضل الله من الربح الحلال ما كنت أرجو وأكثر.. لقد كانت سنوات تجارتي مع الكويت سنوات حافلة بالنِّعم، والربح الوفير.. وأيضاً بالتجارب!.

من هذه التجارب ما ترك أثراً عميقاً في نفسي، وما أجد في تفاصيله ما يشجعني على تقديمه للقارىء، لكي يؤمن معي بأن الثقة في الله والثبات على المبدأ، والجرأة في الحق، لا بد وأن تؤدي كلها إلى تخطي الصعاب وتذليل العقبات والنجاح.

« وانتصر الحق على الباطل ، بفضل الله تعالى ، ثم بفضل الرجال الأشراف المدافعين عن الحق ، من آل صباح » ..

بهذه العبارات ، كان يجب أن أختتم قصة هذه التجربة التي مررت بها في الكويت . وليعذرني القارىء ، إذا قدمتها له بكل تفصيلاتها . فهذه التفصيلات وإن كانت لا تهمه في شيء ، إلا أنها جزء من التجربة ، ثم إن الكثيرين ممن عاصروا أحداث هذه التجربة ما زالوا أحياء يرزقون أرجو لهم طول العمر ، وقد يجدون في حذفي لبعض التفصيلات ما يعتقدونه تغييراً أو تبديلاً في حقائقها . وإني ، ولا زلت أذكر التجربة وكأنما حدثت بالأمس ، من شدة ما عانيت فيها من آلام نفسية ، ومن خطورة ما كان سيترتب عليها لو انتصر الباطل لا قدّر الله بالنسبة لمستقبلي وأعمالي كلها . آليت على نفسي أن أذكر الحقيقة كاملة . ولكني سأتجنب على قدر الإمكان ما قد يسيء إلى بعض الذين اشتركوا في صنع أحداثها، ويعتقدون اليوم أن ما حدث قد حدث وأسدلت عليه ستائر النسيان . ومع ذلك .. فسأذكر الحقائق دون مراعاة أو مجاملة لأحد .

ولعلّ القارىء يقدّر أثر هذه التجربة العميق في نفسي ، عندما يقرأ أبياتاً من الشعر قلتها بعد أن منّ الله عليّ بالفرج والنصر .. فمع أني لست شاعراً موهوباً ، إلا أن انفعالي الشديد وتأثري العميق، ترجمتها أفكاري إلى أبيات من الشعر ، أعبّر بها عن مشاعري .

ولنبدأ قصة التجربة الطويلة المثيرة.. وإنها لتصلح أن تكون رواية

مسرحية ، أو فيلماً سينمائياً . مع صعوبة واحدة هو أن من سيحاولون تمثيلها ، مهما حاولوا وأجادوا وأتقنوا فن التمثيل ، لن يؤدوها كما أدّاها أبطالها الحقيقيون على مسرح الحياة ..!

عام ١٩٤٢ ميلادية ، الموافق ١٣٦٢ هجرية ، وفي شهر شعبان منه ، كنت أتنقل بين الكويت والعراق متاجراً .

وباتصالي المتكرر بالمهتمين بنقل الحجاج إلى المملكة لأداء الفريضة كل عام ، اتفق الرأي على توقع موسم مزدهر جداً للحجاج ذلك العام . وأن العاملين في مجـــال نقل الحجاج من وإلى المملكة سيحققون أرباحاً طائلة بل وخيالية هذا الموسم ..

وقررت أن أشارك في عملية نقل الحجاج . دفعني إلى ذلك الطموح الدائم ، والرغبة في الربح الهائل والعاجل .. والمضمون .. وليس عيباً أن يكون المرء طموحاً ، يسعى إلى الربح .

وبواسطة الصديق عبدالله الشويش،اتفقت مع جماعة من أهل البصرة على تأسيس شركة لهذا الموسم، تكون باسمهم وبرأسمال قدره عشرون ألف دينار عراقي ، ندفعها مناصفة . وعلى أن يتولوا هم إدارة شؤون الاتفاق مع الحجاج ، وأتولى أنا الاتفاق مع السيارات مـن داخل السعودية لنقل الحجـاج ، مستغلاً خبرتي في السيارات وفي معرفة السائقين القادرين على تأمين نقل الحجاج بسلام وأمان من وإلى المملكة لخبرتهم بالطرق التي يجب سلوكها تحاشياً للمتاعب . وكان عليّ أن أؤمن المحروقات للسيارات،

وأن أتولى الاشراف عـلى أمور الحجاج داخل المملكة وتأمين حاجاتهم وراحتهم .

واتفقنا عـلى أن يقوموا بتحويل مبلغ العشرة آلاف دينار إلى الكويت بواسطة المرحوم عبـد العزيز النفيسي رحمه الله . وعدت إلى الرياض ، لأبدأ العمل ..

كانت أجور السيارات في المواسم السابقة ، وحتى بداية ذلك الموسم لا تتجاوز الـ ١٥ ألف روبية للسيارة . ولاقتناعي أن الموسم سيكون حافلاً استبقت الغير وعرضت إيجاراً للسيارة الواحدة ٢٥ ألف روبية ، واستأجرت ٥٣ سيارة ، دفعت مـن أجرتها عربوناً لكل منها ٥ آلاف روبية .. دفعت مـا يقارب ٢٦٥ ألف روبية أو مـا يعادلها بالريالات . بالاضافة إلى سياراتي الخاصة جميعاً .

بعد أيام قليلة، وصلني كتاب من شركائي بالبصرة،توقعت أن يكون خاصاً باتمام تحويلهم المبلغ المقرر عليهـم إلى الكويت . وكانت المفاجأة الصاعقة .. إنهم يعتذرون عن التحويل ، بل ويلغون الاتفاقية مـن أساسها !.

كان مأزقاً خطيراً . كل ما دفعته من (عرابين)، مهدّد بالضياع ، بل وسالتزم بدفع إيجار السيارات كاملاً إذا أصر أصحابها على ذلك . وأشار عليّ بعض أصدقائي بمقاضاة هؤلاء الشركاء الذين لم يحترموا اتفاقهـم الكتابي ، في الوقت الذي كان معظم الناس في أيامنـا تلك يتعاملون ويتفقون بكلمة يحترمونها وينفذونها مهما كان الأمر . ولكني، وأنا أدرى

الناس بما يسببه التقاضي من خصومات ، ومن جهد ، ومن وقت ، آثرت أن أتركهم وشأنهم .. معتمداً على الله عز وجل في إنقاذي من هـــذه الورطة ..

وأسرعت أسافر إلى الكويت ، أعرض وضعي على صديقي عبدالعزيز النفيسي ، الذي فوجىء بموقف الشركاء العراقيين .. ووقف الرجل معي وقفة الرجال . شجعني . وطمانني . ثم قام بفتح حساب جار لي في البنك البريطاني بأي مبلغ أطلبه ، دون مقابل . مصمماً على ألا أدع هذه الفرصة تفوت .

وليس هنا مجال الشكر .. ولكني أترك للقارىء تقدير موقف هذا الرجل الكبير الكريم .. وعند الشدائد تعرف الرجال .

★

توكلت على الله ، وكلفت الأخ يوسف النفيسي أخا عبد العزيز أن يجعل من مكتبه مكاناً يدير هو بنفسه منه ترتيب العقود مـع الحجاج ، لقاء عمولة إثنان ونصف بالمئة . بالاضافة إلى ما قد يتكلفه من تكاليف أخرى .

وأقبل الحجاج من إيران على نطاق واسع ، وتم الاتفاق مع ٢٨٠ حاجاً منهم ، مقابل ٢٨٠٠ روبية ، كنفقات الحج ذهاباً وإياباً شاملة جميع الرسوم الحكومية داخل المملكة ..

وبعد أن رأى بقية الحجاج سياراتنا الممتازة على غيرها في ذلك الوقت ، اعتمد عدد كبير منهـــم أن يتفقوا معنا .. وكان واضحاً أن عدد من

سيتعاقدون معنا سيرتفع كثيراً . وحمدنا الله على تلك البداية الموفقة .

★

ولكن نشاطي هـذا ، وإقبال الحجاج لم يكن بطبيعة الحال بالأمر المرحّـب به من قِبَـل شركة منافسة ، كانت تعمل عـلى نطاق واسع ، أسّـسها المدعو عبد الرزاق الشامي ،والمتجنس بالجنسية السعودية ،بالاتفاق مع الوكيل التجاري السعودي آنذاك عبد اللهالقاضي. وأدرك الشامي أن استمراري بالعمل سيؤثر دون شك على أرباح شركته التي كانت تحتكر تقريباً نقل الحجاج .. وقرر الشامي أن يدافع عن حقّـه في الاحتكار .. فتوجه لزيارة صديقي وموّلي ، عبد العزيز النفيسي ذات مساء ، وبجعبته ثلاثون ألف روبية ، إكرامية لعبد العزيز ، عارضاً أحد أمرين ، إما أن أنضم إليه كشريك ، لأن شركته أكبر بكثير ، أو أبيعه الحجاج ، وأحيل ما استأجرته مـــن سيارات عليه . ورفض النفيسي الرشوة المعروضة كإكرامية . وطمأنه أنه سيحاول معي كوسيط خير ..

وعرض عليّ النفيسي الأمر . وكنت أسمع عن الشامي كثيراً .. ولذلك رفضت العرضين حتى لا يكون لي به أي اتصال ، ولكن النفيسي وكان أيضاً يسمع عن الرجل ، اجتهد في إقناعي بان أبيـع الحجاج والسيارات المستأجرة بربح مرضٍ ، لأستريح من المنافسة وما قد يترتب عليها من قِبَـل مثل هذا الرجل .. ووافقت بشرط أن تبقى السيارات والحجاج الذين اتفقت معهم تحت إشرافي حتى أعيدهم إلى الكويت بعد الحج .. ووافق الشامي . ووضع مبلغاً بسيطاً من المال عند النفيسي كعربون

للاتفاق . ووعد أن يدفع كل المبلغ المتبقي خلال أسبوع واحد.. والتزمت بالاتفاق . وجمّدت نشاطي ..

ومضى الأسبوع ولم يحضر الشامي لدفع بقية المبلغ . ثم علمت أنه يحرّض عليّ أصحاب السيارات التي سبق وأن استأجرتها . وأنه يغريهم بدفع خمسين ألفاً لكل سيارة إذا فسخوا اتفاقهم معي .. وجاءني أصحاب السيارات يطالبون بفسخ الانفـــاق .. ولكنني ، وهم من أبناء وطني ، ويعرفوني وأعرفهم ، تمكنت من تهدئتهم وإقناعهم بقبول ٥ آلاف روبية زيادة لكل سيارة عن اتفاقي السابق .

إذن فالشامي لم يقصد من اتفاقنا إلا إضاعة الفرصة عليّ .. وأسرعت أتصل به وأطالبه ببقية المبلغ فوراً ، أو بوثيقة خطية يتعهد فيها بالمبلغ ويسجل فيها نص الاتفاق. وحاول التملص ولكني صمّمت .. واصطحبته إلى مكتب النفيسي . وكتب على نفسه تعهداً بان يدفع المبلغ قبل غروب شمس اليوم التالي ، أو يقدم به كفالة مصرفية ، وإلا كان اتفاقنا السابق لاغياً .. ووقعنا على الوثيقة ، ووقع شاهدان آخران .. وعلى ما أظن ، كان الشامي يعتقد ان ذلك التعهد لا قيمة له ولا نتيجة !

وحان الموعد ولم يدفع الرجل ، بل ولم يحضر . ومضت بضعة أيام وسند التعهد في حوزتي . ولم تبدُ منـــه أية إشارة إلى أنه ينوي الدفع . فتوكلت على الله ،وعدت أفتح المكتب،لأكمل حمولة سياراتي المستأجرة والخاصة .

وكان ما توقعته قبل الموسم. ازداد عدد الحجاج زيادة كبيرة وارتفعت

النفقات المتفق عليها مع الحاج إلى ٣٥٠٠ روبية ، وازداد إيجـار السيارة إلى ٥٠ ألفاً. ولم يتصل بي الشامي . ولكني علمت أنـه يتصل بكل كبار المسؤولين والأعيان والبارزين في الكويت ، ليؤلبهم ضدّي ، ويستعديهم عليّ بمختلف طرق الدس والوقيعة .. ولثقـــتي في نفسي ، وفي هؤلاء المسؤولين والأعيان لم أُعِر الأمر أهمية في بدايته ..

وفي زيارة ليوسف الغانم في مكتبه ، التقيت بعبدالله القاضي الوكيل التجاري هناك .. وإذ بالقاضي ، يفزّ في وجهـي ثائراً قائلاً : « الشامي سيخرق عيونك يا ابراهيم الخميس » . وأجبته : « بالحق تخرق العين، أما بالباطل فلا . ولا الشامي ولا أنت من ورائه » ..

وغادر القاضي المكتب ثائراً يهدد ويتوعد.. وبقيت مع يوسف الغانم الذي أفهمني أن الأمر أكبر مما أتصور . وأن كل أعيان الكويت والعديد من رجال الحـــكم فيها ، غاضبون عليّ من تصرفات نسبها إليّ الشامي، وأنه هو ايضاً ـ الغانم ـ وإخوته ، يشاركونهم هذا الغضب. ولكنهليس بمقتنع بصحة الأقوال والاتهامات ، إذ كان كلما راجع دفاتره ومعاملاتي معه ، وصِدقها ، واستقامتها ، استبعد ما سمعه عني .. وطلب مني أن اوضح له الأمر . فإمـا اقتنع بموقفي ، ونصرني بكل إمكانياته ، وإما صدّق اقوال الشامي ، ويصبح خصماً لي .

وشكرت الرجل على موقفه وثقته ورغبته في اظهار الحق.وطلبت منه أولاً أن يقسم لي يميناً بالله ألا يخبر أحداً بما ساطلعه عليه من حقائق ففعل . وعندها أبرزت له السند الموقع مـن الشامي . وكانت مفاجأته

به شديدة . وبعد ان قرأه مراراً وتفهم الأمر ، قال : « انا الذي اطلب منك الآن اليمين ان لا تطلع على هذا السند أحداً إلا القضاة ، إذا وصل الأمر إلى القضاء ».

وتابعت عملي ، وازداد إقبال الحج عليّ ، واستكملت حمولة سياراتى. وازداد حقد الشامي ، وسعيه بالسوء لدى الحكام ، حتى استطاع ان يثير ثائرة الحاكم آنذاك ، الشيخ احمد الصباح رحمه الله ، والشيخ عبد الله المبارك مدير الأمن العام آنذاك ، ويوسف البهبهاني ، وغيرهم .. وكان يساعده في حملته وسعيه« القاضي » الوكيل التجاري . ولم يحاول احد منهم جميعاً أن يتصل بي لبحث الأمر . .مقتنعين بأقوال الشامى واتهاماته!

وحان الموعد المحدد من قبل المملكة ، لسير الحجاج ، إلى السعودية.. وإذ بمدير الامن العام ، الشيخ عبد الله المبـــارك ، يتصل بعبد العزيز النفيسي ، طالباً منه أن يحضر الى الدائرة وأنا معه ، بعد صلاة المغرب..

ووجدنا صالونه مليئاً بالشخصيات الكويتية البـارزة ، والشامي يجلس بينهم .. وجلست أمام مكتب الشيخ ..

بعد المجاملات المعتادة .. قال الشيخ عبد الله : يا إبراهيم. الشامي لم يشتكِ عليك عند الشيخ أحمد شكوى رسمية ، وانما شكوى خاصة ، وقد كلفني الشيخ أحمد أن أجمع هؤلاء الرجال ، للفصل بينكما ، أما النفيسي فقد دعوناه ليدلي بما عنده في هذا الشان ..

أدركت أن القضية إذا أثيرت في هذا الجمع وأمـــام هذا الحشد ، فسيضيع حقي أمام المجاملات .. وربما أحرجت .. ولم أستطع إظهار

الحقيقة كاملة ، فأجبت : ان النفيسي لا دخل له بالأمر .. والأمر يخصني أنا وحدي . وما على الشيخ عبد الله المبارك إلا أن يسأل وأنا أجيب ..

وكان ردّي هذا سبباً في إظهار الغضب الذي كان يكتمه الشيخ عبد الله . وما كان منه إلا أن رد بكلمات جافة فيها من الاهانة الواضحة الشيء الكثير ..

وسنحت لي الفرصة ، فقلت له : إذن لا بحث في هذا الموضوع الآن. ولديك في الكويت محكمتان . المحكمة التجارية ومحكمة الشريعة الاسلامية. وأنا أرضى بحكم أي منهما ولو كان بقطع يدي .. وإن يداً تقطع بالحق لا يقال لها عائبة ..

وأصر عـــلى بحث الأمر وصممت على الرفض ، وانفضت الجلسة وهو بالغ التأثر والثورة ،ليتوجه بسيارته إلى الشيخ أحمد ، يبلغه بالأمر ، والله أعلم كيف أبلغه ، وأعلم بما تحامل عليّ به عنده .. مما جعل الشيخ أحمد يغضب عليّ ..

ولما كنت أحرص دائماً على الحفاظ على ثقة المسؤولين ، فقد قررت أن أذهب إلى الشيخ أحمد في الصباح ، وأن أطلعه على حقيقة الأمر ..

وتوكلت على الله .. وتوجهت في الصباح إلى القصر .. حاملاً جميع مستنداتي وأوراقي والتراماتي ، الخاصة بالموضوع . وإذ بي التقي بعبدالله القاضي على باب صالون الشيخ ، ووجهه محتقن بالغضب ، وتأكدت انه لا بـــد وأن يكون قد تحدث إلى الشيخ بما يزيد من غضبه عليّ ..

ودخلت على الشيخ وسلّمت . والشيخ يشيح بوجهه عني من فرط غضبه عليّ ..

وجلست.. ولكني لم أجلس على الكرسي، بل على الأرض. وطلب مني الشيخ أن أقوم لأجلس على الكرسي ، فأجبت : لن أقوم من مكاني إلا بعد أن تطلّع على ما لديّ ..وبعدها. إما أن تجلسني على الكرسي برضاك.. وإما أن ترسل بي الى السجن ..

وانطلق الشيخ رحمه الله ، يتحدث في شدة بالغة ، ويسردُ أقوالاً أبلغت اليه عن لساني ، واتهامات أُبلغت اليه في حقي .. وأنا صامت حتى انتهى .. وطلبت الاذن بالكلام فأذن .. وبدأت أوضح له موقفي.. وعدم صحة ما نسب إليّ من أقوال واتهامات ..

أوضحت له الأمور ثم قلت: « (اللهم أجرني من الضيم وقهر الرجال).. أما عن جلسة الأمس ،فقد كان تصرفي خشية من ظلم الشيخ عبد الله المبارك الذي أراد أن يرغمني على ما ليس باستطاعتي . أما الآن . فان أمري واضح .وانني أعتبر أولياء أمري بعد الله اثنين لا ثالث لهما ، عبدالعزيز ابن عبدالرحمن في الرياض . وأحمد الجابر الصباح في الكويت . فتفضل يا سيدي هذا الملف . وأعطني به إيصالاً على أساس انك المسؤول الأول والأخير عن حقوق الحجاج وأصحاب السيارات عليّ .. ولك أن تسلمها إلى من تريد على مسؤوليتك . ان كان الشامي أو غيره .. وأنا لا يهمني من الأمر كله إلا حفظ الحقوق والوفاء بالتزاماتي ».. وتغير الموقف .. وإذ بالشيخ أحمد يتوجه إلى الحاضرين ويقول: «لقد سمعتم ما قاله عبدالله

قاضي . والآن سمعتم أقوال إبراهيم . فما رأيكم في القولين » ؟..

وأجاب الحاضرون جميعاً .. إن الحق معي .. وأن أقوال القاضي بعيدة عن الواقع ..

وطلب مني الشيخ أحمد رحمه الله أن أقوم ، وأجلسني على الكرسي بجانبه . واتصل بعبد الله المبارك في التليفون ، ليطلب منه أن يتركني وشاني وألا يعترض سبيلي،وليقول أنني في كفالته إذا كان عليّ أي حق . وعارض عبد الله المبارك .. وقال إن الشامي سيتقدم بدعوى رسمية على ابراهيم .. وأجابه الشيخ « إن ابراهيم مستعد للدعوى ، ولكن الوقت ضيق ». وأعاد طلبه في عدم اعتراض سبيلي .. وشكرته وانصرفت ، للتحضير للسفر مع الحجاج .

وما أن وصلت إلى مكتب النفيسي ، حتى وجدت الشيخ عبد الله يتصل به طالباً منه أن يحضرني اليه ، لأن الشامي قد تقدم بدعوى رسمية .. وأجابه النفيسي أن الوقت ضيق ، وقافلة الحجاج لا بد أن تسير . وأنه يكفل أن أعود بعد الحج .. وأصر الشيخ عبد الله قائلاً ان المحاكمة لن تستغرق أكثر من ساعة واحدة !

وكان واضحاً أن المقصود هو تعطيل سفر الحجاج . وفي ذلك ما فيه من الحاق الأضرار الجسيمة بي ..

وتوجهت اليه وسلمت فلم يرد السلام ! وأرسلني مع أحدهم إلى المحكمة.

وكان نبأ استدعائي للمحاكمة قد انتشر في البلد.. وإذ بالجماهير تتجمع في المحكمة وفي ساحتها .

وكان رئيس المحكمة الشيخ عبد الله آل جابر .. وتقــدم الشامي بادعائه ، ومضى يتكلم أكثر من ربع ساعة ، ولم أعترضه بكلمة واحدة .

ثم سالني الرئيس عن أقوالي .. فقلت : لا شيء .. اللهم إلا ما في هذا السند . فإن كان لي حق كان بها . وإن لم يكن فأنا راض بما تحكمون .

وتناول أحد القضاة السند من يدي .. وقبل أن يقرأه ، وجه سؤالاً للشامي: هل يوافق على ما في هذا السند أم لا ؟. فأجاب بالموافقة ، وكرر عليه القاضي السؤال ثلاث مرات متتالية وهو يجيب بالايجاب في كل مرة.. وأدركت إنها العناية الإلهية .

وقرىء السند بصوت عال ، وكان مفاجأة للجميع . وما كان من القضاة إلا أن سألوا الشامي : « كيف أوهمت الجميع بأنك صاحب حق وأنت كاتب هذا السند بيدك .؟ حسبك الله ». وكتبوا الحكم ببراءة ذمتي في الحال ..

وهلل الناس في المحكمة وساحتها .. مكبرين ، مرددين : إن ينصركم الله فلا غالب لكم ..

إلى هنا ، وكان يجب أن تنتهي القصة .. كما يعتقــد القارىء ، وكما اعتقد الناس ، وكما كنت أنا أعتقد ساعتها ..

ولكنها لم تنته بعد !

★

كان النظام السعودي الخاص بنقل الحجاج في ذلك الوقت ، يحتم أن يكون بالقافلة سيارة احتياطية مقابل ٥ سيارات للحجاج.

وفي الحقيقة ، ورغم أن النظام لم يكن يطبق . كنتُ محتاطاً للأمر ، إذ أن أمر التصريح بالسير كان بيد عبد الله القاضي، وجهزت ٥ سيارات احتياطية ، وكنت أراقب القوافل السائرة التي سمح لها عبد الله بالسفر واطمأنت نفسي عندما مشت قافلتان للشامي كل واحدة ١٠٠ سيارة ، وقافلة لابن رشود ، وأعطاها الاذن بالسفر ، ولم يكن مـــع القوافل الثلاث سيارة احتياطية واحدة !

وفي الصباح والحجاج في السيارات ، تقدمت إلى عبد الله بمستنداتي ، لأخذ رخصة بالخروج .. وتصفحها ، ثم قال ، إن ٥ سيارات احتياطية لا تكفي .. لا بد من ٥ سيارات أُخرى. حسب القانون !.. وكان معاونه محمد بن ضاوي يتابع الأمر ، فرجوته أن يتدخل .. وحاول إقناعه .. ولكن عبد الله أصر .. وقال بصوت عالٍ سمعه الكل : « كل الناس أمشيهم على كيفي ، إلا ابراهيم بن خميس ساطبق عليه النظام غصباً عنك وعنه »!

وسيطر الغضب عليّ .. ولم أتمالك نفسي ، وما كان مني إلا أن قذفت عبد الله بالمستندات في صدره وشتمته .. وتركت المكتب ..

ونشب عراك بالأيدي بينه وبين ابن ضاوي وتجمعت حولهما الناس..

لم يكن بين الكويت والسعودية اتصال برقي .. فاعتمدت التوجه إلى مركز الحدود في « القرية » .. للابراق إلى الملك عبدالعزيز استنجد به..

وفيما كنت أجهز السيارة إذ بالنفيسي وقد أرسل رسولاً بسيارتـه ليبرق إلى عبد العزيز .. مستنجداً .

وإذ بعبد الله القاضي ، وقد أرسل بدوره رسولاً بسيارة .. ليبرق إلى عبد العزيز بما حدث ..

وإذ بحمد بن ضاوي يرسل رسولاً بسيارة ليبرق إلى عبد العزيز موضحاً ما حدث ! وعندما رأيت هؤلاء جميعاً يسرعون ليبرق كل منهم بما يريد رأيت أن لا حاجة لي إلى الذهاب والابراق !..

يقول المثل : « خصام الاثنين بخت الثالث » .. وقد أصبح الخصام بين ثلاثة .

وأخذت أفكر في مخرج .. حتى لا يقوم الحجاج بضجة حولي .. أو ينفرط عقدهم .. ولا أعلم ماذا سيكون جواب البرقيات .

وتذكرت المثل: إذا كنت في مأزق فالعب على الرجال بتقبيل لحاهم.

قصدت يوسف الغانم أرجوه أن يصلح بيني وبين القاضي . وتمكن من اقناعه بالاكتفاء بثلاث سيارات ، لوري واثنتين صغيرتين .. ولكن أين السيارات في ذلك اليوم وموسم الحج قد بدأ .. اشتريت سيارة من الغانم ، شفرليه قديمة بدون دواليب ثمنها ١٢٥ الف روبية وجهزتها ، واشتريت سيارتي فورد صغيرة بمبلغ ٦٠ الف روبية . وعدت في صباح اليوم التالي إلى عبد الله ، وأعطاني الرخصة .

لم يبق إلا الشيخ عبدالله المبارك. .فتوجهت اليه للتأشير على الرخصة وبعد اطلاعه عليها أحالني على معاونه العراقي ، الذي أخذ يقلب ويعيد التقليب .. ثم ترك الأوراق وتهامس مع الشيخ عبد الله المبارك وعاد إليّ يقول ، لا بد من أن تحضر سيارتين أخريين !.

ولم يكن ذلك من اختصاص الشيخ المبارك.. ولكنه أصر .. وقال : « إن « الدروازة » ـ يعني نقطة الجمارك ـ تحت سلطتي ، ولن أسمح لك إلا إذا أحضرت السيارتين » . وعدت إلى القاضي ، وأخبرته بما حدث ، وأضفت : انني ساشتري السيارتين ولو بنصف مليون روبية . ولكنك ستتحمل مسؤولية ذلك وستدفع ثمنها من جيبك الخاص ..

وأسرع القاضي يرسل ابنه بكر ، ليرجو الشيخ المبارك .. ولكن الشيخ المبارك كان قد ترك مكتبه .. بل وترك المدينة ! وظللنا نلاحقه أنا وابن القاضي ولا نجده ، حتى عاد بعد غروب الشمس إلى الدائرة ، وكلمه ابن القاضي برأي أبيه ، فاعطاني الفسح .

بعد أن استلمت الفسح بيدي طلبت منه أن يعطيني فسحاً آخر ببضائعي الموجودة في الجمرك .

فقال : إنك لن تخرج في هذا الليل ، لأنني سوف افتش سياراتك بنفسي في الصباح . وأصر على ذلك . مجرد رغبة في تعطيلي . وانصرفت وأنا أكاد أشق غيظاً . لم أكن خائفاً من التفتيش ، ولكن كان همي أمر الحجاج الذين حجزوا يومين عن السفر ولا يعرفون مصيرهم .



ذهبت وبصحبتي يوسف النفيسي إلى الدروازة، لنرجو مدير الجمرك ان يسمح لنا ولو باخراج سيارة واحدة ، حتى يطمئن الحجاج أنهم سيخرجون في الصباح .

وكان المدير مرزوق الطحيح. وإذ به يفاجئنا بقوله: إن كل السيارات ستخرج الآن !.

وعندما شاهد ذهولنا أضاف : إن لديه أمراً من الشيخ أحمد الجابر الصباح ، ومن الشيخ فهد السالم ، أن تخرج سياراتك في أي وقت تشاء ..

واقترح أن نتعشى معاً. وبعد العشاء ،نحضر « فانوساً » لفحص أرقام السيارات فقط . ثم أضاف : ومسموح لك بتحميل ما تشاء من الكويت. وبامكانك استلام البضاعة الموجودة لك في الجمارك ..

أسرعنا وأبلغنا الحجاج أنهم سيخرجون بعد ساعة أو ساعتين .. وتعشينا ، وعدنا . وخرجت السيارات كاملة الحمولة ..

وانشرحت صدورنا للعمل من جديد فعدنا إلى المكتب .. واتفقنا مع حجاج جدد ، لم يكونوا يجدون وسيلة للحج . أخذنا ثلاثين حاجاً جديداً، بحوالي مائة وعشرين ألف روبية،وأركبناهم السيارات الاحتياط التي اشتريتها مؤخراً ..

وخرجنا من الدروازة ، وعندما أصبحنا على مسافة ٢٠٠ متر منها ، قررنا المبيت .. وقد فك أسرنا من الكويت !.

وفي الصباح .. جاء الشيخ عبد الله المبارك ، طبعاً لتفتيشي بنفسه قبل الخروج !.

ورأيته عن بُعد ، وقد دهش لوجود هذا المخيم الكبير ، والقافلة الكبيرة خارج الدروازة . ولم يدر بخلده أبداً أنها قافلتي ، بل ظن انها

قافلة آتية من العراق . واقترب من المكان . وأخذ يدور حول القافلة بسيارته لعله يتبين أمرها . إلى أن أدرك مكاننا ونحـن جلوس نحتسي القهوة ..

ولعل القارىء يدرك هول المفاجأة عليه عندما رآني ، وسمعني أحييه بصوت عال : صبحك الله بالخير .

وانصرف إلى الدروازة غاضباً ، ليصفي حسابه مع الطحيح ، الذي لا بد وأن أبلغه بالأمر الصادر من الشيخ أحمد .

وسرنا .. وما ان وصلنا إلى القريّة ، وإذ بالملك عبد العزيز ، وقد أرسل بعثة برئاسة عبـــد الله السعد ، متوجهين إلى الكويت ، للعودة بعبد الله القاضي ومحمد بن ضاوي إلى الرياض. حيث أودعا سجن المصمك.

وصلت مكة المكرمة . وتقدمت إلى الملك عبد العزيز للسلام والشكر . وإذ به يسألني : « عسى ما تأخرت سياراتك في الطريق ؟ لأن جميـــع القوافـل الأخرى توقفت في الطريق وكلفت الحكومة السعودية جهـداً كبيراً بالغاً بالاسعافات » ..

قلت : لا يا طويل العمر .. آخر سيارة في القافلة هي سيارتي التي تقف الآن بباب القصر .

وعاد رحمه الله يسألني : هل خسرت شيئاً من مالك ؟ وعندما أجبت بالنفي ، أضاف الملك : « تأكد إن كنتَ خسرت شيئاً فعبد الله القاضي في السجن بالرياض وكل ما خسرته من جراء تصرفه سنؤمنه لك من ماله الخاص » .

وشكرت للملك عطفه .. وكرمه .. واهتمامه.. واكتفيت بما منحني الله من ربح مادي ومعنوي .

وانتهى الموسم بفضل الله . وعدت بسياراتي كلها إلى الكويت.

واستقبلني الشيخ أحمد الجابر الصباح .. يشكرني ويقدّر موقفي.. وهو الجدير بالشكر والعرفان .. وكان قد تكشفت له امور كثيرة عن الشامي وأعماله وتصرفاته .

.. إذن، فلقد كشف أمر الشامي . وسيق القاضي إلى السجن بالرياض.

.. وماذا عن موقف الشيخ عبد الله المبارك ؟. عندما قمت بزيارته كواجب عليّ نحوه ، كما هو شأني مع الجميع كلما ذهبت إلى الكويت ، رأيته يقابلني بترحـــاب بالغ .. وبابتسامة وشوق .. وكانه لم يكن بيننا شيء قبل تلك اللحظة .. ثم أبدى لي مشكوراً أسفه لما حدث نتيجة سعي بعضهم بالوقيعة والدس . وقد تفهم حقيقة الأمور . وزالت هـذه السحابة العابرة من سماء علاقتي به. وقد قام بزيارتي بعدها بسنوات في مكتبي ببيروت ، حيث رحبت به كما يجب. ولم يعد بيننا إلا كل خير وصفاء .

*

نادرة في الكويت

كما أن للانسان العديد من التجارب المرّة في الحياة .. فإن له كثيراً من التجارب المرحة ، التي لا يزال تذكرها يجلب السرور والبهجة إلى نفسه . وإن هذه النوادر لكثيرة . ولكني لا أرى في تسجيلها كلها فائدة للقارىء. وإن كان في تسجيل بعضها ما يخفف عناء الحديث عن التجارب الجادّة والمرّة ، وما يشيع في النفس بهجة وانتعاشاً .

كنت في الكويت عام ١٩٤٧ . بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية . في رحلة تجارية أبتغي عقد صفقة أو صفقات مربحـــة . وأتاني صباح يوم وسيط يهمس في أذني وأنا بين أصدقائي ، بنبأ صفقة لا باس بها .. كان أحدهم قد أدخل إلى الكويت ما يقارب ١٥٠ دولاباً من الكاوتشوك ولم يتمكن من بيعها ، أو نقلها إلى السعودية ، ولذلك كان يريـــد بيعها في الكويت بربح معقول . وهمس الوسيط في أذني برغبة الرجل في مقابلتي لعقد الصفقة في المساء وعيّـن لي المكان، وانصرف .

وسألني الأصدقاء عن الأمر . وحاولوا معرفة مـــا دار بيني وبين الوسيط . ولكني ، وهذا شأني دائماً ، كنت حريصاً على الكتمان .. وإني لأتمسك دائمًا بالحديث الشريف « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » . وظل الأصدقاء يحاولون بشتى الطرق حملي على الحديث عن الصفقة ، فلم يتمكنوا . ولكنهم استنتجوا أن لديّ موعداً هاماً في المساء .

ونكاية بي .. ورداً على امتناعي عن إخبارهم بالأمر .. اتفقوا سراً فيما بينهم على تدبيرٍ يضيّعون به هذا الموعد عليّ .

اقترح أحدهم ، وهو الأخ عبد العزيز النفيسي ، أن نلبي دعوة أخيه سعود بن عبـد الله النفيسي ، الذي كان مريضـاً ، وممنوعاً مـن مزاولة أي عمل ، ونقضي فترة مـن الراحة في مخيم في « الفنطاس » على شاطىء البحر ، على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً من الكويت ، وأصر عبد العزيز ، وشاركه ابن عمه صالح النفيسي ، أن نذهب للغداء عنده .. وأضافوا أن الغداء معدّ من ليل الأمس، وأن الرجل ينتظرنا بفروغ الصبر. وحاولت

كثيراً أن أتهرب من الذهاب معهم ، ولكنهم أقنعوني بأننا سنعود بعد صلاة العصر مباشرة . فاطمأنت نفسي إلى أني سأدرك موعدي في المساء. ووافقت ، وركبنا السيارة، وكنا خمسة أشخاص ، وكانت جلستي مع عبد العزيز بجانب السائق في المقعد الأمامي .

بعد أن قطعنا حوالى الكيلومترات الثلاث. انطلقوا جميعاً ضاحكين، وهم يقولون « جابك الجلاّب » .. « والله لن نعود إلى الكويت إلا غداً صباحاً ». وأدركت « المقلب »، وتظاهرت بالرضوخ لرغبتهم والاستسلام لتدبيرهم . وانطلقت أشاركهم الضحك والمزاح . وفجاة أسرعت أمد يدي إلى مفتاح السيارة أقفلها وأنتزعه من مكانه . وانتظرت إلى أن وقفت السيارة ونزلت . ثم أعطيتهم المفتاح ، وأخبرتهم أني ساعود ماشياً إلى الكويت . وأسرعوا جميعاً ينزلون ، ويسترضونني ، ويؤكدون أنهم ما قصدوا سوءاً أبداً . وأنهم كانوا يمزحون ، وأنه لا يعقل أن يبقوا في « الفنطاس » بعيداً عن أعمالهم يوماً كاملاً ويؤكدون لي أننا سنعود بعد الغداء مباشرة إلى الكويت . واقتنعت .. وعدت إلى السيارة .. التي انطلقت بنا .

ووصلنا إلى المخيم ، وكان فوق تلةٍ صغيرة من الرمال ، اضطرت السيارة إلى الوقوف بعيداً عنها حوالي ٣٠ متراً ، وانتظرنا الغداء ، وقد علمت فيما بعد أنهم أوصوا أخاهم سعود ورفاقه بأن يبطئوا في إعداده قدر إمكانهم ليكون عشاء بدلاً من الغداء . ثم اقترحوا ، أن نقطع الوقت في السباحة ريثما ينتهي إعداد الغداء. ونزلنا، وتركنا ثيابنا على الشاطىء.

واذ باحدهم على الشاطىء يسرع فيخفي ثيابي ، ويعـــود الى الخيمة ، تاركين الرفاق أيضاً معي في الماء،والناس على الشاطىء كثير.ولا نستطيع الخروج من الماء الى الخيمة عراة أمام الجميع ، وهم يضحكون ويصفقون في مرح عن بعد ــ وقـد اعتقدوا أنني شربت المقلب . وبقينا في الماء حتى قاربت الشمس على المغيب فأحضروا الثياب ولبسنا وعدنا الى الخيمة!

وكنت أفكر طيلة الوقت في وسيلة أكيل لهم بها الصاع صاعين .. وقررت أن أحاول الوصول سراً إلى السيارة ، وتمنيت أن يكون السائق قد غفل عن أخذ مفتاحها معه . وأن أنطلق بهـا بمفردي إلى الكويت . ولكنهم كانوا حولي دائماً ولم أستطع الابتعاد عنهم خطوة واحدة. وأخيراً حانت الفرصة .

فقد حان وقت صلاة المغرب . واصطفّـوا للصلاة، ووقفت في وسط الصف ، ولم أنوِ الصلاة . وعندما سجدوا .. وكان صالح النفيسي بجانبي، همست في أذنه « أرجو أن لا تنسى أن تأتيني بجذائي ومشلحي معك غداً إلى الكويت » .. وانطلقت بأقصى سرعتي نحو السيارة . وإذ بهم جميعاً يقطعون الصلاة ، ويجرون خلفي ، لكنني وصلت إلى السيارة،ووجدت بها المفتاح ، وأدرتها ، وانطلقت بها بأقصى سرعتها وهم يصيحون .

ووصلت إلى الكويت ، قبـل الموعد المحدد بدقائق ، وتمت الصفقة بحمد الله . وقضيت الليلة في الكويت وعدت إليهم صباحاً .. وعدنا معاً ونحن لا نكف عن الضحك والمزاح . وشحنت الدواليب في سيارتي إلى الرياض وربحت فيها ما حمدت الله عليه .

حتى هذه النادرة ، يمكن أن يتعلم المرء منها دروساً . درس الاستعانة بالكتمان على قضاء الحوائج . ودرس عـــدم الغفلة بترك مفتاح السيارة داخلها . وأن المهارة في قيادة السيارات تفيد في المـآزق . وأن سرعة الخاطر وانتهاز الفرصة السانحة لأمور ضرورية .

★

نادرة في الرياض

وهذه نادرة قد تكون من باب توارد الخواطر ، أو بالاشتراك في نوع واحد من التفكير في نفس الوقت .

كنا في الرياض .. وكان لي صديق هو الأخ سعود بن هذلول ، أمير القصيم في السابق ، وكان قد عمّـر بيتاً جديداً من الطين ، ذو صالون كبير . وابتهاجاً بصالونه الكبير دعاني ومجموعة من الأصدقاء للعشاء عنده. ووجدناه قد اشترى ٤ فوانيس كبيرة جديدة معلقة في أركان الصالون ، وأعجبتني الفوانيس وفكرت في الحصول عـلى واحدة منها . بدلاً من فانوس قديم بالٍ وغير صالح كان عندي . فاقترحت عليه أن صالونه يحتاج في وسطه إلى فانوس كبير . وأن عندي واحـداً جديداً . وأنني مستعد لاعطائي إياه مقابل أن يعطيني أحد هذه الفوانيس الأربعة .. وقبِـلَ بسرور . واتفقنا على المبادلة في سهرة الغد . وأسرعت أنا أضع الفانوس القديم البالي في علبة كرتون جديدة ، أغلقتها بإحكام . وذهبت إليه بها .. وإذا به قد وضع أحد الفوانيس بعلبة جديدة أيضاً ، وسلمته واستلمت.. ولم يفتح أحدنا الكرتونة ، وكل منا يعتقد أن زميله قـــد أعطاه فانوساً جديداً . وانصرفت مسرعاً ، قبـل أن يفتح الكرتونة ، ويكتشف ما فعلت معتقداً أنني كسبت الجولة . وهو كذلك يعتقد أنه كسب الجولة.

وما أن انصرفنا إذ به يصرخ مـن النافذة ضاحكاً « يا ابراهيم . انتبه إلى بَلف الفانوس » . وفهمت « المقلب » . وأسرعت أجاوبـه « بسيطة .. انظر أنت إلى الماسورة ! » . وعدنا . لنغرق في الضحك على هذا المقلب المتبادل . وكان حديث السهرة المرح لعدة أيام ..

*

ونادرة ثالثة

بعد عودتي من رحلة إلى نيويورك بعد الحرب العالمية الثانية، دعاني عبد الرحمن النفيسي إلى منزله أنا وابن عمه عبد العزيز النفيسى ، وبعض الأصدقاء من جملتهم ابن جابر الفلاح صاحب النخل المسماة « المليحة » .. وانطلقت خلال الحديث ، أصف رحلـــتي ، وأصف عظمة نيويورك واتساعها وأهلها وطريقة حياتهم وصفاً تفصيلياً . وإذ بابن جابر ، الذي لم يخرج مطلقاً من الرياض وضواحيها، ولم يذهب حتى ولا لمكة المكرمة. إذ به يعارضني ويأبى أن يصدق .. ويسأل « هل يوجد في الدنيا بلد أكبر من الرياض ؟ » . وسكتنا لحظات . وأنا في حيرة كيف أجاوبه. وفكرت أن الأفضل أن « أجاوبه على قدر عقله » .. ثم فجأة ، إذ بي وبعبدالعزيز في وقت واحد ، نجيبه بنفس الكلمات حرفياً: «لا يا أخي ، لا يوجد أكبر من الرياض ، ولكن كل بلد لها طريقتها الخاصة »..نفس الكلمات فينفس الوقت . وعندما سألت عبد العزيز بعدها عما دفعه إلى نفس الأجابة قال: لقد فكرت في تلك اللحظة أن الأفضل أن « أجاوبه على قدر عقله » ! ..

.. توارد خاطر.. كثيراً ما يحدث ـ وكانت الرياض آنذاك لاتتجاوز مساحتها الكيلومتر المربع الواحد !!.

.. في العـراق

يسّر الله لي الأمور ، واتسع نطاق نشاطي ، وامتد إلى الاستيراد من العراق عـــن طريق الكويت ، وكنت أتولى استيراد الأرز وبعض أدوات الغيار للسيارات من العراق، كذلك كنت أستورد بعض المنتجات السورية واللبنانية الموجودة في أسواق العراق . كان ترددي على العراق كثيراً خلال هذه العمليات . وكانت الاقامة تطيب لي في ربوعه، حتى لقد فكرت جدياً في أن أؤسس مكتباً دائمـاً في بغداد ، ليكون كمركز ثابت لادارة عمليات الاستيراد والتبادل، وكان ذلك لتوقعي زيادة النشاط لوفرة ما يمكن الاتجار به . ولكن .. ما كل ما يتمنى المرء يدركه ..فقد حدثت أمـور لم تكن في الحسبان ، أزعجتني وأربكتني ، فاكتفيت من الغنيمة بالاياب . وفضلت أن أقلل مدى نشاطي التجاري حتى العدم ، عملاً بالمثل المعروف « ابعد عن الشرّ وغني له » !.

لقد كوّنت خلال فترات ترددي على العراق علاقات ممتازة وصداقات وطيدة مع عديد من فضلاء الرجال .. ولن أنسى ما حييت ما تركته في نفسي صداقة المرحوم رشيد عالي الكيلاني، وعبد المحسن أبو طبيخ عضو مجلس الأعيان آنذاك ، وأسرة سليمان وحمد الذكير من كبار تجار المواد

الغذائية ، وأسرة الخضري ، ومحمد علي عواد من كبار تجار قطع غيار السيارات ، وحافظ القاضي من كبار تجار السيارات وقطع غيارها .. وغيرهم كثير ..

كانوا جميعاً على أكبر قدر من المروءة والفضل والكرم .. إلا أن الصديق حافظ القاضي كان متميزاً في كرمه،ولم يكن ذلك رأيي فحسب، بل كان أمراً معروفاً للجميع في العراق .. فكان مثله في العراق مثل ابن حماد من أهالي الرياض ومن كبار تجارها ، في الاتصاف والاشتهار بالكرم وغنى النفس والقرب من الله ..

إنني لم أشاهد أو ألتقي ابن حماد ، إلا أن كثرة ما يتناقله الناس والرواة في ثقة مطلقة ، من روايات عن كرمه وفضله جعلني أقارن بين ما لمسته بنفسي وشاهدته من أفضال حافظ القاضي وبين المشهور والمؤكد عن ابن حماد .

كان ابن حماد يملك مزرعة نخيل وفواكه خارج أسوار الرياض جنوباً، ويطلق عليها اسم « الوبيري ». وأكرمه الله وبارك له في المزرعة الصغيرة وإنتاجها حتى أصبح الكثيرون يغبطونه عليها وعلى انتاجها الممتاز والوفير . وكان بعض الجائعين أو المحرومين أو الطامعين يتسللون في ظلام الليل متخطين حائط المزرعة لينالوا من ثمارها ما يسد رمقهم أو ما يشتهونه.. وكثيراً ما كان ابن حماد ساهراً الليل يتفقد مزرعته ويتجول فيها كالحارس الليلي ، وكثيراً ما كان يرى أحد هؤلاء ، فكان المحتاج أو الطامع يحاول أن يلوذ بالفرار بمجرد رؤيته ظناً أنه الحارس ، فما يكون

من ابن حماد إلا أن يناديه بصوت خافت قائلاً : « لا تخف ، أنا مثلك محتاج .. ولكن أسرع واحمل ما جنيته قبل أن يرانا ابن حماد » .. ثم يساعده على حمل ما جمعه ويعاونه حتى يتخطى بحمله سور المزرعة !.

أما حافظ القاضي الذي ربطتني به صداقة متينة ، فقد كنت شاهد عيان على كرمه وسموّ خلقه . أذكر أنه دعاني وأسعد الفقيه وعبد الله الخيال وغيرهم من الأصدقاء إلى تناول الغداء في مزرعته الواقعة شرقي بغداد على شاطىء نهر دجلة . كانت مزرعة واسعة خصبة مليئة بالنخيل وأشجار الفواكه المتعددة الأنواع . وعندما وصلنا إلى المزرعة وكان النهار قد انتصف والشمس لاهبة والحرارة شديدة إلى درجة لا تكاد تحتمل ، دخلنا القسم الأول منها ، وإذ بي أرى قافلة من البادية المسمين « الصّلْب » . وهم من يُطلق عليهم عادة اسم « النَّوَر » أو « الغجر » .. وبصحبتهم رواحلهم قطيع من الحمير .. وإذ بهم يتسلقون النخيل وأشجار الفاكهة ، يجمعون ويقطفون من الثمار كل ما تصل إليه أيديهم ليأكلوه ، وحافظ معنا يراهم ولكنه يتغافل عنهم وكأنه لا يرى ماذا يفعلون !. لقد تذكرت في تلك اللحظة ما رويته عن ابن حماد وما كان يفعله مع المحتاجين ، وأحببت أن أداعب حافظ فقلت له وأنا أنبهه: « يا حافظ ، البدو يسرقون تمرك وثمارك » .. وكان جوابه سريعاً ، قال جزاه الله كل خير مبتسماً : « يا أخي . سُفْرة الله كبيرة. ألا يكفينا أننا راكبين سيارة كاديلاك ، وفي انتظارنا خروفان محشوّان ، وغداؤنا جاهز في ظل ظليل وهؤلاء المعتّرين (المساكين) ممتطين حميرهم أو

مشاة حفاة الأقدام في هذا الجو الملتهب .. دعهم يأكلون .. والله يعطينا أكثر) !.

نعم .. صدقتَ يا حافظ .. من أكرم الفقير والمحتاج لا بدَّ وأن يكرمه الله . ومن أفاض على الناس مما أنعم الله به عليه زاده الله نعيماً وبارك له فيما أعطاه وعوَّضه ما أنفق أضعافاً مضاعفة .

.. في البحرين

نعود إلى حديث التجارة . ففي أواخر عام ١٩٤٧ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بما يقارب الثلاثة أعوام،قمت بزيارة للبحرين بقصد التعرف إلى البلاد وحكامها الذين شوّقني إلى لقائهم ما سمعته عن فضلهم ونبل أخلاقهم وطيب علاقتهم بالأسرة السعودية . ولقد كنت (على وجه التحديد) متلهفاً للقاء الشيخ علي بن محمد آل خليفة ، صديق صديقي العزيز فهد السالم آل صباح .. وإلى جانب ذلك كنت أعتزم دراسة الأسواق التجارية هناك لعلي أوفق في عمليات تجارية رابحة .

وتمت الزيارة، وتلتها زيارة أخرى،والتقيت كبار الشخصيات هناك وكلهم من أفاضل الرجال ، ووجدت الحفاوة والتقدير خاصة من الشيخ سليمان بن حمد بن عيسى حاكم البحرين آنذاك،وعلي ابن محمد،رحمهماالله.

لقد وُفّقت للقيام بعمليتين تجاريتين مع الأخ يوسف العبيدلي،وكانتا رابحتين ولله الحمد . ورغم ذلك لم أواصل بعدها نشاطي التجاري مع البحرين ، إذ فضلت أن تقتصر علاقتي بالقوم الكرام على ما هو أفضل لديّ من التجارة،ألا وهي الصداقة المتينة والمودة الخالصة،والمحبة والتقدير لهم ولكل الأخوة في البحرين على ما يبذلونه في سبيل بلادهم الناشئة السائرة بخطى حثيثة في طريق النمو والتقدم والعمران .

الفصل الثامن

من تجارب الحياة العملية
في سوريا والأردن وفلسطين ومصر

.. في سوريـا

قبل البدء في ذكر الحديث عن تفاصيل ما قمت به في سوريا ، وعـن علاقاتي مع التجار السوريين ، أحب أن أؤكد أني ساحرص ، وهذا ما أكدته دائماً ، خلال سردي لحوادث هذه الفترة من تاريخ حياتي،على ذكر الوقائع الصادقة برمتها ، بدون تحيز لأحد ، وبدون مجاملة ، وليس هذا شاني فحسب ، بل إنه لواجب كل من يتصدى لكتابة التاريخ سواء كان تاريخه أو مذكراته أو مذكرات الآخرين ..

قد تمدح اليوم إنساناً .. ثم تجد بعد أن تجرّبه، أنه لا يستحق ما كلته له من المديح .. وقد لا يعجبك إنسان ، وتجـده بعد أن تجربه يستحق التقدير ..

وقد لا يصدق معك ، أو يخدعك إنسان ما ، مـــن شعب ما .. فلا تعتقدنّ أن شعبه كله مثله.. فالناس في كل مكان ليسوا سواسية كاسنان المشط ، بل يختلفون شكلاً وطباعاً وعملاً ، كاصابع اليـد لا تتساوى في الطول . حتى ولو كانوا أبناء شعب واحد أو مدينة واحدة أو حي واحد أو حتى أسرة واحدة ..

وإني لا ألقي لوماً على أحد فيما وقع لي ، أو فيما منيت به من خسارة. لأني أؤمن بان ما حدث قدَر مكتوب ..ونصيب لي في الحياة كان لا بـد وأن أناله ، مهما اجتهدت أن أتجنبه .

★

في الوقت الذي بدأت علاقتي بسوريا العزيزة ، وبالاخوة السوريين ، كمرحلة ، أردت بها أن تكون خطوة في طريق علاقة كبيرة ووطيدة مع لبنان..في هذا الوقت كان في السعودية جالية كبيرة من اخواننا السوريين يقيمون فيها إقامة شبه دائمـة . كما كان في سوريا جالية سعودية لا بأس بعددها ..

وكانت لكل من البلدين سفارة في عاصمة البلد الآخر .. والعلاقات متصلة بين الشعبين ، فالسوري الذي يحضر إلى السعودية يجد فيها كثيراً من أهله ومعارفه.. وكذلك السعودي الذي يذهب إلى سوريا يحس وكأنه ليس بغريب عن البلاد ..

كانت البضائع السورية ، والانتاج السوري ، يصل إلى الحجاز عـن طريق البحر ، وأهالي نجد يشترونه من الحجاز أحياناً ، وأحياناً أخرى يستوردونه عن طريق الصحراء على قوافل الجمال ..

وكانت المواشي،التي تُربّـى في مراعي السعودية،تصدّر إلى سوريا، وكذلك الجمال .. والبادية شبه متصلة في الصحراء الممتدة بين السعودية والعراق وسوريا ..

★

في ذلك الوقت كانت علاقتي بالسيدين شكري القوتلي ، وسعد الله الجابري ، رحمهما الله ، علاقة وثيقة.. بدأت عندما كانوا لاجئين سياسيين في العراق ، وكانا رحمهما الله على صلة دائمة مع المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود آنذاك ، وكانت بينهم جميعاً محبة وثقة متبادلة .

ومرّت الأيام .. وإذ بهم على رأس الحكم في سوريا ..

ووصلت إلى سوريا، وقمت بزيارتهم كأصدقاء.. ولقد كان لاستقبالهم الطيب الكريم لي،عظيم الأثر في نفسي حيث دعاني السيد شكري القوتلي إلى الغداء معه في بيته ، ودعاني سعد الله للغداء معه في أوتيل رويال بلاس ، ولمست منهم التشجيع الكامل والترحيب التام لبدء أعمالي في سوريا. لا في لبنان فحسب، وكان ذلك بحضور وتشجيع أيضاً،من السفير السعودي في دمشق ، الشيخ عبد العزيز بن زيد ، الذي أصرّ على ألاّ أحصر نشاطي في لبنان ، بل أن أركز النشاط في سوريا ولبنان معاً ..

واعتمدت على الله ، وتشجيع الأصدقاء ، وتوجيه المخلصين،وبدأت العمل . وقررت أن يكون استيرادي من لبنان ، واتفاقاتي بشأن العمال والموظفين للعمل في السعودية ، أن تكون الكميات المستوردة ، وعدد العمال ، مناصفة ، بين لبنانيين وسوريين .. وإن كنت أُميّز في الأجر بين العامل والعامل حسب فنه ومقدرته وحُسن إنتاجه ..

ومشت الأمور على خير ما يرام لفترة من الزمن ، كنت أستورد من البلدين، وأربح ، والحمد لله لم أخسر في ذلك الوقت.. وإن كنت أدركت أن في بعض العمليات والأسعار ، زيادة في الأسعار ، وأن بعض

التجار كان يحاول بلباقة استغفالي أو استغلالي ، ولكني كنت متمثـــلاً بالمثل الدارج : « الكرم يغطي العيوب » ...

ومرت سنوات متوالية على هذا المنوال، وأصبحت على علاقة تجارية وثيقة بحوالي ٣٥ متجر ومعمل ، أتاجر معهم ، دون متاعب أو مشاكل ، لا من طرفي ولا من طرفهم ...

وكان من الممكن أن يستمر العمل ، على خير الوجوه ، لولا أن ساقت الأقدار إليّ ، بدون قصد مني أو ترتيب ، ثلاثة أشخاص، خُدعت فيهم ، وأساءوا إليّ وإلى أنفسهم . ودفعتني أعمالهم معي ، إلى الزهـد في التجارة مع سوريا الشقيقة،وإلى وقف كل نشاط تجاري بيني وبين إخواني التجار السوريين .

وقبلى أن يتهمني أحـــد القراء بالغفلة .. ويتساءل كيف يمكن وأنا أتاجر منذ سنوات ، وصارت لي الخبرة الطويلة في الاستيراد والتصدير ، كيف يمكن أن يخدعني أحد .. أرجو أن يؤجل اتهامه أو تساؤله إلى ما بعد قراءة تفاصيل التجارب الثلاث .. أو « الخدع الثلاث » !..

الخدعة الأولى :

في يوم من الأيام ، احتجت إلى سبع شاحنات ، إضافية ، علاوة على شاحناتي الخاصة ، لشحن بضاعة عاجلة إلى الرياض ، في وقت محدد .

وبحثت عمن أستأجر منه الشاحنات السبع ، وأرشدني مرشدي إلى أحد أصحاب الفنـادق في دمشق . ولنسميّـه السيد (ن.) .. وكانت له أعمال تتعلق بالشحن والشاحنات . واستقبلني الرجل بالترحاب،وملامح الشهامة والرجولة ترتسم على وجهه ، وأحضر لي الشاحنات ، بل وأخذ

بيديه يعمل مع العمال في شحنهـــا بالبضائع ، إلى أن تم الشحن وسافرت السيارات . .

وعملاً بمثل التزمته دائماً «البخيل لا يُخدم» .. سحبت من حافظة نقودي مبلغاً من المال وضعته في يد الرجل جزاء لبعض جهده وتعبه ، وما كان منه إلا أنه رفض وشفع رفضه بقسم ، بل وداعياً إياي للعشاء في ضيافته في الفندق .

بالرغم من ضيق الوقت لم أرفض ، لرغبتي في فرصة أتعرف بهـا إلى هذا الرجـل الشهم .. أو لأعرف المزيد عنه . وأثناء العشاء ، تنوعت الأحاديث التي علمت منها أنه ضابط كبير متقاعد .. ولما أكنه في نفسي من احترام بالغ وتقدير جم لكل من حمل السلاح مضحياً بنفسه ودمـــه دفاعاً عن الحق ، ازداد احترامي للرجل ، وهـــذا بالاضافة إلى مائدته العامرة التي تدل على الكرم .

قررت أن أوثق صلتي بالرجل ، ووضعت فيه ثقتي ، فأوكلت اليه الاشراف على كل أعمالي في سوريا ، وخلال عام كامل ، كان مثال النشاط والدقة والحرص على مالي ، بخلاف من كنت ألقاهم قبله ممن كانوا يحاولون استغلالي بمناسبة وبغير مناسبة . لذلك فرضت عـــلى نفسي دون أن أشاوره ، عمولة اعتقدت انها تفوق ما كان يستحق ، إكراماً له ولصداقته. وعرّفت عليه أصدقائي جميعاً .. وكان إكرامه لهم لا يقل عن إكرامه لي ، ولم يكونوا ولله الحمد من التجار ، لذلك لم يقع في شباكه سواي وسوى صديق واحد هو عبد العزيز النفيسي ، رحمة الله عليه وعلى أمواله التي

وقعت في الفخ وضاعت الى الأبد . ولا زلت أشعر حتى اليوم بمسؤوليتي عن خسارة الرجل فقد كنت أنا الذي قدته ـ بدون قصد ـ إلى الفخ المنصوب لي وله !..

بعد شهور من العمل ، والثقة به من جانبي متوافرة ، وخلال زيارة سريعة لي لسوريا ، تقدم (ن. ن) بعرض مفاجىء .. قال ان لديه مبلغاً من المال ، يريد تشغيله معي ، كشريك ، يقدر بمائة ألف ليرة سورية ، واقترح أن أدفع مثلها ، على أن تقوم شركتنا بالاستيراد من سوريا فقط ، ووافقت في الحال ، وكلي ثقة في الرجل كما ذكرت .. ثم فوجئت به يحضر الاتفاقية مطبوعة ـ وأنا على وشك السفر ـ للتوقيع .. ثم فوجئت به يقول إن المحامي أخبره بأنه لا يجوز توقيع الاتفاقية إلا إذا وقّعت أنا باستلام المبلغ عداً ونقداً .. وأنه يأسف لأنه لم يستطع إحضار المبلغ ، لأنه قد اشترى به عدساً بـ (درعا) .. لا زال في بيادره .. ثم أضاف : « إذا كان لديك ثقة بي فوقع الاتفاقية وإلا فلتنتظر الاتفاقية حتى أبيع البضاعة وأقدّم المبلغ المتفق عليه » ..

تملكتني الحيرة ..! المبلغ كبير ، وتوقيعي باستلامه وأنا لم أتسلمه مخاطرة .. وكنت أثق بالرجل ثقة كاملة.. ووقعت الاتفاقية ، وعلى استلامي للمبلغ كاملاً .. وللأسف .. لقد بقي العدس في بيادره .. حتى يومنا هذا ..!!

وسافرت إلى الرياض، وبدأت أرسل اليه نصيبي في الشركة. واكثر . واستمر التعامل على خير ما يرام.. يشحن البضائع من سوريا بناء على طلبي

وتعود السيارات من السعودية محملة بجلود الجمال ، وفيها من الربح ما كان يجعلني مطمئناً الى الحاضر والمستقبل .

وذات يوم التزمت بتأثيث قصرين للأمراء بالرياض ، وقبضت القسم الأكبر من التكاليف مقدماً .. وسلمته له . وقام بتجهيز البضاعة المطلوبة بكاملها ، وشُحنت على السيارات متجهة الى الرياض . وفوجئتُ ببرقية أتسلمها بالرياض كان نصها :

« يا أهل الشهامة والمروءة نحن بحاجة ماسة إلى الفلوس والبضاعة تحت الحجز . أسعفونا » .. !

واستغربت الأمر لثقتي بأن الرصيد المحوّل إليه يكفي ثمناً للبضاعة ويزيد ، فابرقت له بان ينتظرني في بيروت ، وأسرعت بالسفر إلى لبنان ومعي مبلغ لا بأس به . أودعته عند أحد أصدقائي الصرافين . ولحسن حظي ألتقيت بسائقي الشاحنات في بيروت قبل أن أقابله . وسالتهم عن قضية البضائع والحجز ، وعلمت منهم الحقيقة . إنهم بعد وصولهم إلى الحدود في درعا ، أخذ السيد(ن.) أوراق البضائع ، ودخل إلى الجمرك ، ثم عاد بعد فترة يقول لهم ارجعوا إلى دمشق ، فعادوا وقاموا بانزال البضاعة إلى قبو تحت منزله هناك .. ــ هذا المنزل الذي بناه على ما أعتقد باموالي وأمول النفيسي ! ..

وحضر (ن.ن) إلى بيروت ، وسالته عن الأمر فاجاب أن البضاعة محجوزة على مائة ألف ليرة سورية.. وكنت أفكر في طريقة للخروج من ورطة التعامل معه .. وتظاهرت بالاطمئنان والهدوء . واقترحت عليه

أن نصفّي أولاً كل حساباتنا السابقة .. وبعدها نقـــوم بفك الحجز .. واقترحت أن نختار رجلا وسيطاً بيننا ، فاختار المحامي (ن. م.) صديقه وصديقي (وله قصة أخرى معي سأذكرها للقارىء فيما بعـــد !) .. ووافقت .

وذهبنا إلى سوريا .. قضينا ثمانية أيام بلياليها ، في تصفية الأمور ، أذكر هنا خلاصة ما تم فيها ..

اجتمعنا عند المحامي ، وقد أحضر دفاتره، وقبل أن نبدأ، أخرجت الاتفاقية من جيبي وسلمتها إلى المحامي (علمت فيما بعد أنه كان هو الذي وضع نصوصها).. وطلبت من (ن. ن) أن يقسم اليمين : هل سدّد لي نصيبه من رأسمال الشركة أم لا ؟.. وتردد الرجل قليلاً ثم أقر بأنـــه لم يدفع . وطلبت من المحامي تسجيل محضر بذلك وقعناه .. وبعـــد أن وضعت نسخة المحضر في جيبي ، قلت له : « أنت مخيَّـر الآن ، إمـــا أن تكون شريكاً بدون رأس مال .. تتحمل الخسارة والربح ، وإما أن تعمل معي بعمولة تحددها أنت بنفسك». وفكر في الموضوع قليلاً ثم قال: « لا. أفضل أن أكون عميلاً بعمولة ٢٠ ٪ ». وقبلت، وطلبت أن نسجل محضراً بذلك .. وتم التسجيل وأخذت نسخة ..

بعد ذلك بدأنا بمراجعة الحسابات . ووجدت انه لا بـــد ان أضحي بالكثير . وانه لا بد أن يتسلم ٨٥ الف ليرة سورية .. لكي أستطيع انقاذ ما يمكن انقاذه وان أوفي بالتزاماتي تجاه من التزمت لهم في الرياض .. هذا علاوة على عمولته ٢٠ ٪ على السنة الأولى والثانية ١٥ ٪ ، والثالثة ١٠ ٪ ،

يضاف إلى ذلك مبلغ ١٨ ألف ليرة قيمة جلود جمال كانت بحوزتي تنازلت عنها له .. حتى أمكنني شحن البضاعة التي كان يدعي انها محجوز عليها .. وتم الأمر . وصفينا الموقف . وكتبت بذلك براءة ذمة .. وكان ذلك في صبيحة يوم ، ختاماً لأيام لم أستطع فيها القيام باي عمل .. وطلبتُ أن نذهب إلى كاتب العدل ، لانهاء الأمر ، لنباشر في العمل من جديد .. وسجّلنا براءة الذمة . وبعد أن وضعتها في جيبي ، قلت لكاتب العدل : أرجو ان تسجل بدفترك أن الوكالة العامة المعطاة مني لـ (ن . ن) والمسجلة في دفاتركم والمصدقة من السفارة السعودية في دمشق لاغية من هذا التاريخ . وساله كاتب العدل عن الوكالة ، فلم تكن معه ، فأرسل معه شرطياً إلى مكتبه لاحضارها .. وتم الالغاء .. وشكرت الله على الخلاص .. ولو كان الخلاص كلفني التضحية بمبلغ لا يستهان به .

إن المال الحرام يذوب مهما طال الزمن .. ولقد اغتنى (ن . ن) من تعبي وتعب النفيسي .. ولقد اشترى باموالي وأموال النفيسي قطعة أرض زراعية .. وحفر فيها بئراً ارتوازية لريّ الزرع .. ولكن الماء كان يحرق البذور .. وكأنما هو نار ملتهبة ! وقد تكرر ذلك مراراً .. حتى صار أهل قريته يتندرون به .. « وما ربك بظلاّم للعبيد » ..

★

الخديعة الثانية !

الواقعة الثانية في سوريا ، كانت مع المحامي (ن.م) .. ولعلها أغرب من السابقة في بدايتها الشيقة ونهايتها المؤسفة .

في يوم من الأيام أردت السفر من بيروت إلى دمشق ، وكنت دائماً

أختار السفر عن طريق مكتب سفريات (أميه) .. فذهبت إلى المكتب قبل الظهر..ولم أجد إلا سيارة واحدة هناك قيل لي أنها محجوزة،وعندما استفهمت عن حاجزها ، قيل لي أنه أحد المحامين السوريين ، والسيارة في انتظار عودته من العدلية لتعود به إلى دمشق . ولما كنت مضطراً إلى السفر ، رجوت المسؤولين عن المكتب أن يستأذنوه في ركوبي معه . على أن أدفع ما يريد .

وعند حضور الاستاذ حادثه المسؤول في المكتب . ووافق مشكوراً ان يعطيني « صدر السيارة » .. بل وشفعها بزجاجة مرطبات قدّمها لي المسؤول في المكتب عن الاستاذ .. وتبادلنا التحية وركبنا .. ولم يـــدر بيننا أي حديث إلى أن وصلنا «ظهر البيدر» ..

عندها ألتفت الاستاذ إلي بادئاً الحديث سائـلاً : الأخ كويتي أم سعودي ..؟ فأجبته : سعودي .

واذا به يسألني في لهفة: دخيلك.هل تعرف شخصاً اسمه ابراهيم بن خميس ..!!؟ قلت : وماذا تريد منه ..

قال :« إنني أسمع عنه كثيراً ما يدل على الشهامة والمروءة وكرم النفس ويكفي ما كتبه عنه رشيد عالي الكيلاني لي ولخالي جميل الجابي».وكان ذكره لأسم رشيد الكيلاني كافياً لاطمئناني إليه .. فقـــد كنت على صلة وثيقة بالرجل ، عندما كان في العراق ، ثم عندمـا حضر إلى السعوديه لاجئاً .. وكنت أتردد عليه كثيراً .. بل وكان يزورني في بيتي..وقد أمر الملك عبد العزيز رحمه الله ، لفرط ثقتـه بي ، أمر الحراس ، ألاّ يستأذنوه عندما يود الكيلاني زيارتي في أي وقت ..

ولم أجب المحامي بشيء. ولكني أخرجت جواز سفري وناولته إياه . فما كان منه إلا أن صرخ بالسائق ليوقف السيارة ..

ووقفت السيارة وكنا قد وصلنا إلى شتوره ، أمام أحد المطاعم .. وإذ به يفتح الباب . ويطلب مني النزول .. وما أن نزلت حتى عانقني عناقاً حاراً ، وصمم على دعوتي إلى الغداء .. وقبلت بطبيعة الحال ..

وعدنا إلى السيارة .. وعندما وصلنا دمشق ، أصر على دفع أجرة السيارة بكاملها . وقفنا أمام البناية التي بها مكتبه ، فدعاني لشرب القهوة . وبالرغم من ضيق وقتي قبلت ..

وفي المكتب أعطيته رقم صديقي (ن.ن) وكيلي . ورجوته أن اتصل به . وما ان قرأ الرقم حتى قال : هذا رقم صديقي وحبيب قلبي (ن ن). واتصل به ، وطلب منه الحضور في الحال.. وحضر الرجل ، وفوجىء بوجودي في المكتب .. وكانت جلسة لطيفة ..

في اليوم التالي، قابلت أربعة من اخواني السعوديين في دمشق، يريدون حضور فيلم « ظهور الاسلام » الذي كان يعرض لأول مرة .. وأصروا على حضوره تلك الليلة لاضطرارهم إلى السفر صباح الغد .. وشكوا لي انهم لم يتمكنوا من الحصول على تذاكر لنفادها ..

وفكرت في الأمر ، ثم توجهت معهم إلى مكتب المحامي (ن.م) .. وعرضت عليه الأمر . فقال : « المسالة بسيطة .. نحن هنا الدولة ! » وبالفعل . أمّن الرجل (لوجاً) كاملا .. وحضر معنا هو و(ن . ن) العرض . بل وبعد انتهاء العرض دعانا، أنا وأصدقائي ، للعشاء في مطعم

« مطار مزه » .. ولبينا الدعوة شاكرين . وأنا مرتاح إلى معرفة هـــذا الرجل الكريم !..

ومضت الأيام وسافرت إلى الرياض . وبعد فترة عدت إلى دمشق بالطائرة ، وكانت الطائرات الكبيرة آنذاك لا تستطيع النزول في مطار بيروت ، وكان علينا أن ننزل في دمشق ثم نقصد بيروت بالسيارات .. وتوجهت الى مكتب السفريات ..

هذه المرة أيضاً لم أجد إلا سيارة واحدة وقيل لي أن الصدر محجوز .. فحجزت بقية المقاعد وانطلقت بي السيارة لتمر على ركاب الصدر ، وأنا أمنّي نفسي بأن يكون ركاب الصدر ، ممن يحلو معهم الحديث في الطريق قطعاً للوقت ..!

ووقف السائق أمام أحد البيوت ، وصعد ليعود بالراكب .. وإذ به المحامي (ن.م) .. وكانت فرحتي بلقائه لا تقدر !..

ووصلت إلى بيروت ، ورجوته أن يقبل ضيافتي وينزل في منزلي ، فاعتذر .. وعلمت أنه سينزل كعادته في (بالم بيتش) .. ودفعت اجرة السيارة بكاملها رغم معارضته وقلت: « واحدة بواحدة ». اشارة إلى دفعه إيجار السيارة بكاملها عند لقائنا الأول ..

واستمرت العلاقة بيننا ، صداقة متينة .. وكان ما كان من موافقتي على اختيار (ن . ن) له كحكم بيننا في الواقعة التي سبق وان ذكرت تفاصيلها ..

صار يتردد على مكتبي في بيروت .. وكان بـــين فترة وأخرى

يطلب مني قرضاً أَجلُـه عدة أيام .. وكنت لا أرفض له طلباً حتى بعد أن تكرر ذلك مراراً .. وفي يوم من الأيام ، اصطحبني إلى عمارة في شارع جمال باشا في دمشق، قائلاً: « ان المكتب الذي كنتُ فيـه ليس مكتبي .. بل يخص خالي .. ولقد انفصلت عنه ، واستاجرت مكتباً في هـــذه العمارة . ويلزمني مبلغ ٣٠ الف ليرة سورية . أرجو ان تقرضني إياها لتاثيث المكتب ودفع الايجار ».

لحسن الحظ لم يكن معي المبلغ عندما طلبه واعتذرت .. فاقترح أن نذهب الى بيروت ، وأعمل له بالمبلغ سندات (كمبيالات) يقوم هو بتسديدها عند استحقاقها .. وكنت في ذلك الوقت لا أفهم امر هذه الكمبيالات ..

وعدنا إلى بيروت ..وفي مكتبي اردت أن أحرر له الكمبيالات بناء على طلبه .. وإذ بمدير مكتبي ينبهني إلى خطورة ما ورائهـــا .. فاعتذرت . ولكن الصديق (ن . م) ألح أن اؤمن له ٥ آلاف ليرة بأي شكل .. فذهبت أنا واياه إلى صديقي وسندي عند الضيق محمد السليمان الزبن ، الصراف ، وسلمته مما لي عند الزبن ، قرضاً يدفعه لي عند طلبـه بدون عذر ..

ومرت الأيـــام .. وظل يستدين مني مراراً حتى تضخم المبلغ تدريجياً .. مما جعلني أشعر بالضيق والحرج . إلى ان جاء يوماً يطلب مني ١٥٠٠ ليرة .. فقلت له : « يا أستاذ .. صار لك مدة وأنت تسحب مني أموالاً ، ولا تدفع شيئاً .. فالى متى ؟.. وإلى أين المصير ؟».

وفاجأتني اجابته ، قال:«أنا محامي المكتب .. وأنا ساكن في الاوتيل على حساب المكتب»..!!

فقلت متعجباً : هكذا ؟؟ .قال نعم . قلت : إذاً نذهب إلى الاوتيل ونسكر حسابه .. وذهبنا إلى الاوتيل ، وسكرنا حسابه بالفعل .. وقلت له : من الآن ، اعتبر أن المكتب ليس بحاجة اليك .. وسحبت منه الملف الخاص بصديقنا (ن . ن) المتعلق بحساباتي معه ..

ومر عام كامل .. لم أر المحامي (ن . م) خلاله .. ولم يسدد قيمة السند . واضطررت إلى (تجيير) السند لتاجر في دمشق ليطالب به المحامي .. واتصل بي يقول : إن (ن . م) يعرض ان يعطيني بالمبلغ سندات مجزأة على دفعات ، وان نلغي السند الأصلي .. فرفضت .. وطلبت منه أن يبقي السند لديه ، وان يعيده إليّ .. وأعاده الرجل .

بعد أيام حضر (ن . م)إلى مكتبي في بيروت .. قائلاً : « يا أخي، لماذا تجيّر السند .. وأنا مستعد لدفعه لك فوراً ؟ ». وشكرته .. فدعاني إلى الذهاب معه لاستلام المبلغ .. وفي السيارة ..وكنا قد وصلنا إلى ساحة رياض الصلح .. إذ به يقول للسائق توّجه بنا إلى مقهى على البحر ..

قلت : لماذا ؟.. قال : أريد أن نتحادث قليلاً .. قلت: « ليس عندي وقت للحديث .. إذا كانت النقود معك سلّمني إياها .. وإذا لم تكن ، اتركني أرجع الى مكتبي وعملي ». وكانت السيارة متوقفة خلال مناقشتنا هذه .. فنزل منها ، ثم قال : أتريد مني مالاً ؟. قلت : طبعاً !.

وفوجئت به يقول: «اسمع. .والله،إذا قبضت مني بارة واحدة..سأمزق شهادتي كمحامي .. واعمل ما تشاء ..! »

وانصرف ، وعدت إلى مكتبي ..

ومضت الأيام . ولم أفكر في مطالبته قانونياً ، تلافياً للمتاعب..

وفي يوم من الأيام ، دعيتُ إلى حفل عرس في أوتيل بريستول في بيروت .. وكان بين المدعوين شخصيات سورية ولبنانية بارزة ، كان بينهم الاستاذ عفيف الطيبي رحمه الله .. وإذ به يتولى تعريفي على نقيب المحامين في دمشق.. ووجدت نفسي انطلق في مهاجمة المحامين الذين يصدر منهم مثل ما صدر من (ن. م) .. وما كان من نقيب المحامين في دمشق إلا أن طلب مني ان أذهب إليه في النقابة في موعد حدده . وذهبت ، وحضر (ن. م) .. وأصدر النقيب قراراً بسحب ترخيص المحاماة منه ومنعه عن العمل في سوريا .. فطلبت منه أن يؤمن لي المبلغ .. فقال النقيب : يجب أن تقام دعوى عليه لاستحصال الحق ..

ووكلت صديقاً محامياً سورياً آخر هو السيد (ر. ع) باقامةالدعوى، وأقامها . ومضت الأيام .. وصدر الحكم لصالحي . ولكن (ن. م) تمكن بأساليبه ومهارته من منعي من الحصول على قرش واحد من المبلغ !..

ولا زالت الدعوى قائمة حتى اليوم ..

وهكذا وفى الرجل بيمينه عندما قال :« إذا قبضت منها بارة واحدة سأمزق شهادتي » !.. ولا بد أنه كان أدرى مني بالطريقة التي سيفي بها بيمينه !..

*

.. والثالثة ؟!

ثالث هذه التجارب ، كانت تجربتي مع أخ سوري يدعى (ا . ك) ، كان صاحب معمل لأعمال النجارة والمفروشات في دمشق . ولم تكن لي

بالرجل صلة مباشرة في بادىء الامر .. وقد كانت معرفتي بــــه لا تعدو كونه يتعامل مع صديقنا بطل الواقعة الأولى ، السيد (ن.ن) .. الذي كان يشتري منه الأثاث المطلوب لعملياتنا وتعهداتنا في الرياض .. ولم أعرف عنـه في ذلك الوقت إلا أن معاملته مرضية بالنسبة للجميع .. هذا ما ظهر لي ولغيري .. وما يعلم خفايا النفوس إلا الله ..

وعندما أنهيت علاقاتي وصفيت حساباتي مع (ن.م).. كان عليّ أن أزيد ثقتي بـ(ا . ك) .. خاصة انه كان كلما قابلته ينتقد بشدة تصرفات (ن.م) .. ويطلعني على الكثير من خفايا تصرفاته .. وخاصة أيضاً ، وهو الأهم ، انه كان أميناً للصندوق في إحدى المؤسسات الدينية . ومن تثق به مؤسسة دينية وتجعله أميناً لصندوقها ، لا بد أن يكون جديراً بثقتي وثقة الآخرين !..

وجربت الرجل في بضع صفقات ، واستوردت من مصنعه الكثير من منتجاته .. ثم كلفته بتجهيز مفروشات لقصرين في الرياض التزمت بتأثيثها .. وكانت قيمة المفروشات مبلغاً ضخماً .. والحق يقال ، لقد قام بواجبه خير قيام ، سواء من ناحية سرعة العمل أو جودته .. مما زاد في ثقتي به . ولكني ــ وقد تعبت وتألمت وخسرت الكثير من تعاملي مع سابقه (ن م) .. آليت على نفسي ألا تكون ثقتي كامـــلة في مخلوق .. وقررت ألا أدفع لـ (ا.ك) أي مبلغ يداً بيد ، بل اعتمدت أن يتسلم المبالغ عن طريق البنك .

وحضر إلى الرياض ذات مرة لفرش أحـد القصور . وإذ بأحـد

الأمراء يعجب بمفروشاته . ويكلفني أن أطلب منه فرش قصره وعلى كفالتي . وتم الاتفاق معه . وفتحنا له اعتماداً بكامل المبلغ المطلوب عن طريق بنك انترا ـ دمشق . وما ان تمت العملية ، حتى حـذا حذو صديقنا السابق (ن.م) !..

.. ادعى ان باقي له من حساب العملية الأولى ٨٥ الف ليرة سورية . واستغربنا الأمر ، وراجعنا الدفاتر والتحاويل . لنجد أن لنا عنده ٥٠ الف ليرة بموجب مستندات البنوك التي حوّلنا له عن طريقها .. وقلت له ان الافضل أن نسوي حسابنا في دمشق .ووصلت إلى دمشق وبصحبتي محاسب . عندها أيقن ألا مفر من الاعتراف بالحقيقة فاعترف !.. ولكنه اعتذر بأن أخاه (ن.ك) تصرف تصرفات شاذة وألحق به هذه الخسارة التي لم يكن ينتظرها..وانه اضطر إلى هـــذا الادعاء لتعويض خسارته !.. وكنت أمام أمرين ، أو بين نارين ، أما ان أصر على استلام المبلغ بكامله ولن أحصل عليه بسهولة لطول اجراءات التقاضي في الدعاوى التجارية والمالية .. وبذلك أيضاً أفقد الأمل في الوفاء بالتزامي للأمير ، والاعتماد مفتوح في بنك انترا .. وإمـا أن أتنـازل عن جزء من المبلغ الذي يدعي خسارته بسبب أخيه !..

وقبلت منه سنداً بـ ٢٥ الف ليرة يدفعها عندما تتيسر له الأمور .. وشهد على السند أحد الأصدقاء اللبنانيين (م.س.) و (أ.العلي) سعودي. وبدأ ينفذ التزامه .. وبكل أسف ، تبين لنـا أن مفروشاته هـذه المرة كانت من أنواع رديئة سوقية ، تخالف كل ما اتفقنا عليه من شروط ..

ولم يكتف بذلك ، بل أرسل جزءاً منها فقط ، وأبقى لديه ما قيمته ٥٥ الف ريال سعودي ، لم يشحنها إلى الرياض .. رغم انه تمكن من استلام الاعتماد بكامله ، بواسطة أحد الموظفين (قيل انه ابن اخته) في البنك آنذاك ..

وحضر إلى الرياض .. وانكشف النقص في المفروشات .. فاعتذر بأنها لا زالت في المعمل وان التقصير من أخيه ، وحرر على نفسه سنداً بانه إذا لم يسلمها خلال شهر واحد يدفع المبلغ دون أي تأخير . ولم ننتبه في تلك اللحظة إلى أنه كتب أعلى السند العبارة الكريمة « بسم الله الرحمن الرحيم » .. وكيف ننتبه ونحن نكتب هذه العبارة الكريمة في كل مكاتباتنا وعقودنا وخطاباتنا ؟!

وذهبنا إلى دمشق .. وجهزنا السيارات للشحن .. ولكنا فوجئنا به يتملص من الاتفاق !

حاولنا معه بالحسنى .. وبمختلف الوسائل عبثاً .. ومضت الأسابيع وأنا أحاول معه جدوى ..

في يوم من الأيام كنت مع شخصية لبنانية مرموقة ذات علاقة وثيقة بالسلطات السورية .. فأطلعته على السند . فقال إن السند واضح والحق واضح .. وأبدى استعداده للذهاب معي لمقابلة المسؤولين في سوريا .. وبالفعل ، اتصل باحدى الشخصيات السورية الصديقة ، وعرض الأمر عليـــه ، وذهبنا إلى دمشق ، واستقبلنا المسؤول السوري مشكوراً ، وأقر بما في السند .. واقتنع بعدالة موقفنا ولكنه قال: « إننا نحن السلطة

التنفيذية .. والواجب عليكم أن تقيموا دعوى في المحكمة .. وعند صدور الحكم نحن ننفذه فوراً ».

وذهبنا إلى مكتب المحامي الأستاذ (ر.ع) ، ووكلنا اليه القضية ، التي رحب بها لوضوحها التام .

في أول جلسة للقضية ، ادعى (أ. ك) بواسطة محاميه أنه أجبر على كتابة هذا السند في الرياض تحت تهديد السلاح !. ودلل على ذلك ، بالعبارة الكريمة (بسم الله الرحمن الرحيم) المكتوبة في أول السند .. وأنه كغير مسلم ، لا يعقل أن يكتب هذه الكلمات إلا تحت التهديد !.

وتطور الأمر .. من خبير إلى خبير . ومن محكمة إلى أخرى.وأيضاً من محام إلى آخر !. ومرت عشر سنوات .. والقضية ما زالت تنتقل وتؤجل ، إلى يومنا هذا .. وعسى الله أن يكون قد آن الأوان لها لكي تنتهي !..



حقاً .. لقد لدغت ثلاث مرات .. ولكن هل أجد لنفسي عذراً؟.. كنت أستطيع تحمل اللدغة الأولى والثانية .. ولكن الثالثة ــ وقد تعدّت المالوف حتى في أساليب التحايل ، إلى استغلال ذكي لعبارة لا يمكن أن أنتبه إليها كي لا يمكن أن ينتبه إليها غيري .. أقنعتني بأنني لست كفؤاً .. لمثل هذه الطرق والأساليب في التعامل.. فاضطررت إلى أن أحرم نفسي من استمرار التعامل مع المنتجات السورية .. وأن أكتفي بنشاطي التجاري بين المملكة ولبنان وغيره من البلاد ..

★

كان لي صديق سعودي (عيسى البوقري) .. يحذرني من بعض التجار فيقول : « إنهـم كالصابون ، عندما تشتريه يكون وزنه كاملا .. وعندما يمر عليه الزمن ينقص وزنه تدريجياً .. وبذلك .. من الربح المضمون إلى الخسارة البالغة ». وما أصدق هذا المثل .. ومـا أكثر ما ينطبق على بعض من تعاملت معهم من « الأصدقاء التجار » !..



ومع ذلك .. فإن لي حتى اليوم كثير من الأصدقاء ، في سوريا العزيزة ، بينهم تجار وغير تجار .. ولا زلت أكن لهم المودة والأخـوة الصادقة ..

لقد تعاملت مع أكثر من عشرين تاجراً .. وعمل في الرياض منهم العشرات .. وأحمد الله أنني لا زلت أعتز بعلاقتي بهم جمعياً ـ وأهل التل خاصة .. ولم أرَ منهم إلا كل خير .. وكان عددهم كبيراً .. والذين عملوا معي منهم كانوا أكثر من مائة شخص ، لا زالت أيام عملهم معي ذكرى جميلة. كانوا رجالاً، الخير والاخلاص والرجولة من أبرز صفاتهم.

★

.. مع الأردن

لم يكن لي معاملات تجارية مع الاخوة الأردنيين ولكني وكنت كثيراً ما أسافر بالطريق البري بالسيارات عن طريق : الرمثا ـ الاتش فور ـ لم ألاقِ من المسؤولين الأردنيين ، والاخوة الأردنيين جميعاً ، إلا كل مودة واحترام وكرم عربي أصيل ..وفي الحقيقة ، لقد كسبت من ذلك كثيراً. كسبت معرفة أبعاد فضائل ما تعنيه كلمة عرب أو عروبة ، لدى الأخوة الأردنيين ..



في عام ١٩٤٥ ، وصلت إلى H 4 ، عن طريق الرطبة قادماً من بغداد. وكان ذلك مصادفة نتيجة خطأ في الطريق . فقد كنت قاصداً طريق أبو الشامات . ولم أكن أقصد السفر من بغداد إلى دمشق عن طريق الأردن ، ولكن وفي ظلمة الليـل أخطأنا مفرق طريق أبو الشامات ، وفوجئنا في الصباح بأننا في H 4 . ولم نكن نحمل سمات دخول إلى الاردن . وكان اليوم يوم جمعة . والدوائر في عمان معطلة .

قابلنا المسؤولون وجماعة أبو حنيك في H 4 ، بكل ترحاب. واتصلوا

فوراً باللاسلكي بعمان. وأتت الأوامر من عمان بالسماح لنا بالمرور وبدون أن ندفع قيمة سمة الدخول . بـل وأبى المسؤولون إلا أن يدعونا للغداء معهم.. وذبحوا لنا، شأن العرب الكرام وبعد الغداء ، ودّعونا بالتحيات والتمنيات ، بعد أن أبرقوا إلى قائد منطقة المفرق سليمان بن حجان ، أن يحضّر لنا العشاء ، وأن يسهل لنا كل معاملاتنا ومرورنا حتى حـــدود الأردن . بل وأرسلوا معنا مرافقاً إلى المفرق .

وعند وصولنا المفرق قبيل منتصف الليل إذا بابن حجان ساهراً ينتظرنا ، ويستقبلنا ، ويدعونا إلى قصره ، وبعد أن تناولنا العشاء أصرّ علينا أن نبيت في ضيافته .. وهكذا كان .

وفي الصباح ودّعنا، وأمر أحد الجنود بمرافقتنا حتى الحدود السورية في الرمثا .

*

في عام ١٩٦٢ كنت في بيروت. وبلغني نبـأ سوء تفاهم حدث بين وكيلي في تخليص البضائع ، وبين مدير جمرك الطريف بالسعودية، حول أسعار البضائع والرسوم المطلوبة عليهـا . وكان ضرورياً أن أتوجه إلى الطريف ــ والوصول إليها يتم عن طريق الأردن .. وحصلت على سمة المرور بالأردن من سفارة الأردن في بيروت .. وبدأنا المسير من بيروت ليلاً ..

قبيل الفجر وجدنا أنفسنا في H 4 ، ومررنا. ووصلنا الطريف، حيث

أنهيت المسالة في ساعات معدودة ، وقفلنا راجعين . وفي مساء اليوم نفسه وصلنا H 4 هذه المرة عائدين .

كانت الساعة لا تتجاوز العاشرة . ومـا ان دخلنا دائرة الجوازات حتى استقبلنا مدير الدائرة.. شاب حسن الخلق ، دمث ، يقدم لنا الشاي والقهوة ، ويرحب بنا غاية الترحيب . ثم ، وفي طريقة مهذبة ، وكأنه خجل .. استاذننا في أن ندفـع قيمة السمة . أسرعنا بدفعها . ثم قلت له بمزاح : يا أخي ، لم يمض على خروجنا من الأردن ودخولنا إليه ١٤ ساعة. أليس حراماً أن تأخذوا منا قيمة سمتين في يوم واحد ؟! وتطلع إليّ فترة والألم يبدو في عينيه الواسعتين ، وبابتسامة تظللها المرارة قال :

« أقسم بالله أنني أطلب منك الدفع والألم يحزّ في قلبي . يا أخي نحن جميعاً عرب . لغتنا واحدة . وتراثنا واحد . وترابنا واحد . وعقيدتنا واحدة . وشعورنا واحد ، لا يمكن لأي قوة في الأرض أن تجزئه . وإن كان المستعمرون قد استطاعوا أن يجزئوا أرضنا ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يجزئوا مشاعرنا » . ثم أضاف : « هل تعلم لمن هذا المبلغ الذي دفعته »؟ قلت : بالتأكيد للدولة . قال : لا يا أخي ، لا للدولة ولا لي . تفضل معي لتعرف لمن !.

وأخذني إلى الشباك المطل على الحاجز ،وكانت سياراتي تقف بمحاذاته. وأشار إلى الحاجز الخشبي وهو يقول :

.. « المبلغ لهذه الخشبة ،التي استطاع المستعمرون أن يفصلوا بيننا بها وبأمثالها ». ثم أضاف : « يا أخي . أنا لا أريد أن أحرجك . ولكن ، إذا

سمحت لي، وكان بإمكانك،أرجو أن تشرفني بالعشاء عندي الليلة . والله إن الخروف جاهز للعشاء في البيت » .

واعتذرت شاكراً . وألحّ كثيراً ، ولكنه قَبِـلَ عذري عندما تأكد أني لا أستطيع التأخر عن أعمالي في بيروت .

أليس في السطور السابقة عن الواقعتين، وما استفدته منهما معنوياً ، غنىً عن أي مكسب مادي ؟.

لقد عرفت في الاردن رجالاً .. يتحلون بالخلق العربي الأصيل.

★

.. في فلسطين

هذه الصفحات عن القطر العربي العزيز على قلب كل عربي ، لا تعد حديثاً من جملة أحاديثي عن تجاربي في التجارة والحياة العملية ، بل هي حديث ذكريات .. أقدمها لأبنائي .. أبناء الجيل الحـالي ، من الشباب ، الذين لم يكونوا قد أطلوا على هذه الدنيا بعد، فلم يروا أو يعاصروا ، فلسطين بلداً عربياً ، يربط بين بلاد المشرق وبلاد المغرب ، جسراً يصل بين الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر ، يعبره المسافر بالقطار أو بالسيارة في ساعات .. يسير في أرض عربية وبين إخوان عرب .. تماماً كما يتنقل المسافر اليوم بالسيارة أو غيرها بين دمشق وبيروت ، أو بين عمّـان ودمشق ، وبغداد وبيروت .. كنا نتنقل بين بـيروت وعكا وحيفا ويافا ، وبيت المقدس ، ثم بين هذه البلاد العزيزة وغزة والعريش والاسماعيلية وبورسعيد.

كانت فلسطين بحق همزة الوصل بين مشرق العالم العربي ومصر ، ومنها إلى مغرب العالم العربي ، عشرات الألوف من المسافرين لمختلف الأغراض والأهداف ينتقلون منها وإليها وعبرها .. ومئات بـــل آلاف العائلات العربية ، تمتد فروعها على طول الأرض العربية وعرضها ، بعضها يعيش

في القدس أو يافا ، كما يعيش باقي العائلة في بيروت أو صيدا أو دمشق أو عمان أو العريش .

كانت فلسطين وبحق .. بمثابة القلب العربي ، لهذه المنطقة العربية ، ومن هنا سيفهم أبناؤنا اليوم الهدف الحقيقي من إصرار مختلف الدول الاستعمارية على تأييد إقامة دولة للصهاينة على أرض فلسطين، وعلى الحرص على بقائها ، كخنجر يقطع حبل الصلات بين الشرق والغرب ، وكعازل يعزل شطري الأمة العربية الواحد عن الآخر .. ويشتت شمل الأسرة العربية الواحدة .. وسيفهم أبناؤنا كيف التقت أهداف أعداء العرب من الاستعماريين مع أهداف الصهاينة الغاصبين .. على حساب فلسطين بل وعلى حساب الأمة العربية كلها ..

بعد هذه الكلمات ، أعود إلى الحديث عن ذكريات الحياة العملية ، لأقول ، ان الظروف لم تسمح لي بعلاقة تجارية مباشرة مع الاخوة الفلسطينيين ، ففي الوقت الذي بدأت فيه حياتي العملية كانت البلاد تسودها موجات الحماس والاستعداد للتصدي للمخططات والمؤامرات الاستعمارية والصهيونية ، التي كانت قد بدأت تتضح معالمها وأهدافها في اغتصاب فلسطين ، والتي استمرت حتى اليوم !.

لقد عرفت الكثيرين من الاخوة الفلسطينيين كأصدقاء مخلصين ، ولقد عمل منهم معي في السعودية ولبنان المئات .. ويشهد الله على قولي مخلصاً ، أني لم ألق منهم جميعاً إلا كل خير وإخلاص.. وإذا كانت التجارة هي الميدان الحقيقي الذي تنكشف فيه طبيعة كل إنسان واتجاهاته في الحياة ، والذي تتضح فيه أخلاقه وصفاته وأساليبه في التعامل ، فإني ،

رغم أني لم تتح لي فرصة التعامل التجاري المباشر مع تجار فلسطين إلا أن ما علمته وما سمعته عن طرقهم في التعامل يؤكد تمسكهم بالمبادىء الشريفة والصدق والأمانة وهي الصفات التي تؤدي بأصحابها إلى النجاح ، وتحفظ لكل من عمل في مجال التجارة حقه وماله.. ولقد كنت أتمنى لو أتاحت لي الظروف أن يكون تعاملي دائماً مع أمثال هؤلاء الشرفاء.. كما كنت أتمنى، وقد أحاطت بي مشاكل التعامل التجاري هنا وهناك، مما لا أول ولا آخر له ، واضطرتني إلى الدخول في دعاوى تستنفد الوقت والجهد والمال وتعطل العمل والانتاج ..

أقول ، كنت أتمنى أن يوفقني الله إلى قاض عادل وإلى محامٍ حريص على الدفاع عن الحق ، مثل اللذين ورد ذكرهما في هذه القصة التي رواها لي الكثيرون من الإخوة الفلسطينيين، كدليل ثابت على تمسك هذا الشعب، خاصة قضاته ومحاموه بالعدالة الحقة . وانها لقصة واقعية ..

.. في يوم من أيام حكم الانتداب البريطاني في فلسطين ، وقعت حادثة قتل .. كان المتهم رجلاً من أسرة متواضعة ؛ وكانت القتيلةمن أسرة ذات جاه ومال وسلطان .. وكانت الظروف المحيطة بالحادث في صالح المتهم ، وتجعل تمتعه بحكم مخفف أمراً متوقعاً ، ولكن نفوذ أسرة القتيلة وتدخلهم بكل وسيلة ، أدى الى الحكم على المتهم بالاعدام .. واستأنف اهله الحكم واتصلوا بمحام كان عظيم الشهرة آنذاك اسمه « الفاروقي » كان كفيفاً ، ولكن الله عوضه عن فقد بصره بتفتح القلب وصحوة الضمير .

وتعجب الفاروقي من لجوء اهل المتهم اليه بعـــد ان صدر الحكم ، وبعدما أعلن عن اعتراف المتهم اعترافاً صريحاً ، لكنه اقتنع بعدما رووا له الظروف الحقيقية للحادث .. والمداخلات التي حدثت، والضغوط التي وقعت .. مما أدى إلى هذا الحكم غير المتوقع .. وقرر الفاروقي أن يدافع عن المتهم .

وفي الجلسة المحددة ، وقف المدعي العام يدلي بمرافعته،ويطلب تأكيد حكم الاعدام ، والفاروقي صامت تماماً ، وما أن انتهى المدعي العام مـن مرافعته،حتى نزع الفاروقي طربوشه من فوق رأسه ورماه تحت الكرسي الذي كان جالساً عليه .. ثم ركع على الأرض ، يتحسسها وكأنه يفتش عن طربوشه .. لكن بعيداً عـن الكرسي !. ولاحظ القاضي ذلك فقال له : « يا أستاذ ، الطربوش تحت الكرسي ، فلماذا تفتش عليـه ؟! » .. ورد الفاروقي : « يا سيدي ، إنني لا أفتش عن الطربوش ، ولكني أفتش عن العدالة ، لعلني أجدها » ..

وفهم القاضي مقصد الفاروقي ــ كما فهمه جميع الحاضرين ــ وصمت القاضي فترة .. ثم أصدر حكمه .. بنقض الحكم .

نسأل الله ان يكثر من امثال الفاروقي « المحامي المفتش عن العدالة » وأن يكثر من امثـــال ذلك القاضي العادل ، الذي حكم بالحق ، رغم المداخلات والضغوط من ذوي الجاه والنفوذ والسلطة ..

★

.. مع مصر

لم تدم محاولاتي لاقامة علاقات تجارية مع مصر طويلاً . والحق يقال، إنني لم أتحمّـل خسارة ما في الصفقة التي كنت أحاول أن أبدأ بها العمل . بل لقد كسبت منها ولله الحمد .

عندما زار المرحوم الملك عبـد العزيز القاهرة ، سنحت لي فرصة الذهاب إلى مصر ، فسافرت من بغداد إلى القاهرة عن طريق دمشق ـ حيفا ـ بالقطار. ولعلّ الكثيرين الآن لا يذكرون كيف كانت متعة السفر آنذاك ، بالسيارات أو القطار من بغداد إلى دمشق إلى القاهرة رأساً . لم تكن هناك إسرائيل ، الـتي شطرت العالم العربي ، وقطعت الاتصال المباشر بين الشعب الواحد في أقطاره المختلفة .

كنت برفقة الشيخ عبد العزيز بن زيد ، وانضممنا إلى الوفد المرافق للملك عبد العزيز في القاهرة .

وشاني شان كل تاجر .. كان لا بد من أن أنتهز فرصة وجودي في القاهرة لعقد ما يتيسّـر لي من الصفقات، وأنا واثق من الربح، خاصة إذا تمّ لي توفير قيمة شحن البضاعة ورسومها الجمركية .

كان معي ٢٠ ألف جنيه مصري .. وكانت القاهرة يومها لابسة أبهى حلّة من الزينة ، في جميع مرافقها العامة وشوارعها وأسواقها ومبانيها. احتفالاً بزيارة الملك عبد العزيز .

وتجولت في الأسواق ، بقصد شراء نوعين من الأقمشة النسائية ، وكنت مصمماً إذا وجدتها أن أشتري أي كمية منها مهما كبرت .. وفي سوق «الموسكي» تنقلت من متجر إلى متجر ، ولم أجد مطلوبي .. إلى أن وجدت نفسي أمام متجر كبير ، عُلّقت على مدخله صورتان كبيرتان ، إحداهما ، للملك عبد العزيز ، والأخرى للملك فاروق . وكانت صورة الملك عبد العزيز رائعة إلى درجة لم أرَ مثلها من قبل ، تلفت الانتباه بشكل كبير .. كما لفت انتباهي أيضاً لافتة معلقة باسم صاحب المحل، وكان: الحاج فرج ..

وتفاءلت بهذا الاسم : حاج .. وفرج .. وصورة كبيرة للملك عبد العزيز .. ودخلت المتجر ، قاصداً التعارف مع هذا الحاج الطيب .. قبل أن أقصد السؤال عن البضاعة المطلوبة .

وفيما أنا أبدأ بالسلام على موظفي المحل، إذ ببصري يقع على القماش المطلوب. وسألت عن صاحب المتجر ، فقادوني إلى مكتبه . واستقبلني الرجل مرحباً .. وجدت نفسي أمام شيخ وقور ، تعبث أصابعه باستمرار بحبات مسبحة طويلة .. مسبّحاً بحمدالله .. وسرى الاطمئنان إلى نفسي ، وسألته عن الكمية الموجودة عنده من هذا الصنف . فكلف أحد الموظفين بجردها وحصر كميتها . واشتريتها بالسعر الذي حدّده. وعدت في الحال إلى الفندق

وأحضرت ٢٠ ألف جنيه وسلمتها له تحت الحساب، وأعطاني بها إيصالاً. وكان المبلغ يفوق أضعاف ثمن كمية البضاعة الموجودة التي اشتريتها . وكانت هذه الطريقة متبعة دائماً مع التجار الذين سبق وأن تعاملت معهم في الكويت . فقد جرت العادة آنذاك أن التاجر إذا باع ، وسجّل في دفتر البيع المبلغ المدفوع لحساب المشتري ، ثم ارتفع السعر ،يكون الفرق الزائد لحساب المشتري . وإذا نزل السعر فإن المشتري يدفع الفرق ، أو يدفع القيمة كلها إذا لم يكن قد دفع جزءاً مقدماً . لقد كان الارتباط بالسعر ، بمجرد تسجيل البائع له في دفتره ملزماً للطرفين،حتى ولو لم يدفع المشتري أي مبلغ . وفرحتُ بهذه الصفقة .. وخرجت مطمئناً ، وكما يقولون : « وضعت قدمي في الماء البارد » .

ولكن سرعان ما طار هذا الاطمئنان . فكما يقول المثل « ما كان بعينك عين أمثالك عليه » . وإذ بي أرى جزءاً من بضاعتي بحوزة أحد الرفاق في هذه الرحلة ، الأخ محمد بن بطي . وفي بادىء الأمر ، اعتقدت أنه اشترى بضاعته من محل آخر . ولم يكن سؤالي له إلا لمجرد معرفة السعر الذي اشترى به وللاطمئنان الى أني لم أُغلب في السعر . وإذ به يفاجئني بأنه اشترى من الحاج فرج ، وبسعر ، وجدت أنه ضعف ما اشتريت أنا به ! واستغربت الأمر. وذهبت إلى الحاج وسألته : هل بعتَ من بضاعتي شيئاً ؟ قال : أعوذ بالله أن أفعل ..

قلت : يا أخي،لقد رأيت نفس البضاعة عند فلان بقصر الزعفران! فاصر على الانكار .

عندهاطلبت منهأن نجرد البضاعةمرةأخرى. وعندما جردناهاوجدت أنها قد نقصت تقريباً العُشر !. وأمامي ، ثار الحاج وشتم أحد موظفيه، بل وهدده بالطرد من العمل ، وصمم على ذلك . واعتقدتُ أنـه سينفذ وعيده ، وأشفقت على الموظف المسكين ، فتسامحت عما حصل ، حتى لا أكون سبباً في قطع رزق الموظف .

بعد يومين آخرين ، إذا بي أجد عند أحـد المرافقين الآخرين ـ محمد ابن الدغيثر ـ نفس البضاعة .. وبكمية تعادل ربع الكمية التي اشتريتها . وسألته ، فكان جوابه مثل الرفيق السابق.. ولكن السعر الذياشترى به قد تضاعف مرة أخرى !..

وذهبت إلى الحاج منفعلاً .. وقد تغير رأيي فيه .، وبدأت أهاجمه بلطف .. وكان عنده أمير الحج المصري آنذاك.. فتدخـــل الضيف في الأمر ، وطلب مني أن اتسامح.. وان أعبيء الباقي من البضاعةفي حقائب اغلقها بإحكام واستلم مفاتيحها لتبقى معي حتى يحين موعد شحنها لقصر الزعفران، حيث الوفد الرسمي، لأنني كنت أقيم في فندق الكونتننتال ولم يكن من المستطاع نقلها إلى هناك .. ولأني في نفس الوقت كنت قـــد اشتريت من الحاج اقمشة اخرى ، كان لونهـا ابيض فطلبت صبغها بلون معينمرغوب،وكنتانتظر ان اتسلمها لتشحن هي والبضاعة الاولى معاً .. وإذا البضاعة المطلوبة المصبوغة تصل الى المحل على عربات يد .. وانا موجود .. فقلت لكاتب المحل ، احضر الشنط وعبئها رأساً لأن الوقت ضيق . وفوجئت بالكاتب يخبرني ان الحاج قد باع منها قسماً الى

جماعة آخرين من رفاقنا !.. ولم يكن الحاج موجوداً في هذه اللحظة في المتجر ..

وفي الحال انطبع في مخيلتي المثل القائل : « اذا لم تكن ذئبـــاً اكلتك الذئاب» (اذا لم تكن في الارض ذئباً كثير الأذى بالت عليك الثعالب) ..
ولم اجد بداً من اللجوء الى القوة لعلني استخلص حقي .. ولعل ممـــا ساعدني هو وجود هذا الموظف المسكين، الذي سبق وان تحمل الاخطاء وهو منها براء. . وكان مقدراً لموقفي السابق عندما تسامحت وعارضت في صرفه..

وسلم الكاتب الى كل صاحب عربة ورقة يسلم بها البضاعـة في قصر الزعفران .. وسارت العربات متجهة الى القصر.. واسرعت انا انتظرها هناك.. بعد ذلك علمت ان الحاج فرج وصل الى المتجر وبرفقته المشترون الذين اتفق معهم على شراء بضاعتي ، لاستلامها !! وكانوا قد دفعوا له قيمتها ، وبسعر باهظ .. وسأل الحاج عن البضاعة ، وجن جنونه عندما أخبره الكاتب بما حدث من وصول البضاعة واستلامي لها كلها ..

وأمره أن يأخذ سيارة ويسرع خلف العربات ، ليرجع بها فوراً .. وادخل المشترين الى مكتبه قائلاً لهم ان البضاعة ستصل على الفـــور من المصبغة .. ورجاهم ان ينتظروا وصولها ..

كانت العربات قد وصلت الى الجسر المؤدي الى القصر .. وشاهدتها تقف ولا تتقدم .. فأسرعت الى مكانها. .واذ بي أجد الكاتب ،ويخبرني ان الحاج أمره باعادة البضاعة ، وان اصحاب العربات يتمنعون عن العودة..
وكان لا بد من استخدام مظاهر القوة .. فأمرت العربات ان تتقدم الى القصر . وأنزلت البضائع هناك ..

وعدت الى الحاج فرج أصفي حسابي معه . ووجدت أمامي اخواني المشترين وكانوا : محمد النعيمة وعبدالعزيز بن شلهوب وعقيل الخطيب. ينتظرون البضاعة الموعودة !

وأسرع الرجل يأخذني على جنب .. ويحاول إفهامي ان الموظفين قد أساءوا التصرف ، وانهم تصرفوا بالبضاعة من حيث لا يدري .. فباعوا قسماً منها واستلموا قيمته .. ويرجوني ان أرجع له قسماً منها !. فأجبته « كفى ما حصل ياحاج،وواحدة بواحدة». وحاسبته واستلمت المبلغ الذي زاد عن ثمن البضاعة التي تسلمتها .. وعاد الى المشترين يخبرهم ان البضاعة ما زالت في المصبغة ! ويتعهد لهم بأن يشحنها لهم بالباخرة الى جدة !. وكانت فرصتهم ان يشحنوها معهم .. فرفضوا جميعاً ، وانهالوا عليه بالشتائم ، التي أعتقد انه استحقها نتيجة لأساليبه الملتوية ..

.. و « من تعرض للحراب يتحمل الطعن»..

الفصل التاسع

من تجارب الحياة العمليّة في لبنان

في لبنان

أعود بالذاكرة إلى ما قبل سبعة وعشرين عاماً ، عندما بدأت علاقتي بلبنان ، هذه العلاقة التي توطدت على مر السنين حتى تحولت إلى إقامـة شبه دائمة ، وأصبح لبنان وطناً ثانياً عزيزاً ، وسيظل باذن الله .

أني استعرض هذه السنوات الطوال .. تمر مـن أمامي الذكريات ، وكأنها حلم جميل ، جميل جمال لبنان ، بطبيعته الخلابـة ، وأهله السماح الكرام .. حلم جميل كل الجمال ، بغض النظر عما يتخلل الأحلام عادة من منغصات ، إن كانت تجعل المرء يستيقظ منزعجاً بعض الشيء ، ولكنها عادة لا تفسد الحلم الجميل كله .. وكذلك علاقتي بلبنان .. علاقـة وطيدة وثيقة دائمة ، وجميلة ، وإن تخللها بعض المنغصات التي لا بـد لكل من سلك طريق الأعمال التجارية والعلاقات المالية من أن يتعرض لها سواء أراد هو أو لم يرد ، فهذه طبيعة البشر في كل مكان ..

ماذا كنا نعرف عن لبنان ، نحن السعوديون .. منذ ثلاثين عاماً ؟ .. وماذا كان لبنان يعرف عن السعودية والسعوديين . منذ هذه المدة ؟ !

كنا نعرف عن لبنان ، الكثير .. ولم يكن لبنان يعرف عنا شيئاً ! .. كنا نعرف ان لبنـــان بـلد جميل ، على شاطىء البحر ، حباه الله بجمال في الطبيعة ، يميزه عن بقية بلاد المنطقة . وان به تقدماً وحضارة ،

تجعله قريباً بعض الشيء من البلاد الأوروبية ، كما كنا نقرأ عن المعارك الحربية التي دارت فيه خلال سنوات الحرب العالمية الثانية بين قوات المحور والقوات البريطانية والمتحالفة والقوات الفرنسية المحتلة لأرضه، والمنشقة عن القيادة الالمانية التي كانت تسيطر على معظم قوات فرنسا بعد احتلالها .. وباختصار ، ربما كانت في تلك الأيام معرفة السعوديين بسوريا ، أكثر من معرفتهم بلبنان. هذا ما كنا نعرفه عن لبنان، أما ما كان يعرفه لبنان عنا ، فسيتضح للقارىء الكريم من سياق القصة الآتية التي بدأت بها علاقتي بلبنان .. والتي سيفهم منها ، لماذا صممت على ان تكون علاقتي بلبنان وطيدة وثيقة ودائمة لا علاقة سائح يقضي به أياماً او شهوراً ويرحل عنه الى غيره ..

قبل ان أبدأ القصة ، أحب ان أؤكد ، ان حصيلة هذه السنوات الطويلة ، كانت تحقيقاً لهدف قصدته منذ أول الأمر .. ولعل هذا ما يجعل لي حقاً معنوياً ، على لبنان وأهله الكرام ، بغض النظر عن الحق المادي ، فهذا ما لا يجب ان يتحدث عنه أحد ، ولا أحب ان أتحدث عنه ..

ولقد سألني الكثيرون ، وبالذات من أبناء وطني: لماذا لم تقم بنشاطك التجاري طيلة هذه السنوات في بلدك ؟ ولماذا لم تركز عملك في الرياض او جدّة ، ولقد كان ذلك كفيلاً بأن يجعلك من أغنى الأغنياء ؟..

ولهؤلاء أقول : « ان إقامتي وعملي في لبنان، كانا لهدف.. وان علاقتي بلبنان أسمى وأغلى عندي من المال. وان في اقامتي بوطني الثاني -لبنان ، لفائدة لوطني الاول » . كيف ذلك ؟. لنقرأ القصة ..

في عام ١٩٤٥ وصلت الى «الشام»، وكانت لفظة الشام آنذاك تطلق على المنطقة كلها .. وتعني سوريا.. وصلت في نفس اليوم الذي تم فيه الاتفاق على وقف اطلاق النار مع الفرنسيين . وقررت يومها ان أزور بيروت ، للمرة الاولى ، بضعة أيام للسياحة والاستجمام .. ولقضاء بعض اللوازم الضرورية ، ثم العودة ثانية الى دمشق .

وانطلقنا ـ أنا واثنين من الاصدقاء . عبد العزيز المعشوق ، ومحمد سليمان آل عنبر ، مستقلين سيارة « فورد » ـ موديل ٤٠ ـ كانت تبدو آنذاك سيارة فخمة تسر الناظرين !

واتجهنا الى « بيت مري » لننزل في فندقها ..

عندما سلمنا جوازات سفرنا الى الموظف المختص بالفندق ، لتسجيلها في دفاتره . شاهدنا الحيرة ، ومعالم التفكير على وجهه .. لقد احتار في هوية جنسيتنا !. وبعد فترة غير قصيرة وهو يقلب الجوازات تطلع الينا ، وسأل : عفواً ، ما هي جنسياتكم ؟..

أجبته : إننا سعوديون ..

وأجاب بصوت خافت : أهلاً وسهلاً ، ولا زالت الحيرة على وجهه ، ثم عاد يسأل : وما هي السعودية ؟ أين تقع ؟ هل هي بعيدة عن بغداد ؟!

وأخذنا نشرح لهما يريد معرفته.. ويناقشنا ونناقشه.. ويفهم منا كلمة ولا يفهم أخرى، ونفهم منه كلمة ولا نفهم اثنتين! وطال الحوار ، الى ان أمره موظف آخر كان بجانبه ان يسجل أسماءنا . وصعدنا الى غرفتنا .. والرجل لا زال يفكر .. ما هي السعودية وأين تقع !!..

قضينا الليلة في بيت مري ، ويكفي ان يعلم القارىء اننا كنا يومها ، السعوديين الوحيدين في لبنان ! وفي الصباح قررنا الانتقال الى عاليه .. قاصدين أوتيل « جبيلي » .. الذي دلنا عليه أحد الاصدقاء في الشام .. كمكان ممتاز للاقامة ..

وفي الطريق الى أوتيل جبيلي ، شاهدنا على لافتة كبيرة « أوتيل الرياض » .. وكانت مفاجأة مفرحة .. وقلنا لبعضنا : في هـذا الاوتيل لا بد وأنهم يعرفون السعودية والسعوديين .. وفي الحال أوقفنا السيارة ، ولم نكلف نفسنا عناء السؤال أولاً عن غرف خالية ، بل أنزلنا الحقائب بدون تردد معتقدين انه ما دام « أوتيل الرياض » فلن نحمل هماً لشيء !.

وكانت المفاجأة .. عندما تقدمنا الى الموظف المختص بالتسجيل ، حدث نفس ما حدث في أوتيل بيت مري ! نفس الأسئلة ، ونفس الحوار والمناقشة .. نفس التساؤل : ما هي السعودية .. ومن هم السعوديون ؟.. وأين تقع هذه البلاد ؟.. وفي الحقيقة ، ازدادت دهشتنا ، وألمنا .. لعدم معرفة أحد لبلادنا ..

وقضينا الليلة في أوتيل الرياض .. المسمى على اسم عاصمة بلادنا .. والذي لا يعرف من فيه شيئاً عن بلادنا !

وفي صباح اليوم الثالث توجهنا بالسيارة الى « ضهور الشوير » .. وكنا نفسر ما صادفناه تفسيرات مختلفة ، انتهت الى تسليمنا بأن القوم معذورون ..و « ان كل الناس لا تعلم كل شيء » .. وانه اذا كان موظف في فندق، او موظفان، لا يعلمان عن السعودية شيئاً ، فهـذا أمر غير مهم

ولا يعني أن لبنان كله لا يعرف عنا شيئاً .بذلك أرحنا أنفسنا من التفكير في هذه المشكلة !

وقصدنا أوتيل « قاصوف » .. وتكرر معنا نفس ما حدث في بيت مري وعاليه ..!

الى هنا، لم تكن المسالة أصبحت مشكلة بالنسبة لي ولأصدقائي ، ورغم أنها آلمتنا قليلاً .. والانسان منا ، يحب ان يعرف العالم كله عن بلده كل شيء ، وكان لا بد أن نتعجب وندهش ونكاد نغضب ، ونحن في بلد عربي ولا يعرف أحد من أهله عن بلدنا شيئاً. ثم وصلنا بيروت ..بعد ذلك بأيام وكنا نتناول الغـــداء في « مطعم منصور » في بيروت وبصحبتنا صديق تعرفنا اليه ، طنوس ابو سلمى ، من سكان سن الفيل (وكانت بنت اخته متزوجة في السعودية وهي والدة محمد سليمان العنبر).كنا نساله كثيراً عن أماكن التنزه والاصطياف.. وكنا بلباسنا العربي ، وعلى المائدة التي خلف مائدتنا، رجل على رأسه طربوش..تبدو عليه مظاهر العظمة والرفعة.. ولاحظت في المرآة المعلقة على جـدران المطعم انه يطيل النظر اليـنا ، وتظهر عليه الرغبة في التحدث الينا،ثم لاحظت انه تحدث الى الكرسون، الذي حضر الى مائدتنا وهمس ببضع كلمات في أذن رفيقنا ابو سلمى،الذي أسرع بالقيام ، وتبعه الى مائدة الرجل .. وتحدث اليه ثم عاد الينا وهـو يقول : ان هذا الرجل ، هو « فـلان بك » نائب في البرلمان ،وشاعر معروف،وكاتب كبير،وصحفي لامع..وانه يدعونا الى مائدته،او يستأذن في الانتقال الى مائدتنا للتعرف الينا .. فرحبنا بالدعوة ، وقلنا : ليتفضل

معنا ، أهلاً وسهلاً .. وفرحنا، إذ وجدنا أخيراً الفرصة للتعرف بشخصية كبيرة لا بد وان تعرف بلدنا .. وتفضل الرجل وانتقل الى مائدتنا ، وتعـارفنا ، وأنسنا الى الحديث والنقاش حول الاحوال الحيـــاتية والسياسية .. ثم كانت المفاجأة . أخذ يسألني عن السعودية وكأنه يسأل عن الصين او كوريا او اليابان في ذلك التاريخ !!

وفي الحقيقة لقد تألمت .. ولم أستطع اخفاء ألمي ، فقلت له : « كيف تسألني هذه الأسئلة كلها عـن السعوديـة ، وانت نائب وشاعر وصحفي ومؤرخ ؟ هل الى هذا الحد اصبحت السعودية نكرة لا يعرف عنها احد شيئاً حتى من المطلعين أمثالك؟» ثم أضفت : « والله لن أجيبك على أسئلتك بكلمة واحدة، ولكن جوابي سيكون عملياً. ووالله، لو بقيت حياً، لترينّ الرياض في بيروت ، وبيروت في الرياض .. »

أقسمت هذا اليمين ، واصبحت ملزماً به ، من فرط انفعالي .. ولا بد أن أفي به.. لا بد ان يرى الجميع ويعرف الجميع في لبنان ، كل شيء عن السعودية ، ولا بد ان تعرف السعودية والسعوديون كل شيء عن لبنان .. وكنت على ثقة من قدرتي على تنفيذ ذلك ، وعلى البر بقسمي، اعتماداً على معرفتي التامـة بمشاعر الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله ، تجـــاه لبنان ..وهو الذي قال عبارته المأثورة: « ساحمي استقلال لبنان في لبنان».

وانقضت الايام .. وعدنا الى الرياض ..

وفي يوم وصولي الى الرياض، سعدت بمقابلة المرحوم الملك عبد العزيز ، وخلال الحديث رويت له رحمه الله ، ما رأيت وما سمعت خلال رحلتي

الى سوريا ولبنان .. ثم قلت : اني أشعر ان هناك طوقاً بيننا وبين السواد الاعظم من الشعب اللبناني .. فهل من الصالح كسر هذا الطوق او ان الافضل بقاؤه ؟.

فأجابني رحمه الله على الفور : « بل يجب كسره ، ولكن ، كيف السبيل الى ذلك ؟. »

قلت : ان الأمر في نظري بسيط جداً .. ان بلادنا،والرياض بالذات، بحاجة ماسة الى الخبرة الفنية المتوفرة في لبنان وسوريا، والتي تلزمنا لتنفيذ مشاريع كثيرة ومفيدة .

قال : مثل ماذا ؟..

قلت : مثل إقامة ورش وجراجات لاصلاح السيارات العمومية والخصوصية ، التي يضطر مالكوها لارسالها إلى البصرة أو الكويت لاصلاحها كلما طرأ عليها عطل ولو بسيط .. ومثل مشروعات إقامة المساكن وما يلزمها من مهندسين معماريين وعمال فنيين. .وغير ذلك كثير.

قال : وهل بإمكانك أن ترتب هـذه الأمور ؟

قلت في ثقة : نعم يا طويل العمر .

قال : وما الذي تطلبه منا لكي تتيسر لك مهمتك ؟

قلت : كتاب لسفارة المملكة في دمشق ، بالسماح بدخول المهندسين ، بدون تحديد عدد ــ إلى المملكة ..

ووافق رحمه الله على طلبي ..

وكان لديّ أمر يجـول في خاطري ، قررت أن أستوضحه ، حتى

أكون على بيّنة قبل إقدامي على العمل ، وسألته رحمه الله : هل هناك مانع إذا أدخلت المهندسين والعمال ، سوريين أو لبنانيين ، باعتبار جنسيتهم فقط بصرف النظر عن أي مذهب ديني ينتمون إليه ؟

وكان جواب الملك : ليس لدينا مانع .. أبداً ..

وشكرت الله ، وشكرته رحمه الله ، وانصرفت لأبدأ مرحلة عملية جديدة من حياتي ، أنفذ فيها ما عاهدت نفسي على تنفيذه .. بعد أن يسّر لي الملك مهمتي بالموافقة على كل ما طلبت .

ولم تكن موافقته رحمه الله على ما طلبت من تسهيلات هي كل ما ساهم به في نجاحي ، فلقد ظلّ يمدني بكل عون وتأييد ماديّ ومعنويّ في كل مناسبة ، هذا إلى جانب ما تمتعت به أيضاً ، من ثقة وتأييد ودعم من قِبَل ولي العهد الأمير سعود رحمه الله ، ونائب الملك آنذاك الأمير فيصل بن عبد العزيز ، أطال الله في عمره وحفظه للبلاد .

*

كان هدفي كما يذكر القارىء أن أعرّف أبناء بلدي بلبنان ، وأن أعرّف أبناء لبنان ببلادي ..

وكان مجال ذلك واضحاً في ذهني . لبنان بلد جميل،سياحي،يطيب لأبناء بلدي أن يقضوا في ربوعه كل ما يمكنهم قضاؤه من وقت، يتمتعون فيه بطيب هوائه ومناخه وسماحة أهله ، والسعودية بحاجة إلى الأيدي العاملة والخبرات الفنية المتوفرة في لبنان ..

وتوكلت على الله ، وكلي حماس واندفاع في تحقيق ما تصديت له ، وكلي أمل وثقة ، بعد هذا التأييد الشامل الذي حظيت به من الملك وولي عهده ونائبه ..

كان أول ما بدأت به أن باشرت بين أصدقائي وإخواني ومعارفي ، وكل من لي صلة به ، حملة دعاية منظمة للبنان ، أتحدث عن جماله الطبيعي ، وبديع مناظره ومناخه وحُسن ضيافة أهله . وكنت أقوم بالدعاية بحماس وفي كل مكان ومجال ، وكأني لبناني موفد من لبنان ومكلف بذلك تكليفاً . ولكني راعيت في دعايتي أن تكون أقل من الواقع الذي لا بد وأن يراه من سيقوم بالسفر إلى لبنان من أهل بلدي ، حتى إذا حلّ في لبنان ، لم يجد في كل ما قلت مبالغة ، بل وجد ما يفوق كل وصف وصفته ، وكل دعاية قمت بها .

واقتنع الكثيرون.. وقرروا قضاء اجازاتهم في لبنان ، وبدأت جماعات جماعات تسافر اليه ، وتعود لتؤكد للباقين صدق ما تحدثت به ، ليزيد العدد كل عام ..

وسافرت الى بغداد ، ومنها ــ بواسطة شركة نيرن التي لا زالت سياراتها تعمل حتى اليوم بين بغداد ودمشق ــ وصلت إلى دمشق ثم بيروت وقمت بشراء بعض المنتجات اللبنانية والسورية ، وبشراء عدّة آلات زراعية ، ومضخات ، وأنابيب للمياه ، وقمت بشحنها على شاحناتي الخاصة إلى المملكة .

كانت شاحناتي هذه ، أول شاحنات تصل إلى الرياض حاملة بضائع

من سوريا ولبنان عن طريق الصحراء . ولقد ظلت كذلك فترة طويلة ، لا يعمل على الطريق غيرها. .ولا تتوقف عن جلب المنتجات إلى الرياض. إلى أن قام بعض إخواننا السوريين واللبنانيين ، بشراء شاحنات باشرت عملها في النقل التجاري .. مشاركة لشاحناتي على هذا الطريق .

في نفس الوقت الذي كانت شاحناتي تذهب وتعود محمّلة بالمنتجات اللبنانية والسورية ، باشرت تنفيذ القسم الآخر من مشروعاتي .

وكانت أول خطوة ،إنشاء ورشة ميكانيكية لاصلاح السيارات في الرياض ..

اتفقت مع أحد المهندسين الميكانيكيين المشهورين آنذاك في سوريا ولبنان ، بالخبرة والاتقان ، (كان تركي الجنسية ، وكانت كفاءته عظيمة) . اتفقت معه على أن يوفد بعض مساعديه وعماله ، ومن يستطيع تدبيره من العمال الميكانيكيين ذوي الخبرة من سوريا ولبنان وفلسطين، وقمت بشراء جميع المعدات اللازمة وشحنتها إلى الرياض .

وبعد تمام الاستعداد ، افتتحنا الورشة المعروفة باسم المنصورية (بالرياض) .. وكانت من أوائل الورش في إصلاح السيارات والمزودة بكل الامكانيات الفنية آنذاك في المملكة .

وكانت الخطوة الثانية ، هي إنشاء شركة هندسية معمارية ، لتشييد المباني والمنشآت في الرياض .

واتفقت مع السادة : فايز الفرخ، عبد الله سوسه ، ولويس ابي شديد، كمهندسين معماريين ، وأوكلت إليهم أن يختاروا من يثقون في كفاءته من

العمال السوريين واللبنانيين . كما اتفقت أيضاً مع اختصاصي بالنحت (مصطفى سنجاب) ، ومعه ١٥ عاملاً اختصاصياً في النحت والبناء .. وأتممت إجراءات السفر بالنسبة للجميع ، وسافروا إلى الرياض بسياراتي عن طريق الصحراء ، عدا الثلاثة الأول «الفرخ والسوسه وأبو شديده» الذين دبرت لهم السفر بالطائرة إلى جدة عن طريق القاهرة ».

أذكر هنا واقعة طريفة .. فعندما قدّمتهم لتحية أحد المسؤولين في الدولة بعد وصولهم .. واطلع المسؤول على أسمائهم ، همس في أذني : «أعتقد يا أخي ابراهيم أنك تسرعت في الاختيار .. فهذه الاسماء ، السوسة والفرخ وشديد ، لا تبعث على التفاؤل .. وأخشى ان تكون مخدوعاً في كفاءتهم وخبرتهم ، وألا يستطيعوا ان يقوموا بالأعمال التي تعتزم القيام بها . بل وأخشى ان يتصرفوا بما يسيء اليك والى لبنان الذي تسعى للدعاية له والتعارف مع أهله .. وأرجو ألا يكونوا من أولئك القوم الذين يقدمون الى البلاد ظناً منهم أنها فرصة للثراء السريع عن أي طريق ، حتى ولو كان بدون تقديم أي عمل يشكرون عليه . أو ممن يلجاون الى وسائل غير مشروعة للثراء السريع اعتماداً فقط على مقدرتهم في الحديث والتلاعب بالالفاظ الى حدّ الخداع ». وتعجبت من كلام المسؤول !.. ودافعت عنهم .. موضحاً له أني ـ وإن كنت حديث العهد بالاتفاق مع الخبراء والاختصاصيين ، وإن كنت بالفعل لم أجرّبهم ولم أتأكد مما قاموا بتنفيذه من مشروعات عمرانية في لبنان او سوريا ، إلا أني لا أعتقد انه من الممكن ان يقدم إنسان على ادعاء خبرة ليست له وخاصة في أمور فنية مثل الهندسة

والبناء.. وأنه وإن كانت أسماؤهم بالنسبة اليه لا تبعث على التفاؤل. إلا إني أرجو ان تقنعه خبرتهم وكفاءتهم وفنهم، بأن الأسماء لا علاقة لها بالخبرة.. وأني أرجو ان يكونوا فنيين بالفعل، وحريصين على سمعتهم وسمعة بلادهم. وسمعتي أمام أهل بلدي الذين كانوا يتتبعون مشروعاتي بكثير من الاهتمام..

ومضت الأيام والأسابيع .. والشهور ، وهذا الفريق الكبير يقيم في الرياض على نفقتي الخاصة .. ولم يرَ المواطنون مشروعاً واحداً ينفذ او بناء واحداً يقوم ..!

واضطررت إلى ان أتولى بنفسي العمل، وان أشرف على كل شيء.. وبدأت في إقامة بناية لي .. وتحملت ما تحملت في سبيل الانتهاء منها على أكمل وجه ، حتى إذا تمت ، ورآها النـاس ، أقبل الكثيرون يتفقون معي على مشروعاتهم . وقبل أن يتم بناؤها اتفقت مع الأمير عبد الرحمن بن عبد العزيز على بناء قصر له في « منفوحه » وعلى قصر للأمير مشعل بن عبد العزيز في « الصالحية » ولم يكمل بناء هذين القصرين إلا وقد ذقت الأمرين ولكنني أتممت عملي بكل تضحية ـ وعلى هذا تكون استنتاجات المسؤول في الدولة ، حول اسمائهم ، قد صحت !

وفضلت الاستغناء عن ذلك الفريق الأول.. وعاد من عاد منهم إلى بلده، وبقي من بقي في السعودية بكفالة غيري. ووفقني الله الى الاتفاق مع السيد المهندس نقولا رزق الله، المحافظ السابق لمدينة بيروت. والحمد لله، كان الرجل مثال الاخلاص والنزاهة والتفاني في العمل .. وكان خير مثال لما يجب أن يكون عليه اللبناني القادم إلى المملكة.. إخلاصاً وخلقاً وحسن تصرف .. وأسفت كثيراً ، عندما آثر أن يترك العمل ويعود الى لبنان لأسباب صحية.

في هذه الأثناء ، كنت دائم التردد بين بيروت والرياض ، أوالي أعمالي وأواصل اتصالاتي.. وأذكر هنا ، بكل عرفان ،ما لمسته من التأييد والتشجيع من رئيس لبنان الراحل ، الشيخ بشارة الخوري . ورئيس الوزراء المرحوم سامي الصلح ، وغيرهم كثير ممن لا زالوا على قيد الحياة ، ولا زالت صلتي بهم صلة الود والصداقة حتى اليوم ..

وكان لهذا التأييد والتشجيع من قطبي لبنان ، أثره الكبير في نفسي، فاندفعت في العمل ، دون نظر إلى ما يحققه من ربح مادي أو ما أتحمله من خسارة .. لأحقق كل ما كان يجول في خاطري من وسائل التقريب وتدعيم العلاقات بين البلدين الشقيقين .

وتم افتتاح السفارة السعودية في بيروت عام ١٩٤٦م .

وبمشاورة السيد ميشال توما مدير السياحة والاصطياف آنذاك ، قررت افتتاح مكتب باسم « مكاتب التسهيل للسياحة والاصطياف » عام ١٩٥٠ ، بمشاركة السيد سليم القواص بخبرته وبدون رأسمال ..

قمت بنشر الدعاية المكتوبة والمصورة للبنان ومناطقه السياحية وآثاره المشهورة ، على نفقتي الخاصة ، وكنا نستقبل الوافدين ونرعاهم وننجز لهم أعمالهم ونقوم تجاههم بكل واجب ، ودون أي مقابل .

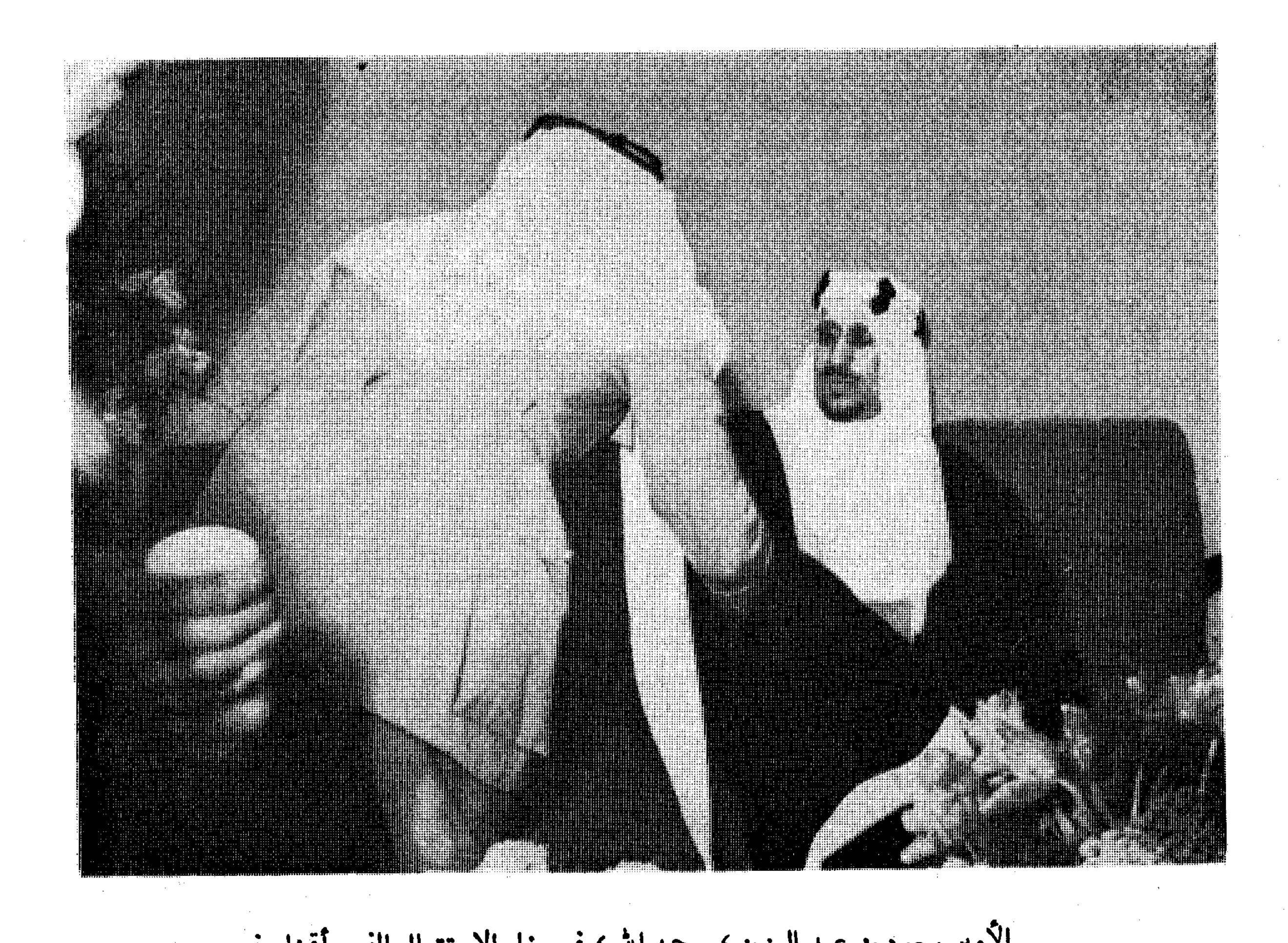
وكان المكتب زاخراً بالموظفين، إذ كان به ثلاثون موظفاً، موزعين على اقسامه المختلفة.. الادارة يتولاها السيد القواص وأولاده ، وتنظيم الرحلات يتولاه السادة محمود الحبال وعفيف البلطجي ومساعدوهم ، والسيد جوزيف الخوري ومساعدوه لترتيب الاقامة والسكن والفنادق ، والسيد محمد علي المارديني ومساعدوه لشؤون الطلاب والمرضى ..

وكان لتعاون السادة المدرسين ، والأطبـاء ، والصحفيين ، الدائم ، لأعمالنا ، أثر كبير في تشجيعي وحفز همتي إلى مواصلة الجهد في جعل المكتب يقدم الخدمات إلى الوافدين من المملكة على أكمل وجه .

ولا بد هنا ، أن أذكر بالتقدير والعرفان ، مواقف فخامـــة رئيس لبنان الأسبق ، كميل نمر شمعون ، الذي أدرك أهميـة الهدف الذي أسعى إليه ومصلحة البلدين الشقيقين في تحقيقه وأيدني وبارك خطواتي، وقدّر أعمالي ومجهوداتي كل التقدير.. ومن أمثلة تقـدير فخامته ، مـــا حدث عندما تقررت زيارة الأمير سعود رحمه الله ، ولي عهد المملكة آنذاك ، للبنان ، فقد قصدني بعض إخواني السعوديين المقيمين في لبنان ، متذمرين من ضيق البروتوكول المحـــدد للزيارة ، ومحتجين على ترتيب مكانهم في الاستقبال ، إذ اعتبروه غير لائـق بهم ولا بمركزهم كروّاد[1] يستقبلون أميرهم في وطنهم الثاني . كان ذلك قبل يوم واحد مـن وصول الأمير ، فأسرعت اتصل بالمسؤولين عن ترتيب اماكن المستقبلين ، الذين اقتنعوا بوجهة نظرنا وايدوها مشكورين ، وابلغوا الأمر إلى الرئيس شمعون ، الذي بادر إلى الاتصال بي بواسطة السفارة السعودية في بيروت ، ثم ارسل اثنين من مفوضي الأمن العام ليذهبا معي إلى المطار ، لكي نعيـد النظر

---

(١) أفضل استعمال كلمة (رواد) بدلاً من كلمة (جالية).. إذ أن مفهومي الخاص لكلمة (جالية) أن تطلق على من (جلا) عن بلاده لسبب ما ، وبلادنا ولله الحمد لا أحد (يجلو) عنها، أما (الرواد) فهم الطليعة التي قدمت إلى لبنان، واختارت و (أرادت) الاقامة في ربوعه .



الأمير سعود بن عبد العزيز ، رحمه الله ، في حفل الاستقبال الذي أقمناه في
مكتبنا ببيروت ، احتفالاً بزيارته للبنان .. وكان ولياً للعهد آنذاك

في ترتيب اماكن المستقبلين ونحدد المكان اللائق بالاخوة الروّاد والطلاب وكان ذلك ما تم بالفعل بسرعة ودقة وبكل ترحيب ..

.. ليس ذلك فحسب ، بل إن فخامته قد سمح بتجاوز البروتوكول المعدّ للزيارة ، عندما وافق على إقامة حفـل استقبال في مكتبي للأمير ، وتكرّم بحضوره .. وخلال الحفلة ، شكرني فخامته، وتكرّم فطلب مني أن أتصل به فوراً على هاتفه الخاص كلما احتجت لذلك ، ثم هنأني قائلاً : « إنك تستحق وسام المواطن » .. وشكرت له عظيم تقديره واهتمامه وأجبت « الوسام يمنح للغريب يا فخامة الرئيس .. وأنا لست غريباً عن لبنان » ..

*

وازدهرت الأعمال .. وازدادت الاتصالات بين الرياض وبيروت ، وكثر الزائرون من البلدين .. حتى بلغ عدد الأخوة اللبنانيين من الفنيين فقط الذين سافروا للعمل في مشروعاتي بالمملكة ، وبكفالتي بدون أي مقابل ، ما يزيد عن الثلاثمائة شخص .. وشعرت اني حققت جزءاً من هدفي الذي كنت دائم السعي اليه ..

وأذكر هنا واقعة طريفة ثانية ـ وما أكثر الحوادث الطريفة التي صادفتني خلال حياتي العملية في لبنان وسوريا ومصر والعراق والكويت والخليج وغيرها من البلاد .. هذه الحوادث الطريفة التي كانت تخفف عني عبء العمل الجاد المتواصل ، وعبء التفكير في المشاكل التي لا بـد وأن تحدث لكل من يعتمد عمله على الصلات الدائمة والمستمرة مع ألوان من البشر يختلفون في طباعهم فمنهم الطيب ومنهم الشرير ، ويختلفون في

ثقافتهم فمنهم المتعلم ومنهم الجاهل ، ويختلفون في أخلاقهم فمنهم القويم ومنهم الدنيء ، ويختلفون في حيائهم فمنهم ذو الحياء ومنهم الصفيق ، كما يختلفون في نظرتهم إلى من يتعاملون معه فمنهم من يؤدي واجبه لينال حقه وهو مستريح الضمير ، ومنهم من يتخذ العمل مجرد وسيلة للنصب والاحتيال !.. ألوان من البشر ، لا بد وأن نلتقي بها في أي حياة عملية طويلة خاصة اذا كان المرء يمارس عمله في بلدان مختلفة .

طبيعي أن يصادف المرء في حياته العملية ، من يشجعه ويعينه ويحرص على نجاح أعماله ويقدّم له العون تلو العون دون أي مقابل .. إلا صداقة وأخوة واخلاصاً ، نادراً ما يتوقعها المرء حتى من أهله .. وطبيعي أيضاً أن يصادف المرء من يحقد عليه ويحاول أن يعرقل أعماله بل وأن يحطمها دون سبب مفهوم ودون ثأر سابق ! كما هو طبيعي أن يصادف المحتال العريق في فنّه البشع والذي يعتبر الاحتيال على الغير ـ سواء كان هذا الغير مواطناً له أو غريباً عن البلاد ـ يعتبره « واجباً » مشروعاً يجب عليه أداؤه ! بل ويشجعه على أدائه أترابه وأصدقاؤه !

والحياة هكذا .. هدوء وعواصف ، علاقات سامية ، وعلاقات تثير المتاعب ، وحوادث طريفة تبهج النفس ، وأخرى كئيبة تثير الهم والاستياء !

أحياناً ، بعد هذه الحياة العملية الطويلة ، وأنا أستعيد ذكرياتي ، كثيراً ما أحاسب نفسي .. هل أخطأت في الحساب والتقدير عندما تعاملتُ مع فلان أو فلان ؟.. ولماذا خدعت في فلان ؟.. وكم خسرتُ

بسبب فلان ؟ ولماذا تعمّد فلان الآخر الإساءة إليّ ؟.. لأنتهي من هذه التساؤلات إلى الجواب المقنع : إنها الحياة .. وإنهم بشر .. والبشر يخطئون .. وأنا بشر ، ولستُ معصوماً عن الخطأ..

نعود إلى ذكر الحادثة الطريفة ..

في يوم من الأيام . والعمل مزدهر ، والمسافرون للعمل في السعودية يزدادون يوماً بعد يوم ، والسعوديون القادمون إلى لبنان لقضاء اجازاتهم أيضاً تزداد أفواجهم شهراً بعد شهر .. حضر إلى مكتبي رُجلي شرطة ، ومعهم طلب لدفع غرامة قدرها ثلاثمائة ليرة لبنانية .. وسألت عن سبب الغرامة ، فقيل لي انني قمت بتسفير أناس إلى السعودية ، وذلك مخالفة ، لأن مكتبي هو مكتب « تسهيل السياحة والاصطياف » وليس مكتباً « للسفريات ».. وكان ذلك مقنعاً إلى حدٍّ ما ..

وتوجهت إلى المرحوم سامي الصلح ، رئيس الوزارة آنذاك ، في مكتبه في السراي .. وقلت له : إنكم تشجعونني على العمل لتوطيد العلاقات بين بيروت والرياض.. وتشجعونني على اختيار العناصر الفنية للعمل في المملكة .. فهل تكون النتيجة بعد ذلك هذه الغرامة ؟. وبأسلوبه اللطيف ، طمانني دولته أن ذلك لا يمكن أن يكون .. وبعد الاتصال بعدد من المسؤولين ، تجمّد الموضوع ، وشكرته على اهتمامه وحسن تقديره ..

ومرّت الأيام والشهور ، ونسيت الأمر ، إلى أن فوجئت بعد أكثر من عامين بأحد رجال الشرطة في مكتبي ، وكان مكلفاً « بجلبي » إلى

السراي .. وذهبت ، وأنا أستعيذ بالله من شر ذلك اليوم.. وأُجهد الفكر فيما عساه أن يكون سبباً لهذا الاستدعاء دون أن أصل إلى سبب معقول!

وذهبت الى السراي، وقابلت أحد الضباط ، واطمأنت نفسي لحسن استقباله ولطف معاملته وتحيته ، وجلست وأنا أنتظر أن أعلم السبب .. الى أن سألني بكل لطف : أنت فـــلان .. وأجبته بنعم .. فقال وهو يبتسم : عليكم دفعة بسيطة منذ زمن .. قلت : أي دفعة ؟.. فسحب ملفاً من أمامه .. تطلع فيه ثم قال : إنها غرامة تسفير أشخاص الى السعودية ومكتبكم ليس مكتب سفريات !

وتذكرت الغرامة القديمة وابتسمت.. وأسرعت أقدّم المبلغ المطلوب وأتسلم إيصالاً بسداده.. وأعود الى مكتبي، لأسرع بتغيير اسم المكتب.. وسجله التجاري ، من « تسهيل السياحـة والاصطياف » الى « التسهيل التجـاري السعودي » وهو الاسم الذي بقي حتى اليوم ، وسيبقى بإذن الله ، وأرجو أن يبقي بجهد أولادي من بعدي .. وبفضل الأصدقـــاء والمخلصين من الأخوة ، ليؤدي دوره في خدمة العلاقات التجارية بـــين بلدَيّ الحبيبين السعودية ولبنان . ولعل القارىء يعجب من حديثي عن المكتب ، واعتزازي به ، وتصميمي على بقائه واستمراره .. ولكن لذلك سبب ..

فلقد سمعت أن أحدهم أقسم يوماً ، أن يغلق المكتب ، ويخرجني من لبنان حافي القدمين !.. وخاب فأله .. وحنث في يمينه ، ولا أظنه قـــد أدّى عن نفسه كفارة اليمين الـكاذب .. فمثل هؤلاء لا يعرفون للايمان قيمة !..

وأحدهم هذا له قصة.. ولنرمز له باسم وهمي هو « قارون العقر » .. فقارون كان جباراً ، والعقر معناه معروف !.. لنفترض أن قارون هذا كان أحد الأشخاص الذين عملوا معي سنوات طوال ، متتالية.. وأنه كان يتمتع بثقتي الكاملة ، لا أراقبه ولا أحاسبه ولا أراجعه في حساب.. حتى بعد أن حذرني منه الكثيرون من معارفه ومعارفي ..

ولنفترض بعد ذلك أن قارون هذا تجاوز حدوده واستغل ثقتي ، واطمأن إلى ما ظنه غفلةً مني ، فاختلس مبلغاً محترماً من المال . وأردت أن أنهي الأمر بالحسنى ، وان أتستر على جرمه حرصاً عليه ، وتجنبـاً للمشاكل .. لنفترض ذلك .. فماذا يكون جزائي ؟ . هل يكون جزائي مثلاً أن يطلب مني صديق له كفـله أن أذهب الى منزله وحدي ، لكى نصفّـي الموضوع ، لأفاجأ بالاعتداء عليّ في منزله ؟!.

سيقول قائل : إذن فلتأخذ العدالة مجراها..

ولنفترض بعد ذلك أن السلطات قامت بواجبها .. وأوقفت المختلس الى أن خرج بكفالة احـد اصحاب النفوذ الذي كان يعتقد أن اختلاس مالي والاعتداء عليّ أمور غير هامة لأنني غني، ولأني أجنبي !.. لنفترض ان ذلك كله حدث فهل أنا المخطىء ؟!..

بل ولنفترض أن قارون هذا، بعد ذلك كله ، راح يطالبني بتعويضه رغم استيلائه على ما يفوق أضعاف تعويضه .. فماذا أفعل ؟.. ولنفترض أنه ــعلى سبيل الاحتياط ! ــ تمكن قارون مـن الحجز على جميع أموالي الثابتة والمتحركة وحتى على البضائع التي كانت موجودة باسمي في المنطقة

الحرة برسم التصدير..وأموالي والبضائع قيمتها تفوق قيمة التعويض الذي يدّعيه مئات المرات !.. فماذا أفعل ؟.. ولنفترض أن الحجز على اموالي والبضائع استمر أربع سنوات كاملة !. قاسيت فيها الأمرّين بدون سبب معقول ؟!.

ولنفترض بعد ذلك كله .. أن القضاء العادل خذل قارون ، وحكم لصالحي ولله الحمد.. فماذا يا تُرى ، يكون موقفي ، وتكون مشاعري ؟!

لا بد أني وقد عانيت الكثير طوال السنوات الأربع ، قد فضلت أن تكون كل تجارتي من البلاد الأجنبية رأساً إلى موانىء السعودية ، حتى لا تتعرض للحجز والتعقيدات. وكان لا بد من أن أحصر نشاط المكتب في أضيق نطاق، ليكون عددموظفيه ثلاثة بدلاً من ثلاثين ..ولكن كان لا بد ايضاً ان استمر في العمل من اجل هدفي الأساسي الذي تحقق ، وهو توطيد الروابط الحسنة بين البلدين ، ولا بدأن يستمر هذا المكتب في العمل ، ليذكرني على الأقل ، بسنوات من العمل الجاد والمثمر في سبيل هدفي ..

ويكفيني أن هناك العشرات من الاكفاء الممتازين ، الذين شاءت الظروف أن يتركوا العمل معي ، وافترقنا كأصدقاء ، راضين مسرورين حافظين الود كما أحفظ لهم الود .. إلى يومنا هذا..



وفي مسلسل الذكريات عما صادفته في حياتي العملية ، واستعراض ما صادفته من شخصيات عظيمة أو تافهة ، وما لاقيته من مشاكل ومن

تسهيلات أحب أن أؤكد ، أن ما أسجله من حوادث أو وقائع أو نوادر طريفة أو غير طريفة ، إنما يمثل جانباً بسيطاً ممـــا حدث من تجارب الحياة .. هو الجانب الذي يمكنني روايته بدون حرج .. أما القسم الآخر الذي تحرجني روايته ، والذي يحرج أبطاله روايته وهم على قيـد الحياة - أطال الله في أعمارهم - فلعل هناك مجالاً لروايته وتسجيله في كتاب آخر بعد سنوات ..

تحدثت في أول صفحاتي عن عملي في لبنان عن شخصية كانت تجهل كل شيء عن السعودية .. وكانت تسال عن السعودية ، وكأنها تسأل عن الصين أو كوريا.. ودارت الأيام وتوطدت علاقة هذه الشخصية بالسعودية وأتيحت لها الفرصة لزيارة المملكة .وفي ضيافة الملك .. ونالت هـــذه الشخصية من التكريم ما نالت..وحصُلت على ما تيسر من الهدايا الثمينة والأكراميات السخيّـة .. وكان ذلك بفضل الله ثم بفضلي .. ولم يكن جزائي على مـا قدَّمت لتلك « الشخصية » مـن خدمات إلا طعنـة من الخلف ، قاسيت منها الكثير . ولكن لم يحن بعد أوان ذكر تفاصيلها !.

حديث آخر ، أو حقيقة اخرى أرويها كمشهد من مشاهد الحياة .. حافل بالمفاجآت المثيرة والطريفة في وقت واحد !

عندمـا أنشأ الملك سعود بن عبد العزيز رحمه الله قصر الناصرية في الرياض ، كلّـف الشيخ ابن زيـد سفير المملكة في سوريا ولبنان آنـذاك بالاتفاق مع أحد الخبراء لتولي أعمال التوصيلات الكهربائية اللازمة لإنارة القصر .. وحدث أن كلفني رحمه الله من جهة اخرى بنفس العمل ، دون ان أعـلم أنه قد كلف السفير ..

وكنت في ذلك الوقت وكيلاً لأحد المعامل الكبرى في لبنان والتي تقدّم توصيلات الكهرباء وتركيبات النيون ، وقد سبق أن قمت بتوريد كميات ضخمة من انتاجه إلى المملكة ، فاتفقت مع صاحب المعمل على عملية إنارة القصر، وما تتكلفه من أدوات ولوازم وخبراء وعمال فنيين . ونقدته دفعة أولى من تكاليف العملية .. وباشر الرجل في العمل وأعد المواد اللازمة، والمهندسين والخبراء.. وعندما أعلمني بتمام استعداده طلبت طائرة لتولي نقل خبرائه وعماله وأدواتهم إلى الرياض.. وفي الموعد المحدد لقدوم الطائرة ، كنت في المطار مع فريق المهندسين والعمال ، ومعهم عشرات الصناديق حاوية الآلات واللوازم ..

وعندما وصلت الطائرة قادمة من دمشق . كانت المفاجأة .. كان على متنها المهندسون السوريون ولوازمهم ، مكلفين من السفير الشيخ ابن زيد بنفس العملية!. وحاول مدير الخطوط الجوية السعودية آنذاك وكان سورياً ، أن يعطل الفريق اللبناني عن السفر عندما علم بالتفاصيل ، ولكني حرصاً مني على ما جهزه صاحب المعمل اللبناني ، وما تكلفه لجمع هذا الفريق الذي كنت أعلم الكثير عن كفاءته ، والموجود فعلاً بالمطار . صممت على أن يسافروا .. وأكدت لمدير الخطوط أن الطائرة ان تقوم من مطار بيروت ، إلا وفيها الفريق اللبناني .. وأدرك الرجل اني أعني ما أقول . ووافق على سفر المهندسين اللبنانيين ولكن بدون الصناديق المحتوية على العدد ، بحجة زيادة الوزن عن حمولة الطائرة !. وسافرت معهم إلى الرياض ..

وفي الرياض ، كانت المهزلة .. بدأ الفريق السوري ، ومعـــه كامل أدواته ومعدات العمل ، والفريق اللبناني بدون أدوات يتفرج ..واتضح أن الفريق السوري يعمل ارتجاليـــاً بدون تخطيط ، وبدون كفاءة أو مهارة أو تقدير لضخامة العمل أو دقـة التنفيذ .. وأدركت أن الأمر لا يعدو كونه عملية استغلال من المتعهد الذي أحضره، وأن الأعمال الكهربائية ستكون عواقبها نتيجة الخطأ في تنفيذها ، خطيرة .. وأوضحت ذلك للمسؤولين ، بدافع الاخلاص والحرص على المصلحة العامة ، بغض النظر عن أن يقوم فريقي بالعمل أم غيره .

وأحس المتعهد ، وكان من العريقين في تنفيذ التعهدات والخبيرين في اقتناص الفرص والاستفادة منها بكل طريقة .. ومـــا كان منه إلا أن يزورني في بيتي في المساء وبرفقته متعهد البناء ، وكان سورياً هو الآخر ، حاملاً معه ٢٥ ألف ريال قدمها لي بعد التحية ، كمساعدة لي ! مشترطاً أن أتخلى عن المهندسين اللبنانيين وأعيدهم إلى بلدهم ! ونترك له العملية.. وأعدت اليه المبلغ رافضاً ، فاعتقد اني رفضته لقلته ، فسحب شيكاً من حافظته ، ووقعه على بياض ، وطلب مني أن أسجل المبلغ الذي أريد .. وأعدت اليه الشيك ، وأفهمته أن المسالة ليست مسالة تكاليف دفعتهـا بالفعل ، ولكن مسالة إيماني بأن الفريق اللبناني أكفـأ ، وأكثر خبرة ، وأن توصيلات إنارة القصر الكبير ستترتب عليهـــا أضرار كبيرة إذا لم يتعهدها أخصائيون . وأسقط في يده ، واضطر إلى الموافقة ، وكان أن بدأ اللبنانيون بالعمل على أكمل وجه، وتجلّـت مهارتهم وكفاءتهم للجميع وأتموا العمل،واستلموا بقية أتعابهم كاملة، وعدنا جميعاً إلى لبنان ..

وفي لبنان كانت المفاجأة الثانية . وكأنما كانت هذه العملية مكتوباً عليها أن تتعثر من مشكلة إلى أخرى .. كنت قبل سفري قـــد كلفت المعمل نفسه ، بتجهيزات وأدوات لعمليـة أخرى في المملكة ، وقدمت لصاحبه ١٨ ألف ليرة كدفعة أولى ، وعندما عدت لأطالبه بالتنفيذ ، لا أدري ماذا دهاه ليمتنع عن تسليم البضائع والأدوات .. وليرفض مقابلتي منذ ذلك الوقت وحتى اليوم !.

وكلفت العديد من الأصدقاء ، ومن أهل الخير ، أن يتصلوا بالرجل لاقناعه بتسليم ما تعهد به ، أو لاعادة المبلغ ، دون فائدة . وبعد شهور وشهور .. أشار عليّ الأصدقاء ، ومنهم أصدقـاؤه ، ومنهم أحد أعضاء غرفة التجارة الفضلاء ، أن ألجأ إلى القضاء .. وأحضروا لي أحد المحامين اللامعين ، وبعد اطلاعه على المستندات.. قال بحماس : إن حقك واضح، وساحصل لك على حقك في مدة لا تتجاوز الـ ٢٠ يوماً . وشكرتـه على اهتمامه . ثم أضاف : ولكني لا أتولى قضية إلا بعد أن أقبض أتعابي سلفاً . فوافقت على الفور ، ودفعت له ١٨٠٠ ليرة كما حدد ..

ومرت الأيام العشرون !. ثم مرت الأسابيـع العشرون .. ثم مرّت الشهور العشرون !!..

وكنت أراجعه كل أسبوع، ثم كل شهر.. فيكون الجواب التقليدي: القاضي أمر بكذا.. والخبير طلب كذا.. والأوراق أرسلت لكذا ..الخ.

وبعد أربع سنوات ، جاءني بعـد إلحاح .. جاء متهللاً ، ليبشرني بالنتيجة : « انتهت القضية لصالحك ». وحمدت الله، وشكرته على اهتمامه وكفاحه ونصرته للعدالة .. ثم سألته :

ـ ومتى نستلم مبلغ الـ ١٨ ألف ليرة ؟!..

وكانت المفاجأة التالية .. قال : الحمد لله .. لا لنا ولا علينا !!.

وذهلت.. بعد سنوات أربع ـ «لا لنا ولا علينا»؟!..وتمالكت نفسي ورجوته أن يسلمني كافة المستندات لكي أكلف محامياً آخر باستئناف الحكم. ولكنه رفض وأبدى استعداده للاستئناف ، بمجرد وصـــول تبليغ الحكم إليه .

ومضت ثمانية أشهر ، وهو يعتذر لي بأن التبليغ لم يصله ..وأنا صابر ، وأؤكد لنفسي أن الرجل صادق ، وأن تأخير التبليغ ليس ذنبه ، إلى أن اضطررت أن أكلفه يوماً للسفر إلى دمشق لمقابلة نقيب المحامين هناك.. للاطلاع على مستندات قضية كانت تخصني . وأعرته سيارتي ، ودفعت له بعض النفقات للرحلة ، وغـادر بيروت صباحاً ليعود بعـد الظهر ..

وصباح اليوم الثاني إذا به يحضر إلى مكتبي ويقدم لي « فاتورة » بثمانمائـة ليرة .. كأتعاب عن ذهابه إلى دمشق !. وعندما أبديت عجبي من ارتفاع المبلغ بهذا القدر ، احتج بانه « محامي دولة » وأن يومه يكلف ألف ليرة ولكنه أكرمني فطلب ثمانمائة . وشكرت له حسن تقديره ! ودفعت المبلغ بعد أن أبلغته أني أفضل أن أعهد بالقضية إلى محامٍ آخر ورجوته أن يعيد إليّ ملفها.. ثم رجوت إحدى الشخصيات البارزة من الأصدقاء ، إن يتوجه معي إلى مكتب الاستاذ المحامي لنسترد الملف والمستندات ، وذهبنا .. وأحرجه وجود الشخصية البارزة معي فقدم الملف .. وكانت المفاجـــأة المذهلة الرابعة !.. إنه لم يقم أي دعوى

للمطالبة بمبلغ الثمانيـة عشر ألف ليرة .. موضوع القضية .. منـذ أربع سنوات .. فلا دعوى ، ولا قضية ، ولا محكمة ، ولا خبير ، ولا حكم ولا استئناف !.

*

حقيقة إن شر البلية ما يضحك !.. لقد ضحكت في ذلك اليوم بعد خروجي من عنده .. كيف كان يريد أن يستأنف حكماً لم يصدر ولم تقم له دعوى أساساً ؟؟!.. واستعوضت الله في الثمانية عشر ألف لـيرة ، وفي الألف وثمانمائة . وأتعابي على إنارة قصر الناصرية ..

هل كانت هذه الحادثة الطريفة كافية لتمنعني من الاستمرار في العمل؟؟ لا .. إن العزيمة القوية لا تقف أمامها العقبات ، ولا الفشل ، وإن كنت قد قاسيت الكثير من الحادثة الأولى ثم الثانية ، إلا أني أحمـد الله على أن طموحي لم يقل ، وعزيمتي لم تفتر أبداً ..

بالاضافة الى العزيمة والاصرار ، هناك دافـــع آخر ، جعلني أغض النظر عما لاقيته وقاسيته، وهو أن هذا أو ذاك ، ممن أساءوا اليّ لايمثلون إلا قدراً أضال من أن يذكر ، بالقياس الى مجموعة كبيرة من الرجال الأفاضل والشخصيات الكريمة ، والممتازة خلقاً وأصلاً ونبلاً ، من الذين قابلتهم وتعرفت اليهم في لبنان ، وأسدوا اليّ من الخدمات وأحاطوني بالرعاية والتقدير ، ما يمحو أي اساءة أو خداع تعرضت له.. أي أن كفة العلاقات الطيبة والشخصيات المحترمة ، والمعاملة الكريمة ، وحسن الضيافة . هي الراجحة . في هذا الوطن الثاني .. حتى في مجال العمل والتجارة ، وقـد

ثعاملت مع معظم أصحاب المصانع والمعامل . ولم أجد منهم جميعاً إلا كل صدق وأمانة واخلاص في العمل .

*

إن الآلام النفسية الـــتي سببتها بعض التجارب القاسية ، مَحَتْها التصرفات النبيلة ، والخدمات الجليلة ، والصداقـات والوطيدة الـتي حظيت بها وسعدت بذكرياتها حتى اليوم ..

وإن من أساءوا ، أو حاولوا الاساءة إليّ .. بقصد أو بغـير قصد ، في هذا البلد أو ذاك ، إنهم قلة نادرة تركت أمرهم إلى ضمائرهم التي لا بد وأن تستيقظ يوماً .. وفوّضت حسابهم إلى الله عز وجلّ ، العليم الخبير ، وإنه لشديد العقاب .

أما الكثرة.. الغالبية العظمى ، فإني لن أستطيـع أن أفيهم حقهم من الشكر والتقدير .. وهـل أستطيـع أن أقوم بواجب الشكر نحـو أسرة الدولة اللبنانية ، برؤسائها السابقين والحاضرين ، بعسكرييها ومدنييها.. وفي كل المرافق؟.. وهل أستطيـع شكر الأسراللبنانية الكريمة، العريقة ، في الجنوب والشمال والشرق والغرب .. التي سعدت بمعرفتها وبصداقتها وبكرم ضيافتها ؟..

لقد كان اول من اكرمني في بيته، وأدى تقاليدالعروبة الأصيلة،وذبح لي ذبيحة يوم زرته في اوائل ايام عملي في لبنان ، كان الأخ عارفالمصري من (صليمة) متعه الله بالخير .. وكان أول مـــن تولى تقديمي إلى خير

الشخصيات وعرّفني بالبلاد ، الأخ طنوس ابو سلمى الذي لم اعرف ، ولا اعرف كيف أوفيه حقه من الشكر والعرفان ..

وهل أستطيع أن أشكر رجالاً فضلاء ، من رجال التربية والتعليم، عرفت عنهم الاخلاص لرسالتهم التعليمية والتربوية ، والسهر على تربية النشء خير تربية ، ولمست منهم كل نبل .. لا أملك معه إلا أن أقول : هنيئاً للأجيال التي أشرفوا ويشرفون على تثقيفها من أبناء لبنان أو البلاد العربية الذين ينهلون العلم في مؤسساتهم الزاهرة .. وأكثر الله من أمثالهم ..

.. والأطباء المهرة .. ورجال الصحافة الشرفاء .. والمحامون اللامعون المخلصون ـ المتمسكون جميعاً بشرف مهنهم .. كيف أشكرهم جميعاً .. وما رأيت منهم إلا كل نبل ووفاء وحسن معاملة ؟ ..

..والمصارف التي تعاملت معها في المملكة العربية السعودية وفي لبنان بأصحابها ومديريها وموظفيها .. البنك الأهلي التجاري السعودي بجميع فروعه ، والبنك العربي في الرياض وجده وبيروت . وبنك مصر وبنك القاهرة ، وبنك مصر لبنان ، بجميع فروعها .. ثم : « بنك الفضل والانسانية » .. ولا يعجبنّ القارىء لهذا الاسم ، فإنه الاسم الذي يجب أن يطلق على متجر الرجل النبيل ، محمد بن سليمان الزبن، مقصد المحتاجين ونصير المضطَهدين ، وجابر عثرات الكرام ، والرائد والمرشد بل والأخ الكريم لكل السعوديين الذين يؤمون لبنان ، أكثر الله من أمثاله ..
ـ كيف أشكر هؤلاء جميعاً ..؟..

ولقد كان من حسن حظي ، ان تمتعت دائماً خلال سنوات إقامتي الطويلة في لبنان ، بحسن الجيرة.. ولعلنا نحن السعوديون نقدر على وجه خاص هذا الأمر ، ونتمسك بالقول الكريم : « اختر الجار قبل الدار ».. ولم أرَ ولله الحمد ، من جيراني سواء في بيروت او في المصايف ، وطوال ٢٣ عاماً ، إلا كل خير وود وشرف .. ولقد كان الأستاذ المختار ميشال صفير والاستاذ محمد البراج ـ وأولهما مالك المنزل الذي استأجره منذ قدومي ، والثاني مالك المكتب الذي استأجرته منذ بدأت العمل ـ كانا ولا زالا مثال الرجولة والشرف والأخوة .

لقد ذكرت هؤلاء ، وبعضهم فقط تكفي صداقته وإخلاصه وفضله وكرمه ، لمحو أثر كل ما يمكن أن يتعرض له الانسان من « نوادر » و « أحداث » قد تزعجه وتؤلمه.. وقد تسبب له الخسارة المادية .. ولكن لا يلبث أن ينساها ، ولا تلبث آثارها أن تزول .. فالخسائر المادية يمكن ــ بتوفيق الله وفضله ـ تعويضها أو تعويض جزء منها . والخسائر المعنوية ، الآلام النفسية ، تزيلها وتمحو آثارها كلمة تقدير ، أو حسن لقاء ، أو وفاء جميل ، أو صداقة منزّهة ترقى إلى مرتبة الأخوّة .. وما أكثر ما نلت من ذلك كله ولله الحمد ..

*

وأخيراً .. أين أصبح هدفي الأول . « لبنان في الرياض والرياض في بيروت » ؟.

لقد متعني الله بأن بقيت في لبنان لأرى ثمرة جهدي المتواضع ، أول جهد في تاريخ العلاقات اللبنانية السعودية .

ولأرى جلالة الفيصل الذي كان أول من يصل الى لبنـان على رأس بعثة التهنئة بالاستقلال عام ١٩٤٦ .. يزور لبنان فيستقبله لبنان بأسره استقبال الأخ الشقيق .. ولأرى رؤساء لبنان ، يسُتقبلون في الرياض ، خير استقبال ويحلون خير محل .. فالهدف قد تحقق وحمداً لله .

انني أشكر الله ، وأحمده ، وأعتز بثقتي بالله ثم بنفسي . انني أعيش اليوم في لبنان ، وأرى نفسي وأبنائي . وكأننا نعيش في السعودية .. بل وأعلم أن ذلك ما يشعر به جميع من أصادفهم من السعوديين .

وشد ما يسعدني ، أن أرى الاخوة اللبنانيين ، يعيشون في السعودية للعمل ، معي أو مع الآخرين . يعيشون هناك وكأنهـم يعيشون في لبنان .

★

ذكريات حلوة ، يُسعدني أن أتذكرها وأذكرها ..

لقد قـام مكتبي، بفضل الله ، بدور عظيم ، بـــل بالدور الأعظم ، منذ أكثر من عشرين عاماً ، في سبيل ازدهار وتوطيد العلاقات بـــين الشعبين الشقيقين ، السعودي واللبناني ..

ولقد مرّت سنوات ، قام هذا المكتب خلالها بدوره الكبير بمفرده ، حتى تحققت الأهداف ، وتوطدت الصلات، وتعددت السبل .. وتوزعت الأدوار !..

كان يعج بالزائرين ليل نهار.. وكان ملتقى خيرة الرجال من الوافدين من أقطار العروبة ومن أبناء لبنان ..

كنا نستقبل في كل وقت ضيفاً كريماً.. من أصحاب السمو الأمراء ، ومن كبار الشخصيات ، العربية والأجنبية ، ومن الطلاب ، ومن القادمين للعلاج أو للزيارة وللاستجمام .. ولقد كان قدومهم ، جميعاً ، إلى لبنان ، قدوم خير بركة وفائدة عظمى .. يعرفها الجميع ..

وإن لفي هذه المجموعة من الصور ، التي انتقيناها من مئات مثلها لما يؤكد الدور الذي قام به المكتب .. ونحمد الله الذي وفقنا للقيام به ..



« مكتب التسهيل للسياحة والاصطياف » .. ببيروت ، مزداناً بالأعلام اللبنانية والسعودية ، والزينات ، ترحيباً بالأمير سعود بن عبد العزيز ، عندما كان ولياً للعهد ، عند زيارته لبنان بتاريخ ٩ نيسان ١٩٥٣ .



الامير فهد بن سعود بن عبد الرحمن عند زيارته للمكتب



المرحوم الامير فيصل بن تركي، والامير ناصر بن عبد العزيز، والسيد اسعد الاسعد
والسيد إبراهيم السويل، والسيد عفيف الطيبي، والمؤلف، في صالون المكتب



الأمير سعود بن سعد بن عبد الرحمن وإلى يمينه الأمير فهد بن محمد بن عبد الرحمن ،
والاميرعبدالله بن محمد ال سعود الكبيـــر ، عند زيارتهم للمكتب



سمو الأمير مشعل بن عبد العزيز آل سعود وزير الدفاع في المملكة . يتصدر الاحتفال الذي أقامه مكتب التسهيل لسموه في حديقة دار الايتام الإسلامية عند زيارته للبنان سنة ١٣٧١هـ



سمو الأمير مشعل بن عبد العزيز وزير الدفاع بالمملكة ، يتصدر مائدة الافطار التي أقامها المكتب على شرف سموه ، عند زيارته للبنان في ٢٠ رمضان سنة ١٣٧١ ﻫ. وإلى يمين سموه سفير المملكة السعودية ، وإلى يساره وزير البرق والبريد في لبنان والشيخ شفيق يموت



الامير متعب بن عبد العزيز نائب وزير الدفاع بالمملكة ، وإلى يمينه الشيخ عبـد العزيز
ابن زيد الوزير المفوض للملكة العربية السعودية في سوريا ولبنان ،
والمرحوم الاستاذ عفيف الطيبي نقيب صحافة لبنان



انجال الأمير عبد الله الفيصل ، الأمراء : خالد ، محمد ، سعود ، عبد الرحمن ، طلال..
مع مرافقهم السيد عوض عبد الرحيم ، وإحدى المربيات ، عند زيارتهم
للمكتب . في أوائل صيف سنة ١٩٥٢



السيد ميشال توما المفوض العام للسياحة والاصطياف ، والسيد حليم غرغور مفوض الشرطة ، عند زيارتهم للمكتب في أيار سنة ١٩٥٢ يحيط بهم بعض موظفي المكتب



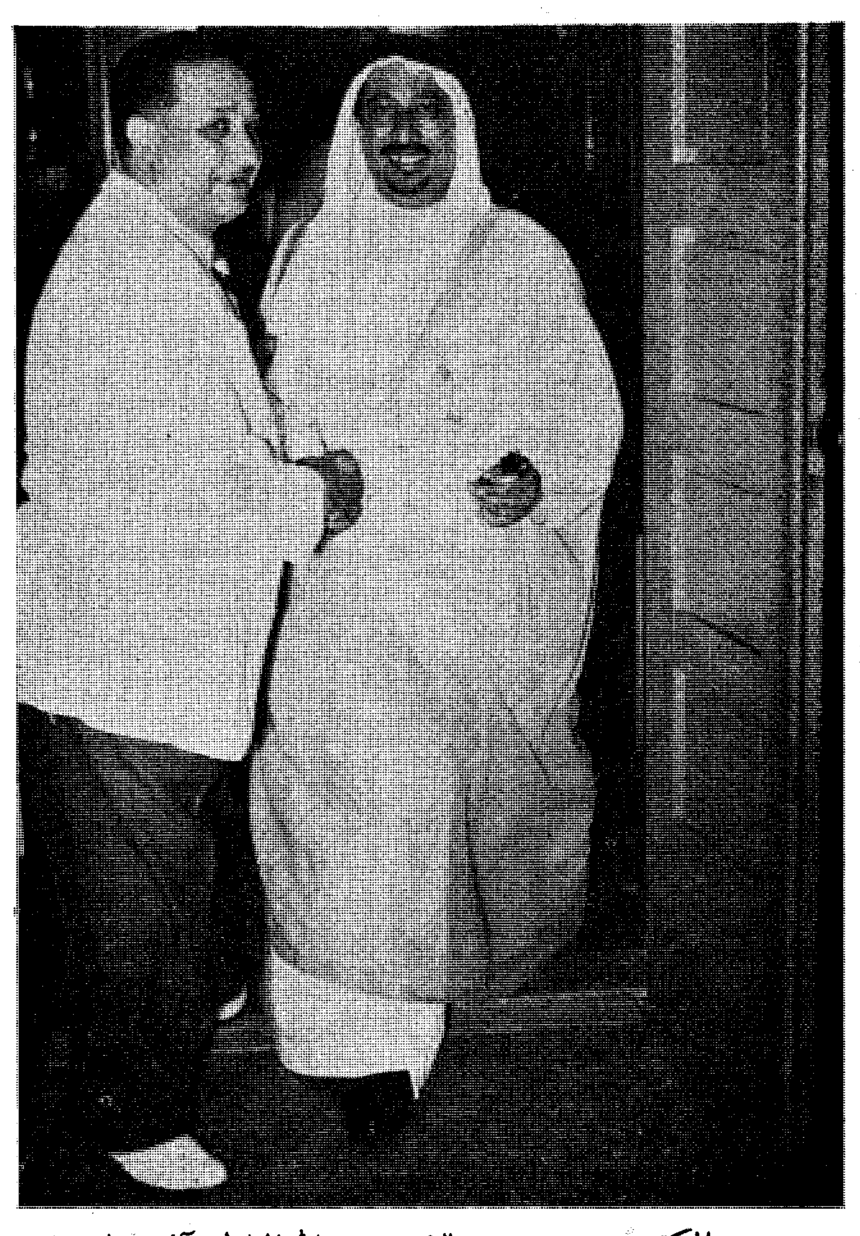
السيد مشيل توما مفوض السياحة والاصطياف ، والسيد وزير اسبانيا المفوض في لبنان ، ولفيف من الضيوف ، عند زيارتهم للمكتب



مدير شركة التابلاين ومساعده ، وإلى اليمين المؤلف ، وإلى اليسار السيد عون الله
أحد موظفي « المفوضية السعودية في بيروت » عام ١٩٥٢



الشيخ عبد الرحمن الطبيشي وزير الخاصة الملكية لجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، رحمه الله
والمرحوم الاستاذ عفيف الطيبي ، في حفل أقيم ترحيباً بهم في المكتب



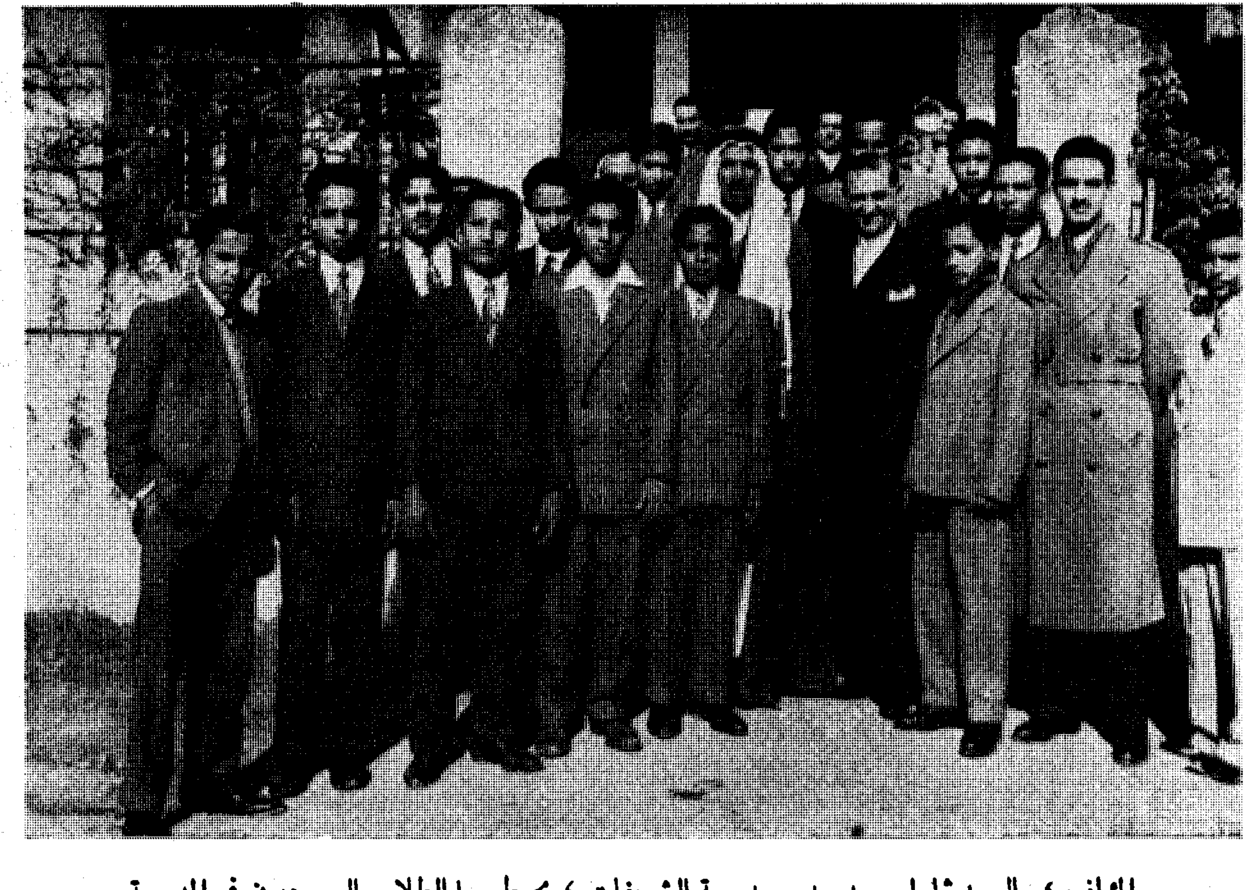
مدير المكتب يرحب بسمو الشيخ عبد الله المبارك آل صباح
عند زيارته للمكتب



سمو الشيخ جابر حمود آل خليفة ، وسمو الشيخ مبارك حمود آل خليفة ، في زيارة للمكتب



مدير المكتب يرحب بالشيخ صالح المانع ، سكرتير سمو أمير قطر ومرافقه



المؤلف ، والسيدشارل سعد مدير مدرسة الشويفات ، يحيط بهما الطلاب السعوديون في المدرسة

الفَصْل العَاشِر

من تجارب الحياة العمليّة

.. مع البلاد الأجنبيّة

.. مع البلاد الأجنبية

بعد هذه الجولات ، وبعد هـــذا التعامل الواسع النطاق مع أقطار عربية عديدة .. كان لا بد وأن أتطلع إلى التعامل مع البلاد الأجنبية ، في أوروبا وغيرها ..

وبدأت الزيارات للشركات الغربية الكبرى والاتصالات مع ممثليهـا أو مندوبيها . وعقدت بعض الصفقات ، ونفذت بعض العمليات ، نجح منها القليل ، أما بقيتها ، وهي الأكثر ، فقد كانت فاشلة !. ولعل السبب الرئيسي في عدم نجاحها كان عدم معرفتي للغات الأجنبية ، وقد تقدمت بي السن ولم يعد هناك مجال لتعلمها ودراستها.. وسبب آخر ، كان الاعتماد على الوسطاء بيني وبين تلك الشركات أو المصانع ..

وسأقتصر في الصفحات التالية على ذكر بعض الأمثلة عن هـذه المحاولات .

مع أميركا : بعد نهايـــة الحرب العالمية الثانية ، اتصلت بشركـة « وارثنكتن » بنيويورك شخصياً، وعرضت عليها نموذجـاً عن ماكينة زراعية ، لسحب المياه من جوف الأرض دون إنزال المضخة إلى العمق ، وطلبت عدة تعديلات خاصة ، تبعاً لما أراه ينطبق على حاجة بلادي

وأوضاعها ، بعد أن تكررت الحوادث والضحايا نتيجة التسمم بالغاز عند تشغيل المكائن القديمة .. ووافقوا على التعديلات المطلوبة ، وصمموا بالفعل نوعين من الماكينات : نوعاً لاخراج الماء فقط ، والآخر لاخراج الماء وتوليد الكهرباء .. وأرسلوا المكائن إلى الرياض للتجربة ، ونجحت التجارب مائة في المائـة .. ولكن كانت أسعار الماكينات باهظة جداً بحيث لا يمكن أن يقبل عليها أحد .. وبحثت الأمر ، إذ كان لديَّ فكرة عن السعر وانه لا يمكن أن يصل إلى السعر التي عرضت بـه الماكينة في الرياض ، ووجدت ان « الواسطة » .. قد استغل الطرفين : عمولة باهظة يتقاضاها من الشركة ونسبة عالية يضيفها إلى سعر الماكينة !

وراجعت الشركة ، وأبلغتهم كتابياً بمعلوماتي عـن السعر وعن موقف الوسيط . وإذا بالشركة تحيل خطابي إلى الوسيط للتصرف !. وأرسل الوسيط نسخة من خطابي إلى أحد أصدقائي المرموقين راجياً إياه أن يقنعني بالاتصال به واستعداده لتقديم سعر جديد خاص بطلباتي !. وكان اتفاقي المبدئي على شراء ٢٠٠ ماكينة ، ولكني عندما وجدت أن الأمر أمر مساومة ، لا يستطيع المرء فيها أن يطمئن إلى سعر ثابت محدد ، فضلت الغاء الطلب ، والعدول عن التعامل معهم ، وفكرت في الحصول على المكائن من انجلترا ..

رغم أن هذه الرحلة إلى أمريكا لم تكن موفقة من الوجهة التجارية أو العملية باعتبار نتائجها التي تحدثت عنها ، إلا اني لا زلت حتى اليوم أحفظ لأيامها من الذكريات الحلوة ما يشيع البهجة في نفسي .

لم تكن هذه الذكريات الحلوة ، عن ضخامة نيويورك وعظمة مبانيها أو جمال مناظرها ، أو فخامة دار الأوبرا وعروضها الرائعة .. لم تكن عن ذلك كله ، بل عن جمال لقاء العربي بأخيه العربي في الغربة ، وعن روعة المشاعر التي يبعثها هذا اللقاء .

بعد ما تم الاتفاق بيني وبين ممثلي شركة (وارثنكتن) على منحي توكيل منتجاتهم في المملكة السعودية ، دعاني المسؤولون في هذه الشركة إلى الغداء في أحد المطاعم الكبيرة في نيويورك ، ورجوني أن يكون حضوري بلباسي العربي الكامل ، الذي كنت أرتديه ساعة وقعنا العقد معهم .. ولبيت الدعوة . وأثار اللباس العربي اهتمام والتفات جميع الحاضرين والحاضرات في المطعم الفخم على كثرتهم ، حتى أن العشرات منهم ، تقدموا إليّ يرجون توقيعي لهم على أوراق بيضاء يحتفظون بها للذكرى ، وكان الجو مشبعاً بالاحترام والتقدير .. وكان طبيعياً أن أدعو ممثلي الشركة إلى مأدبة مقابلة ، رأيت أن تكون في مطعم عربي . وكان في نيويورك مطعم اسمه (المطعم اللبناني) صاحبه من الأخوة اللبنانيين ، وكنا نتردد عليه أحياناً أنا واخواني لنتناول الطعام العربي ، ولم نكن نشعر أو نحس عندما نتردد على المطعم بأن أحداً من الحضور عربي ، اللهم إلا صاحب المطعم الذي كان يرحب بنا عند دخولنا ويودعنا عند انصرافنا باللغة العربية . وتوجهت إلى المطعم صباحاً لأتفق مع صاحبه على المأدبة ، وحجزت مائدة كبيرة تتسع لغداء ٢٢ شخصاً هم ضيوفي وبعض الأصدقاء زملاء الرحلة ـ فهد بن كرديس رحمه الله ، وعليان آل سعود ، وخليل الروّاف .

عدت إلى الفندق وارتديت اللباس العربي، وتوجهت إلى المطعم ظهراً لأكون في استقبال الضيوف ، وكانت المفاجأة الأولى .. المطعم الذي كان الهدوء والصمت يخيمان عليه ، لا تكاد تسمع فيه إلا الهمس ، حتى عندما يكون مليئاً بالرواد ، يقف أحد الحضور مهللاً مرحباً بنا بصوت عال ، محيياً العرب والعروبـة .. طالباً من الجميع أن يكون الحديث في ذلك اليوم باللغة العربية فقط .. وإذا بالمطعم الهادىء ينقلب إلى خلية صاخبة وترتفع الأصوات من هنا وهناك مرحبة مهللة ، بالتحيات العربية، وإذا بالحضور جميعاً يتحدثون العربية ويتبادلون التحية .. وكأن المطعـــم الكبير تشغله أُسرة واحدة كبيرة في احتفال صاخب.. تشيع في أجوائه الفرحة والاعتزاز بالعروبة وبالأخوة العربية .

ويمر الوقت ، وانصرف كثير من الحضور بعد أن تناولوا وجبتهم، وكل منهم يحيينا بود لدى خروجه ، وانتهت مادبتنا، واتجهت إلى صاحب المطعم لدفع الحساب ، وهنا كانت المفاجأة الثانية ، عندما قال لي صاحب المطعم أن الحساب قد دُفع. وسألته عمن دفعه ، فأجاب : الأخوة العرب جميعاً اشتركوا في دفع الحساب ، وسألته أن يحـــدد لي بعضهم أو حتى أحدهم ، لأتمكن على الأقل من تحيته وشكره ، فاعتذر الرجل بأن معظم الأخوة العرب الذين كانوا في المطعم أصروا على دفـع الحساب .. وقاموا بذلك بكل هدوء دون أن نشعر.. ولم نعرف أحـــداً من هؤلاء الأخوة على اختلاف جنسياتهم حتى اليوم ..

انهـا لذكرى جميلة تعبر عن الخلق العربي الأصيل ، متمثلاً في كرم

الضيافة .. وإنه الاعتزاز بالعروبة وبالدم العربي الأصيل الواحـد الذي يجري في عروق كل من تظللهم سماء أمتنا العربية مهما تعددت أقطارها ومهما اختلفت جنسياتهم ..

★

مع انجلترا : اتصلت بشركة ناسيونال بواسطة أحـد عملائي ، وكلاء الشركة في سوريا ولبنان ، واستوردت منهم عدداً من مضخات المياه .. والحق يقال ، أن عميلي وكيل الشركة جزاه الله خيراً ، قـــد برهن على أمانـة وحسن نية واخلاص ، منقطعة النظير .. ولكن عندما أحست الشركة بنشاطي في التوزيـع ، وجهت إليّ خطاباً ، عن طريق الوكيل نفسه ، تعرض فيـــه عليّ الوكالة في السعودية رأساً .. ورفضت الوكالة اكراماً للوكيل ، ورغبة في فائدته . ولكن هدفي لم يتحقق ، فمـا هي شهور إلا وحصل أحد الزملاء التجار السعوديين على الوكالة في جدة .. وتمنيت له التوفيق !..

★

مع فرنسا : استوردت منها تراكتورات كونتيننتال ، عن طريق أحد الوسطاء .. ووصلت التراكتورات إلى الرياض ، وكان أمامهـا مجال كبير للنجاح . ولكننا فوجئنا بعدم وجود قطع غيار مع التراكتورات ! ومضت الأيام والشهور ، ونحن نتابع تامين قطع الغيار .. وانقضى على وجودها في المعارض وقت طويل حتى انصرف النـــاس عن شرائها إلى غيرها .. ولم أخسر شيئاً يذكر في هذه العملية .. ولكن انقبضت نفسي من تصرف الوسيط ، وأنا لا أملك معه شيئاً ..

مع سويسرا : قمت بعدة عمليات لاستيراد معدات الأشغال العامـــة ، ومصاعد (شليرن) كوكيل لشارل كلر الموجود في لبنان آنذاك.. ولكن، بعد فترة .. صادفتنا عقبات لا قِبلَ لنا بتحملها أو بالاستمرار في العمل مع وجودها .. وفي الحقيقة لقد تحملنا أنا وهو نتائجها .. وانصرفت عن ذلك الوكيل كلياً .

*

مع تشيكوسلوفاكيا : استوردت ، بواسطة الوكيل في بيروت ايضاً ، الأدوات المنزليـــة ومصنوعات الكريستال ، والموتورسيكلات ماركة « جاوا » .. واستمر التعامل مدة طويلة من الزمن.. وراجت منتجاتهم، وربحت فيها ولله الحمد .. ولكن ظروفاً تتعلق بأسعار العمـلة الأجنبية وتقلباتها ، حتمت أن أوقف التعامل مع الوسيط .. لأن فارق الأسعار والتحويل كانوا سيقوداني إمـــا إلى خسارة كبيرة أو إلى رفع أسعار المنتجات.. ولذلك فضلت إيقاف التعامل..وبعض الشر أهون من بعضه!

وفي نفس الوقت كان مما شجعني على وقف التجارة في هذه الأصناف، انني مهما حاولت ، فلن يكون لي فيها الخبرة الكافية ، بالإضافة إلى أنه في ذلك الوقت لاحت لي فرصة الحصول على توكيل السيارات السوفيتية .

ونظراً لخبرتي الطويلة والعميقة في السيارات وميكانيكا السيارات التي نلتها عن تجربة عملية . رأيت أن العمل في هذا المجال أفضل لي ولخبرتي .. والخير في ما اختاره الله ..

وأخيراً .. مع الاتحاد السوفياتي !

بعد السنوات الطويلة في ممارسة مختلف نشاطات الأعمال التجارية ، من البناء إلى المقاولات إلى التعهدات إلى استيراد أو تصدير مختلف المنتجات من وإلى المملكة ، من العديد من البلاد العربية والأجنبية. كان لا بد من التفرغ لعمل معين ، والاستمرار فيه ..

جميع هذه النشاطات التي مارستها ، لم يكن لي خبرة سابقة بها ، أو تخصص فيها ، ولكن المثابرة ودراستها دراسة جادة دقيقة كانت دائماً تقودني إلى النجاح .. إن كل عمل ، قد يعوض الإصرار والمثابرة والاجتهاد فيه ، عن الخبرة العملية ، اللهم إلا في الأعمال الدقيقة التكنولوجية التي تحتاج إلى درس طويل.. ولكن بطبيعة الحال لا تكون النتيجة نجاحاً تاماً . وأخيراً تفرغت إلى الاستيراد والتصدير والوكالات بين المملكة والخارج ..

ففي عام ١٩٥٤ عندما اقيم المعرض الدولي في دمشق لأول مرة ، لاحت لي الفرصة ..

رأيت السيارات انتاج الاتحاد السوفياتي في العرض ، وأعجبت بها ، وقررت أن أتولى استيرادها إلى المملكة العربية السعودية . كان التفكير

في ذلك أمراً يحتاج إلى الكثير من الروّية والاقدام والعزم .. فالاتحـــاد السوفياتي له اتجاهاته وأفكاره ومبادؤه السياسية المعروفة ، والمملكة لها عقيدتها ومبادئها الثابتة المعروفة أيضاً .

كنت أعلم أن الأمر ليس سهلاً .. وأن اقامة علاقة ولو تجارية وثيقة وواسعة مع الاتحاد السوفياتي لا بد وأن يثير البعض ، الذين قد يفسرون الأمر تفسيرات مختلفة ، والذين سيشنونها حرباً شعواء عليّ .. لا بسبب سيارات سوفياتية ولا بسبب مبادىء أو عقائد السوفييت . ولكن خشية أن يؤثر استيراد السيارات على ما يستوردونـه هم من سيارات من بلاد أخرى ، كانت تأمل في ذلك الوقت أن تظل أسواق المملكة حكراً لها..

لقد اعتمدت على الله، ثم على كلمة جلالة الملك فيصل المأثورة والمعروفة: (نحن لا نستورد مبادىء .. ولكننا نستورد المواد التجارية) ..

كان جلالته وما يزال ، يرى أنه يمكن أن تكون للمملكة علاقات مع جميع الدول ، بصرف النظر عن مبادئهـا وعقائدها ، وأن ذلك أمر لا يخشى منه ، فعقيدتنا هي الأرسخ والأقوم ، وطالما بقينا حريصين على التمسك بها ، وقصرنا التعامل مع الغير في حدود العلاقة التجارية المحضة بدون تدخل منا في شؤونهم أو منهم في شؤوننا ، فلا بأس ..

واتصلت بالمسؤولين في المملكة ، وعرضت عليهم الأمر فلم أجد منهم ممانعة مطلقاً .. وتفاءلت بالاتفاق على استيراد السيارات. إذ كنت أعتقد في نفسي القدرة الكاملة على تسويقها وصيانتها كما هو معروف إلى اليوم..

وما أن وصلت الدفعة الأولى من السيارات إلى الرياض ، وعُرِضت

وبيعت، حتى انهمرت عليّ المشاكل من كل جانب ومن كل اتجاه ! لم أكن أتوقع أن تصل المنافسة التجارية بالبعض إلى محاولة تحطيمي نهائيـــاً ، والقضاء على كل أعمالي دفعة واحدة ..

حاول بعضهم إغرائي لترك هـذا التوكيل أو تجميده حتى يفشل المشروع في النهاية .. وحاول آخرون بكل الطرق تشويه سمعة السيارات ونشر كل دعاية سيئة ضدها ، بل وتحريض الناس على عدم شرائهـا .. ووجدت نفسي أمـــام أمرين لا ثالث لهما . إما أن استمر مهما كانت العقبات والمصاعب والمشاكل . وإمـا أن أتوقف وألغي المشروع .. وفي ذلك ما فيه من هزيمة أمام الصعاب ، وحـكم عليّ بالفشل مدى الحياة .. واخترت الطريق الأول .. طريق الكفاح والشرف .

والآن.. بعد خمسة عشر عاماً من الكفاح .. قضيتها في دفاع مستمر عن هذا المشروع وعن غيره .. بل في دفاع مستمرعن كل أعمالي ، بعد أن وصل التنافس إلى عداء مستحكم ، وبلغ الأمر بالبعض إلى محاولة تحطيمي كلياً ، لا تحطيم التوكيل فقط . لقد حوربت بكل الوسائل ! ومن كل اتجاه .. في كل زاوية كنت ألجأ إليها للدفاع عن نفسي ومصالحي يخرج لي منها شيطان مريد . مدمر.. وصل العـداء إلى تحريض بعض موظفي البنوك عليّ !. لكي يزوروا احتجاجات (بروتستو) الواحد تلو الآخر، وإلى إلقاء الحجز تلو الحجز على ممتلكاتي، ثم إلى إقامة الدعاوى الافلاسية! وامتد ذلك التحدي إلى لبنان ، خاصة وان علاقاتي متشابكة بين لبنان والسعودية .. ولجأت إلى أصدقاء كثيرين ، لكي يتوسطوا لدى جبابرة

التحدي والتحطيم ، لكي يوقفوا حرابهم عني ، ولنحل مشاكلنا بالحسنى ويصل إلى كل ذي حق حقه .. بـــل وتوسط في الأمر نيافة الكاردينال المعوشي ــ وهو من هو كراهية للظلم.. ولكن بدون جدوى!.

وما كان يؤلمني ، هـو موقف بعض موظفي البنوك ! والمفروض والمعروف أن البنوك المحترمة تعتبر كل عملائها في منزلة واحدة ، ولا يمكن أن تتدخل في صراع بين أشخاص أو شركات وتنصر هذا عـــلى ذاك .. هذا هو المعروف والمؤكـــد عن معظم البنوك في لبنان وفي السعودية .. ولكن هؤلاء البعض كانوا يتأثرون بهذا أو ذاك من الخصوم وينعكس موقفهم ذلك في محاولة عرقلة أعمـــالي وإثارة المشاكل وسوء المعاملة ، حتى لقد كنت أتخيلهم فريقاً في المشاكل لا حكماً منزهاً عن الهوى !.

ثم ماذا ؟.. لقد ظهر الحق وزهق الباطل .. وأحمد الله وأشكره ..

واستمر المشروع والعمل الجاد . وسيستمر بإذن الله ، طالما ظلت أجنحة عدل الفيصل ترفرف على البلاد تشعرني دائماً بالحماية والأمان والاطمئنان إلى الحاضر والمستقبل ..

★

الفَصْل الحَادي عَشر

حِوَارٌ بَين النفسِ والعَقل

حوار بين النفس والعقل

بعد هذه الحياة الحافلة بالتجارب العملية ، وهـذه السنوات الطوال من النجاح والفشل ، ومن البؤس والنعيم ، ومـن الفقر إلى الاكتفاء .. وبعد هذه الذكريات التي يحلو للمرء في كثير من الأحيان أن يخلو إليها ، يستعرضها أمام خاطره .. وتبعث صورها من الماضي لتمر أمام بصره وكأنها شريط سينمائي صامت .. كثيراً ، ما يسائل المرء نفسه عن هذه الواقعة أو تلك .. وكثيراً ما يتذكر المرء آماله في شبابه ، ثم في أواسط عمره، ثم بعد أن تقدم به السن .. آمال تحقق بعضها والبعض لم يتحقق . آمال كانت في سن معينة ، ما لبثت أن حلت محلها آمال وأحـلام في سن بعدها .. ويدور الحوار بين النفس والعقل .. لماذا اخترتَ هذا الطريق ، ولم تختر ذلك الطريق ؟.. ولماذا نجحتَ هنا، وفشلت هناك؟..و، ألم يكن من الأفضل أن تكون كذا ؟.. ولماذا لم تسعَ لأن تكون كذا ؟..

وتظل النفس تتمنى وتتساءل ، ويظل العقل يجيب ويحلل ..

النفس تتساءل عن أحلامها التي كانت تودّ لو تحققت ، والعقل يجيبها معلّلاً .. موضحاً ..

النفس : لو كنتَ قاضياً .. تحـــكم بالقوانين الموضوعة ، لا بقوانين شريعة من شرائع الله المنزّلة ، التي يلتزم قضاتها بتنفيذ نصوصها الكريمة، فماذا كنت تفعل تلافياً للاضرار بالناس مـن حيث لا تقصد ؟.. وكثيراً ما تحدث الأضرار نتيجة الاحتيال على القانون ؟!

العقل : أولاً .. لم يكن ممكنـاً أن أكون قاضياً .. فللقضاة مؤهلات خاصة لا بد منها ، وهـذه معدومة عندي ، فلم تتح لي الظروف أن أدرس الدراسة العالية اللازمة..حقيقة أن الحياة العملية وممارستي الأعمال التجارية ، وتعرضي للمشاكل العديدة ، أعطتني خـبرة كافية في قوانين العمل التجاري ، ولكن ذلـك – يا نفس – لا يكفي لكي أصبح قاضياً أحكم بين الناس ! ورغم ذلك كله..فإني أعتقد أني لو أتيحت لي الظروف لأصبح قاضياً .. لكنت تصرّفت تبعاً لتفكير خـاص ، ربما كان غريباً بعض الشيء ..

إنني أرى أن كل من يسعى لمصالحة بين الناس،هو قاضٍ . والاصلاح بين الناس في نظري أهم بكثير من مجرد تطبيق القوانين التي راعى واضعوها أن تحقق أقصى ما يمكن من العدل ، إلا أنها لا بد وأن تكون بها ثغرات ينفذ منها الظالم القادر على التلاعب بها باية وسيلة ، وما أكثر الوسائل التي يمكن التلاعب بها على القوانين.. والتي تؤدي أحياناً إلى ظلم بريء.. أو إلحاق الضرر به وبمصالحه.. دون قصد من القاضي، ودون قصور من القوانين نفسها ..

إنني ، أثق في قدرتي على معرفة صاحب الحـق ، ومعرفة مغتصب

الحق ، من النظرة الفاحصة إلى وجوه المتخاصمين ، ومن الاستماع إلى كل منهم وهو يعرض أمره في مواجهة الآخر .. كما أثق أن الاصلاح بينهم واجب وأنه ممكن دائماً ، إذا اقتنع مغتصب الحق أن الصلح أفضل له حتى ولو كانت أوراقه ومستنداته تؤيده في اغتصاب الحق ..

لا بد أنني كنت بعد اطلاعي على ملف الادعاء ، ساطلب ملف الدفاع ، لتكون لديّ الصورة الكاملة عن أقوال الطرفين .. ثم كنت أدعوهما إلى جلسة مشتركة ، كلّ مع محاميه ، وأطلب من المحامين أن يتركوا كلاً منهما يدلي بأقواله وبحجته أمامي بنفسه دون تدخل منهما .. وأعتقد أنه في هذه الجلسة سيتبين لي - من واقع خبرتي الطويلة بالناس- موضع الحق في هذه الدعوى .. ثم كنت ساضمن لكل من محامي الادعاء والدفاع أتعابهما ، بصرف النظر عن كيفية انتهاء القضية أو نتيجتها .. ثم أختلي بالمحقّ وأقنعه برفق بوجوب تسوية الأمر وحسم النزاع بالحسنى، ثم أختلي بالمحقوق ، (مغتصب الحق) ،وأبيّن له رأيي في موقفه .. وأقنعه أيضاً بوجوب إعادة الحق إلى صاحبه والتسليم به .. وأعتقد أن النصيحة الخالصة لوجه الله تعالى ، يقبلها الطرفان ، خاصة عندما تصدر من قاضٍ لا مصلحة له في نصرة هذا أو ذاك ..

أغلب ظني ، أنني كنت سانجح في الاصلاح بين المتخاصمين،وتسوية القضايا وإنهاء النزاع في أوله ، وبذلك أتلافى الأضرار التي ستلحق بكل منهما من الاستمرار في الخصومة .. وأمنع الظلم عن صاحب الحق الذي قد لا تكون لديه خبرة المغتصب في تقديم الأدلة الكاذبة والمستندات

المزورة والقدرة على استغلال القانون لايقاع الاضرار بالبريء صاحب الحق !.

★

النفس : لو كنت مديراً أو رئيساً لادارة ما يسمى بالحجز الاحتياطي كيف كنت ستتصرف لحفظ حق المدعين ، بدون إضرار بحق المدّعى عليه ، أو بحق الاقتصاد العام .. من واقع خبرتك بهذه القضايا ؟..

العقل : وهذا أيضاً عسير ، فكما أن دراستي لم تسمح لي بأن أكون قاضياً .. فهي بالتالي لا تؤهلني لكي أكون مديراً أو رئيساً .. خصوصاً وأن هذا المنصب الذي تفكرين فيه منصب خطير وهام .. لا يجوز أن يتولاه إلا رجل مثقف ثقافة عالية ، يتمتع إلى جانبها بقدر معقول من الذكاء ، وبأكبر قدر من نقاء الضمير وصفاء النفس وقناعتها ..

النفس : ولماذا كل هذه الشروط؟ . إنك لو أمكنك ، لكنتَ موظفاً ما عليك إلا التنفيذ .. تأتيك مستندات المدعي ، فتقوم بالحجز على المدّعى عليه .. المسألة سهلة !..

العقل : لا يا نفس .. المسألة ليست سهلة كما تتصورين.. يجب أن أعرف حقيقة الأمر .. أليس من المعقول أن تكون مستندات المدعي وهمية أو مزورة ، وأقوم أنا بتوقيع الحجز ظلماً ؟

ساستدعي أولاً المطلوب توقيع الحجز عليه ، لأستمع إليه ، وأعرف منه دفاعه وحقيقة الموقف ، ثم أحاول أيضاً في هذه المسألة الإصلاح .. والإصلاح بين الناس كله خير .. فإذا عجزت .. وأصر المدعي ، فإنني

أدرس حجم طلبات المدعي بالنسبة إلى ممتلكات وأموال المدعى عليه ..
وهل من المعقول ـ يا نفس ـ أن يكون للمدّعي حق في مائة دينار مثلاً ، وأن أوافق على توقيع الحجز على المدعى عليه ، على أملاكه ، وأمواله الثابتة والمنقولة ، وعلى أرصدته ، وعلى بضائعه إذا كان تاجراً سواء المعروضة للبيع أو الموجودة في المخازن ، وكل ذلك قد تبلغ قيمته مثلاً نصف مليون دينار !؟.. هل هذا معقول ، خصوصاً أن المدعي قد يلجأ إلى كل الحيل لإطالة زمن التقاضي سنوات وسنوات ، لا لكي يحصل على المائة دينار ، بل لكي يتسبب بهذا الحجز الشامل في الاضرار بالمدّعى عليه وإلحاق أفدح الخسائر به ؟... هل معقول أن أوافق على ذلك ، فتتجمد أموال المدعى عليه ، ويتجمد نشاطه ،بل وقد يوقف نشاطه نهائياً في التجارة والعمل ، وفي ذلك الكثير من الإضرار بالعمال وبالموظفين وبالمتعاملين معه ، بل وببلدي التي تستفيد اقتصادياً من استمرار ذلك النشاط ؟.

لا بد انني كنت إذا فشلت في الصلح .. أقوم بتوقيع الحجز الاحتياطي فقط على ما يعادل أو يفوق قليلاً طلب المدّعي، وأترك المدعى عليه أمواله وتجارته ومصانعه ، ليواصل نشاطه ..

النفس : إنك متفائل !. ولم يفكر هذا التفكير أحد .. المهم تنفيذ القانون .

العقل : نعم .. للأسف هذه هي الحقيقة .. ولكن القانون مظلوم .. ألم أقل لكِ أني لا أصلح لهذه الوظيفة ؟؟!.

*

النفس : لماذا لم تصبح موثّقـــاً في دوائر التوثيق التجاري أو كاتب عدل ؟. وماذا كنت تفعل أمام القضايا الغريبة المتنوعـــة التي تعرض عليك لاقرارها ؟.

العقل : أولاً سؤالكِ يا نفس أغرب من أسئلتك السابقة!. هل المسائل كلها فوضى في نظرك ؟!

أولاً ، هل كل من يريد أن يكون (موثقاً) أو كانب عدل يستطيع ذلك ؟ وثانياً .. لماذا تفكرين في هذه الوظيفة الخطيرة الحساسة ؟؟

أول شرط لكاتب العدل أن يكون حاصلاً على ثقة المسؤولين في نزاهتهوحرصه على العدالة ، ودقته فيتنفيذ ما يطلب منه.. فاذا حصلت أنا على هذه الثقة وعيّـنتُ .. أصبح كل شيء سهلاً في نظري ..

إنني أستطيع أن أقرأ ما يدور في أفكار من يتقدمون إليّ .. ومن نظرات عيونهم أستطيع معرفة ما يدور بفكرهم ونفوسهم !؟

النفس : وإذا كان أحدهم يلبس نظارة سوداء .. ويتقمص شخصية تخالف حقيقته .. فلا ترى عينيه ، ويخدعك بشخصيته !؟

العقل : إنها الخبرة .. ألم أقل لك أني خبير بالبشر من طول معاملتي مع كل أصناف الناس ؟. أستطيع أن أداعبه وأتحـايل عليه باي طريقة حتى يخلع النظارة !. وأستطيع أن أتجاذب معه أطراف الحديث حتى أعرف حقيقة شخصيته وأهدافه .. وأعرف هل ما يريـد تسجيله لحفظ حق في الحياة أو بعد الممات ، أو مجرد طريقة لتهريب أمواله مثلاً

للخلاص من دفع حقوق الغير أو للتستر ، أو حتى لإبعاد شبهة الغنى غير المشروع عنـه ! وإذا وجدت أن نفسي غير مرتاحة للأمر ، لا يمكن أن أقره وأنفذه . وبالذات في طلبات الاحتجاج « البروتستو » .. التي يسعى البعض لعملها ضد الآخرين.. فبعضها يكون من غـــير حق ويسبب ضرراً كبيراً لمن ينفذ في حقهم .. انني كنت أقوم بتبليغ المهدد بالاحتجاج أولاً ، لأعرف منـــه حقيقة الأمر ، وأنصحه بالموقف اللازم الصحيح .. وأرفض أن أكون ضدّه إذا كان الحق معه .. لأنني أفضل أن أقوم بواجب إنساني بالنسبة للجميع ، قبل أن أكون مجرد موظف ينفذ ما يطلب منه، بحق أو بغير حق . وأعتقد أن كل كتاب العدل الأشراف يتصرفون كما ذكرت لك .. والآن ، ما رأيك يا نفس .. هل أصلح كاتباً للعدل ؟ أو موثقاً في دوائر التوثيق التجاري ؟!

★

النفس : ما دمت تتحدث دائماً عن الانصاف والعدالة ، فلمـاذا لم تسع لتكون محامياً . وماذا كنت تفعل لو أتيحت لك الفرصة لذلك ؟!

العقل : عجب أمرك يا نفس ، هل إذا دافعت عن حقوق النـاس ، وأوضحت رأيي فيما يجب أن يكون من الاجراءات العادلة ، هل لا بد أن أصبح محامياً ؟. وهل من السهل في نظرك أن يصبح المرء محامياً ؟! إنهـا مهنة صعبة المنال . لا أصلح لها، ولا يصلح لها الكثيرون ، بل ولا يصلح لها كل من اعتقد أنه بدراسة القوانين يمكن أن يكون محامياً .. إنهـا مهنة تتطلب مع العلم ، الاستعداد النفسي والشخصي ، لأداء رسالة المحامـاة .. ومهنة المحاماة تحتاج إلى ذكاء ويقظة وفطنة . وإلى جانب هـذه الصفات

تحتـاج إلى قلب كبير وضمير حي، لتستعمل كل هذه الخصال والمواهب في سبيل إظهار الحق ، وفي اكتشاف طرق التلاعب بالقوانين التي قد يلجأ اليها الخصم .

إن الشهادات مهما عَلَت ، لا تكفي لخلق محـام ناجح . . والشواهد كثيرة ، بعضهم قد يصل إلى الدكتوراه في القوانين ، ويفوز عليه محـام ناشيء لا يحمل إلا مؤهله الأولي ، ولكنه يمارس مهنته كرسالة يتفانى في تأديتها نصرة للعدالة .

وعلى العموم . . إن كان لا بد وأن أصبح محامياً . . فساكون سعيداً أن أنضم إلى أسرة العاملين على إحقاق الحـق ، الذين نذروا أنفسهم لإرساء قواعد العدالة . . ولو كلفهم ذلك كثيراً من التضحيات الماليـــة والمعنوية . .

إن الله وحده هو المطلع على ما يأتيه المرء من أفعال . . وعندما يلجأ إنسان إلى محام فإنه يأتمنه على سرّه . . ويبوح له بالحقيقة المجردة التي يجتهد أن يخفيها عن الجميـع ، وهنا تبدو خطورة موقف المحامي ، أمام إنسان إما أن يكون مظلوماً حقيقة ، فيدافع عنه حتى يعيد إليه حقه ، وإمـا أن يكون ظالماً لنفسه ولغيره . . ولا يجد المحامي ذو الضمير الحي ، إلا أن ينصحه نصيحة أخوية خالصة لوجه الله ، أن يعترف بالحق لأصحابه . وإذا رفض الظالم ، فعليه أن يعتذر عن تولي قضيته . . تمسكاً بقداسة المهنة التي انتدب نفسه من أجلها . .

هذا ما سافعله . . إما أن أدافع عن مظلوم حقاً . . أتأكد أنا من ظلمه .

أو أعتذر ، ورزقي على الله .. ويوماً بعـد يوم سيعرف الناس عني أني لا أتولى إلا القضايا العادلةالتي تحتاج إلى جهد ومهارة لإنقاذ صاحب الحق من براثن من يحاول اغتصاب حقّـه .. وهذه السمعة الحسنةوحدها هي مفتاح النجاح ومفتاح الرزق ..

النفس : ولكن المحامي يجب أن يستلم كل القضايا .. فهذا يحقق له ربحاً لا يقدّر ..

العقل : لا. هذا هو المنطق المعكوس. وإني صر على رأيي. إما أن أدافع عن المستحق أو أرفض الدعوى.. وأيضاً احاول الإصلاح بين المتخاصمين . لا أصدّق أن هناك محامياناجحا شريفاً ولديه ضمير حي ، يقبل أن يشارك المدّعي ظلماً .. اغتصابه للحق ، ويساعده على ظلمه .. فأين يذهب من ضميره لو فعل ذلك .. وأين يذهب من الله المطّـلع على كل شيء ؟؟.

★

النفس : مهنة الصحافة تعجبني ، وهي مهنة سهلة . كم كنت أتمنى أن تكون صحفياً .. ولا بد أنك كنت ستكون صحافيـــاً ناجحاً يؤدي رسالة الصحافة على أكمل وجه ؟.

العقل : وأنا أيضاً تعجبني مهنة الصحافة .. ولكنك مخطئة كثيراً في اعتقادك أنها مهنة سهلة .. إن للصحافة رسالة شريفة ، وإنهـا لمسؤولية خطيرة ، ولولا ذلك لما سموها في بعض بلاد العالم .. « صاحبة الجلالة الصحافة » .. أو « السلطة الرابعة » نسبة إلى أنها تلي في الأهمية السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية ..

الصحافة سهلة فقط ، للذين ينظرون إلى العمل فيها على أنه مجرد وسيلة للارتزاق . حتى ولو كان ذلك باللجوء إلى طرق غير مشروعة ، كالابتزاز تحت التهديد بالتشهير .. أما الصحافة كرسالة ، وكالتزام بكل القيم الوطنية والمبادىء الأخلاقية ، فهي ليست سهلة على الاطلاق ..

والصحافة ميدان واسع ، والصحافة الحديثة لم تعد كما كانت قديماً مهنة عامة ، يستطيع الفرد أن يحرر الصحيفة من صفحتها الأولى إلى الأخيرة ، بعد أن تعددت وسائل الإعلام ، فالصحافة ينافسها اليوم الإذاعة وينافسها التلفزيون .. ولذلك تحاول الصحيفة الناجحة أن تقدم للقارىء ما لا تستطيع هاتين الوسيلتين تقديمه .. ولذلك أيضاً ، أصبحت كبريات الصحف تقوم على التخصص ، فهناك الصحفي المعلق السياسي أو الاجتماعي ، وهناك الصحفي الاخباري ، وثالث يتخصص في المجالات الفنية .. وهكذا ..

ولا تنسي أن الصحفي الشريف، هو كالمحامي ، عندما يتصدى للدفاع عن مصالح الشعب ، وعندما يقف ضد الانحرافات. وقد يكلفه ذلك كثيراً بل وقد يؤدي به إلى السجون والتشريد .. ولكنه مهما أُوذي يظل ثابتاً على مبادئه ويصمد مهما تعرض للاغراءات .. هذا هو الصحفي الذي يحترمه القراء .. أما الصحفي المتلون الذي تجدينه كل يوم هو في حال ، اليوم معارض وغداً مؤيد ، اليوم يدافع عن قضية وغداً يكتب ضدها .. وإن استفاد مادياً نتيجة تقلبه وتلونه ، لن يكن له القارىء أي احترام ..

النفس : دعنا من هذه المحاضرة عن أهمية الصحافة .. علمنا أنها ليست

مهنةُ سهلة.. ولكن إذا تمنيتَ أن تكون صحفياً .. فأي مجالات الصحافة تختار ؟.. إنني كنتُ أتمنى أن تكون صحفياً متخصصاً بالإجتماعيات لكي تحضر الحفلات الساهرة الراقصة الصاخبة وتتمتع بما لذ وطاب..ويتهافت عليك الجميع لنشر أخبارهم !

العقل : وأنا على عكسك تماماً . إنها مهمة سهلة ، حضور الحفلات والكتابة عن نجوم المجتمع .. ولكني أفضل ميدانـــاً أهم ، وأخطر .. إنني لو أتيحت لي الفرصة ، لكنت أسعى أن أكون مراسلاً حربياً .. أرافق الجيوش إلى ميدان المعركة .. لأنقل للقراء الصورة الحقيقية عن القتال .. ولا أفضل للقارىء من أن تقدّم له تفاصيل يرسلها شاهد عيان من قلب أي معركة مهمّة .. هذه في نظري أدق مهمة يمكن أن يقوم بها صحفي وتدل على التضحية والمخاطرة في سبيل المهنة .. كما تدل على الجرأة والتفاني في الاخلاص للعمل ..

النفس : الحمد لله .. أنك لم تكن صحفياً !!.

★

النفس : طالما حسدتُ هؤلاء المديرين . خصوصاً رؤساء مجالس إدارات الشركات الكبرى والمؤسسات العظيمة. .فلماذا لم تكن مديراً أو مستشاراً.. وكيف كنت ستتصرف لو عينوك في أحد هذه المناصب ؟

العقل : هؤلاء المديرون.. لا تحسديهم كلهم !. بعضهم ناجح ، وبعضهم مجرد صورة ، يضعها أصحاب المؤسسات الأصليون ، أو أصحاب النفوذ الحقيقي فيها ، يضعونهم واجهة فقط ، يحركونهم من وراء الستار تماماً كالدمي التي ترقص على مسارح الأطفال !.

ولا تحسديهم كلهم أيضاً ، لأن بعضهم يتمتع فعلاً باحترام الجميع ، موظفي المؤسسة أو الشركة ، والمتعاملين معها .. وبعضهم لا ينال إلا اللعنات من الجميع وإن تظاهر الناس باحترامه ..

بعضهم يحاول أن يخدم مؤسسته وينميها ، مع المحافظة على حقوق المؤسسات الأخرى والعملاء ، وإذا جرت منافسة بين مؤسسته وبين مؤسسة أخرى حافظ على الشرف التجاري والقيم الأخلاقية..وبعضهم لا يتورع أن يلجأ إلى أخس الأساليب لا لتنمية مؤسسته فحسب بل لتحطيم المؤسسات المنافسة .. ويعتبر ذلك مهارة وربحاً ! معتقداً أنه سيفوز بالتقدير ، وما مصيره في الحقيقة إلا مصير كل ظالم جبار.. وأخيراً ، إنني حقيقةً كنت أتمنى أن أكون مستشاراً أو رئيساً لاحدى المؤسسات الكبرى .. ولا أبالغ إذا قلت انني كنت سأديرها بطريقة أخلاقية .. فالأخلاق عندي هي أساس النجاح ..

النفس : وهل لا بد من الأخلاق الكريمة في الأعمال التجارية؟ وخاصة في المؤسسات الكبرى ؟. لنفرض انك كنت مديراً ، وتوقف أحد عملائك عن الدفع .. فهل أمامك إلا أن تتصرف معه لصالح المؤسسة ؟.. وأي دخل للأخلاق في العمل ؟ .

العقل : وصلنا إلى بيت القصيد !. هذه الحالة بالذات هي التي تحتاج إلى أخلاق كريمة..وهناك مجالات للتصرف.. فإما أن يكون هذا التوقف عن الدفع عن عذر قهري ، وعن طارىء حقيقي طرأ على العميل . أو يكون عن سوء نية ورغبة أكيدة من العميل في اغتصاب حق المؤسسة ..

في الحالة الأولى . أرى من واجبي ـ لا إنسانياً فحسب ، بـل ولمصلحة المؤسسة ، أن أدعم هذا العميل ، وأساعده ، وأتيح له الفرصة لتحسين أوضاعه. .ففي ذلك ضمان لحق مؤسستي ،ومن المؤكد أن إنقاذه من الضائقة، سيدفعه إلى الثقة أكثر فأكثر بمؤسستي ويشجعه على زيادة حجم التعامل معها في المستقبل . ولن أخسر شيئاً بذلك . .أما في الحالة الثانية ، فهناك وسيلتان، وسيلة اتخاذ الاجراءات القانونية بحق المتوقف. أو أن أواصل الحوار معه بالطرق الودية، وأرضى ولو بدفع نصف قيمة المستحق عليه، فهذا المبلغ تستطيع مؤسستي استغلاله في أعمالها ، ومن الممكن أن يعوّض استغلاله في الفترة التي يستغرقها التقاضي ، ما فقدته المؤسسة . .

ربما لا توافقينني على هذه الوسيلة الأخيرة . . ولكن تأكدي يا نفس ، أن البعد عن المشاكل ، أو محاولة حلّ المشاكل وحسمها باهون طريق ، يرفع من قيمة مدير المؤسسة في نظر الجميع ، ويشجع الكثيرين من الشرفاء على التعامل معه . .

★

النفس : بعد أن عانيتَ ما عانيت مع بعض من تعاملت معهم خلال حياتك العملية . . هل تفضل الآن،لو كنتَ قضيتَ حياتك، في عزلة عن المجتمع ؟. . وأي الحالين أفضل ، الاندماج مع الغير . . أو العزلة ؟. وماذا كنت ستفعل لو بدأت الآن من جديد ؟.

العقل : أنت مخطئة يا نفسي . . مخطئة جداً . . فرغم أني قد عانيت من سوء عشرة البعض ، أو سوء معاملة البعض ، أو انتهازية البعض، أو استغلال البعض ، من الذين كانوا يعتبرون مالي كمال الدولة حلال نهبه .

رغم ذلك كله ، فــــان مجموع هؤلاء الأفاقين أو الأستغلاليين ، لا يشكل عُشر أو واحداً على مائة من الأفاضل الشرفاء المخلصين ، الذين تعرفت إليهم في كل مكان أقمت فيه، أو الذين تعاملت معهم في كل بلد كانت لي معه علاقات تجارية ..

أنت مخطئة .. ومخطئة جداً ، إذا تصورتِ أن خطأ فرد أو بضعة أفراد مع الانسان ، يجعله يفضّـل العزلة .. وعـدم الاندماج في المجتمع ، وعدم التعامل مع أحد .. فالعزلة في نظري هي قبر الحياة .. ومن اختار العزلة عن الناس ، قال الناس « رحمة الله عليه » وهو حيّ يرزق !

إن العلاقات الاجتماعية ، والحياة الاجتماعية ، تشبه الحديقة الغنّـاء ، المليئة بالزهور والورود الجميلة ، التي يمكن بل يجب على الانسان أن يتمتع بها .. وكما يوجد ببعض الحدائق ، نباتات جميـلة المنظر ، إذا اختبرها الانسان وجدها عديمة أو كريهة الرائحة، وأنها ما كانت إلا لمتعة النظر عن بعد .. وكما يوجد أيضاً من الورود والأزهار والثمار ما يحيط به الشوك الذي يدمي أيادي مـــن يقترب .. فكذلك المجتمع ، وكذلك العلاقات الاجتماعية .. علاقات تفرح القلب والنفس وتشعر الانسان بلذة الحياة .. وعلاقات أخرى لا طعم لها ولا جدوى.. وعلاقات مريبة تزعج وتدمي القلب والجيب معاً ! ــ وكما أن الحدائق الجميلة محاطة بأسوار ذات أبواب. .فكذلك الحياة الاجتماعية، لها أبواب يجب على المرء أن يعرف كيف يفتحها لينطلق منها إلى العلاقات الاجتماعية الصافية المخلصة.. ولها شروط .. أولها، ألا يكون المرء مغروراً مختالاً فخوراً. وألا يكون

انتهازياً .. وألا يكون نمّاماً يمشي بالوقيعة بين الأصدقاء .. وألا يكون صفيقاً لا يهمه إلا معرفة أسرار الغير .. وألا يكون فاجراً يتخذ من العلاقات الاجتماعية ستاراً لنزواته .. وألا يكون حقوداً يحسد الغير على ما أنعم الله به عليهم .. وألا يكون منافقاً يظهر غير ما يبطن ..

النفس : عند هذا استوقفك قليلاً .. إن الناس يحبون النفاق والمديح . بالحق او بالباطل .. والعلاقات الاجتماعية معظمها نفاق في نفاق ..

العقل : أنت ايضاً مخطئة يا نفس في هذا .. هناك فارق بين الاطراء، وابداء الاعجاب الصادق، والمديح الحقيقي،أو المجاملة البسيطة المقبولة ، وبين النفاق .. النفاق يفتضح ويظهر .. وللمنافق علامات.. ولتتاكدي أن المنافق مهما ساق المديح وأجاده وبرع في التلاعب بالألفاظ لا بد أن ينكشف ويصبح منبوذاً ..

لعلكِ الآن اقتنعت برأيي .. بان العقبات التي قد تصادف الانسان في حياته .. والآلام التي قد يسببها له البعض ، والخسائر التي قد يمنى بها على يد الآخرين .. لا يجب أن تدفعه إلى العزلة .. إلى دفن نفسه في قبرها وهو حيّ ..

*

النفس : لماذا لم تسعَ لتكون مهندساً ميكانيكاً ؟.. إنني أعجب بالمهندسين الفنيين ، وعملهم يحترمه الجميع .. لماذا لم تكن مهندساً ؟ .

العقل : أما وقد أثرتِ هذا الموضوع يا نفس .. فإني أصارحك ، بان هذه كانت بالفعل أمنيتي طوال حياتي . وفي الحقيقة .. لقد تحققت

ولم تتحقق في وقت واحد !.. وساوضح لك كيف ..

إنني أهوى الهندسة الميكانيكية .. وكنت أتمنى لو أتيحت لي الفرصة لدراستها دراسة تفصيلية وأن أنهل من معين علم الهندسة ..ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه.. ولكن الهواية دفعتني إلى دراسة المحركات المختلفة، التي كانت دراستها في متناول يدي مثل محركات السيارات والجرارات الزراعية والتراكتورات والمضخات .. حتى لقد أصبحت أعتبر نفسي خبيراً في تركيب هذا المحرك أو ذاك ، وفي ميزات هذا التصميم عن غيره .. وفي الاختلافات التي توجد بين تصميم محرك وآخر وما قد يكون لها من فائدة أو ما يتسبب عنها من ضرر .. إلى جانب خبرتي هذه، فقد دفعتني الهواية أيضاً إلى ممارسة إصلاح المحركات بنفسي وبيدي ، وكثيراً ما أتولى إصلاح سيارتي إرضاء لهوايتي ، واكتساباً للمزيد من الخبرة .. لهذا قلت لك ، أن أمنيتي تحققت ولم تتحقق .. تحقق منها الخبرة الكافية ولم يتحقق منها الشهادة واللقب الرسمي ..

وهنا أحب أن أذكّرك يا نفس بامر أظن أنك تتناسينه..ألا تذكرين أن كل ما قمت به من أعمال ناجحة في حياتي التجارية ، كان يعتمد على خبرتي هـــذه بالهندسة الميكانيكية .. وأن كل ما قمت به في غير هذا الحقل، لم أوفق فيه.. وكان لدى الانتهازيين الفرصة لاستغلال عدم خبرتي والتلاعب بحقوقي ..

لقد اكتسبت الخبرة والمران الطويل في المحركات وهندستها وتشغيلها منذ أيام الشباب.. وكنت أوالي الدراسة، ولكن إغراء التجارة في أنواعها

المختلفة ، والأمل في المكاسب العظيمة التي قد تحققها ، دفعني إلى أن أعمل في مجالات بعيدة كل البعد عن مجال خبرتي .. وكانت النتيجة التي آمنت بعدها بأن الأفضل والأسلم ألا يمارس الانسان إلا عمـلاً تكون لديه الخبرة بممارسته .. وهذا ما دفعني في السنوات الأخـــيرة إلى الاكتفاء بتجارة السيارات ، والمحركات وغيرها من الآلات الميكانيكية .. إرضاء لهوايتي، مصمماً على ألاّ أتيح لأحد أن يحاول خداعي في مجال لا أعرف عنه كل شيء . .

*

النفس : ألم تكن تودّ أن تكون رجل سياسة ، بارزاً، تتناقل الاذاعات والصحف والألسن اسمه .. وكان ذلك كفيلاً بأن يجعلك تتبوأ أفضل الوظائف والمراكز ، وأن يجعل المال ينصب عليك أيضاً مـن كل حدب وصوب، وكفيلاً بأن تحيا حياة مستقرة مرفهة، بدون مخاطرات التجارة ومتاعبها وخسائرها ، والقلق الذي تسببه ، والاهانات الـتي قـــد يتعرض لها من يمارسها من بعض السفهاء الذين لا يقدّرون قيمتها كمصدر شريف محترم للعيش ؟؟ لماذا لم تحاول أن تكون شخصية سياسية ؟!

العقل : هذه المرة ، أجيبك بالرفض القاطع يا نفسي.. لقد تمنيت أشياء كثيرة ، وأعمال كثيرة، ولكني لم أتمنَّ أبداً أن أكون رجل سياسة ..لأني واثق أني لا أصلح لهذا العمل مطلقاً .. ولا باي شكل مـن الأشكال ، والمرء يتمنى ما يعتقد أنه يستطيع أن يعمله أو ما يستحق أن يكونه . . وليس مهماً بالنسبة لي حكاية الشهرة والاسم اللامع المعروف الذي تتناقله الصحف والاذاعات كما تقولـين .. فالشهرة ليست كل شيء ، وكثيراً

ما يدفع الانسان ثمنها من راحته وصحته بل وأحياناً حياته كلها .. أما حكاية المال الذي تقولين أنه كان سينصب عليّ .. فحتى لو كنت سياسياً .. فأؤكد لك أن قرشاً واحداً لم يكن ليتجه نحوي !.. وإذا اتجه فسأبتعد عنه .. فالسياسي الذي يعيش علـــى الاعانات أو الهبات أو الأتاوات أو الرشاوى..أو الأتعاب مقابل الخدمات، أو أرباح الصفقات المشبوهة أو غير ذلك ، لا أعتبره سياسياً ، بل مجرد مرتزق بالسياسة .. لا يتمتع بالاحترام الحقيقي ولا يحبه أحد .. وكيف يحبونه ويحترمونه وهم الذين يدفعون ثمن شهرته ومواقفه وكل خدمة يؤديها لهم ؟..

أما مقارنتك بين متاعب التجارة ورخاء السياسة.فهذا أمر عجيب. للتجارة لذة !. مهما كانت متاعبها . أما السياسة .. فلكي يتمتع السياسي بمكاسبها .. يجب أن يكون لديه «مواهب» .. ليست عندي ..

النفس : وهل السياسي .. تلزمه مواهب معينة ؟ وأية مواهب هذه ؟

العقل : نعم،لا بد من مواهب. ولستُ مؤهلاً لها. والأسباب كثيرة.. يكفي أن أقول لك أني صريح .. وأعتقد ان السياسي الصريح فاشل.. إذ ان السياسة كثيراً ما تحتاج المداورة والمحاورة وإخفاء النوايا.. بل واحياناً يكون ذلك ضرورياً. والسياسي الناجح يجب ان يتقن عدة لغات اجنبية. واخيراً .. السياسة قد تحتاج إلى شيء مـن التظاهر بالعظمة .. وانا ولله الحمد .. اعتبر نفسي أقل الناس رغبة في التفاخر وابعدهم عن الغرور. وغير ذلك .. ممـا يؤكد الك انـني لا اتمنى ان اكون سياسياً ، لسبب واحد .. كما قلت من قبل ، هو انني لا اصلح !.

★

النفس : لا تصلح أن تكون سياسياً .. وكنت تتمنى أن تكون مهندساً وحققت قسماً من أُمنيتك .. وكنت تريد أن تكون مراسلاً حربياً .. ونجحت في عملك التجاري نجاحاً عظيماً . ودائماً تتحدث عن الاصلاح، والأخلاق ، وخدمة الناس ومعاونتهم، والتخفيف من آلامهم. فلماذا لم تحاول أن تكون طبيباً ؟ وهي مهنة إنسانية .. تخفف آلام الغير وتسعدهم !.

العقل : هذه المرة لديك كل الحق في سؤالك يا نفس .. لقد تمنيت ذلك كثيراً .. وليت الفرصة أتيحت لي لأكون طبيباً ، فهي مهنة من أشرف المهن وأنبلها ..

ولكنك يا نفس .. تسالني ، لماذا لم أكن كذا وكذا ؟ وكأنك غريبة عني ، وكأنك لم تعرفي تفاصيل نشأتي وحياتي ، وكفاحي الطويل من أجل كسب العيش ثم لتحسين مستواي وتامين مستقبل أفضل لأسرتي !.

ألا تذكرين طفولتي ؟؟ وكيف توفي والدي وأنا في الثالثة من عمري . وكيف جاهدت والدتي لتعولني واخوتي ، وكيف اضطررت إلى العمل وأنا دون العاشرة أو حولها ، مع اللحامين والحطابين والحدادين ؟ لقاء قروش معدودة ؟..

ألا تذكرين ماذا كان همي الأكبر ؟. كان تامين الضروري من النفقات للعيش الكريم .. ثم كان سعيي الدائب والحثيث والمتواصل بدون كلل أو ملل ، وبدون حساب للأيام والشهور والسنوات ، لتحسين مستواي .. فمتى يا نفس كان باستطاعتي أن أتعلم.. ثم أن أتفرغ للتعليم العالي والعملي ،

وبالذات تعلم الطب ، الذي يحتاج فضلاً عن النفقات الكبيرة ، الانتظام في الدراسة العملية الطويلة ؟.

.. إنها أُمنية .. كثيراً ما جالت في خاطري أيام شبابي .. لكني كنت أستبعدها فوراً عن ذهني لإدراكي استحالة تحقيقها .. شأنها شأن أمنيات عديدة أخرى صعبة التحقيق ..

ولكن .. لعلك تذكرين يا نفس ، ما عاهدتك عليه مراراً ، اثناء فترات كفاحي الطويل .. لقد عاهدتك أن أحقق لك كل أمنياتك .. وسأفي بوعدي ، بإذن الله .

النفس : لقد أثرتَ حيرتي .. عاهدتني حقاً .. ولكنك لم تستطع ، فكيف ستنفذ ؟!

العقل : كل ما تمنيته ولم أستطع تحقيقه لك ، سأحاول جهدي أن أحققه لأولادي .. ألا تذكرين . كنا نامل أن أكون طبيباً ، وباذن الله ستتحقق الأمنية ، ويكون ولدنا طبيباً . إن ما لم يتحقق لنا سيتحقق لأولادنا الذين ضحينا من أجلهم بآمالنا ، فسيحققونها بإذن الله ..

★

الفَصل الثاني عَشر

مَع الشّعر



.. مع الشعر والشعراء

إن القارىء لا بد وأن يجد هذا الفصل من الكتاب غريباً .. إذ يجدني فيه شاعراً.. بعد أن أوضحت له ما أوضحت من تفاصيل عن نشأتي .. وحياتي .. وتعليمي ..

ومع ذلك ، أحب أن اطمئن القارىء.. أني لست شاعراً ، ولم أدعي ذلك ولن أدّعيه في يوم من الأيام. كل ما في الأمر ، أنني انفعل للأحداث. وتجيش في نفسي المشاعر والعواطف ، وتتزاحم الكلمات والأفـكار في رأسي ، لتنتظم في عبارات تصوّر انفعـالاتي ومشاعري .. تبـــدو وكأنها شعر ..

ولم يكن قول الشعر بغريب على جيلنا .. فقد كنا أنا وغيري ، وقد نشأنا في مهد اللغة العربية ، ومهد الشعراء العرب ، نحس أن الشعر ملكة تنمو وتترعرع فيذهن الإنسان من وحي محيطه الذي يعيش فيه، نتبارى في نظم أبيات منه .. نحاول أن نحذو فيها حذو من سبقنا من الشعراء .. ولكنها وإن كان بعضها جيد يستحق أن يقرأ إلا أنها كانت يغلب عليها الطابع البدائي .. لم أقدّم شيئاً منها هنا، ربما لأنها لا تستحق، وربما لأني نسيتها .. وهنا يظهر الفارق بين الشعر المتكلّف والشعر الذي ينساب

تعبيراً عن شعور معين أو انفعال جارف ، فهذا الشعر لا ينسى ويظل المرء يتذكره على مر الأيام والسنين .. ومنه ما أقدمه هنـــا للقارىء كل أبيات مع مناسبتها ..

لقد كان الشعر بالنسبة إلينا في سن الطفولة وما بعدها هواية لايختلف عن أي هواية من الهوايات التي تنمو مع الإنسان ..

ولقد كنا نختلف فيما نهواه ونفضله ، شأننـا في ذلك شان الجميع .. منهم من يطرب لسماع أنغـام البلابل ، فيشب هاوياً لاقتنائها ، وخبيراً في أنواعها وألوانها وتربيتها ..

ومنهم من تجذبه الفروسية ، ويظل يهتم بأخبار الأبطال ونوادرهم وانتصاراتهم وجلائل أعمالهم.. ثم يترجم اعجابه بالفرسان والفروسية إلى محاكاة وممارسة ، ليصبح فارساً ..

ومنهم من يشب في ظروف معينة تجعله ميالاً لانتقاد الغير وتناولهم بلسانه .. وغيرهم تظهر لديه منذ الصغر دلائل الهدوء والتعقل والوقار ، ويتحولون بمرور السنين إلى حكماء ناصحين ينتظر منهم الناس الحكمـة والنصيحة .

.. إنها ميول وهوايات تظهر منذ الطفولة وتنمو مع الإنسان .. فإذا تفاعلت عوامل البيئة من جمال الطبيعة مع الموهبة مع رهافـــة النفس وصدق الأحاسيس تحولت الكلمات إلى شعر .. يعبر عن إعجاب المرء بما يراه أو يحيط به ، أو بما كان يود أن يكونه ولم يستطع ..

والشعر سلاح فعّـال .. بالغ التأثير .. فربّ قصيـــدة أو بيت من

الشعر ، يثير الحماس ويؤجج المشاعر بأكثر مما تفعل آلاف الكلمات في خطب أو مقالات ..وربّ بيت من شعر الهجاء يهدم عظيماً ، عندما تتناقله الألسن ويذيع ..

والشعر ألوان وأنواع ودرجات ، تختلف تبعاً للموهبة والنشأة .. ومن الشعراء الموهوبين من يتحولون بشعرهم إلى نوع من الاحتراف ، وقد يتحولون إلى استخدام الشعر وسيلة للتكسب ، فيمدحون حين تدعوهم المناسبة للمدح ، ويهجون عندما يطلب إليهم الهجاء.. !

ومنهم الهواة .. الذين لا يقولون إلا انفعالاً وترجمة لمشاعر تجيش في صدورهم ونفوسهم .. صادقين في التعبير عن إحساساتهم .. ولعلّني من هذا القسم الأخير .. فلم أقصد يوماً قول شعر ما في مناسبة معينة ، ولو قصدت لما أمكنني ذلك.. بل كنت أجد نفسي متأثراً بموقف ما أو حادثة ما أو عاطفة ما ، لأجد أفكاري منتظمة في بيت أو أبيات ..

لقد كان أعظم ما يأسرني ويهزني ، ويثير مشاعري ، إحساسي باخلاص صديق ، أو عقوقه .. وفي هذا المجال قلت الكثير .. وحفظت الكثير من قصائد الشعراء ، التي تتحدث كلها عن الصداقة والوفاء ، أو العقوق والنكران .. كنت كثيراً ما أجدني أتذكرها وأعزي بها نفسي عندما أفاجأ ممن كنت أعدّه صديقاً بموقف لم أكن أنتظره ..

وإن لي بعض آراء في هذا المجال ، أستأذن القارىء في عرضها ، طالما أن الحديث تطرق بنا الى ذكر الصداقة والأصدقاء ..

إنني ، بعد هذه الخبرة الطويلة في الحياة ، وبعد التجارب الحافلة التي مرّت بي ، أرى أن هناك فارقاً كبيراً بين « المعارف » و « الأصدقاء » ..

قد تتعرف إلى إنسان ما .. وتلتقي به مرّات ، وقــد تدعوه أو يدعوك إلى طعام أو شراب أو نزهة ، وقــد يطول بينكما الحديث والسّمر .. ثم تفترقان وفي نفس كل منكما للآخر ذكرى جميلة عن اللقاءات التي تمت بينكما .. ويبقى الأمر عند هذا الحد .. مجرد لقاء أدّى إلى تعارف عابر ، لا يمكن أن يعدّ صداقة ..

وقد يكون لك رفيق في العمل أو جار ، تتوثق بينكما الصلات .. على مر السنين ، حتى لتعدّه صديقاً ، ثم تأتي مناسبة ما ، يتكشف لك فيها سطحية وتفاهة هذه العلاقة .. ويخيب أملك فيمن كنت تعدّه أصدق الأصدقاء !

لا صديق إلا بعد تجربة أو تجارب ، ولا صديق إلا من يقف معك في حالات الضيق حسب امكانياته .. وما عدا ذلك ، فمعرفــة ، أو رفيق كرفيق الطريق ..

ولكن ، هل في أيامنا هذه ، صداقة تدوم؟.. أو صداقة خالصة لوجه الله ؟.. إنه سؤال يتردد كثيراً .. وأجيب عنه بنعم، فمهما تعقدت الحياة والصّلات والمصالح ، تبقى الصداقات ويبقى الأصدقاء .. ولكني ، أجد بعــد تجاربي . أن التزام التحفظ ، حتى مع أقرب الأصدقاء إلى القلب وأشدهم التصاقاً بالمرء ، ضرورة يجب اتباعها ، ولعــل هذين البيتين من الشعر يعبران عما أقصده ..

احذر عدوّك مرّة واحذر صديقك ألف مرّة
فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

نصيحة أخرى، أقدمها إلى القارىء: أن لا يغترّ بكثرة الأصدقاء!..
خاصة إذا كان ميسور الحال ـ ولو ظاهرياً ـ !.. فما أكثر المنافقين..
وما اكثر المتظاهرين بالصداقة تحقيقاً لهدف أو جرياً وراء مصلحة ما أن
تقضى حتى يذوبوا من حولك فلا تجد واحداً منهم حتى ولو لم تكن في
حاجة إليه !..

عن ذلك قال الشاعر التميمي :

الاقفـى جزاء الإقفـي ولا خيْـرَ في فتىً
يُريـــدُ هوَى مَنْ لا يُريـــدُ هَوَاهُ

واستناداً على ذلك قال بركات الشريف عندما جفاه عمه لأسباب دس
النساء كما حصل مع (يوسف) في قصيدته المشهورة ، التي كان مطلعها :

عفى الله عـــن عين للاغضاء مِحَارَبهْ
وجسمٍ دَنِيفٍ زَايدِ الهـــمّ شاحِبَـهْ
قُلْـتُ عَـــلى بيتٍ قَـــدِيمٍ سَمِعْتُـهُ
عَلى مِثْـلِ ما قالَ التَّـمِـيمِـي لِصَاحِبَـهْ
إذا المَـــرءُ أوْرَاكَ الصُّـدُودَ فَاوْرِهِ
صدوداً ولو كانت جـــزالاً وَهـــايبَـهْ
وكنْ عَنهُ أغْنى مِنْه عَنْكَ ولا تَكُـنْ
جَزُوعاً ولو حَثَّتْ بالاقْفَى رَكايِبَه
تَقُـــول لي يا ثِبْـر وانَا غَـــذْوّتَك
ولا ثِبْـراً إلّا مَنْ يُفـــاجي قَرَايِبَـه

وكما قال الشاعر جِرِي في معرض قصيدة مطلعها :

يقول جِرِي مشرف العصر مَرقب
طويـــل الذرى للريح فيه زليـل

مـــا أكثر الخلان حين تعـــدهم
ولكنهم في النائبـــات قليـــل

مثل روضة الجنجاث لو زان نبتها
مراً ولو هو كلّ عـامٍ يسيل

★

وإلى القارىء الكريم ، بعض ما جادت بـــه القريحة في مناسبات مختلفة ، أوضحتها في مقدمات موجزة .

صرخة ضمير

قلت هذه الأبيات عام ١٩٦٧ ، بعد شهر يونيو (حزيران) مباشرة.. أي بعد النكسة ، أو النكبة ، التي أصيبت بها الأمة العربية في ذلك الشهر المشؤوم .. كنت أيامها في رحلة عمل متنقلاً بين بلدان أوروبا ، الغربية والشرقية ، أسعى وراء الرزق كعادتي ، أحاول عقد بعض الصفقات ، وأدرس الأسواق ..

وكما كنت في جولاتي المتعددة السابقة طيلة سنين ما قبل النكسة ، كنت أرتدي لباسي العربي المألوف ، وكنت ألمس تقدير جميع من أقابلهم وأتعامل معهم ، بوصفي عربياً ، واحتراماً لهذا الزي العربي المميز الذي أرتديه . وواضح أن التقدير والاحترام لم يكونا لشخصي بالذات ، فالمثل يقول : « من لا يعرفك لا يقدرك » وانما كانا انعكاساً لما تشعر به شعوب تلك البلاد تجاه الأمة العربية ..

ولكني في تلك الجولة التي كانت بعد النكسة مباشرة، اضطررت أن أستبدل لباسي العربي بملابس افرنجية ، خاصة في المحلات العامة .. اضطررت إلى ذلك اضطراراً بعد أيام من بدء جولتي ، بعد أن تعرضت لألوان مختلفة من الاهانة والتحقير .. سواء من هؤلاء الذين انتصر « قومهم » على العرب ، أو من أصدقاء العرب الذين كانوا يتوقعون لهم النصر وفوجئوا بالهزيمة المنكرة ..

كان اليهود وأنصارهم ، وهم منتشرون في كل بلد ، ورغم أنهم قلّة.. يحتفلون بالنصر الذي حققوه، وبالهزيمة الماحقة التي ألحقوها بالأمة العربية

بالرقص ، وبالغناء ، وبالحفلات الصاخبة والتظاهرات ، وبعرض الصور والافلام والتسجيلات الصوتية للمعارك، في الصحافة والاذاعة والتلفزيون حتى لقد كان يخيل إليّ أنهم قد ملؤوا أوروبا كلها ، وهم في حقيقة الأمر الأمر قلة في كل بلد ، ولكنها قـلّة نشيطة عاملة واسعة الاتصالات ماهرة التخطيط ، وقد أعطاها النصر سلاحاً جديداً للدعاية الخبيثة والوقحة ، التي تقطر منها سموم الحقد على العرب والعروبة ..

أما أصدقاء العرب المدركون لحقيقة الصهيونية وخطرها على العالم أجمع، الذين كانوا يناصرون العرب ويتمنون فوزهم، ولقد كانوا كثيرين، فقد تحول إعجاب معظمهم بالعرب إلى احتقار بالغ ، بعد هذه الهزيمـــة المنكرة التي اعتبروها هزيمة لهم كما هي هزيمة للعرب.. وزاد في هذا الاحتقار والسخرية ، تأثير قوة الدعاية الصهيونية الـــتي كانت تصور ما حدث على أنه انتصار لمليونين من اليهود « المتحضرين » المدافعين عن استقلالهم على مائة مليون من العرب « المتخلفين » حضارياً وعقلياً وخلقياً .. أي الذين لا يستحقون الحياة !..

كل شيء بمشيئة الله ، ولله الحكمة والتدبير ، يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو على كل شيء قدير .. ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا مـــا بأنفسهم .. ولقد أوضحت لنا الهزيمة ما بنا من عيوب وعاهات .. وعسى أن نعالجها ونغيرها.. وعسى أن نعتمد على الله ، حتي يقودنا قادتنـــا المخلصون فعلاً وقولاً إلى النصر بإذن الله ..

لقد اجتاحتني الآلام النفسية لما شاهدته ولمسته في جولـــتي تلك .. فكانت هذه الأبيات تعبيراً عن مشاعري ..

صرخة ضمير

بسم الله القادر الواقي لهـــا
إرادته كل الملأ يخضع لهـــا

صرخة ضمير الداعية أمّ العرب
أمجادها تُسْلَب ولا مَن يرّدها

صرخة ضمير لا تَصُنّع واجباً
عليّ وعلى غيري سريع إرسالها

لعلّ يسمع من يقوم بواجبه
ويجَابه النكسات بأقوى صَدْمها

وليست مجرّد خاطِر ينسج مَديح
الافعَال هي المدح والمجْد ذاتها

مجداً تنادي هامدين في الثرى
من مطلع الدنيا ومبنى وُجودها

تصفّق بيمناها اليسار من الأسف
على أمّة أبناها تفرق شملهـــا

أمّ على أبناها تحنّ وترتجي
صناديدْها اللّي ما يبيعوا مجدها
تبكي من الاحياء وتشكي للاموات
اللي تفانُوا في بقاها ولاجْلِها
تصرُخ وتندب مِن تزَلزُلْ صوتها
اهتزت الاطواد ، وارْواح اهلها
ابراهيم واسماعيل وهاشم وطـه
واحفادهم فيما بعد شدّوا أزرها
صانوا كرامتها ، بغالي دمّهم
ردّوا عن الكعبة طوابير (أبرها)
عاشت وهم ماتوا ، وتبكي عليهم
تقول : وين اللي بنوا شامخ اسمها
يقولون للحيّين : سيروا على اثرنا
وافدوا بغالي دمكم دون أسرها
جرى لأمكم هذا ، وماذا تقولون
وأنتم تروها تحمل الضَّيم وحدها
يا ناطقين الضاد يا أكرم أمّة
جاروا وصايا الله والفوز باثرها
موسى وعيسى ارشدوا ضالّ قومهم
ومحمد الصَّفوه دَعانا لفضلها

ومن يلتزم في وحدة الله ينصُره

ولا غارقاً ينجو إلا بحَبْلها

يا ابناء العروبة مجدها يملأ الكون

وأنتم بهذا المجد مالِين أرضها

ابطالكم خوض المعارك سرورهم

وامجادكم في الأندلس عاشْ ذكرها

وسمّي (جبل طارق) بطارق وغزوته

وغزوة (بدر) وحنين ، مجد ابطالها

لا يقلب التاريخ صفحات مجدكم

ليقول عنكم غير ما قال عبرها

كل الملأ يستغربون الهزيمة

والمسجد الأقصى امتلى من غبرها

اذا لم يكن منكم زعيم مظفر

يقيم حرب يسقي الأرض دمها

فلا يلام المعتدي إذا جلاكم

عن تربة عشتوا على كل قطرها

وان كان ماحِيصَر من الكل بالنار

قولوا على النهرين سلبت وجزرها

والمسجد الأقصي ، ومسجد محمد

وقبلتكم الكعبة لها رب ... لها

والقائد الملهم يخوض المعركة
بالجيش ابن الشعب، والشعب جيشها
ومن كثرة الربان تغرق سفنها
ومن كثرة القواد سقوط قدسها
وعروبة المقدس ، ومهد انبياء الله
والقبلة الأولى تهدد بهدمها
لا بالكثر وخْـذتْ ولا بالمدافع
في نومة الحراس فازوا بأخذها
مدعوسة باقـدام ظلم عليها
ومكّـه ويثرب يستغيثون لاجلها
تطاول الطاغي عليها بخدعته
وسيوف اَهلها نائمة في غمدها
كما شافها عبد العزيز وقالها
للوافدين إليه : أنتم شرّها
انتم مفاتيح لهزيمة قومنـا
ولا يسمح الوجدان بهدار حقها
المعركة واحده ولا من تجزئـه
شعبا وجيشا واحداً يكفي لهـا
بالاسلحة مدّوا واهلها دونها
وانّا وراهم إن تازم أمرهـا

أرواحنا وأموالنا نفدي بهـا
وشعوبنا وجيوشنا حصناً لهـا
سبّـق بها الشايف عواقبها سلف
يريد كسر قرونها في مهدهـا
يا ابنا العروبة مسلمين ونصارى
هزيمة الخامس شربتوا مُرّهـا
عدوّكم بالغدر والفعل مرتكز
بقيادة الشمطا وكباراً بأمرهـا
عسى فحول من صناديد جيلكم
يشدّون حزم العزم قصاص شطرها
ويا ما بكم من ثائر للكرامة
ولا يقبل التقسيم حلاً لحربهـا
سيروا جميع وهزوا الكون ياعرب
طاقاتكم عظمى وسيروا بعظمها
كلّ على دينـه يعينه ربنا
ثوروا جميعاً للفضيلة بأسرها
لا ينحسم بالقول حرب ولا سلم
بالعزم ثم الفعل ، بالسيف حسمها
الحرب نارها مـا تطفيها المياه
والدم يطفيها ويمحي أثرها

ومن قام .. قام الله معه يا عباده
والنصر للجمعا إذا شد حزمها
والخوف سلال العزم وتحطيمه
ومن قال أنا خايف فقد خاف وانتهى
ولا خير في دم سكن عن هديره
ولا خير في نفس إذا انهار عزمها
ولا ينـام الليل وأرضه سليبة
إلاّ جبان .. لا يبالي بسلبها
ويا للعجب ، تنذل قوم عزيزه
تاريخها الحافل بالامجاد خزنها
ويعتز أذل الناس في الكون كله
وين العرب عن هالجريمة .. لقبرها
يقولها غيري ونا قول مهلكم
القدس والصخرة لها من يجي لها
في ساعة تذهل طوابير غزيها
كما اذهلت قوات من جا قبلها
جاءْها (ارطبون) بقوة له غازية
واحتلها وقتاً وجاه من اهلها
غزاه (عمر بن العاص) بركان الهمم
وحطم طوابيره بجوف اسوارها

نفذ مخطط خطة له محكمه
وحرر مرافيها وفاز بنصرها
(وقلب الأسد)جاها بقوات الجميع
طوابيرها من كل صوب جرّها
وجا لَه (صلاح الدين)في ليلة قدر
ومزق طوابيره وتم أسره فجرها
والجيل نسل الجيل والأيام كامسها
والقدس لاهل القدس لو طال حجزها
وقد قيل من قبلي لرواد العُـلى
من لا يخاطر قاصر عن نيلها
وليس التمني مصعداً للرايدين
ومخاطر الهيجاء ضمان وصولها
وما على المقدام إلا موقفا
يختار منه لنفسه اللائق بها
وان كان لا هذا ولا ذا ولا ذاك
فسيَجيها من لها وفوق قدرها
وياما وياما من جيوش تحفّـز
لاشعال نار الحرب باغلى وقودها
ومجداً ، تنادي من يصونوا مجدها
فرسانها وابطالها اللي ذخرها

صرخة ضمير سمعها اللي في الثرى
وتحرك الجامد من اصدا صوتها
ويا للعجب ما سمعها أحياءً دهاة
وتسمع ضجيج اللي غزوها فأرضها؟
وكل العرب تسمع نداها وتنتظر
من قائد الفرسان يشعل نارها ؟
ومني سلام الله .. أقدس تحية
إلى من بهم دم العروبة وكبرها
والكبرياء لله ، جلت عظمته
خالق جميع الكون :ارض وبحرها

استغاثة بالله

في عام ١٣٥١ ـ ١٣٥٢ هـ. كان الجفاف التام يعم نجد والحجاز ، ولجأ الجميع إلى الله يجأرون بالدعاء والابتهال إليه سبحانه وتعالى .. أن يرفع بلاء الجفاف ويدركهم برحمة الغيث .. فنظمت هذه الأبيات مشاركة في الدعاء والابتهال .. وكنا نرددها ونتغنى بها مع الأصدقاء ومن جملتهم الأمير فهد بن سعد بن عبد الرحمن ، وكان المنشد الأول محمد أبو شنق ، ينشد ونحن نردد معهم الابيات ..

بعد أيام قليلة ، مصادفة ، أتى فضل الله .. وهطلت أمطار غزيرة كما تمنيت على الله في الاستغاثة .. سبعة أيام متتالية والمطر ينهمر متواصلاً غزيراً تفيض به جميع أودية نجد. حتى لقد كاد الفيضان أن يقتحم أسوار الرياض، وحتى كان السكان يحملون أثاثهم لسد أبواب الأسوار المحيطة بالمدينة .. وبقي وادي حنيفة أربعة عشر يوماً وأكثر ، مليئاً بالسيول .. وفروع وادي البطحاء (المسماة الوتر) تتدفق سيولها طوال الأسبوع ليلاً ونهاراً ..

وفي الحجاز ، كذلك .. هطلت الأمطار غزيرة ، حتى لقد اقتحمت

سيول وادي « الابطح » الحرم الشريف في مكة المكرمة ، بل ووصل إلى باب الكعبة الشريفة ..

وفي ليلة من الليالي غزيرة الأمطار ، كادت مياه السيل المتدفق أن تجرف بستاناً للأمير فيصل بن سعد وأخيه الأمير فهد ، لولا أنهم أسرعوا بكسر المسيل على البطحاء ، فبعُد الخطر عن البستان .. وإذا بهم يحضرون إلينا ، ويطرقون الباب ، ويقولون على سبيل المداعبة « اذا كان فيكم خير اطلبوا من الله أن يوقف المطر ..! » ..

وتوقف المطر . وبعد أسبوع ، اكتست سهول نجد والحجاز ، بحلة خضراء مشرقة ، بعد الجفاف والقحط .. وسبحان الله القادر على كل شيء ..

استغاثة بالله

أسالك يا رب يا منشي السحاب
ناشياً بالليـــل ضافي مُـدْلهِم
سبعة أيام ورعّـــاده يحِـنّ
بارقه بالليـــل دايم يبتسِمْ
يا ولي العرش غِثْـنا يا مغيث
يا مغيث المستغيث المـــرتحِم
سبعة أيام وهِـطَـاله يسيـــل
وادي حنيفـه من مِجَـاجه يِزْدِحم
ونوّن من الهيفي على فرع الوِتِـرْ
يلقى الغثاء من غبّ سيله مِرْتِكِم
ومن الصّبا ينشيء على دار الوحي[1]
سيل الحرم يصل لحد الملتزَم

---

(١) الشرف .

يا كريم أنت الكريم تغيثنـــا
يا سميـع ويا مجيبٍ محتـــكم

أسألك باسماك يا رب العبـــاد
اسقنا من غيثك قبـــل العَـدم

يا رؤوف ارئف علينا بالمطر
ارضك العَـطـْشا حماها يلتهم

نبتها الناشف تصرعه الريـــاح
والمواشي يا إلاهي حالتها عدم

مدّنا يا رب من غيثك سريع
اروي العطشا بغيثـــك تبتسم

نباتها الأخضر تفوز به المواشي
والبشر يجـــني ثمار وينتعِـم

يا رحيم ارحم عبادك يا رحيم
اسقنا يا ساقياً بالدم والماء للجِـسِـم

يا إلهي لا حياة إلا بمائـــك
لا حيـــاة لمن مائك ينحـرِم

يا إلاهي يا حليم ويا غفور
يا معين بغيثك الماطر تُعمّ

يا سميع ويا حنون ويا مجيب

يا شفيقاً على من بحبلك ملتزم

يا إلاهي يا عزيز ويا عظيم

يا قادر على كل شيءٍ أرتحم

يا ربي ان تروي عطشنا من سماءك

حتى السّواني من سَقْي غيثك تنم

يا إله الكون ويَا مُجيب لمن دعاك

لا آله إلا أنت باسمك اختتم

واسألك يا رب يا منشي السحاب

ناشي بالليـل ضافي مدلهم

استرضاء الصديق

ترتبط مناسبة هذه القصيدة بقصة السيارات وتأجيرها التي سبق وأن ذكرتها للقارىء في فصل سابق .. عندما كنت أسمع انتقادات الأصدقاء بأذني .. ولم يكن ما يقال يزعجني ، ولم أكن أعيره أي اهتمام .. إلى أن حدث ما لم أكن أتوقعه .. أتي إليّ أعز أصدقائي آنذاك ، لم يكن مجرد صديق وحسب ، بل كان مرشداً لي ولأمثالي بموهبته ، فقد كان شاعراً مُجيداً ، فضلاً عن قرابة عائلية كانت تربطنا .. هو الشاعر فهد بن عبد الرحمن المعشوق[1] ، رحمه الله .

---

(١) كان اسم الشهرة له بين المعارف والأصدقاء « فهد ابن دحيّم » – أبو حمزة – وكان شجاعاً ، وشعره عن الحروب رائع ومثير ، يجيد المدح كما يجيد الهجاء ، وشعره في الغزل مألوف للجميع . يمتاز بطيبة القلب والحنان ، شديد الحرص على رضا الله ثم رضى الوالدين وله في ذلك شعر كثير .. منه هذا البيت:

الرّجلْ الا فارَقَ عجوزه وشايْبَهْ غشاه لوم يوم حلّ المشيبْ

وكان رحمه الله قد مرض مرضاً شديداً قبل قصتي هذه معه ، فاضطررنا إلى نقله من بيته إلى بيتي للمعالجة . وظل عندي أكثر من شهر حتى منّ الله عليه بالشفاء ، وذلك ما يشير إليه في قصيدته الجوابية لي عندما قال « شهر وعينك ما لجاها سهاج » .

جاءني يقول أن ابن أخته ، عبد الله التويمي ، قرر الزواج من ابنة أحد أقربائه في « الخَـرج » ، وأنه يريد السيارة ليذهب بها إلى هناك .

وكان موقفاً محرجاً. لقد كانت السيارة محملة بأغراض خاصة وعاجلة لولي أمري الأمير محمد بـــن عبد الرحمن الذي كان مخيماً في « روضة الخَـفْس » ، وكنت على وشك المسير بها إلى مخيمه . وكان عليّ اختيار أحد أمرين : إما الاسراع إلى المخيم بالأغراض ، وإمـا تلبية طلب أعز أصدقائي .. وفضلت الأول ، فاعتذرت إلى صديقي، وشرحت له الموقف على حقيقته .. فلم يكن اعتذاري عندئذ خوفاً من تكاليف البنزين كما كنت أفعل مع غيره ..

وانصرف الصديق ، متاثراً ، وكنت أنا أشد تأثراً منه.. وقصد أحد أصدقائه الأمراء، فأعطاه « الموتر » كما كنا نسمي السيارة آنذاك، وتوجه بها إلى الخرج حيث تم الزواج ..

بعد أسبوع عدت إلى الرياض من روضة الخفس ، وحضر الأصدقاء كعادتهم ، للسلام ، ولكن صديقي فهد لم يكن من جملة من حضر . ولـما كنت أعرف حق المعرفة سماحة نفسه ، وطيبة قلبـه ، وسرعة رضاه ، ذهبت إليه في منزله ، أستفسر وأطمئن عـلى صحته ، خشية أن يكون المرض قد عاقه عـــن الحضور .. وفتحت لي زوجته الباب ، فدخلت كعادتي .. ورأيت ملابسه معلّـقة على الحائط ، وجلست أنتظره ، وإذا بزوجته تعود بعد فترة لتقول أن فهد ليس موجوداً بالبيت. وانصرفت. وقد فهمت أنه لم يُردْ مقابلتي ..

لقد تألمت نفسي كثيراً ، إذ كنت أحرص على صداقته حرصي على أعز ما أملك .. وفكرت طويلاً ، ثم رأيت أن أدخل عليه من المدخل الذي أعرف أنه يحبه .. هوايته ، فحررت له هذه الأبيات أسترضيه ..

ولقد حدث ما توقعت وقدّرت ، فسرعان ما أجابني على أبياتي ، بقصيدة من شعره، وأتى بنفسه حاملاً قصيدته بيده وهو يقول « والله ثم والله ، إنني لم أكن منزعجاً عندما اعتذرت لي ، فقد قدّرت موقفك ، ولكني أردت بهذه الطريقة تأكيد الثقة بأواصر المحبة والودّ التي تربط بيننا ، كذلك أردت أن أتأكد من مقدرتك الشعرية ، وهل وصلت موهبتك إلى درجة أن تدخل من هذا الباب بما دخلت به .. ولقد كانت أمنيتي أن يكون ذلك » .. (يقصد هل أن باستطاعتي أن أعبّر عن مشاعري بالشعر ؟) ..

وإلى القارىء الأبيات التي قلتها استرضاء له ، وقصيدته الجوابية ..

استرضاء الصديق

قُم يا محمد يا ابن عمي هات لي
صفحة سجل وهاتِ لي بمداد زاج
اكتب كتاباً عاجــلاً لمعادلي
قلّه تراني عَايش كــدر المزاج
كدر مزاجي واشتكوا مني هــلي
ينجال جَنح الليل ما طَفيتْ السراج
أسهر وحيــد نادماً ومعلعلي
حيران في وغلٍ بــلا مخراج
لا شاغلي دين ولاني منبــلي
بمغازلة عَذراء حِصنها عالي الأدراج
ولا شاكي دهري ولاني بالخلي
من علةٍ ما أدرك طبيبٍ لي علاج
أشوف أبو حمزه ضميره ممتــلي
غيظاً عليّ وعاقــدٍ لي بالحجاج

شح بسلامه لي وجيتـُـــه منغلي
يا كبرها يا عُظمها من حيث عني لاج

ألا يا ليت ليته يوم جيته قال لي
أهلاً وسهلاً وما عليها رسم باج

يا من رفيق الأمس واليوم آتٍ لي
والاعتذار مُقدماتِ الابتهـــاج

واليوم مثلك يا فهد مـــا يجهلي
واجبك ترفي ما انصدع رفي الزجاج

لا تكمل الدنيا ولا من فيها كاملِ
ومعرّضاتٍ سبلها للانعـــواج

عساي وانت يا فهـــد ما نبتلي
بمَـــا ابتلى بـــه قاصر المدراج

اقولها لك يا عضيدي مجملي
لا تلحق المقفي ولو كنت له محتاج

وانا لك المقبل ولا عنك اختلي
سامح مسامح والسماح غِذاً لنا وعلاج

أيامنا حلوه وخالقنا الولي
بما يجدّ بغدنا ولا غيره ملاج

عين رضاء (الجواب)

يقول أبو حمزه لابو خليل المنغلي
من واهج في ضامره ولا ينعاج
اقول له عما يقول بما يلي
والحمد لله الكريم المستحاج
يا مرحبا يا مسهلا بالمرسلي
من صاحب صادقٍ يقول من انزعاج
رسالتك جتني بظرف مقفلي
عبير محواها نسيم الانفراج
ما يزعج إلا صاحباً صافي خلي
من لعبة الحبلين حسب الإنزلاج
لولا غلاك وما أكنه لك ولي
ما دار في نفسي عتاب ولا احتجاج
تقول جيت الدار عني سائلي
من واهج الفرقاء تعظمتَ اللواج
وتقول فيما قلت ليت قال لي
اهلاً وسهلاً والرسم فتح الحجاج

ثق يا عضيدي لست من هذا اجهلي
ولكنني بأمري أريد الانسياج
فيما تقول الغد والله الولي
والامتحان سلاح رواد الاندماج
خذني بحلمك يا سنادي واعتلي
إلى ما أريده لك ولي في الاندراج
إلى مصاعيد العلى بالأفضلِ
ولا حياة إلا بلذهْ وانزعاج
اولا اختلاف انظارنا ما جا زعلي
ولولا الزعل ماجا الرضى بَهّاج
والفضل يرجع للرفيق الأولِ
رافي جروح الغيظ قبل الإنفجاج
ثوب الجميل الحايكه ما ينبلي
طول الدهر يذكر كأنه بالنساج
لا يا كريم النفس بيتك مَدْهلي
والكلّ يعرف ما اقول بلا عجاج
اني طريح بمنزلك كمنزلي
شهر وعينك ما لجاها سهاج
بنركب الموتر ونضحك وانسَ لي
وما صار صار ومن رجع ما داج

مريض يتألم

في عام ١٣٤٨هـ ، مرض الأمير سعود نجل الأمير محمد بن عبد الرحمن رحمهما الله . أصابه مرض عضال في ظهره .. واختلفت الآراء والأقوال في تشخيص ذلك المرض .. البعض يقول : هـذا مرض « الطير » وهو مرض معروف عند العرب بأعراضه وآلامه .. وبعضهم يقولون : بل مرض « الزار » المعروف عند المشعوذين ! وآخرون قالوا : إنه مرض « الدسك » ..

علاج مرض الطير ، أن يكوى المريض بالنار في « سلسلة ظهره » .. وذلك ما حدث .. قاموا بكيّ سعود رحمه الله ، ولكن الحالة ازدادت سوءاً ، مما جعل القائلين بأنه مرض الزار يؤكدون بأن لا علاج له إلا على يد المشعوذين.. وأدركتنا الحيرة .. والده رحمه‌الله لا يعتقد بما يدعون ، ويرفض رفضاً باتاً اللجوء إلى المشعوذين .. (الذين كنـا نسميهما دكاترة الشعوذة) وكان علاجهم باعتقادي علاجاً نفسياً ..

وبلغ الأمر الملك عبد العزيز رحمه الله ، فامر باستدعـاء الدكتور « ديم » البريطاني من البحرين ، لعلاج سعود .. ووصل الطبيب ، وقـام بالكشف، وفوراً أرسل مرافقيه فأحضروا الجفصين ولوازمه ، وألبسوا

المريض قميصاً محكمـــاً منه .. ولكنـــا لاحظنا ازدياد آلام سعود ، فحاولنا مضطرين اقناع والده بالسماح لنا بالاتصال بدكاترة الشعوذة ، فربما كان الأمير سعود مصاباً بمرض الزار ، ولكنه رفض رفضاً قاطعاً ، مكرراً انه لا يعتمد إلا على الله، ثم على ما قام به الدكتور ديم .. الذي كلفه شقيقه الملك ، بالعلاج ..

ومضت ثلاثة أشهر ، والجفصين يلف جسد الأمير . وهو طريح الفراش لا يتحرك ، حتى بدأ الدود يظهر من شقوق قميص الجفصين .. ثم توفي سعود في ريعان شبابه رحمه الله ..

لقد تالم سعود كثيراً .. وتالم الجميع لألمه ، وكنت أشد الجميع ألماً ، حتى لقد كنت أشعر بالألم وكأني أنا المريض فقلت هذه الأبيات ..

مريض يتألم ..

عفى اللهُ عن عينٍ جفى جفنُها الكَرى
جَزوعاً إلى نام الُمعافى وانا اسهرا

أسهر وَسفْح الدمع من فوق وجنتي
كما سفح همَّال الرَّوايح إلى أمطرا

عليل حسير ناحل العود مِرتمي
تروم نفسي سوق رجلي ولا اقدرا

ألاهِبُ الماء القراح المبرَّد
وكأنه على قلبي صهيرٍ يقطَّرا

في علةٍ ما أدرك طبيب علاجها
حتى طبيب الجن جِبناه ما أثمرا

توافقوا كل على قدر عِرفِه
والكلُّ منهم في علاجي تحَيَّرا

أقفوا وقالوا ما يفيده معالج
قلت آه دائي دواي وأنا به أخبرا

اللي رماني والسهم منه عاقني
غزالاً سطا بالقلب كأنه مدبَّرا

رماني بنَجْلٍ لاج سحري بُوقها
سحرني وحيَّرني جبيناً لها اسمرا

على طُرة يوضي دجى الليل نورُها
نوره ونور البدر أو نورها أجهرا

هذا تلافي يوم راعيت زُولَه
بدا لي كما بدرٌ شعاعَهْ تَظَهَّرا

تعالى الاله اللي وضع فوق عاتقه
ثليل كساه من العرَى ثوباً أشقرا

وعفى الله عن جسم دنيفٍ نحلٍ
في قبضة الجفصين والقبر يحفرا

رسالة الجندي[1]

خذ يامدير البرق يا خير نجاب
ابعث سلامي للنشامه المهابه
سلاماأعطرمن شذا العود اذا ذاب
من صالي الجمر المعد لذوابه
يا حامين حمى الجزيرة بالالباب
هنيئاً لكم باللي دعستوا ترابه
من قادكم فيصل تنالون الاعجاب
عدوكم يخضع ويعلن إعجابه
فيصل وأبوه لمن تحدى بالارقاب
ويفدوا بها معكم ويلقى عذابه
أنتم وهم بحماية الدين صلاب
ياما وياما طاح طاغ عثابه

(١) سبق ذكر المناسبة التي قيلت فيها هـذه القصيدة عند الحديث عن معارك اليمن ، في الفصل الرابع .

وكم وكم دستوا علم طاغي وغاب
عن تربته من دون ياخذ ثيابه
يا حماية العوجا تاخرت لأسباب
فرضاً عليَّ قبولها واستجابه
انتم بحرب وفي المعارك بلا حساب
وبعيونكم ترعونها عن كثابه
وأنا بعيد الجسم والقلب بتعاب
بخوض المعارك يشترك بجنابه
ويا ليتني معكم بلا قيد وحساب
جنباً بجنب وكل شيء له حسابه
وليتني كبير السن ما عاد ينعاب
فعله مضى واليوم ما في ثابه
وأنا غديت اليوم مثله وأنا شاب
ولا خير في رجل قعد في شبابه
من مفرق الحلّه إلى عتبة الباب
كأني حريس ملزماً بالنيابه
واسرح مع الشاوي صباحا للاهضاب
أنظر إليكم من معالي هضابه

ابتهــال

سبق أن قدمت للقــارىء في الفصل السادس ، قصة المكيدة التي تعرضت لها ، وقضيت بسببها عدة أيام في سجن « المصمك » .. ولعلي في غنى عن وصف مشاعري في تلك الأيام وأنا في السجن أحس بالظلم والقهر .. فمشاعر السجين المظلوم تختلف بدون شك عن مشاعر السجين الذي أتى ما يستحق عليه العقاب .

ليس أمام المظلوم إلا أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى ، القــادر ، القوي .. المطلع على كل شيء ، يدعوه ويتوسل اليه ، أن يتداركه برحمته بأن يلهم الأخيار الفضلاء .. أصحاب الضمير الحي ، والنفوس الكريمة ، أن يتدخلوا لإنصافه ..

والله وحده ، هو القادر على الاستجابة .. وأبواب رحمته واسعة لا حراس عليها ولا حجاب .. والسبل إليها واسعة متعددة ليس فيها من مخلوق يعترض أو يمنع ..

في ذلك قلت هذه الأبيات ..

ابتهـــال

إلاهي إليك الجأ وفي ظلّـك احتمي
مِنك الفرَجْ يا ربّ من بابكَ ارتجي
اللهم يا ربّ سامع نجوى كل روح
يا واحداً لا لأحد غيرك اشتكي
يا حيّ يا قيّـوم يا قادر العفو
عن كل زلاتي ولا عنك مختفي
يا إلاهي لَيس في خلقك عليم
كل ما تعلم عليهم يختفي
يا حَليم يا كريم يا وسيـع المغفرة
يا رب اجعل لي من كل ضيق مخرجي
يا مُغيث المستغيث اذا دعاك
مدّك الواسع على من يلتجي
يا سميـع يا مجيب أطلب رضاك
يا إلهي ليس لي من سواك مطلبي
يا مسيّـر لا مخير كل خلقك في رجائك
اللهم لا تجعلني إلا من عليهم مرتضي

اللّهم يسّر لي أمري يا سريعاً بالفرج
اللهم يا قاهر اقهر قوى كل معتدي
يا إلهي باعث الرسل للبشر
يهدون من هو عن سبيله منعمي
بقدرتك يا إلهي كل ضيق ينفرج
يا هادي اهديني إلى خير مضجعي
اللهم لا تخيب لي رجائي بمنهج
اللهم ادفع عني كل شر بمدرجي
يا لطيف الطف بحالي يا لطيف
يا معين المستعين المعجزي
يا فالق البحر لموسى بالعصا
حطم نوايا من بسجني معجبي
يا حنون يا منون يا رحيم
يا إله العرش بظلّك أحتمي
يا ودود يا ذو الجلال والكرم والجود
يا ربّ اخرجني من ظلام المصمكي[1]

(١) المصمك، كان قلعة منـــذ عهد آل سعود الأوائل، وهي القلعة التي اقتحمها الملك عبد العزيز في معركة سطوة الرياض (ذبحة عجلان) التي تحدثنا عنها في الفصل الرابـع، وقد تحولت القلعة بعدها إلى سجن، ثم إلى أثر تاريخي.

شكــر

للأمير محمد بن عبد العزيز آل سعود

هات القلم يبني يناجي سندنا
محمد عظيم الشان .. داعم عهدنا

آمن من المرسول عنا ، يناجي
حامي حما غرس نشا من جهدنا

ليث خلف ليث الجزيرة بَمدّه
طوق أعناق أرجالها مد أسدنا

.. المعضلات كثار يبني ، وياما
بقسا مساويها علينا ، سندنا

من قلعة المصمك[1] نشلنا بيمناه
حطم نوايا من بشره قصدنا

هوطودنا المنجي من الطوف لي طغا
وعن لاهب الجوزا بظله بردنا

---

(١) أنظر مقدمة القصيدة السابقة ، والقصة ص ٢٤٧.

هو درعنا الحامي عن الجور اذجرى

ابو فهد لولاه طاحت عمدنا

هو ذخرنا وسلاحنا ، هو سعدنا

هو عدّنا اللي لا عطشنا وردنا

لا يستمع للواش و لا يلتفت له

أبعد بعيد الناس عنده كالادنى

.. يوم أبصرت عيني والـكفاف قاصره

يمينه اللي من نداهـا حصدنا

قمت اتمثـل بأجود الناس كلها

ابو فهد جوده علينا .. بيدنا

أبو فهد فضله على كل من حمد

حمده نقصر دونها ، لو حمدنا

تيما لها هدّاج[1] وحاتم لهل طيّ

وبو فهد ما ينحصر في بلدنا

عبد العزيز ابوه ، وخوه فيصل

ما بلكُرَه مثله ذكر في عهدنا

---

(١) « هدّاج »اسم البئر الوحيد في بلدة« تيما» ، يشرب منه الجميـع ويسقون إبلهم ومزارعهم ، ولذلك يضرب به المثل في الكرم ، فيقال مثل « هداج تيما » كما يقال مثل « حاتم طي » ..

العدل والمروءة[1]

يا منهك التفكير يا مضنيك السهر
شدّ الرحال لدار جبّـارة الكسْـر

سر في مناكبها وعلى الله اتكِـل
وما من عسراً إلا وبعــــده يسر

لِجْ بالكويت ومن لجا فيه ما ندم
حكامها حِصناً منيعاً مـــن العسر

وما الكويت الا روضة دائماً خضرا
نباتها ثَمَـراً بلا شوكاً ورا الزهر

مناَخها َخصباً وحكامها الملجـــا
مراتعْـها زاهره وحكامُـها النَّـهر

مرافقها واسعة لمـــن يلجو بها
ومرتعاً دائماً لمـــن ضامه الدهر

(١) قلت هذه الأبيات عام ١٩٤٣ م (١٣٦٢ ﻫ) إثر المتاعب التي صادفتها في الكويت ــ أنظر قصتي مع « الشامي » .. في الفصل السابع ــ الكويت .

كم وكم جالياً ضامـه الدهر جالهـا

والـيوم فيها لا يخشى عسراً ولا قهر

احمد نجل جابر وراء الحق مسنداً

وانجال سالم من ورا ذلك الظهر

قولي على فعلاً جرى في ربوعهم

في ظل بو جابر تحقق لي النصر

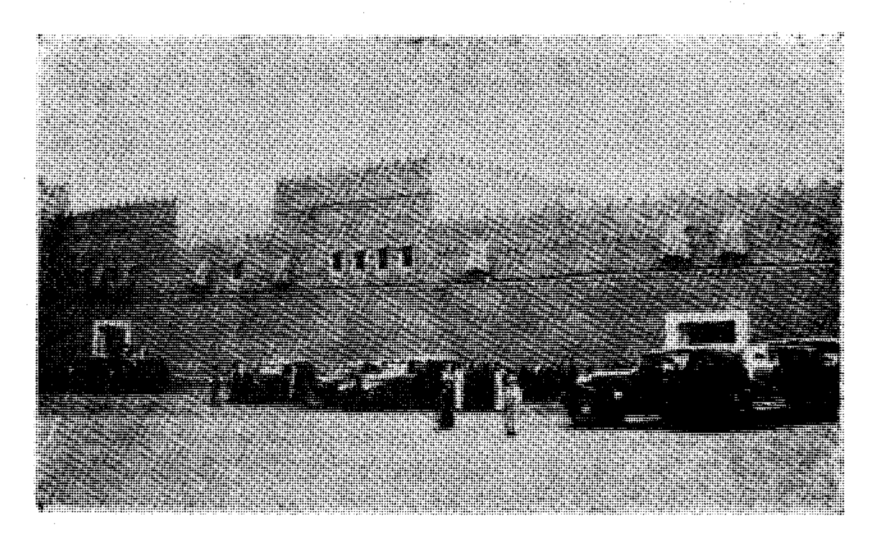
تاريخهـم الحافـــل بزيل المظـالم

ومـن ناصر المظلوم حقاً له الفخر

وعبدالعزيز ابو تركي وراء القوم كلهم

حامي حمى شبه الجزيرة من الكسر

ذكريات ...



« قصر عتيقة »

قلت هذه الأبيات في أوائل شهر رمضان المبارك ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨م) بعـــد أن قمت بزيارة للأمير سلطان بن عبد العزيز في قصره العامر « العزيزية » الذي لا يبعد عن قصر « عتيقة » إلا ما يقارب المائتي متر.

كان الأمير سلطان كعادته يستقبل الجميع مرحباً مبتسماً ، وقد فتح أبواب قصره لكل قادم زائر أو ضيف .. ورأيت « العزيزية » يحل محل قصر « عتيقة » أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن رحمه الله .. الحركة التي لا تهدأ ، والإقبال المتعاظم من الغادين والرائحين من الزوار ، وبعد انتهاء

الزيارة توجهت إلى إحدى أُسر الأمير محمد بن عبد الرحمن رحمه الله في قصر لهم بجوار قصر عتيقة ، وإذا بي أرى قصر عتيقة في الظلام وكأنه كتلة من الغيوم ، حتى أني لم أتمكن من تمييز أحد جوانبه مـــن النخيل المجاور له .. وأعادني هذا المنظر إلى ذكريات الماضي .. عندما كان ذلك القصر يموج بالحركة ويشع بالضياء .. فقلت هذه الأبيات ..

ولكن،هنا كلمة حق يجب أن تقال، إن الأمير سلطان بن عبد العزيز كان وما زال وسيظل بإذن الله ، خير من قام مقام عمه محمد في استقبال الناس وقضاء حاجاتهم .. ولقد كان هـذا المكان ، جنوبي العاصمة ــ الرياض ، مقصد طلاب الحاجات لدى محمد في قصر عتيقة .. وما زال كذلك بفضل الأمير سلطان في العزيزية .

ذكريات وحزن

يا حصن ما أجملك ليلة وضحاها
بكتلة مـــن البشر كنت مأواها
لا تحزن عـــلى تناثر اجزائها
وقد غابت شمس مـن كان يرعاها
يـــا مصنع الفرسان لا تحزنوا
كم وكم مـــن سابقٍ لك تلقّـاها
وهكذا الدنيـــا مُحولاً وازدهارا
لطـــه نـــبيٍّ الله شالت عصاها
كانت الناس يوميـــاً لك تحـج
وإلى عرفات في العام يوماً يحجّـاها
كم وكم من قافله حلّـت يا حصن
بجانبك نهاراً وليلاً إليك مسراها
لا تغمض عين سارياً لـــك نائمـــا
إلا وقد فاركتْ يمناه يسراها[1]

(١) معناها ، أن الضيف تناول الطعام ، وفرك يديه احداهما بالأخرى ..

يمني ابو خالد على الضيف ما تشح
حتى ولو في آخر الليـــل يلقاها

ياما ويامـا التجى فيك محتمي
إن كان مظلوماً او ظالمـــاً تاها

حماه حامي هيكلك مـــن عدوك
في ساحتك ما سُـفِـك دماً ولا جاها

محمـــد بنـاك وشيدك للنواصي
ما اقفل البيبان في وَجْـهٍ تنصّاها

ما من يداً فارغة وامتدت لابو خالد
إلا وصافحها ومـــن مدّه ويملاها

والحزن في قلبي يشاركك يا حصن
ما دمت مظلماً ليـــلةً وضحاها

خيبة الرجاء

تعرضت عام ١٩٥٨ ، لموقف أحسست بعده بالألم والمرارة .. كان لي « صديق » .. أو هكذا كنت أعتبره . يُظهر لي الود والحب والحرص على مصلحتي . ويوالي في كل مناسبـــة إسداء « نصائح » لي لترشدني إلى أفضل السبل .. وفي الحقيقة ، لقـــد كنت أكن له كل تقدير وإعزاز ، ولكن ، وهذه نقطة هامة تبينت أهميتها فيما بعد ـ لم أستطع أن أحبه . لم تستطع نفسي أن تستريح إليه .. لم يستطع قلبي أن يطمئن إليه .. حتى لقد كنت أعاتب نفسي كثيراً وأسائلها : إنه لرجل ممتـاز ومخلص فلماذا لا تحبينه ، ولماذا لا تطمئنين إليه؟ إنه يظهر الود والاخلاص ، فلماذا هذا النفور المستتر ؟.. ولكن نفسي ظلت تأبى أن تتجاوب مع ما كان يظهره من دلائل الاخلاص والود ..

ومرت أعوام عشر .. واذا بالحقيقة تظهر !.. تأكد لي أنه لم يكن إلا عدّواً حاقداً .. تزخر نفسه بالعداء والحقد ، ولكنه يجيد إخفاءهما وراء مظاهر الصداقة والود !..

لقد تألمت .. ولكني حمدت الله . وكانت هـذه الأبيات تعبيراً عن الواقع ـ واقع الحياة ..

خيبة الرجاء

لك الله يا من صادق القول والعمل
يا مؤمناً بالله فعلاً بـــه اتَّـكلْ

مهما ابتلوك الناس لا تخْـشى أحَـد
مع الصادقين الله رغـــم المفتعل

على الله لا يخفى خَفي على الملا
جلَّ جلاله شايف أجواف الحُـبُـل

يا ما يشوف مخالفـــين بفِـعلهُـم
يِمْـهِـل ولا يغفَـل ولا منهم يمِـلْ

ولكنه يلقّـن مـن تجاهل قُدرتُـه
درس لِغيره قبـــل ما لُه ينتقِـل

مشوَّه السمعة معـــذَّب في الحياة
عَمْـيان في الدنيا وفي الآخره مِثِـل

ومن سُبـُل الله دنيـــا وآخره
مصيره الصّراط ما عنه منعِـدِل

أقولها يا أخي نتيجـــة تجربة
بـــلا ثَمَـن خُذهـا وبالله اتصِـل
لا من يردّك عنه ولا عَنْـك يختصِر
ولا بينك وبينه وسيط له تِذِل
عَطاك عقل نافع لك في الوجود
ومنبّـه لك عن ضلالك للسُّبل
سايِرْ ضميرك واقتنع بما يحِس
قلبك دليل لك ولا مِنك ينفصِـل
أحسـنت ظنّـي في الكثير من البشر
ويا ما سقوني عاتِق المرّ المعِـل
وبقدرة المولى ، نصير الصادقين
سرعان ما تفشَل نوايا المفتعل
علامة الطامع بما عندك تِجيك
عواطف تنهـــال وإرشاد عَسِـل
يدور في عَقلك، ونفْسَك تنكره
والحق معها والزّمن ما يختجل
من كشفها لك وأنت عنها غافل
وتندَم على ما فات وأنت المرتجِـل
وإشارة الحاقِد تجيـــك مباشرة
يكفيك لين صافح لِكَفّـه يتِـل

واللي بقلبه بالبنَان خلاصته

وفي لفلفة عينيه عنوانه يدِل

هذا هو الحاقد ، ولَوَّل الك عدو

يسلبك ما تملِك إلى حتى تكِل

إيّاك ثم ايّاك فيهم تنخدِع

كما انخدعت بحبّهم لي منعزل

ولا تصدّق من يقول انه محِب

اذا لم تكن انت تحبّه بالمثل

يــد الله

في عام ١٩٦٦ ، تكالبت عليَّ المشاكل ، وأنشب جشــع البعض وأنانيته فيّ مخالبه .. فأقاموا ضدي ثمان دعاوى ، هنا وهناك .. وحاولت كثيراً أن أحلّـها أو بعضها بالحسنى ، وبما يرضي الله ، ويحفظ الحـــق لأصحابه ، فلم أفلح .. كانت لي حقوق ثابتة يرفض الخصوم الاقرار بها ، ولم أستطع تحصيل شيء منها .. كما كانت هناك حقوق للغير مستحقة عليّ لم استطع الوفاء بها نظراً لارتباك الأحوال نتيجة لهـذه المشاكل المعقدة والدعاوى المقامة ..

وكان أصحاب الحقوق كرامــاً ، فقدروا الظروف ولم يطالبوني بالسداد العاجل ، وكان عجزي هذا مما زاد آلامي النفسية .. فلجأت إلى الله أستغيث به من الظالمين .. وأرجوه بهذه الابيات ..

وجاء الفرج ، والنصر من عند الله ، وكان أن حكم القضاء لصالحي في معظم القضايا بعد أن بان الحق وزهق الباطل وانكشف الزيف والضلال ..

« وإن ينصركم الله فلا غالب لكم .. »

لك الله يا أعصابي ونفسي تحمّلوا

حملاً ثقيلْ ولا عَن الثقل تسألُ

الصبر ثم الصّبر يا أعصابي اصبري

الا حمّلونا اليوم ففي الغدّ يحمِلوا

زرعوا لنا الألغام في كل منطقة

واللي زرعها اللي علينا تكتلوا

هذي بوادرهم على كل منعطف

أساليبهم شتى وبالكلّ يعْمَلوا

أزعج الاطفال مندوب اجراء الحجز

عندما جاهم وهم من أمره يجهلوا

اجى يقلِب السجّاد مِثْل المشتري

وفي غراف الدّار يشْخَص ويفْتِلُ

لنا الله لا نَخْشَى من الزّور واَهله

عَدَالة الله لاَ عَليها يَعْتَلوا

مهما تَعَـادُوا أو تَمَـادوا بغيّـهم
أو تَخبّـوا أو تَخَـفَّـوا أو تجَـلَـلّـوا

على الله لا يَخفَـى تدابير مَن خَلَـق
ولا ذاري يَذْري ولا عنه مُقْـفَـلوا

يمهِـل ولا يغفِـل عن اللي تمَـادوا
فيما نَهَـاهم عَنْـه ولا عَنْـه ينْـكِـلوا

لا زَيف لاَ تضليل يُحجَـب عن الله
والصدق مِصْـياناً لمن عَليه أجمَـلوا

لا أسمع من عَاذلْ اليوم لو عَذَلَ
العَـذْل لا يبري ألاماً ولا ماكلوا

لا لك ولا للنفس يا أعصاب فادَها
عذلٌ من العَـذال في حالة الخِـلو

ولا يسقي الظَّـمْـيَـان دلواً بلا حَبل
وعذلاً بلا فعلاً كذلك الدّلو

ومن قدَّر مُقـدّرا له نَالَ قدْره
ومَن لا يُقَـدِّر لا يقدَّر ويهْـمَـلُـوا

أقولها لا يأس في نفسي ولا ألم
ولا أسف على صديقٍ بعذلِه يَخْـتِـلُ

والقدرة لله وحدَه لا شريك له
ومِنْ خَاف مِنه فلاَ يخاف المبتلُ

وللذهب والفضة عبيـداً يخزنونها
وحراسها للغير دايم يُخـْذَلوا

وَهْيَ السَّـبب في خذلهم من خَزنها
عمّـا يقول الله بالخير اْبهِـلوا

لقـــد قال من قبلي بليغاً قائلاً
بما أقول اليوم مثله وانقلُ

وما يداً إلا يـد الله فوقَـها
وما طائراً ، إلا وللأرض ينزلُ

وما من ضباب أو غيم إلا وينجلي
والنور يكشف مَنْ علينا يحمـلُ

ولا بد للمظلوم نصر من الله
وللظالمين عقاباً عن ما تطاولوا

وتمهَّـلي يا نفس وأعصاب واصبروا
وسترون الحق للحق يفصِـلوا

يا فتاة العرب !

في عام ١٩٦٥ ، كنت مقيماً في أحد فنادق جدّة لعدة أيام ، فشاهدت فتاة أجنبية ترتدي ثوباً متناهياً في القِـصَـر ، من هذا النوع الذي يسمونه « الميكروجيب » .. والذي يكشف من الجسم ما يجب أن تحرص كل فتاة على حجبه .. وتملكني العجب ، الممزوج بشعور من الاشمئزاز ، وتساءلت ، ما هو الفارق بين هذا « اللحم » التي تعرضه هذه الفتاة وبين « اللحم » المعلق في حوانيت اللحامين ؟!.. وماذا بقي من الحياء ، أهم ما يجب أن تتصف به الفتاة أو المرأة .. إذا كانت لا تستحي أن تسير عارية تنهش العيون جسدها ؟.. كما تساءلت : هل ستنساق فتياتنا العربيات ، وراء « الموضه » فتقلدن هذه الأجنبية التي فقدت الحياء ، وترتدين مثل هذا الثوب الفاضح؟.. وماذا سيكون موقفنا منهن ؟ إن الزجر والقسوة في المنع قد لا يحققان ما يحققه الاقناع .. فجادت قريحتي بهـــذه الأبيات لعلها تفي بالغرض ..

الطريف في هـذه القصة ، أنني التقيت بالفتاة الأجنبية بعد فترة من الزمن ، ــ مصادفة ــ فسلمتها نسخة من هـــذه القصيدة .. وما أن قرأتها ، حتى اقتنعت بصدق نظرتي ونصيحتي ــ وأقسمت ألا تلبس بعد ذلك إلاّ « المكسي » ! ..

يا فتاة العرب !

اسبلوا يا فتيات العرب دِرع الجمال
سبلكم كاسِيُّكُـم فخر وجـــلال
لاعبوا بالساق موجـــات الحرير
سَبْلَةِ الفستان عُنوان الكَمال
المفـــاتن حَجْبُـها كنزٌ ثمـــين
يَسْـهَـرُ العاشقُ عليهـا في خَيَـال
سِحْـرُكُـم ما يَمضي إلّا مِنْ وَقَار
والوقار لجِـنْـسِـكُـمْ مـــا له مِثال
والَحشَـم ما يِمْلِـكُـه إلا الحشِـيم
والَحشِـيمـــة تْغَـالي بالدّلال
اسبلوا وجاكِـرُوا مِـــنْ غَرَّهُم
ميني جوب ميكروجوب بلا خَجال
باعوا الغـــالي رخيص مِنْ شَرُوه
وارتدوا بَهْ كالمعز ذيلَـه ذَلال ...

لا أقـــولُه يا فَتَـــايا رَهْـبَنَـه
ما دعاني غير حبي للجمال
مَا يُبـَاع المَاسْ مِنْ دون امْبـَلاح
يا فتيـّـه لا تسيرين بضـــلال
ما يوصف بالبدر مِنْـكِ إلا الَجبين
والعُنُـق والعـينْ تُوَصفْ بالغزال
كافي إبرازهـــا العــين تراك
والكمال والجـمال بالجـــلال
وسامحوني يا فتـــايا مكروجوب
وإن ذبحتوني لكم دمـّي حـــلال

الفَصْل الثالِث عَشَر

بين المـاضي .. والحاضر

حب لبنان ..

لا أجد كلمات أستهل بها هذا الفصل أجمل من كلمات عن لبنان الحبيب ، وطني الثاني ، كما هو الوطن الثاني لكل عربي ..

إن حبي لهـذا البلد العزيز لا يكاد يفترق عن حبي لوطني ، شاني في ذلك شان كل أبناء المملكة العربية السعودية .. إن حبنا للبنان ، لحب أصيل عميق وليس حبـاً مؤقتاً محدوداً بقصد أو أجـل أو هدف ينتهي بالوصول إلى الهدف المقصود .. إنه حب صادق ودائم منزه عن كل غرض إلا خير لبنان وأهله .. ولو شئت أن أسوق الشواهد لاحتجت إلى كتاب آخر مستقل ، أكبر وأضخـــم .. ولكني أكتفي بالإشارة إلى كلمات وأحاديث الأمير سلطان بن عبد العزيز ، وزير دفاع المملكة ، عندمـــا زار لبنان هذا العام .. فهي كافيـــة ، ومعبرة أصدق التعبير وأشمله عن مشاعر السعوديين جميعاً تجاه لبنان ..

وفي هذا المجال ، أعود إلى حديث الذكريات ..

لقد كان الأمير سلطان أول أمير سعودي يطلّ على لبنان من الجو .. وأول نزيل يدخل باب « أوتيـل برستول » يوم افتتاحه في ربيع عام ١٩٥١ ، فلم يكن سبقه في زيارة لبنان الا أخواه الأميران فيصل ومنصور ، عندما أوفدهما والدهما الملك عبدالعزيز لتهنئة لبنان باستقلاله ، وكان قدومهما

بطريق البحر.. وليس ذلك فحسب، بل إن قِصة حضور الامير سلطان أول مرة إلى لبنان منذ أكثر من عشرين عاماً ، لجديرة بأن تعرف .. ليُـعرف عمق وقِدم محبته للبنان ..

كان الأمير سلطان مريضاً ، واشتد عليه المرض ، حتى أنهك قواه ، وألزمه الفراش شهوراً ، وحتى لقد كانت تغشاه بين فترة وأخرى من شدة المرض غيبوبة تمتد ساعات متتالية..ولم يفلح الأطباء الموجودون في الرياض آنذاك في علاجه ..

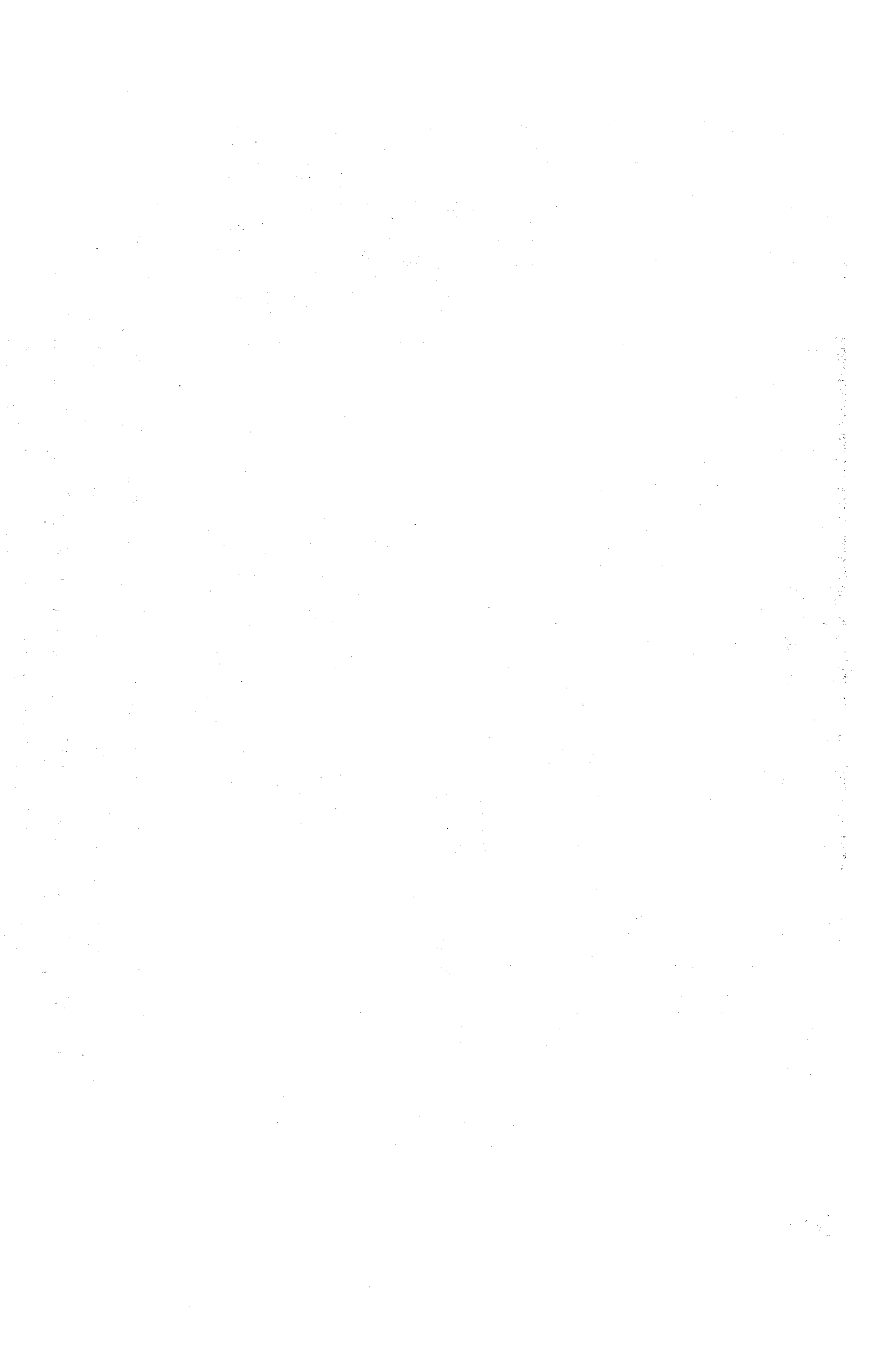
واشتد قلق والده ، الملك عبد العزيز رحمه الله ، فقرر إرسال الأمير سلطان للعلاج خارج البلاد، وخيّره بين أن يذهب إلى أمريكا أو انجلترا أو ألمانيا أو سويسرا أو النمسا .. فما كان من الأمير سلطان ، وهو في فراش المرض ، إلا أن يرفع يده رافضاً الذهاب إلى أي من تلك البلاد ، ثم يقول: « أرسلوني إلى لبنان ..» ورد عليه الملك : « أحسنت الأختيار ، توكلنا على الله » . وأبرق لسفير المملكة في بيروت آنذاك ، الشيخ عبد العزيز بن زيد ، بالأمر ولعمل اللازم ..

وما أن تلقى السفير برقية الملك ، حتى أسرع يحجز للأمير سلطان غرفة في مستشفى الجامعة الأمريكية ، كما يحجز لرفاقه غرفاً في أوتيل بريستول .. وأبلغني السفير بالأمر ، لأبلغ بدوري جميع اخواننا السعوديين الموجودين في لبنان بموعد وصول الأمير سلطان ..

في اليوم الثاني تجمعنا واتجهنا جميعاً إلى المطار ، وقد أعددنا سيارة اسعاف لنقل الأمير ساعةوصوله الى المستشفى.. وانتظرنا أكثر من ثلاث



الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع والطيران السعودي ، في حفلة تكريمية عند زيارته الرسمية للبنان في عام ١٩٧١ . والى يمينه الاستاذ الياس سابا وزير الدفاع اللبناني والشيخ محمد منصور الرميح سفير المملكة العربية السعودية في لبنان وإلى يساره الأستاذ خليل أبو حمد وزير خارجية لبنان ، والمرحوم العماد جان نجيم قائد الجيش اللبناني ، واللواء عثمان الحميد ...



ساعات .. حتى وصلت الطائرة « الداكوتا » ـ التي كانت تقطع المسافة بين الرياض وبيروت في أكثر من ٨ ساعات !.

وهبطت الطائرة بسلام.. وأسرعنا بسيارة الاسعاف الى جوارها ، وصعد السفير وطاقم الاسعاف ومعهم « النقالة » الى الطائرة ، للنزول بالأمير محمولاً ، وبقية المستقبلين ينتظرون في أسفل السلم والألم يعتصر القلوب وسكون الأسى يخيـــم على جميع الحاضرين .. وكانت المفاجأة. التي لم يبق بعدها حاضر إلا وسالت الدموع من عينيه ، ولكنها دموع الفرح .. والشكر لله سبحانه وتعالى ..

لقد فوجئنا جميعاً ، بالأمير سلطان يخرج من باب الطائرة ، منتصباً على قدميه .. ويهبط درجات السلم بنفسه.. ومن خلفه السفير والرفاق.. وطاقم الأسعاف !.. عندما صافحت الأمير ، سألته عن صحته، فهمس في أذني.. « بخير والحمد لله، والله يا ابراهيم انك صدقت في ما قلته عن لبنان، لقد كانت حالتي سيئة ، ولكن عندما شعرت بقرب وصولي ، وشاهدت من الطائرة جباله الخضراء ، وطبيعته الخلابة ، شعرت وكانني نائم يستيقظ ، وبالحيوية تعود فتغمرني وبالنشاط يدب في أوصالي شيئاً فشيئاً حتى وصلنا .. وهانذا كما تراني والحمد لله .. » .

وبدلاً من التوجه الى المستشفى ، توجهنا من المطار الى أوتيل بريستول .. حيث تابع الأمير علاجه ، الى أن منّ الله عليه بالشفاء التام.

بين الماضي .. والحاضر

يقولون .. أن قسمين من كل كتاب يستغرقان من المؤلف جهداً خاصاً ، هما : مقدمة الكتاب وخاتمته . وبالنسبة لي ، لم تكن الحيرة والتساؤل : كيف أقدّم الكتاب إلى القارىء ، بل كانت الحيرة في كيف أختتم الكتاب !؟.

فمقدمة الكتاب كانت كلماتها تتزاحم في رأسي تدعوني إلى كتابتها ، في حين لم يكن لديّ فكرة ما عن الفصل الأخير الذي تليه صفحات عن خلاصة تجارب الحياة ..

وسلمّت الكتاب إلى الناشر ولم أكتب خاتمته بعد !. وسلّمه الناشر بدوره إلى المطبعة ، وتتالت « بروفات » الصفحات ، أراجعها مع الناشر وفكرة الفصل الأخير لم تختمر في ذهني بعد .

وأقبل عيد الفطر المبارك .. وأنا في بيروت بين أولادي .. يقضون أوقاتهم بين استجمام ودراسة ، ووالدتهم طريحة الفراش منذ شهور إثر حادث سيارة أصيبت به رجلها بكسر بالغ ، وأقضي أوقاتي بين استجمام وبين إشراف على مكتبي ، وبين تردد على دار النشر لمراجعة البروفات النهائية ..

وفي آخر أيام العيد ، وبينما أنا بمكتبي في بيروت ظهراً ، أتاهب

للعودة إلى المنزل.. إذا بموزع البرقيات يدخل حاملاً برقية، ويقف أمامي منتظراً ـ فنحن في العيد السعيد .. والبرقية في العيد بشرى ، ولا بد أن تكون تهنئة من صديق أو عزيز .. وأدركت مـــا ينتظر .. وعايدته وانصرف.. وفضضت البرقية ، وكانت المفاجأة . كانت برقية عزاء لي في شقيقتي الكبرى ، رحمها الله، وقد توفيت في الرياض.

كان حتمياً أن أسافر فوراً إلى الرياض .. تاركـاً أولادي الصغار .. ووالدتهم طريحة الفراش .. وتاركاً الكتاب ولم تكتمل صفحاته بعـد . واجب مشاركة الأسرة أحزانها ، يدعوني إلى الاسراع بالسفر ، وواجبي نحو أولادي ، ونحو اختتام الكتاب يدعوني إلى البقاء ، وكان طبيعياً أن أسرع بالسفر للقيام بواجب العزاء .. ولم أكن أعلم أنـــه ستتحقق لي في سفرتي الحزينة تلك، ظروف، ستكون هي موضوع هذا الفصل الأخير.. الذي بقيت شهوراً أفكر به ..!

لقد مررت بتجربة خلال سفرتي هذه ذكّـرتني بتجربة مماثلة تماماً .. في تفاصيلها ، وفي نفس جهتها .. حدثت لي منذ أكثر من ٤٥ عاماً .

إنها إرادة الله سبحانه وتعالى ، الذي شاء أن يذكّـرني وأنا في غمـرة حزني وآلامي ، بنعمه الكثيرة عليّ .. إنني أزداد إدراكاً لقيمتها كلما تذكرت ظروف حياتي منذ عشرات السنين.. والانسان في نعيمه، أحياناً ما ينسى ظروف الشقاء . لا بد من ذكر التجربتين، الأولى.. ثم الثانية.. ليتفهم القارىء الصورة الواحدة المشتركة في ذكريات الماضي والحاضر .

عندما التحقت في بداية حياتي ـ كما سبق أن ذكرت ـ بمعية الأمير

سلمان بن محمد آل سعود ، كسائس للخيل ، وكان « الريال » يومها من الندرة، بحيث كان الحصول عليه لا يتم إلا بالجهد والعناء.. وكان مثل من يسعى للحصول عليه مثل صياد يحمـــل بندقيته مفتشاً عن الصيد .. وذات يوم ، اضطر الأمير سلمان أن يكلف أحد رفاقه ، عبد الله بن عيفان من أهالي (شقراء) أن يبيع ثلاثة من الخيل ، من غير الأصيلة التي يمكن الاستغناء عنها ، إلى قبائل عتيبة في منطقة « السر » في أواسط نجد ، واختارني ابن عيفان رفيقاً له في هذه الرحلة ، كسائس للخيل .. وكانت معرفته بالطريق تعتمد على الاستدلال بالوصف .. والاتكال على الله .. ثم على نفسه ، دون الاعتماد على دليل.. وعلى المثل القائل: « البدوي يسير ويسال ولا يضيع » ..

توجهنا من روضة الجنادرية شرق شمالي الرياض،على راحلةواحدة، وانتقلنا من قرية إلى قرية نمشي ونسال ، دون ملل ولا كلل ، قاصدين قرية تسمى (عسيلة) من قرى (السر) ، وحتى مساء اليوم الرابع ، لم نتمكن من تجاوز « نفود السر » إلا بعد حلول الظلام . ولم نصادف أحداً نساله عن القرية. ولا نعرف هل هي عن يميننا أو شمالنا أو أمامنا.

لم يكن أمامنا إلا أن نبيت في مكاننا .. وفي الصباح لا بـــد أن ياتي الفرج .. وكان البرد قارساً .. ولا مكان ناوي إليه ..

وبينما كان ابن عيفان يعمل القهوة ويُعـدّ العشاء ، وأنا أحطب له الحطب ، وأحش الحشيش للخيل ، إذ بنا بصوت أذان !.. إنه مؤذن ،

يؤذن لصلاة العشاء . وكان الصوت واضحاً ، دلنا على أننا لا نبعد كثيراً عن مكان ماهول ـ وأنستنا فرحتنا آلام المسير الشاق طول النهار ، بل وأنستنا برد الليل القارس ، وأكلنا ، وشربنا ، ونمنا مرتاحي البال .. وقد اعتمدنا أن نتجه إلى أهل المكان القريب صباحاً نسألهم عن العسيلة..

وفي الصباح..وجدنا أننا لا نبعد أكثر من كيلومتر واحد عن العسيلة نفسها .. ولم نتبينها في المساء ، إذ كانت بيوت القرى آنذاك لا يظهر منها ضوء ولا صوت في الليل (لعدم وجود نوافذ في الجدران) .. وبعنا واحدة من الخيل في عسيلة ، والثانية في قرية (ساجر) والثالثة في قرية (نفي) .. وعدنا إلى الرياض غانمين ، وسلمنا « الريالات » إلى الأمير سلمان ، فقضى بها حاجته.. وكان لنا نصيب من كرمه وحسن جزائه ..

والعام، بعد عشرات السنين .. سافرت للعزاء إلى الرياض، بالطائرة النفاثة المريحة .. يوم الرابع من شوال ١٣٩١ هـ .. وبعد القيام بواجبي نحو الأسرة والأصدقاء ، وفي اليوم العاشر من شوال ، اعتزمت السفر إلى القصيم بسيارتي قاصداً تهنئة الأمير فهد بن محمد بن عبد الرحمن أمير منطقة القصيم ، بعيد الفطر المبارك ..

وفي أثناء مسيري في منطقة « السر » على الطريق المرصوف المعبّد.. إذا بي أرى لافتة على جانب الطريق وعليها اسم « عسيلة » .. فتعود بي الذكريات إلى الماضي ، إلى القصة التي ذكرت تفاصيلها في الصفحات السابقة .. وانطلقت أروي القصة للسائق مقارناً بين ذلك الزمان والحاضر ..

ووصلت إلى بريدة عاصمة القصيم ، وتوجهنا إلى بيت الأمير. وكانت

المفاجأة ، عندما أخبرني الحارس بأن الأمير خارج البلدة في رحلة صيد ، في عطلة العيد .. وكانت مفاجأة كبيرة ، أزعجتني إلى حد بعيد .. فتوجهت إلى بيت أحد المسؤولين عن شؤون الأمير ، زيد بن مطلق الصانع ، أسأله عن مكان الأمير.. واستقبلنا الرجل الكريم مرحباً مهللاً، مصمماً على إضافتنا ، ولكني اعتذرت مخبراً له أني أفضل أن أتوجه إلى المكان الذي يخيم فيه الأمير ، للسلام عليه وتهنئته.. وأخبرنا أن الأمير موجود حول (الأجفر) . واعتزمت السفر بسيارتي ، فعارض ذلك ، موضحاً أن الطريق موحلة بعد المطر .. ومن الخطر السفر بالسيارة الخاصة الصغيرة . وصمم على أن نتناول عنده الغداء ، وأن يؤمّن لنا خلال مدة تحضيره سيارة خاصة مجهزة بمعدات للسير فوق الرمال حتى ولو كانت موحلة (دواليبها من البالون) .. ووافقنا شاكرين . وجهز لنا السيارة والدليل .. وسألته عن المسافة بين بريدة والأجفر ، فإذا هي لا تزيد عن ١٥٠ كيلو متراً تقريباً..وكنا قد قطعنا ٤٦٥ كيلو متراً بين الرياض وبريدة في ٥ ساعات ، فقدّرت أن قطع مسافة الـ ٣٠٠ كلم ذهاباً إلى مكان الأمير وإياباً ، ستستغرق ثلاث أو أربع ساعات بسهولة ، وقد غاب عن الذهن الفارق بين الطريق المرصوفة والطرق الرملية الموحلة في الصحراء.. وقدّرت أنه على كل حال . إذا تأخرت في العودة إلى بريدة ، ففيها الأوتيل ، أقضي الليل فيه ثم أعود صباحاً إلى الرياض. وعلى هذا الأساس من التفكير ، لم نستعد لأي طارىء في الطريق ، من مأكولات أو فراش قد نحتاج إليه عند الحاجة ..

سرنا من بريدة بعد صلاة العصر ، وبصحبتنا عبيد آل عبـــد الله الشمري ، وسائق السيارة فايز بـن طهيف ، وسائق سيارتي فرج آل سعود ، وبعد الغروب، إذا بالأرض المشبعة بماء المطر ، تقلب كل حساباتنا رأساً على عقب . كانت السيارة رغم دواليبها الخاصة ، تغرز مما اضطرنا مراراً إلى الاستعانة بقطع فروع الأشجار ووضعها تحت عجلاتها ثم دفعها بكل جهدنا حتى تسير ..

وكانت المستنقعات الواسعة ، تخفي مسالك الطرق ، وتجعـل سيرنا بطيئاً .. وإذا بنا في منتصف الليل بحالة يرثى لهـــا .. لا طريق أمامنا نسلكه ، ولا نعرف أين نحن ، وهل اتجاهنا شمالاً أم جنوباً أم شرقاً أم غرباً .. نتخبط خبط عشواء .. واليأس يسيطر على نفوسنا .. وكنت أكثر رفاقي يأساً خشية أن ينفد منا البنزين ويضيع عليّ الوقت. وكان القلق يسيطر علينا جميعاً وإن كنا نخفيه ونتظاهر بالثبات بالمزاح والتسلية .. ولكن كلاً منا كان يشعر بما يجول في نفس رفاقه من مخاوف !.. واقترحت أنا أن نبيت في ذلك المكان .. إلى أن ييسرها الله في الصباح خشية نفاد البنزين . فطمأنني فايز بأن لديـه منه ما يكفي لقطع ٦٠٠ كيلو متر .. واقترح الدليل أن نصعد إلى أحد المرتفعات ، لعلنا نرى شيئاً يرشدنا .. وإلا فلا مفر من المبيت . وبعد قليل من المسير إذا بنا على مرتفع بسيط، وأوقفنا السيارة ، وصعد فايز على مقدمتها .. ثم صاح فرحاً ، فقـد شاهد ضوءاً صغيراً عن بُعد !..

لعل القارىء يقدّر مدى شعور الارتياح والاطمئنان الذي غمرنا في تلك اللحظات بعد اليأس والقلق ..

وسرنا نحو الضوء .. وإذ بصاحبه راعي يرعى مجموعة إبل وحده .. وبعد السلام سألناه عن مكان الأمير فلم يعرفه ، فسألناه عن الأجفر ، فنصحنا أن نهتدي بنجم معين دلنا عليه ، وأن المكان ليس ببعيد .. وسرنا .. حتى وصلنا الأجفر بعد منتصف الليل ..

أوقفنا السيارة بجانب بيوت القرية ، وضغط السائق على البوري بشكل متواصل لعل أحداً يجيب .. ولا حياة لمن تنادي .. وإذا بي أرى حماراً قريباً .. وطلبت من السائق أن يعاود النداء بالبوري بشكل مستمر .. فإما أن يجيبنا أحد الأهالي ، أو ينطق الحمار !.

بعد فترة استيقظ أحد أهالي القرية وقد أزعجه الصوت .. وأجابنا غاضباً على إقلاقنا للنائمين. ثم اعتدلت لهجته بعد أن رآنا عن قرب ودعانا للمبيت عنده فشكرناه ، ثم أخبرنا أن الأمير انتقل من المنطقة إلى منطقة أرحيوات .. ولما كان الدليل يعرف الموقع انطلقنا .. وأعطي القارىء فكرة عن أرحيوات ، كانت جبلين متقاربين ، أخذنا ندور حول أولهما ثم حول الثاني ولم نعثر على المخيم . وأصابنا اليأس ثانية .. وقررنا المبيت في السيارة حتى الصباح .

كان البرد قارساً ، والسيارة مكشوفة .. فحشرنا أنفسنا بقية الليل بجوار السائق نلتمس الدفء، وقد زادنا الجوع شعوراً بالبرد ، ونزلنا نجمع الحطب .. ونشعل النار نلتف حولها حتى الصباح .. وما أشبه الليلة بالبارحة !.

بعد شروق الشمس ، لم نشاهد شيئاً في الجوار ، وأصابني اليأس .. وقررت العودة الى القصيم خشية نفاد البنزين ، وكان الدليل والرفاق ،

يشعرون كما أشعر،وبشيء من الخجل لأنهم لم يوفقوا في ارشادنا الى الطريق وخصوصاً الدليل ، وركبنا السيارة عائدين .

بعد بضع كيلومترات قليلة،إذ بنا نشاهد ما تخايلناه جمالاً أو خياماً، فتوجهنا اليها لعل من بها يرشدنا..فإذا بها خيام مخيم الأمير .. ونحن ندور حولها طول الليل . !

تماماً كما كنا على بعد قليل من العسيلة .. منذ زمن !..

لم أكد أصدّق الأمر .. وكانني في حلم ..

ولكنه الواقع .. وهذا هو فهد بن محمد .. وما أن رأيته ، ورأيت المجالس والضيوف.. حتى عادت بي الذاكرة إلى أبيه محمد بن عبد الرحمن رحمه الله .. وكاني في إحدى مخيمات والده الذي عشت برفقته سنوات..

نسيت التعب . ونسيت الألم .. وهنأت الأمير والحاضرين بالعيد ..

وعدت إلى الرياض ثم إلى بيروت لأختم كتابي بهذه الذكريات .. بين الماضي والحاضر ..



الخاتمة

خلاصة تجارب الحياة

وبعد ..

لا بد أن القارىء الكريم قد أدرك سبب حرصي على الحديث عن المواقف والخصال، والوقائع والتجارب .. سواء في تقديمي للأسرة السعودية الكريمة ، أو في حديثي المفصّل عن تجاربي في الحياة . إنني فضلاً عن اعتزازي بالحديث عن أعضاء الأسرة الكريمة وفضلهم ، أردت أن يخرج القارىء بالفائدة العظيمة المرجوّة التي يستفيدها كل قارىء لسير الأبطال. وكذلك رجوت أن تفيده قراءة تجارب الحياة ، التي أقدم له خلاصة ما يمكن أن نتعلمه منها من دروس ، وما يمكن أن نفهم منها من عبر ..

. . . . . .

لستُ مؤرخاً – كما ذكرت من قبل – ولست فيلسوفاً أو مصلحاً اجتماعياً .. ولست عالماً ولا معلماً ، فلم تتح لي فرصة الالتحاق بمدرسة أو معهد أو جامعة لأتخرج حاصلاً على إجازة أو شهادة أو لقباً ..

... ولكنني خريج مدرسة أكبر وأوسع وأعظم .. قضيت على مقاعد

الدراسة فيها أكثر من ستين عاماً !.. وحصلت على شهادة تمنحني بعض الحق في نصح وإرشاد أبنائي واخواني وقرائي .. المتدرجين في صفوف الدراسة .. في مدرسة الحياة ..

. . . . . .

لكل شيء في هذه الحياة ثمن .. وكما أن للدراسة في معاهد العلم تكاليف ونفقات، تقل أو تزيد ولكنها تدفع، فكذلك الدراسة في مدرسة الحياة لها تكاليف يجب أن تُدفع .. ولذلك فان قراءة تجارب الآخرين وتفهمها قد تفيد في توفير ما قد يغرمه القارىء ليمر بها ويتعلم منها في حياته العملية ..

*

الصدق والأمانة

أهم وأشرف ما يجب أن يتصف به المرء في حياته الصدق والأمانة .. وإني على ثقة أن البعض سيهز رأسه ويبتسم ساخراً من عبارتي هذه ثم يقول : « إن الصادق والأمين ، لم يعد له مكان في هذا الزمان ، حيث عمّ الكذب والرياء والنفاق والخداع .. وسوف يموت جوعاً ويعاني الفقر من يتمسك بالصِّدق وغيره يكذب .. ومن يتمسك بالأمانة وغيره يخون ويخدع .. » ونرد على الساخر الذي يريد أن يجعل الكذب والخداع والنفاق حقوقاً مشروعة يمارسها الجميع .. فنقول : إن الصادق الأمين يتمتع باحترام الجميع ظاهراً وباطناً .. أما الكاذب الخائن فلا يتمتع باحترام أحد ولا حتى باحترامه لنفسه !.. وإن تظاهر المحيطون به والمتعاملون معه باحترامه ، وسكتوا على كذبه حتى تنتهي علاقتهم به ..

وإن الكسب الذي قد يتحقق بالكذب والخداع وخيانة الأمانة واستغلال جهد الغير ، لن يدوم .. إن الله يمهل ولا يهمل .. وكما تتكون الثروات يمكن أن تزول ، إذا لم تكن كسباً حلالاً يباركه الله .. يمكن أن تنفق في علاج مرض عضال ، ويمكن أن تكون خسارة في حادثة ، كما يمكن أن يبددها طيش ولد عاق .. إن حبل الكذب قصير ، وحبل النفاق أقصر .. ولا بد أن ينال الكاذب المخادع جزاءه في يوم من الأيام قَرُبَ أم بعد .. احتقاراً من الناس ، وكساداً في العمل ، وشحاً في الرزق ، وآلاماً في الجسد وعذاباً في الضمير ..

أمر آخر : ما هو المصير إذا أصبح الكذب والخداع ، وأصبحت الخيانة أموراً مشروعة ؟ وكيف يمكن أن يتعامل الناس ، وهم يعرفون بعضهم بعضاً ! وكيف يمكن أن يزدهر مجتمع ، وتنهض أمّة ، لو اشتهر أفرادها بعدم الصدق والأمانة ؟.. وماذا يكون موقف الكاذب المخادع إذا اضطر للتعامل مع أوساط تتمسك بالصدق والأمانة ، وما أكثرها ولاسيما في المجتمعات الراقية المتقدمة ..؟؟

لنتمسك بالصدق والأمانة ، فالشرائع السماوية المنزّلة تهدينا لذلك ، بل ان مصالحنا الخاصة تحتم علينا ذلك .. ونجاحنا في الحياة يتوقف على تمسكنا بهتين الخصلتين النبيلتين في كل قول أو موقف أو معاملة .. وسيتحقق النجاح باذن الله ، وإن تأخر !..

★

عبادة المال ..

يروى عن العالم الجليل الشيخ محيي الدين بن عربي ، فقيه زمانه في

بلاد الشام ، انه خطب المصلين ذات يوم ، فقال في خطبته « معبودكم يا أهل الشام تحت قدمي ! » .. فهاج مَن في المسجد ، وثاروا واعتدوا عليه .. ومرت سنين ثم قرون .. حتى اكتشف أحدهم ذهباً مكنوزاً في المسجد تحت أرضه .. وعندها فهم الناس المعنى الحقيقي الذي كان يقصده العالم الجليل من عبارته ، وأدركوا خطأ السابقين في الفهم والتصرف ، فاسرعوا يعيدون للعالم الجليل اعتباره ويدفنونه في مسجده ، ليصبح مزاراً مقصوداً ..

إنها رواية ... ولكنها ذات مغزى ، وفي اعتقادي انه لو فهم الحاضرون في المسجد في ذلك الوقت قصد الشيخ ، لما اعتدوا عليه ، بل لأسرعوا ينبشون الأرض ويغنمون الذهب .. !

المال نعمة من نعم الله يمنحها من يشاء من عباده . والسعي للكسب واجب . ولكن ما لا يجب أن يقع المرء فيه ، هو أن يجعل المال معبوده ، وأن يكون مجرد جمعه ، عن أي طريق ، هدفه في الحياة ! .. كسب المال سبيله الاجتهاد وبذل الجهد والعرق والمثابرة في العمل، ولكن العمل يجب أن يكون شريفاً مشروعاً .. نعم – شريفاً مشروعاً ..

وقد يختلف البعض فيمدى شرف أو مشروعية هذا العمل أو ذاك .. ولكن تبقى هناك الحقيقة. حقيقة أن الجميع يعرفون حق المعرفة، العمل الشريف والمشروع من غيره! .. رغم تجاهل البعض .. لذلك ، متعمداً ! ..

إن المال المجموع بطرق غير مشروعة أو شريفة ، سيذهب كما جاء .. وإن النجاح الذي تحقق بأساليب غير أخلاقية لا يمكن أن يدوم .. وإن

المتكالب على ربح غير مشروع يجنيه باي وسيلة ، متغاضياً عن كرامته ، أو باذلاً ماء وجهه ، أو مفرّطاً في شرفه ، خانقاً ضميره .. مثله كمثل الذي يكدّس مواد شديدة القابلية للاحتراق حوله .. ستشتعل يوماً وتحرقه ..

.. المال زينة الحياة الدنيا ، ولكنه المال الحلال .. الذي يباركه الله ويضاعفه ..

★

الغرور والكبرياء ..

قال الله سبحانه وتعالى : « ولا تمشِ في الأرضِ مرحاً إنكَ لنْ تخرق الأرضَ ولنْ تبلغَ الجبالَ طولاً » و« ولا تصعِّر خدّك للناسِ ولا تمشِ في الأرضِ مرحاً إنْ الله لا يحبُّ كلَّ مختال فخور » . صدق الله العظيم .

لا شيء ينفّر الناس من امرىء قدر ما ينفرهم غروره وكبرياؤه وتعاليه . وإن من يريد أن يفرض احترامه على الناس ، بالمظهر والشموخ والتكبر والتعالي واصطناع العظمة، قد ينال احترامهم الظاهري ، نفاقاً، مع استهزاء به في قرارة أنفسهم قد يتحول إلى احتقار، كما قد يتحول إلى حقد ورغبة منهم في العمل على تحطيمه إذا أفرط في التكبر والتعالي ..

إن الاحترام الحقيقي ينال بالعمل المثمر ، وببذل الجهد في خدمة الغير ،وأداء الواجب ، والأمانة،والانتاج القيّم مادياً أو أدبياً. وسيكون احتراماً مقروناً بالاعجاب مصحوباً بتمنيات استمرار النجاح صادرة من القلوب ..

إن في التعالي والتكبر على الناس ، محاولة لإذلالهم ، ومن أذل الناس أذّله الله .. والكريم يرفض أن يُـــذل نفسه لمخلوق ، لذلك لا تجد حول المغرور المتكبر إلا منافقين وصوليين ذوي أغراض ، ما أن تنقضي حتى ينفضوا من حوله ..

إننا إذا احترمنا الغير ، نلنا احترامهم . وقبل احترام الغير على المرء أن يحترم نفسه ، يقدّرها حق قدرها ، فلا يعرضها لما يسيء اليها ويجلب إليها المتاعب والاهانات أو الهزء ، يصون كرامتها ، ويعزها ويبتعد بها عن مواطن الشبهات . وبذلك فقط يعيش متمتعاً بالاحترام والتقدير ..

*

الثقة بالله ثم بالنفس ..

أول أسباب النجاح والتوفيق ، الاعتماد على الله والثقة الكاملة بـه ، والايمان العميق بفضله وتوفيقه ، ثم الاعتماد على النفس والجهد الشخصي يُبذل في موضعه ..

إن من يريد النجاح والوصول « بضربـــة » من ضربات الحظ أو الصّـدف ، أو بالاعتماد على دعم هذا أو ذاك ، دون بذل جهد يذكر أو تقديم عمل قيّـم .. إنه لواهم .. وإنه لجاحد لفضل الله ..

قد يساعدنا الغير ، ويقدمون لنا العون ، ويدعموننا ، إذا بدأنا العمل وبذلنا الجهد ، وأظهرنا الكفاءة .. وقد يساعدوننا ويدعموننا في ظروف معينة تعترضنا ولا دخل لجهدنا أو كفاءتنا فيها ، مرّة وأخرى وثالثة أحياناً . ولكنهم لن يساعدونا ويدعمونا أبد الدهر .. بل سيعتذرون ويُعرضون ، والحق معهم .. فالمساعدة والدعم والعون تبذل للجاد المجتهد المثـــابر

المنتج، ولا تبذل لمن يريد أن يعيش عالة على الغير ولا لمن يريد أن يكون نجاحه على أكتاف غيره فحسب !..

وإنه توفيق الله وفضله ، اللذين يهديان الغير إلى مساعدتنا والتعاون معناه ، وإن الله الذي يفتح أمامنا سبل الرزق ويلهمنا التفكير وسداد الرأي فيما يعود علينا بالخير .. ثم يأتي الجهد والصبر والمثابرة .. فالنجاح ليس سهلاً ، بل إن طريقه مفروش بالعرق والجهد والمتاعب والعقبات والعثرات .. والتغلب عليها يتطلب العزيمة الصادقة ، والإرادة القوية ، وحسن التقدير ثم الاقدام بدون تسرع أو تهور .. وقبل كل ذلك، ومع كل ذلك .. الثقة بالله والايمان بقدرته .. ثم الثقة بالنفس ..



الصداقة والاصدقاء

إن بناء علاقات اجتماعية طيبة، وصداقات متينة راسخة ، أمور من أهم مقومات النجاح ، يغفل عنها ، أو يخطىء في تقديرها الكثيرون ..

إن ظروف الحياة تتيح للمرء أن يتعرف الى الكثيرين ، بل الكثيرين جداً ، تعارفاً يتم بالاشتراك في عمل معين أو مناسبة معينة أو حتى مصادفة عابرة . والخطأ أن يعتقد المرء أنهم جميعاً يمكن أن يكونوا أصدقاء يعتمد عليهم .. إنهم « معارف » ،أو « رفاق » قد يستفيد بآرائهم ويسعد بلقائهم ، ويأنس لحديثهم .. وحسب ..

أما الصديق ، الذي يستطيع المرء أن يمنحه ثقته ، وأن يفضي اليه بدخيلة نفسه ، وبسرّه ، وأن يعتمد عليه بعد الله وقت الشدّة ، وأن

يأتمنه على ماله وعرضه .. هذا الصديق نادر الوجود ! فإن المرء يحتاج إلى الدقة والصبر والتجربة والملاحظة ، ليوفق في اختيـاره . ويكفي للعاقل ، أن يصطفي من بين المئات من المعارف صديقاً أو اثنين .. وإنها لنعمة من الله أن يحظى بهما ، في هذه الحياة المعقدة الحافلة بكل مظاهر الرياء والكذب والنفاق وانتهاز الفرص والنميمة والوشاية ..

آفة المجتمعات ، هؤلاء الذين لا هواية لديهم إلا هواية تتبع تصرفات الغير والاطلاع على اسرارهم ، ثم نقلها أو استغلالها أو إذاعتها .. إن من ينقل اليوم إلينا سراً عن فلان ، مدعياً صداقتنا ، سينقل غداً سراً عنّـا إلى غيرنا . فتلك هي هوايته والعياذ بالله، بل تلك هي مصيبته ، ومصيبة من ينخدع بعشرته ..

فليكن رائدنا التدقيـق في اختيار الصديق ، وليكن مـن أصحاب الفضل والمروءة والعلم والأخلاق ، ولنحرص إذا وفقنا اليه أشد الحرص على صداقته ونقائها ودوامها ، خالصة لوجه الله ..

*

التفاؤل .. والأمل

لا شيء يبعد المرء عن النجاح في هذه الحياة، قدر ما يبعده اليأس .. والتشاؤم.. ولايصاب باليأس إلا فاتر العزم ضعيف الارادة . ولا بد أن يوطن المرء نفسه على تحمل الصعاب وتذليل العقبات ، وألا يسمح لليأس أن يتسرب إلى نفسه إذا ما فشل في عمل أو تجارة أو مشروع .. ليبحث عن أسباب فشله ، وليراجع خطواته خطوة خطوة ، وليكن صادقاً في

محاسبة نفسه على اخطائها . ليدرك بدقة وبصدق حقيقة أسباب فشله ، ثم ليبدأ من جديد محاذراً أن يقع فيما وقع فيه من قبل .. ولا بد أن يتأكد المرء من صحة استعداده ورغبته وامكاناته العقلية والمعنوية المناسبة لعمل ما ، قبل الاقدام عليه . فما من عمل يمكن أن ينجح فيه المرء إذا كان مضطراً لأي سبب من الأسباب إلى ممارسته ، ومـــا من عمل يقدم عليه المرء متردداً متشائماً إلا فشل فيه ..

لكل فرد ميوله ورغباته وامكاناته واستعداده ، وواجبه أن يعرفها ويتأكد منها ويعمل على تنمية جوانب الخير فيها ، ليؤكد ثقته بنفسه وعمله ، ويحدد العقبات التي يمكن أن تصادفه وكيف سيتغلب عليها ، ثم ليقدم ، متفائلاً بالخير . يجده ..

*

الحق ، والواجب .. والواطن ..

إن حرص المرء على حقوقه ، وسعيه الى نيلها ، يجب ألا ينسيه مـا عليه من واجبات ، فلا يمكن أن تستقر حياة من تدفعه الانانية الى العمل على تحصيل حقه فحسب، دون مراعاة لحقوق الآخرين عليه .. ولا يمكن أن يزدهر مجتمع أو تنهض أمة، اذا تكالب أبناؤها على ما يعتبرونه حقوقاً وتقاعسوا في نفس الوقت عن أداء ما عليهم من واجبات !.

من حق المرء أن يعمل ، ومن واجبه ألا يقف عـــثرة في سبيل الآخرين ، أو يحاول عرقلة أعمالهم .. بل ان من واجبه أن يتعاون معهم ما كان إلى ذلك من سبيل ..

ومن حق المرء أن يتمتع بحريته ، ومن واجبه أن يحترم حرية الآخرين، وألا يبالغ أو يغالي في التمتع بحريته حتي تتحول الى اعتداء على حريات غيره وحقوقهم ..

ومن حق المرء أن يعيش مطمئناً آمناً في وطنه .. ومن واجبه أن يعمل ، ويبذل كل جهده لصون هذا الوطن والمحافظة على استقراره وسلامته وسيادته ، من كل مخرّب أو طامع أو معتدٍ . ولا يكون ذلك إلا إذا آمن بحق الوطن عليه ، وأعدّ نفسه للدفاع عنه وحمايته ..

قد يكون اعداد المرء للدفاع عن وطنه من واجب القادة ،ولكن الأمر يعود أولاً وأخيراً إلى الفرد نفسه ،بحسن استعداده وبإقدامه وتحمله لما يلزم هذا الاعداد من جهد وتضحيات.. فماذا يفعل القائد أو ماذا تفعل الدولة ، إذا لم يكن لدى الفرد الاستعداد لتحمل مسؤوليات الدفاع عن وطنه ..؟.. إذا استدعي لتدريب تهرّب بشتى الوسائل والحيل دون خجل أو حياء ! - وهو الذي كان يملأ الدنيا صراخاً بوجود الاستعداد.. وإذا طولب بمساهمة مالية تجمع للانفاق على اعداد المقاتلين أو سلاحهم ، تجاهل الأمر ، او ادعى الحاجة ، أو تحايل حتى لا يدفع شيئاً أو دفع ما لا يغني أو يفيد، أو ما لا يتناسب مع مقدرته وثرائه الحقيقي-وهو الذي لا يكف لحظة عن استغلال وطنه ومواطنيه والمطالبة بإتاحة الفرص له للثراء!.. ينادي بالاستعداد ولا يستعد اويحث على البذل ويبخل!ويطالب الوطن بحقوقه ويتقاعس عن أداء الواجب المقدس نحوه ..

ويل لأمة يبتليها الله بمثل هؤلاء .. وويل لمن يتهاون في واجبه تجاه

وطنه متجاهلا أن كرامته من كرامة وطنه ، وأن بقاءه وشرفه مرهونان بسلامة وطنه وسيادته ..

*

كلكم راع .. وكلّ مسؤول عن رعيته

كل فرد في هـذه الحياة يتحمل مسؤوليته ، تزيـد أو تتضاعف تبعاً لعمله ومركزه ومنصبه .. كل فرد ، اللهم إلا التافهون الذين يعيشون على هامش الحياة ، والخاملون الذين يقضون حياتهـــم كالتنابلة ، والأفاقون الانتهازيون الذين يعيشون على حساب الغير ! ..

الرجل مسؤول عن بيته ، وأسرته وأولاده، عليه أن يهيىء لهم سبل العيش الهادىء المستقر ، وعليه أن يحسن تربية أبنائه ويبذل لهم النصح والتوجيه والارشاد ، وعليه قبل ذلك أن يكون قدوة صالحة لهم .. فـلا يطالب أولاده بالاستقامة وهو المنحرف عن الطريق القويم . ولا ينصحهم بالصدق والامانـــة ويشتهر بغير ذلك .. ولا يحذرهم من الخمر والقمار ويعاقرها ويعربد ويقامر ! ..

والمرأة مسؤولة عن بيتها ، وعن استقراره وسعادته ، بتهيئة أسباب الراحة والهدوء والاقتصاد في النفقات، وبالبعد عن التفاهة في تقليد غيرها وتحميل رجلها مـا لا يطيق . وبالحرص على العناية بأولادها وسلامتهم وحسن تربيتهم. وبالابتعاد عن كل تصرف يثير الشك أو يدعو إلى الشبهة، فرأسمال المرأة ــ أو الفتاة عموماً ــ سمعتها النقية . مهما تجاهل الكثيرون ذلك واعتقدوا بعكسه !.

والتاجر مسؤول عن تنمية تجارته . والعامل مسؤول عن إتقان ما يصنع ، والطالب مسؤول عن المثابرة في تحصيل العلم ..

والحاكم مسؤول عن رعيته . ومسؤوليته تفوق مسؤوليات الجميع.. فعليه أن يحرص على أن ينال كل ذي حق حقه . وعليه أن يفرض العدل ويشيع الأمن والاستقرار في ربوع بلاده. وعليه أن يعين المظلوم ويساعد المحتاج ويرعى الضعيف .. وعليه أن يرسّخ القيم الأخلاقية ويعمل على تنمية الفضائل بين أفراد رعيته، فيثيب المجتهد المخلص ويقرّبه ويستعين به ، ويعاقب المسيء المتخاذل ويبعده ..

. . وإنها لمسؤولية عظمى ، لا يتحملها إلا المؤهلون لها ، بالأصل الكريم والتنشئة الصالحة ، وبالضمير الحي والنفس الصافية والعقل الراجح ، المتمتعون برضاء الله وتوفيقه ..

فهرست

الفصل الثالث

محمد بن عبد الرحمن آل سعود

الفصل الرابـع

من معارك الجهاد ، تضحية وبطولة وفداء

الفصل الخامس

الحدود .. والأسرةو السيف الأجرب

الفصل السادس

من تجارب الحياة العملية في السعودية

الفصل السابع

من تجارب الحياة العملية

في الكويت والبحرين والعراق

الفصل الثامن
من تجارب الحياة العملية
في سوريا والأردن وفلسطين ومصر

الفصل التاسع
من تجارب الحياة العملية
في لبنان

الفصل الثالث عشر

بين الماضي والحاضر

الخاتمــــة